ابراهيم الكوني

الخسوف 2

الواحة



ابراهيم الكوني

الخسوف

رباعية روائية

2

الواحة

طبعة مُقَوَّمة

الـــــواحة

استخدمت في تصميم الأغلفة لوحات فنَاني ما قبل التاريخ
المكتشفة بمنطقة تاسيلي . نآزجر (ليبيا).

* ابراهيم الكوني : **الخسوف** ٢ .
(الواحة).
* **الطبعة الثانية**، ١٩٩١ .

* **الناشر** : تاسيلي للنشر والاعلام   دار التنوير للطباعة والنشر.

133 Makarios Avenue
Classic House Building - Office No. 4
Tel.: (357 -5) 387463
Fax: (357 - 5) 387464
Limassol - Cyprus

«سأوصل راحتي يديَ بأيدي الآخرين الذين يقفون على يميني وعلى يساري وأحتل مكاني في الحلقة البشرية كي أعمل وأتألم، لأن الحدس يعلّمني: على هذا النسق فقط ستمتلىء هاوية الصمت بالأصوات. أنا أعرف ما هي هذه الهاوية؛ سأطرح الخوف الذي تنشره جانباً وأتخلص منها عندما تمتد حياتي حتى تنسكب في الآخرين. في هذا المستوى الذي أدركت فيه الحياة بالتجربة فقط أستطيع أن أنتصر على الصحراء وأحوّلها إلى واحة؛ إلى هذا الحد فحسب أستطيع أن أفسح دائرة وجودي وأوسع حدود مملكتي».

رالف إمرسون

« ... ولما علم أهل الصحراء بأمر الغزاة وقد احتشدوا خلف المرتفعات استعداداً لمهاجمتهم في اليوم التالي اقترح أهل العقل والحكمة اللجوء الى الحيلة، خاصة وأن جحافل الأعداء تفوقهم في العدد والعتاد، فتسللوا متسترين بظلام الليل وتدفقوا في الصحراء الأبدية تاركين خلفهم زنجية ترفع عقيرتها بالغناء، وزوجها يقرع الطبل لإثارة الضجيج، وطفلهما يشق السكون بالصراخ. أمّا الكلب فقد ظلّ ينبح طوال الليل، فأطمأن الغزاة وظنّوا أن أهل الصحراء ما زالوا مستقرين في الوادي المجاور. وعندما داهموا الموقع في الصباح اكتشفوا الحيلة وسلّموا بهزيمتهم وعادوا على أعقابهم تاركين الزنجية والزنجي وطفلهما وكلبهما في الوادي المهجور، العاري من الحياة. وقد هدّهم العطش حتى أشرفوا على الموت. وفجأة تفجر نبع من بين رجلي الطفل وغمر الوادي بالمياه الحلوة واستمر الماء يتدفق من النبع الذي أطلق عليه تجار القوافل فيما بعد اسم «عين الكرمة» التي يرجع لها الفضل في قيام أول واحة في الصحراء الكبرى يحج إليها الزوّار، وتعبرها القوافل الى تمبكتو والسودان وبلاد شنقيط وتامنغست».

(من أسطورة شعبية قديمة)

الخروج

شعر الشيخ غوما بالاشمئزاز وهو يراقب الطريقة التي يعد بها مرزوق الشاي، وكي يخنق اشمئزازه الذي بدأ يتحوّل إلى غثيان انتقل ببصره الى طابور النمل الذي استمرّ يتحرّك تحت الشمس وينهمر في طريق طويل. في مقدمة الطابور تجمعت فرقة تنهش جندباً ميتاً وتتعاون على حمله في عناد أثار إعجاب الشيخ غوما. ولكن مرزوق حرمه من هذه المتعة أيضاً عندما هوى على فرقة النمل ببصقة كبيرة من تبغ «المضغة» الذي يملأ فمه ثم قال دون أن يتوقف عن خلط الشاي ودون أن يلحظ امتعاض الشيخ غوما أيضاً:

ـ أخشى أننا سنحتاج الى شراء حمار آخر.

رفع الشيخ غوما حاجبيه ورمقه بنظرة صارمة. ثم سحب لثامه وأحكمه حول أنفه حتى غطّى عينيه ورفع رأسه يراقب قمم الكثبان الرملية الممتدة في شكل دائري حول الجهة الجنوبية الشرقية من الواحة وهي تتراقص وتغرق في ألسنة السراب. لم يعلّق بكلمة.

أما مرزوق فقد مسح العرق المتدفق من جبينه بطرف جلبابه الواسع الأكمام وانهمك بخلط الشاي بين الوعائين الكبيرين لاستجلاب الرغوة. الشاي استمرّ يندلق على جانبي الوعاء وعلى الطبق النحاسي، ورذاذ الرغوة يتناثر ويتساقط فوق الطبق تارة، وعلى أعواد الحطب بجوار النار تارة أخرى. وكان مرزوق يمضغ التبغ ويميل يميناً ويساراً ليبصق اللعاب الرمادي دون أن تتوقف يداه عن خلط الشاي مما أثار اشمئزاز الشيخ غوما.

اشتعلت الرمال بأشعة شمس صيف قاس وضجت أحراش النخيل المجاورة

بهديل الحمام البرّي قبل أن يكرر مرزوق وهو يحدج الشيخ بنظرة خاطفة ليرى تأثير كلامه عليه:

ـ أقول يلزمنا حمار ثالث لأن الأرض عطشى، واستصلاح المساحات الرملية اللازمة لزرع البرسيم والقصب والشعير تحتاج الى مياه غزيرة كما تعلم يا سيدنا الشيخ...

رفع الكأس الصغير إلى شفتيه ليتذوق طعم الشاي ويختبر كمية السكر، تمطّى بشفتيه وركن الوعاء فوق الجمر المتوهج وعاد يقول منكس الرأس:

ـ وري هذه المساحات بالمياه الكافية يستدعي السرعة قبل بداية الموسم. والعمل بحمارين بطيء، ولإنجاز العمل يلزمني نهار ونصف بدل النهار الواحد والوقت لا يرحم يا سيدنا الشيخ.

قال الشيخ في تأفف:

ـ لم يمض شهر منذ اشترينا الحمار الثاني.

ـ هذا صحيح. تقديراتي لم تكن صائبة. اعتقدت أن الحمار الثاني سيحل المشكلة، ولكن الأرض صعبة وعطشى منذ زمن طويل، والري لا يجب أن يتوقف إذا شئنا أن نلحق ونزرعها في موسم هذا العام. الآن أقوم بسحب الماء من البئر بحمار واحد حتى إذا تعب استبدلته بالحمار الثاني. ولكن السحب بحمار واحد بطيء كما قلت. لقد رأيت أن نشتري الحمار الثالث لكي نتمكن من سحب الماء بحمارين في وقت واحد على أن يستبدل أحدهما بالحمار الثالث طوال الوقت. وبذلك نضمن راحة الدابة والسرعة في إنجاز العمل.

نزع وعاء الشاي من الجمر بيدين مرتعشتين وبدأ يصب الشاي الأخضر في الكأس الصغير في خيط طويل.

لاحظ الشيخ غوما الرعشة في يديه فعرف سبب اندلاق الشاي طوال الوقت على حواف الوعاء وفوق الطبق وحول النار.

نهض الشيخ فجأة وانتعل مداس «التمبا»[1] وانطلق باتجاه أحراش النخيل. لم يرد على تساؤل مرزوق وهو يردد خلفه:

ـ الشاي! لم تشرب الشاي! ماذا أفعل بالشاي؟!

* * *

في البداية لزم الطريق ومشى شمالاً حيث تتناثر المضارب وتنتشر أكواخ القبيلة ولكنه انحرف يميناً وسار بمحاذاة شريط الكثبان الرملية التي تلتف على الواحة من ثلاث جهات مشكّلة طوقاً ذهبياً تلمع قممه بالسراب وأحياناً بسحب

الغبار. انتصف النهار وسبحت الدنيا في أنهار اللهب. شقّ طريقه بصعوبة وهو ينزع نعليه من الرمال الرامضة الرخوة بصعوبة. طوال الطريق تتناثر أشجار النخيل الباسقة ذات الجذوع الرقيقة التي ذكرته في تلك اللحظة بسيقان المهاري المدرّبة على العدو. سيقان طويلة و... رشيقة كقدود الحسان. هاجمته الذكريات فاستسلم للنشوة الممتعة التي تثيرها أحداث الماضي البعيد. الماضي الذي سبق جفاف البئر واللجوء الى الواحة عندما اضطرته الصحراء القاسية الى الهجرة ودفعت به ـ مرغماً ـ الى هذا المنفى الوحشي.

لقد مضت خمس سنوات منذ نزل الواحة بقبيلته ولكن الشعور بالاستقرار لم يعرف السبيل الى نفسه حتى الآن وهو الذي تعوّد أن يشعر بالاستقرار في الترحال والتنقل في الخلاء. ربما لهذا السبب ما يزال متشبثاً بالحياة داخل تلك الخيمة المنسوجة من وبر الجمال التي ينصبها بجوار كوخ الزنجية العجوز ويأوي إليها مرة فى القيلولة ليحتمي بها من جحيم الشمس ومرة مع حلول الليل.

كل أفراد القبيلة استبدلوا ـ مع الوقت ـ الأكواخ بالخيم في مدد متفاوتة. منهم من بادر ومنهم من تمهّل، منهم من بكّر ومنهم من تأخر. ولكن أكواخ الجريد كست السهل الذي يتوسط الواحة في النهاية. وكان الشيخ آهر آخر من استبدل كوخ الجريد بخيمة الشعر في العام الماضي عندما يئس من العودة إلى الصحراء وأيقن أن حياة الواحة ستطول ولن تنتهي في الوقت القريب.

لقد برر هذا القرار المفاجىء بقوله: «الخيمة ليست عمليّة في الواحة. الرياح تطيح بها كل مرة. لقد تعبت من مقاومة الرياح بالخيمة». ولكن الشيخ غوما قرأ في عينيه رأياً آخر. فكر غوما بأن آهر يتهرّب من أن يقول: «طالما استقرارنا سيطول فلا مفرّ من استبدال الكوخ بالخيمة. لا يبدو أننا سنعود الى الصحراء في الزمن القريب». لقد ترجم الشيخ غوما لنفسه نظرة الشيخ آهر عندما هرب ببصره الى الناحية الأخرى، وتحاشى بذلك ألا تلتقي عيونهما مخافة أن يكتشف السرّ ويقرأ فيهما الحقيقة.

ولكن هو استمرّ متشبثاً بالخيمة. ليس لأنه يرى فيها آخر خيط يربطه بالصحراء ولكن لأن النوم يهجر عينيه عندما ينام تحت سقف ويحل محلّه الأرق والسهّر. حتى في الزمان القديم عندما لجأ الى الواحات باحثاً عن نفسه بين دفوف دراويش الطرق الصوفية كان هذا الأرق الوحشي يراوده كلما نام بين الجدران تحت السقف. وكان كثيراً ما يضطر لأن يزحف في قلب الليل هرباً من الجدران والبيوت المسقوفة ويستلقي في الخلاء تحت السماء العارية الصافية المرصعة

بالنجوم.

وبرغم أن الكثيرين يرددون خرافات باطلة عن ضرر النوم في العراء مدعين أنه المكان المفضّل الذي تسكنه الأشباح وتأوي إليه الأرواح الشريرة خاصة في الليالي المقمرة، إلاّ أن شيخ الطريقة شجّعه قائلاً: « إعلم أن أولئك الذين يأوون الى رحاب الطبيعة ويتدثرون بالسماء هم أقرب الى السماء. فالجأ إلى أحضان الطبيعة تجد نفسك بين يدي الله ».

ولكن القدر طرده من الصحراء ودفع به الى الواحات. وها هو يقاوم استبدال الكوخ بالخيمة. ومن يدري، فربما اضطر في المستقبل لأن يزحف الى الأمام. إلى البلدة، فيستبدل جدران الطين التي يحتمي بها أهل الواحة بالكوخ. الزمن لا أمان له. لقد صدقوا عندما قالوا ان الملتحف بالأيام عريان!

مرتفع رملي رامض نزل ومشى بين الأحراش حتى بلغ عين الكرمة. انتصف النهار وقطعت الشمس نصف المسافة في مسيرتها اليومية الخالدة نحو الغروب، وسلّطت أشعتها النارية على رؤوس الكائنات، فلمع السراب على الرمال وتسكع اللهب على الأرض، فتدفق العرق على الجباه، وتراكض البشر والدواب والحشرات بحثاً عن الظلّ، هرباً من سياط الصهد. في ذلك الوقت من كل يوم، في فصل الصيف، تستلقي الواحة وتهجع في استرخاء. تهمد الحركة، ويغرق كل شيء في الصمت.

وبرغم حلول موعد الموت في الواحة إلاّ أن الشيخ غوما سمع أصوات الأولاد يتصايحون ويتشاتمون ويتقافزون في ماء عين الكرمة. أنصت لحظات ثم اقترب من العين. حول العين تلتف أشجار التين والرمان والكروم وأنواع نادرة من النخيل التي تثمر تموراً فاخرة. تلتف الأشجار حول العين في حزام دائري أخضر كالإكليل. وفي قلب الدائرة تطفح العين بالمياه الساكنة الخضراء المتغيرة باستمرار، حيث يطلق سراح المياه من فتحة مغلقة بصخرة وكتل من الليف والخرق كل صباح الى ساقية تنحدر بالمياه الى الجداول والحقول التي تنتشر بين غابات النخيل وحول الأشجار الواطئة التي ما زالت أعرافها الكثيفة تتقوّس وتنحني وتلامس الأرض المشبعة بالرطوبة والمياه. تقدّم خطوات أخرى حتى رأى غلاماً عارياً يقف على حافة العين يصرخ لزميله، في الطرف الآخر، بكلمات بذيئة. لقد أصبحت تفصل بينه وبين الغلام شجرة تين ضخمة. أطلق الغلام أصواتاً حادّة وصرخ بأعلى صوته قبل أن يقفز الى العين محدثاً ضجيجاً أثاره سقوط جسمه الفوضوي في الماء. لحظتها رأى بوضوح آثار السوط المحفورة على ظهره فعرف أن الغلام الشقي لم يكن سوى

آيس!

استغرب في البداية من أين يأتي الأطفال بالسباب والألفاظ البذيئة ولكنه عندما عرف أن الطفل لم يكن سوى آيس انقبض قلبه وقال في نفسه: «ليس غريباً أن يتعلم آيس الألفاظ البذيئة طالما سمح لنفسه أن يتزوج تلك المرأة الوحشيّة. لقد ضاع إلى الأبد».

وقف خلف الجذع لحظات محاذراً أن يلحظه الأطفال. ثم سار عبر غابة النخيل حتى الطريق الشمالي الذي يمر عبر أحراش الديس ويفضي الى أكواخ القبيلة. ولكنه عرّج يميناً في الطريق الذي تظلله الأشجار ويعبق بالرطوبة والنسيم المنعش حتى بلغ نخلة باسقة كثيفة الأغصان. استلقى في ظلها وسحب اللثام على عينه مقرراً أن يقضي القيلولة.

ولكنه لم يستطع أن يغفو. تذكّر باتا. لقد عادت «ابنة الشيطان» من منفاها في «آير» خصيصاً كي تقهره وتنتزع من بين يديه آيس. إنه يعرف.. إنه يعرفها جيداً. امرأة لا تستسلم بسهولة. امرأة من الصعب أن تعترف بالهزيمة. لقد دفعها إلى المنفى دون أن يتخذ التدابير اللازمة. عليه أن يعترف الآن أنه أهمل واسترخى في معركته معها. نسي ـ في غمرة انشغاله بالأحداث المتلاحقة التي أعقبت حرب غات ـ أن يعطي المعركة مع باتا حجمها الحقيقي ويقدّرها حق قدرها. المعركة معها لا تقل شراسة عن الحرب مع الفرنسيس. كان عليه أن يكاتب سلطان «آير» بشأنها ليتدبر الحيلولة دون عودتها.

ولكنه سها ونسي فظلّت ـ طوال السنوات الماضية ـ تتحين الفرصة، وترسم الخطط وتبيّت الشرّ حتى إذا جاءت اللحظة المناسبة اقتفت أثره كالأفعى الجريحة ونزلت الواحة كالقدر لتنقض عليه ولتوجه له الضربة القاصمة وتتزوج آيس! لم يكفها أنها دفنت أمغار هناك ـ كما دفنت غيره من أزواجها وعشاقها السابقين ـ بعد أن مات متأثراً بطعنة قاتلة من مدية مسمومة تلقاها عندما كان يصدّ هجوماً مباغتاً شنّته القبائل الزنجية على الضفة الجنوبية من نهر آير كما ادّعت في قصتها. ومن حسن حظها أنها عندما نزلت الواحة كانت أم أمغار قد توفيت متأثرة بحزنها على زوجها وولديها. ولو كانت تلك المرأة المناضلة على قيد الحياة لمزقتها إرباً إرباً كما مزقت تانيس ضرّتها الشريرة[٢]. ولكن باتا دائماً محظوظة وكأن حليفها الشيطان يتدبر أمورها، يسبقها أينما حلّت ليمهّد لها الطريق وليهيىء أمامها كل شيء.

يذكر الآن كيف تشاجر مع آيس بعد أن افتضح أمره واكتشفت الزنجية

العجوز هروبه المتكرر من المدرسة. في البداية أخفت عنه الحقيقة ولم تخبره بأمر زياراته لباتا إلاّ بعد أن فوجيء بالشيخ آهر - في جلسة احدى العشيات التقليدية حول مائدة الشاي الصيني الأخضر - يميل نحوه بكل جسمه ويهمس في أذنه:

- الناس لا يكفّون عن ترديد الشائعات.

رفع غوما حاجبيه مستفهماً فأضاف آهر وهو يحافظ على نفس وضع جسمه المائل نحوه:

- يقولون ان آيس يقضي الوقت الذي يجب أن يصرفه في المدرسة في بيت باتا، فهل هذا صحيح؟.

ومض استنكار طاريء في عيني الشيخ غوما ولكنه أخفى عينيه بلثامه المخطط ورفع رأسه دون أن ينطق بتعليق.

ولكن آهر عاد يقول وفي صوته رنة اعتذار ربما ليخفف من وقع الخبر على الشيخ غوما:

- هكذا يقولون. لقد رأيت أن أحيطك علماً بالشائعات التي تمزّق سمعتك يا شيخنا. سمعتك سمعتنا كما تعلم.

شعر بالحرج فاستنجد، ببصره، بالشيخ خليل الذي ظلّ يخطط الأرض بسبابته ويسترق النظر إليهما بين حين وآخر دون أن يشارك في حديثهما الهامس.

فوجيء الشيخ غوما ولكنه جاهد واستطاع أن يكتم انفعاله. قال بهدوء:

- حاول ألاّ تعير اهتماماً كبيراً لما يقوله الناس. إنهم ميّالون - بطبيعتهم - إلى تقطيع لحم الآخرين.

ولكنه لم يتورع عن أن يقفز بمجرد انتهاء طقوس الشاي الأخضر ويتجه من فوره إلى كوخ زنجيته العجوز. وجدها تجلس في ظل الكوخ، منهمكة في رتق ثوب قديم مكوّم في حجرها. تنحني إلى الأمام وتلضم الخيط في ثقب الإبرة حتى تكاد في انحنائها - تلامس الإبرة بشفتيها. لقد أصبحت تشكو في السنوات الأخيرة من ضعف النظر وثقل السمع. وقد لاحظ الشيخ - الذي وقف فوق رأسها دون أن يلقي بالتحية أو ينبس بكلمة - كيف تسدد ليديها الخشنتين المتشققتين وخزات أليمة من الإبرة، فتنتفض في حركة مباغتة مع كل وخزة وتصدر أنيناً مكتوماً وأحياناً شهقة عميقة دون أن تكف أصابعها عن الحركة والعمل. وقف يراقبها ويتابع حركات يديها ويتأمل وجهها الذي غزته تجاعيد عميقة، وشعرها المجعّد الذي تطل خصلاته من تحت اللحاف الأسود غزاه الشيب والعجز. شعر نحوها

بشفقة عميقة أذابت كل كتل الغيظ التي شحنه بها كلام الشيخ آهر. الشفقة أعقبها حزن مفاجىء لأنه رأى في تلك اللحظة أن سعادته بوجودها معه لن تطول. الشيخوخة تقترب، والزمن يهزم أقوى المخلوقات. أحس بالعجز والفراغ والوحدة لمجرد شعوره بأنها ستموت. استغرب أنه لم يقرأ لغيابها حساباً وهو الذي وجدها أمامه منذ فتح عينيه على الحياة فاعتقد ـ بالتعوّد ـ أنها خالدة ووجودها معه أبدي. فلم يحدث أن سأل نفسه يوماً ـ في الماضي ـ ماذا سيفعل عندما ستغيب، لأنه أدرك في هذه اللحظة الصوفية أن الفراق آت ـ مهما طال ـ بل وربما قريب. سنوات تعد على أصابع اليدين. فأدهشه أن يؤخذ فيها على حين غرّة وهو الذي تعوّد أن يقرأ الحسابات ويضع الخطط ويستعد لتلقي المفاجآت التي يخفيها المستقبل. وها هي تجلس مكوّمة في ظل الكوخ مثل قطعة القماش الملقاة في حجرها التي تنشغل برتقها. لقد تضاءلت، وجردها الزمن من اللحم والشحم حتى أصبحت جلداً على عظم، صغيرة، في حجم طفل. وبرغم ذلك لم يسمع من شفتيها طوال السنين الطويلة الماضية كلمة شكوى. تستيقظ في الفجر، تتوضأ وتصلي وتوقد النار. تحضر الشاي والإفطار وتذهب لجلب الحطب. تشرف على إطعام المواشي والدواب وتحلب الحليب، وتقوم بمخضه واستخراج الزبد والجبن وتصنع اللبن. تعد الغداء والعشاء وتغسل الملابس.

أشرفت على تربية الأجيال. كان آخرهم آيس. بعد هذا الحمل الثقيل الذي حملته على ظهرها الصبور طوال هذا الزمن جاء الآن ليعاركها ويقرّعها على إهمالها في تربية الشقي آيس. فهل هذا عدل؟

تذكر أنه لم يلق عليها التحية حتى. قال في نفسه: «الحمد لله لم تحس بوجودي» إفتعل السعال وقال:

ـ السلام عليكم.

قفزت من جلستها الوادعة فسقط الثوب على الأرض. سارعت تتمتم:

ـ وعليكم السلام يا سيدنا الشيخ.

سارعت إلى الداخل في خطوات نشطة لا تتناسب مع شيخوختها وضعف بدنها الذي لاحظه منذ لحظات.

عادت بكليم قديم بهتت خطوطه وذابت خيوطه، افترشته على الأرض وسألت في صوت خافت كالهمس وهي تطاطىء رأسها أمامه:

ـ سوف أعد الشاي. أخضر أم أحمر؟

قال وهو يتقرفص على الكليم المخطط بمربعات وتقاطعات بديعة:

ـ أحمر، أفضّل أن يكون أحمر خفيفاً. لقد شربت الأخضر مع الجماعة منذ قليل.

فرحت بمجيئه إلى كوخها. تفرح دائماً عندما يزورها في بيتها. المسكينة. إنها ترى ذلك شرفاً كبيراً لها. وقد شغلته هموم الدنيا بعد اللجوء الى الواحة فندرت زياراته لها عكس سنوات الإقامة في الصحراء. قلّت زياراته لها وحتى إذا حدث ومرّ عليها في طريقه إلى خيمته المنصوبة بجوار كوخها، فإنه لا يمر إلاّ وهو واقف.

يلقي بالتحية ويسألها عن أحوالها وأحوال آيس وينصرف. ولذلك فهي لا تحاول أن تخفي فرحها عندما ترى أنه جاء كي يخصّها بزيارة حقيقية ويبادلها الأحاديث، فتركض هنا وتجري هناك، توقد النار وتأتي بالتمر أو الحليب أو كليهما معاً.

في هذه اللحظة فقط قرر الشيخ غوما أن يؤجل حديثه الكئيب معها ويطيل سعادتها فتقرفص وقرر أن يشرف على تحضير الشاي بنفسه، ثم أزاح اللثام قليلاً عن فمه بحيث يكشف عن أسنانه فأطلت لحيته الفضية من تحت اللثام أيضاً. ابتسم لها ابتسامة كبيرة وهي تناوله عدّة الشاي.

خطر له أن يلقي لها بنكتة تلطف الجوّ وترطب التوتر، ولكن مزاجه لم يكن رائقاً بالقدر الذي يسمح بالفكاهة فبادر ـ كما تعوّد أن يفعل دائماً عندما لا يجد مدخلاً موفقاً للحديث ـ يتحدث بحماس عن الطقس وتقلّبات الجو في الواحة.

حاول أن يطفىء الجمرة التي وضعها آهر في صدره ولكنها ظلّت تحرق قلبه ثلاثة أيام. لم يحتمل أكثر فجاءها وقال لها وهو يقف في مدخل الكوخ ويحيط خاصرتيه بيديه:

ـ لقد عهدت لك بآيس وبتربية آيس. قلت لك من زمان أنني لا أملك سواه في الدنيا فماذا فعلت بالأمانة؟

بدأت تبكي فأضاف بقسوة:

ـ إنه يتردد على بيت باتا فهل صحيح ما يقال؟

غرقت في دموعها في حين استمرّ برغم الألم الذي اعتصر قلبه تعاطفاً مع آلامها:

ـ ضاع آيس وأخفيت عني الحقيقة فلماذا فعلت ذلك؟ لماذا لم تخبريني في الوقت المناسب؟

ظلّ جسمها الضئيل ينتفض بعنف وهي تجهش في البكاء. غرقت في النوبة

تماماً فعرف أنها لا ترى ولا تسمع ولا تعي.

صمت وتعلق بالأفق حيث يتدلى قرص الشمس الأحمر في لحظة الغروب بعد نهار تنفس الصهد وجعل المياه تغلي في عين الكرمة والبلح ينضج في عراجين النخيل إيذاناً ببداية موسم جني الرطب وجمع التمور.

استمرّت تنشج وهي واقفة أمامه بقامتها القصيرة وعودها النحيل ولكنه ظلّ يجاهد ـ هذه المرة ـ كي يخنق في نفسه صوت الرحمة. أضاف:

ـ اعترفي بأنك أهملت. اعترفي!

احتجت من بين دموعها:

ـ لا. يعلم الله. لا.

غضبه يتصاعد:

ـ ... سلّمته لتلك المرأة الجهنمية دون مقاومة. بيديك.. طائعة..

ندّت عنها شهقة عميقة أليمة ولكنه لم يرحمها. علا صوته:

ـ أنت عيني الساهرة عليه! أنت أمّه أنت أبوه! فكيف حدث ما حدث!

دافعت عن نفسها:

ـ قاومت. يعلم الله. لم أبخل بالحيلة ولكنها أقوى مني. ابنة الشيطان. سحرته. إنها تمارس السحر. تلقت الدروس على أيدي أهل آير الذين لا يجارون في السحر. يقال انها تتعامل مع العجوز مهمدو في المغارة.

قاطعها بشراسة:

ـ دعي العجوز مهمدو وشأنه. لا تبرري أخطاءك! هذا لا يعفيك من المسؤولية. أنت تعرفين من زمان أية امرأة هي. لقد حاولت الإستيلاء عليه في المرة الماضية قبل هجرتها إلى آير آخر مرّة وأنت تعرفين أنها لن تستسلم بسهولة فكيف استغفلتك بعد عودتها؟

في تلك اللحظة أقبل آيس وهو يتأبط حقيبته الجلدية ووقف يراقب الموقف من بعيد. رآه الشيخ غوما فأقبل نحوه مهدداً بسبابته:

ـ لقد حذرتك. نبهتك أن تبتعد عن تلك المرأة الوحشية.. لقد.. كذبت عليّ... تغيب في بيتها وتدّعي أنك تذهب إلى المدرسة.

قال آيس بهدوء أثار الشيخ غوما أكثر:

ـ يؤسفني يا «أبي» إنني لن أستطيع أن أنفّذ ما أردت. إنني أحبها وسوف أتزوجها! لقد اتفقنا على الزواج على سنة الله ورسوله!

صرخ الشيخ بوحشية:

ـ تقول على سنّة الله ورسوله؟ أي إله وأي رسول يا مجرم!

تقدّم خطوات. ثم توقف فجأة. كان واضحاً انه فقد السيطرة على نفسه ولم يعد يعرف ماذا يفعل. التفت نحو العجوز التي بدأت ترتعد وأسنانها تصطك بشدّة، عيناها محمرتان تطفحان بالخوف والهلع. تتنقّل بينهما بعينيها.

قال غوما بصوت مخنوق حاول أن يكون هادئاً:

ـ تعال معي!

لم يتحرّك آيس فخانه الإنفعال وكرر بوحشية:

ـ يجب أن تأتي معي! تعال معي الآن!

تحرّك آيس نحوه. تحركا معاً باتجاه الخيمة السوداء. تبعتهما العجوز في خطوات مترددة متعثرة دون أن تتوقف عن البكاء. دخل غوما الخيمة وانتظره آيس. توقفت العجوز على مسافة خطوات. خرج الشيخ بعد لحظات وفي يده السوط. لسع جسد آيس فتمزّق القميص. رفع غوما يده بالضربة الثانية فسقطت الحقيبة من بين يديه وانبثق الدم. صرخت العجوز ولكن آيس لم يصرخ ولم يحتج. انهال على ظهره بلسعات سريعة متتابعة حتى خرّ الغلام على الأرض وظل راكعاً على ركبتيه، يصرّ على أسنانه، ويعض لسانه مع كل ضربة يهوي بها غوما على ظهره العاري. بدأت الدماء تتناثر على الأرض. جاءت العجوز تجري حتى ارتمت تحت قدمي الشيخ الذي استمرّ يزاول عمله في وحشية. احتوت ركبتيه بذراعيها وتوسلّت:

ـ يكفي. يكفي يا سيدنا الشيخ. سوف تقتله.

ولكن غوما استمرّ يجلد الطفل الذي شحب وجهه، وانبثق الدم من شفته السفلى التي أطبق عليها بأسنانه.

عادت العجوز تتضرع:

ـ سوف تقتله. إنه لحمك ودمك. إنه ابني. ألم تقل انه ابني منذ قليل؟ يكفي! أنت تقطع قلبي يا سيدنا.

حاولت أن تنتزع السوط من بين يديه، ولكن قامتها القصيرة لم تسمح بإدراك يد الشيخ فسقطت على الأرض وبدأت تتمرغ في التراب وهي تولول.

لحظتها وصل الشيخ آهر راكضاً. كان يلهث وعلى بعد خطوات منه يهرول الشيخ خليل. حاول آهر أن يتلقف السوط من يدي غوما ولكنه أفلت من بين أصابعه ففقد توازنه وترنح وكاد يسقط على الأرض. تجمع الشباب بعماماتهم الكبيرة البيضاء ولكن أحداً منهم لم يجرؤ على الاقتراب أو التدخل فوقفوا

يتفرجون في صف يشكل نصف دائرة حول غوما حيث تدور المعركة. أما الشيخ خليل فتسلل إلى غوما من الخلف، واحتوى منكبيه بذراعيه فعجز غوما عن تحريك يديه. لحظتها قفز آهر وتشبث بطرف السوط الآخر.

قال آهر وأنفاسه تتلاحق:

ـ هل فقدت صوابك؟ لقد فقدت صوابك! هذا لا يليق يا شيخ غوما.

سارعت العجوز تعتني بالجريح وتلفّه بلحافها، أقبل ثلاثة من الشباب لمساعدتها في حمله الى الكوخ، في حين انشغل آهر بتهدئة الشيخ غوما الهائج. أمّا الشيخ خليل فقد تناول السوط الذي تقطر منه الدماء وشرع يتأمله بفضول: مصنوع من جلد الجمل، مفتول بعناية، يتفرّع في نهايته الى لسانين نهمين، ناعم الملمس ممّا يجعل شراسته عظيمة ويؤكد تعطشه لسفك الدماء! لقد صنع بدقة وفن لصرع الوحوش. لسلخ الجياد أو تمزيق جلود الجمال الهائجة فكيف سمح الشيخ غوما لنفسه بأن يمزّق به جسد طفل؟

هكذا فكّر الشيخ خليل وهو يقلّب السوط المفترس بين يديه.

* * *

من يجرؤ ـ بعد كل هذا ـ أن يسمح لنفسه ويدّعي أن آيس لم يتحمّل العقاب بشجاعة ويكفّر برجولة عن اثمه في الارتباط المزمع مع باتا؟ وها هو يقضي الأسبوع الرابع راقداً على بطنه و« أمه » الزنجية لا تكف عن دهن ظهره المسلوخ بلسعات السوط الشرس، بالزيوت والمراهم والأعشاب البريّة. تمارس هذا العمل في نشاط وبيدين متشققتين، مرتعشتين، حنونتين. الأصابع أنفسها واليدان اللتان تعودتا أن تدلقا على رأسه جردل الماء البارد فجر كل يوم. وكلّما تذكر ايس لسعات الماء البارد في الصباح حمد الله على المرض الذي أنقذه من العذاب وازداد يقيناً أن لسعات السوط مهما كانت وحشية هي أهون من لسعات ماء الصباح الباكر المثلّج. الآن فقط ـ بعد أن فصلته مسافة أسابيع عن الحادثة ـ يستطيع أن يصطاد تلك اللحظة الغامضة التي أحس بها تدفعه لأن يقتفي أثر الشيخ غوما وينال على يديه العقاب. فقد قرر بينه وبين نفسه قبلها بقليل أن يقترن بباتا على سنة الله ورسوله. وعرف أن ذلك إثم لن يغفره له أحد. لن يغفره غوما، ولا العجوز ولا آهر ولا أحد من أفراد القبيلة. إثم لا بد أن يكفر عنه بشيء كبير. بألم كبير. بل انه أحس بالرغبة في أن ينال هذا الألم في أسرع وقت ممكن. إنه يريد أن ينتزع الألم الذي يملأ قلبه في تلك اللحظة، ألم لأنه يسبب الألم لـ« أبيه »، وألم لأنه يسبب الألم لـ« خالته »، ألم لأنه يسبب الألم للقبيلة كلها. ألم ناتج عن

شعوره بأن ما يفعله سوف يسبب لهم الألم جميعاً. ولذلك غمرته سعادة خفية عندما دعاه الشيخ لتناول العقاب فسار خلفه في استسلام.

إنقاد للسوط كما تنقاد الفراشة للضوء، مخدّراً، مسلوب الإرادة، منتظراً - بفارغ الصبر - تلك اللحظة التي تنتزع فيها ألسنة السوط الشرسة المتعطشة للدماء جذور الألم الوحشي الذي يتشبث بقلبه ويعربد - بقسوة - في صدره. كان يرى الخلاص في السوط.

ربما لهذا السبب لم يحس - على الأقل عند تلقي الضربات الأولى - بأي ألم. بل غمره شعور لذيذ غامض لم يعرف له تفسيراً. شعور يشبه ذلك الإحساس الذي يعقب تسديد الكرة في مرمى الفريق المنافس. وقد أدهشه هذا الشعور المفاجىء وتمنى أن يستمر إلى الأبد لأنه خمّن أن التكفير عن الإثم لا بد أن يكون مثل هذا الشعور.

«إذن لقد تحررت».

هكذا قال في نفسه وهو يتلقى السوط الذي يلتهم جسده، وينهش لحمه، ويلعق دمه مثل الوحش.

في نهاية الأسبوع السابع نهض على قدميه ولملم ملابسه في صرّة كبيرة، وتأبط حقيبته ويمم صوب بيت باتا.

كانت الشمس قد أشرقت للتو. لم ير القرص نفسه ولكنه رأى أشعتها القاسية مسلّطة على رأس القلعة التي تتوسط بيوت الطين. الأشعة الحمراء مسلطة على قمة القلعة. على المغارة التي يسكنها العرّاف مهمدو.

الشمس دائماً تشرق فوق المغارة بالضبط. وتظل مختفية خلفها مدة طويلة قبل أن تطل بقرصها الأصلع الأحمر العاري لتوزع أشعتها النارية - بعدالة - على مناطق الواحة الجنوبية التي تتأخر في نيل نصيبها من أشعة الصباح عكس المناطق الشرقية والشمالية التي تتلقى الشعاعات المبكرة، الأولى التي يحجبها الجبل - زمناً - عن السهول والغابات الجنوبية من الواحة.

ولكن شروق الشمس واختفاء القرص خلف المرتفع هي من اللحظات الساحرة في الواحة. آيس يعشق هذه اللحظات التي تثير في نفسه إحساساً خفياً بجمال كئيب. الواحة في تلك اللحظات تبدو أكثر جمالاً وسحراً وغموضاً، وكثيراً ما يقف على ربوة في الطريق إلى المدرسة ويتأمل قمم الكثبان الرملية الجنوبية الموحشة وهي تستقبل أشعة الشمس. فتلمع بالوميض، ويراقب الظلال وهي تتقهقر وتتراجع وتختفي لتحل محلها الأشعة الرحيمة التي لا تجلب اللهب أبداً في

مثل هذا الوقت من النهار.

في ذلك اليوم أيضاً، عندما خرج من البيت، كان الشروق قد اتخذ هذا الوضع الساحر الحزين، ومرّ بهذه اللحظة الزمنية التي تومض كالبرق الخاطف وتختفي برغم أنه يتمنى دائماً أن تسود وتستمر إلى الأبد.

في ذلك اليوم مشت خلفه الزنجية العجوز، تتضرع وتتوسّل وتحاول أن ترغمه على التراجع وتردّه عن قراره. يلتفت فيراها تمشي خلفه مقوسة الظهر، تحرّك يديها في الهواء، وتتكلم ولكنها لم تكن تبكي. خلفها - من بعيد - رأى الشيخ يقف - أمام مدخل خيمته السوداء - صامتاً، جليلاً، مصالباً يديه حول صدره، ويبدو في ذلك الصباح الباكر، بعمامته الكبيرة الزرقاء مهيباً كالمارد. ظلّ صامتاً، جامداً، في وقفته، طوال الوقت، كأنه صخرة.

عندما قطع آيس مسافة طويلة في العراء واقترب من بيت باتا غاب الشيخ عن الأنظار، توقفت العجوز عن تعقبه، ولكنها لم تعد مباشرة: استمرّت تتابعه ببصرها دون أن تكف عن الهمهمة بالكلام الذي لم يعد يتبينه نظراً لبعد المسافة. همهمة خافتة مكتومة كأنها ليست موجهة له.. كأنها تسابيح الصباح أو تراتيل القرآن الموجهة للّه وحده. وكأنها فقدت الأمل في أن تردّه إلى صوابه فوجهت توسلاتها للسماء. ظلّت واقفة حتى غاب داخل الكوخ.

لحظتها فقط سمعها ترفع صوتها عالياً بدعاء قاس موجع: «اذهب يا آيس. فليس أمامك إلاّ الضياع!».

* *

قبل أن تتخذ باتا التدابير اللازمة لإقامة حفل العرس وترتيب مهرجان الزفاف بأيام قليلة علم الشيخ غوما بزيارة آهر السرّية الفاشلة إلى باتا. لم يعلم غوما بذلك من شفتي آهر على أي حال، ولكن الشيخ خليل هو الذي همس له بأمر تلك الزيارة الليلية الخفية التي تتناقل الألسن في القبيلة أطرافاً منها الآن، وتخمّن الرؤوس وتلفّق أطرافها الأخرى التي ربما حدثت وربما لم تحدث على الإطلاق. المهم أن آهر لم يبح لغوما بالأمر، ربما لأنه لا يريد أن يعترف بهزيمته في تلك المهمة الحرجة التي حاول فيها بكل إخلاص أن يثنيباتا عن عزمها على الزواج من آيس. ويقيناً أن آهر - بنواياه الطيبة - قد أخطأ في زيارته تلك. والخطأ هنا ناجم عن خطأ آخر في تصوراته حول باتا نفسها وتقديراته الخاطئة لشخصيتها وطبيعتها التي لم يعرفها يوماً. ولو كان آهر يتمتع بقليل من الحكمة واستشاره في أمر ذلك اللقاء لاقترح عليه أن يتراجع ولعمل كل ما في وسعه كي يثنيه عن

عزمه. ولكن آهر آثر أن يعتمد على نفسه وقرر وتحرّك لتنفيذ قراره منفرداً فتحولت المبادرة إلى فضيحة ترددها أفواه الناس وتلوكها ألسن الفضوليين ليس بين أفراد القبيلة وحدها ولكنه وجد أصداءها تتردد في الواحة كلها. وقد أيقن غوما بذلك وخامره القلق بعد أن سمع تلميحاً من عبد الجليل الجاروف شيخ الواحة حول الحادثة.

والقصة تتلخص فيما يلي: تألم الشيخ آهر - كما تألم غيره من أفراد القبيلة - للخلاف الذي نشب بين الشيخ غوما وحفيده، خاصة بعد خروج آيس من البيت ولجوئه الى بيت باتا. وبعد أن رددت الشائعات نية باتا في الزواج من آيس - وهو غلام لم يتجاوز الخامسة عشرة - اتخذ قراره أن يقوم بزيارتها ويحاول أن يثنيها عن عزمها. وقد اعتمد آهر في مهمته على زعم قديم يتناقله الناس في القبيلة مفاده أن باتا قريبته من ناحية الأم. قرابة بعيدة وربما عارية عن الصحة ولكن آهر رأى أنها مفيدة فعزم أن يتخذ منها حجة تدعم موقفه وسلاحاً يستخدمه لإقناع تلك المرأة العنيدة. وقد تضاربت أقوال الناس حتى في موعد زيارته لها. منهم من قال انه جاء إلى كوخها بعد منتصف الليل وخرج عند الفجر معتمدين في هذا الإدعاء على أن صوت باتا - الذي أيقظ الجيران في الأكواخ المجاورة - لم يعلُ إلاّ في الفجر، في حين ردد آخرون أن آهر طرق باب كوخها عند الفجر ولم يخرج إلا في الصباح، قبل الشروق بقليل. وعلل هذا الفريق زعمه معتمداً على تأكيدات زوجة الشيخ خليل التي خرجت من الكوخ في ذلك اليوم في طريقها الى زريبة الماعز المجاورة لزريبة مواشي باتا كي تعتني بالمعزاة التي ولدت توأمين منذ يومين وتجلب الحليب فقالت انها رأت الشيخ آهر - بعينيها اللتين سيأكلهما الدود والتراب - يتسلل من الكوخ في خطوات سريعة كأنه يهرب من شبح باتا أو من صوتها الجريء الذي سمعته يمزق سكون الصباح ويردد خلفه بوضوح: «لا تحاول أن تقف في طريقي يا شيخ آهر. لقد حذرتك. زوجتك سوف تعلم بكل شيء بالتفصيل إذا خطر لك وحاولت».

أمّا ما هو هذا «الشيء» الذي تنوي باتا أن تخبر به زوجته بالتفصيل فلم يعلمه أحد إلاّ عندما فوجيء جيران الشيخ آهر - بل وبقية أفراد القبيلة - بزوجة آهر تهجر البيت غاضبة وتلجأ للإقامة في بيت عجوز وحيدة تمتّ لها بقرابة بعيدة من ناحية الأب بعد أن أقسمت أنها لن تعيش مع آهر تحت سقف واحد بعد أن سمعت من الناس ما سمعت.

وقد مضى الشيخ خليل في همسه للشيخ غوما قائلاً ان آهر حلّفها بإسم

القرابة ورابطة الدم بينهما أن تتراجع عن قرارها وعندما عجز عن إقناعها لجأ إلى التهديد فثارت باتا واعتبرت كلامه تدخلاً ظالماً في شؤونها الخاصة وتحدثت عن القرابة بينهما بلهجة لم تخف رنة التهكم والسخرية فقالت انها لم تعلم بهذه الصلة إلاّ اليوم، وقد مرّت في حياتها بين القبيلة بمواقف عصبية كان عليه كرجل نبيل وشيخ وقور ذي شأن أن يهبّ لمساعدتها والوقوف الى جانبها وهي المرأة المسكينة التي لا حول لها ولا قوة. وطالما هذا لم يحدث في السابق فإنها لا تعتبر صلة القرابة المزعومة قائمة. وهي الآن على استعداد لأن تتحدث معه وتحاوره لا كقريب تربطها به صلة الدم ولكن كأحد أعيان القبيلة. ولقد حاورته فعلاً على هذا الأساس.

هنا غيّر آهر من لهجته ورمى بآخر سهم عندما هدّدها بأنه سوف يوثق يديها ورجليها ويجلدها بالسوط أمام الناس إذا لم تتراجع عن قرارها وقال أيضاً أنه سيمهلها ثلاثة أيام تستطيع خلالهم أن تفكر. فثارت المرأة وصرخت في وجهه قائلة ان الرجل الذي بوسعه أن يقوم بهذا الفعل لم تلده أمّه بعد. أمّا هو فإن لديها مفاجأة له، وذكرته بحادثة بعيدة كان آهر - لسوء حظّه - قد نسيها ولم يقرأ لها حساباً. فقد قامت باتا - منذ نحو ست سنوات أثناء الإقامة في الصحراء بجوار بئر اطلانطس - باستضافة قريبة زوجها الأول التي كانت قادمة من آير في رحلة إلى آهجّار لزيارة أقاربها هناك يرافقها ثلاثة زنوج وامرأة واحدة تقوم على خدمتها. وهي امرأة فاتنة، مطلقة من زوجها الأول وثكلى في زوجها الثاني الذي لقي مصرعه في إحدى غزوات القبيلة إلى بلاد السودان[٣]. وقد قامت باتا بمراسم الضيافة، فنصبت لها خيمة خاصة تليق بالضيفة النبيلة، ونحرت لها الذبائح، ودعت إلى مجلسها النساء والصبايا، ونظمت على شرفها سهرات «امزاد»[٤] وأمسيات الغناء والرقص والطرب، حتى طاب للضيفة المقام ومددت إقامتها الى ثلاثة أسابيع بدل الثلاثة أيام التي كانت تزمع قضاءها. في هذه الأثناء اشتكت المرأة الزنجية التي ترافق الضيفة وتقوم على خدمتها من تردد أحد رجال القبيلة على مخدع السيدة ليطارحها الغزل، ويقرأ على رأسها الأشعار العاطفية. تكررت زياراته الليلية السرّية التي تمتد - أحياناً - حتى الصباح. أثار حديث الزنجية فضول باتا وقررت أن تكتشف الرجل وتتصيد غرامياته مع الضيفة بنفسها. قررت أن «تقبض على المجرم متلبساً بجريمته». فاتخذت من مدخل خيمة الضيفة مخبأ لها، تأوي إليه لمجرد أن تنتهي السهرة، وتقاوم النوم حتى طلوع الفجر. وقد استمرّ بها هذا الحال أربعة أيام حتى راودها اليأس ولكن الرجل ظهر في اليوم الخامس.

كانت تغالب النعاس وهي راقدة في زاوية المخبأ عندما استيقظت على همس متلاحق وحفيف ملابس كثيف فتحت جفنيها ولكنها لم تتبين الرجل المعمم بلثام أزرق. فقفزت وأمسكت بيده عازمة أن تكشف على وجهه، ولكنه نفضها بقوة ونزع يده ووثب عازماً الفرار عبر الخلاء، في تلك اللحظة عرفته بقامته القصيرة وجسمه المكتنز فصرخت في أثره: «لقد عرفتك. أنت الشيخ آهر. لقد عرفتك!».

لحظتها انتفض الشيخ غوما ـ الذي ظلّ يستمع طوال الوقت إلى حديث الشيخ خليل الهامس بشيء من الامتعاض والإشمئزاز ـ وصرخ في دهشة: «آهر! الشيخ آهر!» فهزَّ الشيخ خليل رأسه بالإيجاب ومضى يسرد قصته. فقال ان باتا ذكّرته بهذه الحادثة في تلك الليلة وهددته بأنها سوف تذيعها في القبيلة إذا تجرأ وسمح لنفسه بالوقوف في طريقها. سقطت الشائعة بالفعل في أذن زوجة آهر فهجرت البيت ولجأت للإقامة عند قريبتها.

وبرغم أن القبيلة كلها سمعت بما حدث وتناقلت الفضيحة إلاّ أن آهر أصرّ على أن يكتم الأمر عن الشيخ غوما، واستمر يتشبث بالصمت حتى عندما لحقه أذى باتا وأصبح بيته مهدداً بالانهيار ـ وهو الرجل الوحيد الذي عاش مع زوجته أربعة وعشرين عاماً دون أن ينجب أطفالاً ـ فآثر تحمّل الألم بشجاعة ورجولة.

بعدها بأيام انطلق الشيخ غوما ـ دون أن يصرّح لآهر بالأمر ـ إلى زوجة آهر في كوخ قريبتها ومكث هناك حتى وقت متأخر من الليل.

لم يدر أحد بتفاصيل الحوار الذي دار هناك ولكن النساء فوجئن في الصباح بزوجة آهر وهي تعود إلى بيتها.

«وكما يقال فإن أسلم طريقة للدفاع هي الهجوم». إستفادت باتا من هذه القاعدة واستغلتها أبشع استغلال. فبعد أن سددت تلك «الضربة المحكمة» ـ كما أطلق عليها الشيخ خليل ـ للشيخ آهر انتقلت الى موقع جديد، فأشاعت في كل الواحة أن الشيخ غوما يقوم بتأليب شيوخ الدين في الواحة ضد زواجها من آيس مردداً آراء لهم مزعومة ببطلان هذا الزواج شرعاً. ومضت في حملتها تقول ان الشيخ غوما تحالف مع صديقه العرّاف مهمدو لإقناع رجال الدين في الواحة بعدم التصديق على عقد القران وإثنائهم عن عزمهم على قراءة الفاتحة. وقد استطاع بآرائه وادّعاءته أن يسمم عقل الشيخ عبد الجليل الجاروف نفسه الذي تراجع ـ فجأة ـ عن موقفه السابق المؤيد لها. ولمحت ـ في موجة الشائعات التي أطلقتها في الواحة وبين أكواخ القبيلة ـ إلى أن كل هذه المحاولات لن تجدي نفعاً ولن تثنيها عن عزمها وسوف تعرف الطريق لبلوغ هدفها.

اتضحت معالم هذا الهدف بعد أيّام عندما «انتزعت» من القاضي ورقة ممهورة بختمه وتوقيعه تقضي بشرعية الزواج. وهي ورقة غامضة أيقن الجميع بخطورتها وغرابة محتواها، أثارت إستنكار المخلصين من رجال الدين الذين قالوا بعدم جواز الزواج من غلام قاصر لم يبلغ سن الرشد.

استمرّ الجدل حول هذه الورقة - التي شكك البعض في وجودها أصلاً - حتى أن العجوز مهمّدو اضطر أن يبوح للشيخ غوما بحقيقة هذه الورقة قائلاً بعد أن اتخذ مجلسه بجوار عدّة الشاي في إحدى الأمسيات بالمغارة: «يؤسفني أن أؤكّد لك أن الورقة حقيقية. وهي موقعة من طرف القاضي وممهورة بختمه أيضاً. وأنا أشتم رائحة المال هنا». انكب على عدّة الشاي وتظاهر بالإنشغال بالجمر ولكن غوما حاصره مستفهماً: «المال! أي مال؟».

فأضاف العرّاف وهو يسدد نظرة ذات معنى من لثامه الرث الذي تكسوه البقع: «للمال سلطة يركع لها ضعاف النفوس. المال يلعب الدور الذي تعجز الحجة عن أدائه. أريد أن أقول انها أغرته بالمال!».

بهت غوما فتساءل بلا وعي: «أغرته بالمال؟».

ظل مهمدو يراقبه بعينين كابيتين فتبدو المقلتان كأنهما تنظران في الفراغ. هزّ رأسه بالموافقة وأضاف بعد فاصل صمت:

«بالذهب. بليرات الذهب التي جاءت بها من آير».

صمت.

استمر الصمت حتى قال غوما وهو يهرش رأسه المتوّج بالعمامة:

«الذهب! الليرات! تذكرت. الكنز المزعوم. إذن الكنز المزعوم حقيقة!».

تذكر غوما الضجة التي صاحبت عودة باتا ونزولها الواحة، فتناقلت النساء الخرافات حول ثراء باتا التي عثرت في آير على قلّة مليئة بالليرات الذهبية، وأكدّت هذه الأقاويل ان باتا تستطيع أن تتمتع بلقب «أغنى امرأة في الصحراء». ولكن هذه الأساطير سرعان ما تبددت فاعتقد العقلاء أنها مجرد مبالغات تعوّدت النساء أن تحيط بها كل قادم جديد لتغمره بهالة الغموض اللازمة لإثارة الفضول وشحذ الأذهان لتأليف القصص واختلاق الشائعات التي تسارع ألسنة النساء خاصة - الجائعة دائماً لترديد مثل هذه القصص الخفية ونشرها بين الأكواخ لتجدّد حياة القبيلة ويندهش لها سكان الواحة.

ولكن يبدو أن باتا هي المسؤولة عن قتل الشائعة في مهدها. فقد حدثتها نفسها وأدركت بفراستها المعروفة خطورة أن تحوم حولها شبهة الثراء وامتلاك

الليرات الذهبية فسارعت تنفي هذا الزعم، وكشفت من مساعيها في النفي والتكذيب إلى حد جعل القبيلة - بل وأهل الواحة - يقتنعون بأن ما قيل حول الذهب هو من مبالغات الفضوليين. ولكن الحقيقة أن باتا لجأت إلى هذه الحيلة الماكرة واستماتت في استنكار الشائعات وكأنها «تهمة» لأنها خشيت أن يتآمر اللصوص، أو حتى غير اللصوص، فيحيكون خطة يستولون فيها على مالها - الذي تعلم الآن جيداً أنه مصدر قوتها - خاصة وهي أدرى الناس بقدرة الذهب على إفساد العقول وهو المؤهل دائماً لإغراء البشر وإجبارهم على اقتراف الإثم ودفعهم إلى الجريمة!

صمت.

قال العرّاف بعد زمن:

«هذا النوع من النساء لا يسلّم بهزيمته بسهولة».

ثم:

«هذا نوع سفيه من النساء».

ثم بتحديد أكثر:

«هذه امرأة سفيهة».

أثار هذا التشبيه إعجاب الشيخ غوما فاعتدل في جلسته وصلب رجليه وشبك فوقهما يديه ورمق مهمدو بنظرة إعجاب.

قال مهمدو:

«لا يليق بك كرجل نبيل أن تواجه عدواً سفيهاً خاصة عندما يكون هذا العدو السفيه امرأة عابثة مثل باتا. وهذه هي المأساة».

ولكن الشيخ غوما ظلَّ يفكر بهذا التشبيه الذي وصفها به مهمدو والذي كان يبحث عنه منذ زمان. تشبيه بسيط ولكنه مدهش فازداد غوما يقيناً بفراسة هذا العجوز الحكيم.

استمرّ يتأمل التجاعيد العميقة والغضون البارزة على وجه مهمدو - الذي انحسر عنه اللثام في تلك اللحظة - بدهشة وإعجاب وفضول.

* *

... ولكي تتفرّغ باتا لتدبير ارتباطها المشبوه بآيس تمادت في وقاحتها - أو فلنقل سفاهتها كما عبّر العجوز مهمدو - ففاجأت الشيخ غوما بخطاب جسور مكتوب بـ«تيفيناغ»[5] وبخط يدها الواضح الجري، وبلغتها - التي تروق لفريق فيصفها بالصرّاحة ولا تروق لفريق آخر فيصفها بالوقاحة - برغم أن أحداً لم يشبع

فضوله بالاطلاع على نص الرسالة الحرفي. وسواء وجد من اطلع عليه أو لم يوجد فإن مضمونه قد انتشر في أوساط القبيلة بل ومضى يتسكع خلف الأكواخ حتى بلغ جدران الواحة، ذلك لأن التجربة أثبتت بالدليل استحالة إخفاء أي شيء لدرجة جعلت غوما يقتنع بقدرة أهل القبيلة الخارقة في قراءة حتى تلك الأفكار التي تخطر على البال، وكأنهم قد أصبحوا ينافسون الآلهة في علم الغيب والكشف عن المستقبل ويستعيرون دورهم في التنبؤ بالمجهول.

ولنعد لمضمون الرسالة الخفي الذي يصرّ أبناء القبيلة على معرفته والدراية بتفاصيله ورواية محتواه خاصة تلك المقاطع القاسية التي حاولت فيها باتا بث شحنة السموم لإفساد حياة الشيخ غوما. مثل هذا المقتطف الذي يتردد على كل لسان:

« ... الحق أنني لم أعد أستغرب أن تعلن الحرب على امرأة مثلي لا حول لها ولا قوة. لأن هذه الحرب لم تبدأ اليوم. لقد شئت ذلك منذ كنت إلهاً جباراً على الصحراء فدفعتني إلى المجهول ونفذت حكمك الظالم فسلمتني للخلاء الذي كان أرحم منك فمنحني الحياة بعد أن أردت لي الموت مطمئناً نفسك بأنك إنما تفعل ذلك دفاعاً عن القبيلة وإنقاذاً لها من نواياي التي تخطط لتدميرها. ولكن الأمر قد اختلف اليوم فلم تعد إلهاً على الصحراء ودولتك - التي كانت قوتها من الصحراء - بدأت تؤول للزوال والفناء بعد لجوئك للواحات. ولم تكتف بهذه الهزيمة فخنت مبادىء الفروسية وبعت المهاري الرشيقة، الهيفاء كأجمل الحسان واستبدلتها بالحمير للتطاول في الفلاحة وتعارك الأرض كأهل الواحات. فيا حسرتي على النبل الضائع، ويا خوفي من اندثار مبادىء الفروسية! أنت الآن تجمع قواك وتستنفر أتباعك لمقاومتي والوقوف في طريق تنفيذ مشروع زواجي من آيس على سنة الله ورسوله، وتعتقد أنني أستولي عليه انتقاماً منك لأنك مكابر ولا تريد أن تعترف بأن الحنان الذي أمنحه له هو التعويض الحقيقي عن ذلك الحنان الذي حرمته منه وفقده بين يديك. كان هذا موضوع حوارنا في تلك الليلة عندما شرفتني بزيارتك المفاجئة أثناء إقامتنا السعيدة بجوار بئر أطلانطس المجيد. هل تذكر؟ وها أنت اليوم في حاجة إلى الشفقة أكثر مني. والكبرياء - فقط - هي التي تمنعك من أن تعترف، وما قيامك بأكل لحم آيس بالسوط إلاّ دليل على ذلك... ».

إستغلّت باتا إنشغال الناس - وكذلك الشيخ - بمضمون الرسالة ومناقشة مثل هذه المقاطع الإستفزازية والتجادل حول دوافعها وأهدافها ونواياها فبادرت باتخاذ التدابير لإقامة الفرح وتحديد موعده النهائي. ولم يمنعها تطوّع الشباب وإجماعهم

على مقاطعة المهرجان تضامناً مع الشيخ غوما فاستدعت بائعاً جوّالاً معروفاً في الواحة وألبسته عمامة بيضاء وأجبرته بالمال أن يقرأ الفاتحة بعد أن بسطت في وجهه قرار القاضي الممهور بالختم والتوقيع كي تطمئنه بأن ما يفعله جائز شرعاً ولا يخالف تعاليم الدين بقدر ما يخالف تعاليم الشيخ غوما وحده. كما جاءت بالراقصين وعازفي المزامير وقارعي الطبول وضاربي الدفوف ولفيف من نساء الواحة المدربات على الزغاريد اللائي مكثن ثلاثة أيام يمضمضن حلوقهن بمحار البيض لصقل حناجرهن ويدهنَّ ألسنتهن بالمراهم ويمشطن شعورهن الطويلة بالزيوت استعداداً لهذا اليوم بعد أن أغرتهن باتا أيضاً ببريق ليراتها الذهبية.

ضحت باتا بمهرجانات القبيلة التقليدية التي تتسابق فيها المهاري الرشيقة المدرّبة على الرقص واستعاضت عنها بأفراح الواحة الصاخبة التي تقرع فيها الطبول وتعلو فيها أصوات المزامير والأهازيج الجماعية.

ولم تفق القبيلة من ربكتها التي سببتها حملة باتا على الشيخ غوما حتى كان كل شيء، له علاقة بالفرح، قد انتهى.

.. والحق أن غوما فكّر طويلاً قبل أن يقدم على تلك الخطوة التي تعيّره بها باتا الآن، وأثارت ـ وقتها ـ دهشة الجميع وفي مقدمتهم أعيان القبيلة بداية بآهر وخليل، فقالوا ان الشيخ ـ بشرائه الأرض ـ قد قطع، نهائياً، علاقته بالصحراء وقرر أن يستوطن الواحات إلى الأبد، وكأنه فقد الأمل في عودة مياه بئر أطلانتس إلى مجاريها في المنابع السفلى، فدفعه اليأس إلى الانخراط في المغامرة ـ التي تحاشاها الجميع ـ وجرّب حظه في الأرض والزراعة.

ولكن الشيخ غوما ـ الذي رأى الخطر يزحف على القبيلة منذ بدأ الماء يتراجع في قاع البئر وحتى الاضطرار للهجرة واللجوء الى الواحة ـ لم يجد أمامه الخيار، ولم يستطع أن يغض الطرف وهو يرى فرسان الأمس من شباب القبيلة ـ الذين صدّوا الغزاة عن الصحراء في شجاعة في معارك غات ـ تسرقهم ظروف الحياة الجديدة من بين يديه فييممون شطر الشمال فرادى ومجموعات بحثاً عن عمل: منهم من لجأ إلى الصحارى المجاورة ليعمل في الشركات الباحثة عن النفط سائقاً للشاحنات أو ميكانيكياً بعد أن تجاوز إمتحانات التدريب على القيادة أو مرّ بفترة دراسة بدائية في الميكانيكا، ومنهم من عمل في الحكومة مستخدماً لمدّ الطرق بين الواحات وحمايتها من الأتربة وهجمات الرمال الزاحفة، وفريق ثالث هاجر الى عاصمة الصحراء ليعمل في المصالح الحكومية ويتطاول في البناء، وفريق آخر هاجر الى أبعد وبلغ المدن الكبيرة التي ترقد على شواطىء البحر في أقصى الشمال.

لا يستطيع غوما أن ينسى ذلك الموقف الذي شاهد فيه أمود وهو ينحر جمله المسرّج الضامر البديع الذي ينافس في رشاقته الغزلان.

حدث ذلك بعد شهور من نزول الواحة عندما جلس بصحبة أعيان القبيلة في الاجتماع التقليدي حول عدّة الشاي الأخضر محتمين، في احدى العشيات، بظلال جهة الخيمة الشرقية من الشمس ـ التي وإن آلت إلى الزوال وتزحزحت أخيراً في زحفها البطيء وانحازت نحو الغرب ـ إلا أنها استمرت تصلي الكائنات بسياط النار. جاءت كوكبة الشباب تهش المهري الرشيق وتجمعت في المنحدر استعداداً لنحره. إنهمك قسم منهم في تقييد رجليه، وانشغل القسم الآخر في شدّ رأسه بحبل مفتول من ليف النخيل ـ إلى ذيله لإبراز ذلك الجزء الأسفل من الرقبة الطويلة الهيفاء المعدّ لغرس المدية. أما المجموعة الثالثة فقد سارعت لفرش سعف النخيل في بساط أخضر كبير حيث سيمزّق اللحم وتقسّم الذبيحة إلى حصص صغيرة تخضع في توزيعها إلى حكم الحظّ الذي يتقرر بالقرعة.

كان الجمل المسكين، الذي أحس بالمصير الذي ينتظره، قد بدأ يتمرد ويعربد ويقاوم ويرفس بقوائمه، ويشدّ رقبته إلى أعلى أحياناً، ويهرب من المدية شمالاً ويميناً أحياناً أخرى ويتطاير الزبد الناصع الذي يعلو شفتيه في رغوة كثيفة كالصابون ويتساقط على سواعد الرجال الذين يحومون حوله.

ظل يرغي ويشكو بصوت حزين كمن يتوسّل ويطلب الرحمة قبل أن يتقدّم رجل ممتلىء الجسم، مفتول العضلات، يشمّر عن ساعديه ويشهر مدية طويلة تلمع وتومض تحت أشعة الشمس. في تلك الأثناء أطلّ رجل مهيب، أنيق، يرتدي هندام الأفراح والمناسبات: يضع فوق العمامة الكبيرة البيضاء قطعة «تجولموست»[٦] داكنة، ويلبس على الثوب الفضفاض، الواسع الأكمام، قطعة «طاري»[٧] زرقاء، ويطوق خصره الضامر بحزام جلدي مزركش بنقوش دقيقة طرزتها أنامل حسناء ماهرة، ويعلق فوق رقبته سيفاً مغروساً في غمد ملوّن. وقف الرجل المهيب فوق التلة المطلة على المنحدر حيث تكأكأ الرجال حول الجمل، يراقب طقوس الذبح الوحشية بهدوء.

علم غوما فيما بعد أن الرجل لم يكن سوى أمود. عرف بعد يومين من الزنجية العجوز كيف أعادت زوجة أمود حصتها من اللحم ومعها توصية قاسية غاضبة: «لن يجعلني الجوع آكل لحم المهاري»، وأخبرته أيضاً أن الحداد يخيم على بيت أمود والنار استمرت مطفأة، والصيام عن الطعام قد بدأ، ولم يرتفع فوق الكوخ خيط من دخان. وحتى عندما ذهب لزيارته بعد أيام كان الحداد في قمته.

النار مطفأة، والرماد في موقد النار تطاير، وتناثر وبقي السواد في قاع الحفرة المحاطة بحجرين كبيرين. وجد أمود يتقرفص في العتمة خارج الكوخ بنفس اللباس الفاخر. فيبدو بهذا اللباس، في ظلمة الليل، كشبح حقيقي!

نهض لاستقبال الشيخ بحفاوة، ويبدو أن زيارة الشيخ المفاجئة أربكته فظلَّ يبحث عن نعليه طويلاً، ثم دار حول غوما مرتين قبل أن يدخل الكوخ ويخرج بالكليم الذي افترشه على الأرض. اقترح إعداد الشاي وهمّ بأن يوقد النار ولكن الشيخ استوقفه. قال انه شرب للتو ولم يعد يستطيع أن يتحمل الشاي الأخضر في الهزيع المتأخر من الليل نظراً لما يسببه من أرق. وتعمد أن يتبسّط في الحديث فحدّثه بإسهاب كيف يضطر الإنسان، عندما يتقدّم به العمر، إلى التخلّي عن أشياء كثيرة تعوّد ممارستها في شبابه واعتقد - في غمار الحيوية والعنفوان - أنها ضرورية فيتشبث بها ويجعلها جزءاً من حياته، برغم أن التخلي عن هذه العادات لا يضر بقدر ما ينفع. وقد نصحته نفسه - بل وفرضت عليه صحته - أن يزهد في عادات كثيرة منها تناول الشاي الأخضر بعد منتصف الليل!

ثم ساد الصمت فترة غير قصيرة حتى خشي الشيخ أن يدرك أمود - وربما أدرك ذلك بحدسه - سبب زيارته التي لم تكن سوى العزاء في مصاب أمود الذي ضحّى بالمهري ليقبض ثمنه الضروري لإعالة امرأته وابنه الرضيع فانطلق يتحدث بالتفصيل عن الأحوال الجوية وتقلبات الطقس وموجة الحرّ التي تجتاح الواحة متحاشياً أن يأتي على ذكر الحيوانات حتى لا يضطر للحديث عن حادثة ذبح المهري!

خطر له أن يصرّح بالسبب الذي جاء من أجله ولكنه أحجم في آخر لحظة وآثر أن يؤجل هذا العرض إلى وقت آخر.

في الطريق إلى البيت تذكر تلك الحادثة التي جعلته منذ ذلك الحين يحمل مشاعر التقدير والإكبار لهذا الشاب الصامد النبيل عندما أبلغوه بوفاة ابنه البكر - متأثراً بلسعة عقرب - في قمة اشتداد المعارك أثناء حصار غات منذ سنوات. أذن له غوما وقتها بالعودة إلى البيوت وتقبل التعازي ولكنه رفض العودة وأصرّ على استمرار اشتراكه في الحرب حتى النهاية، وختم كلامه بعبارة قاسية ما زال غوما يذكرها حتى اليوم عندما قال: « ربما كان من الأفضل أن يموت مبكراً قبل أن يعي الدنيا ويتذوق مرارة الشقاء. من يدري؟ ربما كان الموت في المهد أفضل من أن يسوّد وجهي أمام الناس إذا كبر وأصبح إنساناً سيئاً ». ثم تردد في المعسكر أن أمود سمح لنفسه بأن يرفع صوته ويترنم بأغنية مما أثار موجة من الاستنكار.

وعندما علم غوما بالأمر أسكتهم قائلاً: «تتكلمون وكأن الله لم يخلق الغناء إلا لتمجيد الفرح. عليكم أن تعلموا أن الغناء يعبر عن التعاسة ويروّح عن فجيعة النفس أيضاً». ولكن ألسنة السوء استمرت - برغم اشتداد المعارك - تنتقد أمود وتنهش لحمه بالشائعات ولم تلتفت لتبرير غوما. بل ومضت إلى أبعد فرددت أن الشيخ يدافع عن أمود لأنه سبق أن سمح لنفسه أن يرفع عقيرته بالغناء بمجرد الانطلاق من البيوت في ذلك اليوم الذي خرج فيه يقود قوافل المقاتلين المتجهين الى غات، وهو نفس اليوم الذي وافق وفاة أم أماستان!

بعد أيّام عندما همّ الشيخ أن يرسل في أثره ويستدعيه ليعرض عليه اقتراحه جاء أمود لزيارته في خيمته بعد الظهر كأنه قرأ ما يجول في رأسه من أفكار. وفكر غوما أن قراءة أفكاره لن تكون صعبة على شاب مثل أمود خاصة وأن زيارته المفاجئة له بعد حادثة نحر الجمل في ذلك اليوم تدعو للتساؤل وتثير أكثر من علامة استفهام. فلا يعقل أن يكون الهدف مجرد المواساة وشدّ الأزر. وقد راود أمود إحساس خفي بذلك الشيء الغامض الذي ظلّ معلقاً ولم يقله الشيخ، بل ولم يلمّح له مجرد التلميح كما جرت العادة إزاء مثل هذه «الأشياء» الخفيّة. بل ربما كان الأمر غامضاً على الشيخ نفسه.

والحق أن الاقتراح في رأس غوما لم يكن واضحاً أو فلنقل ناضجاً في تلك اللحظة التي ذهب فيها لزيارته. لقد تبلورت الفكرة واتضحت بعد يومين فقط من الزيارة عندما تناقش مع الشيخ خليل واستقر رأيه نهائياً على شراء مزرعة عبد الجليل الجاروف التي تحدّ عين الكرمة من الغرب وترتمي عند أطراف الواحة الجنوبية.

والواقع أن فكرة شراء الأرض راودته بعد نزول الواحة بشهور ولكنه استبعدها نظراً لما يمكن أن تجلبه من اعتراض واستنكار في القبيلة التي ظلّ أفرادها رجالاً ونساء يمنّون أنفسهم باليوم الذي يجيئهم فيه الرسل بنبأ عودة مياه أطلانطس إلى مجاريها أو يقصف الرعد ويومض البرق في الحمادة الحمراء ليهبوا لحزم الأمتعة والانطلاق إلى الصحراء.

ولمّا طال انتظار الرسل، وخرس الرعد واختفى البرق طوال السنوات الماضية أيقن الجميع أن انتظار العودة سوف يطول برغم أن الأمل لم ينطفىء في أعماقهم جميعاً، وحتى أولئك الذين طال بهم المقام وفقدوا الأمل في العودة فإنهم تعودوا أن يخدعوا أنفسهم ويخفوا الحقيقة التي تصدمهم كل يوم وتنعي لهم هذا الأمل الذي لا يعلنه أحد ولكن الشيخ يراه في عيونهم التي أرهقها الانتظار وأنهكتها

متاعب الحياة في تلك الواحة العتيدة الراقدة في أحضان الرمال الرامضة، المستسلمة لقساوة الشمس، الصابرة لقدرها منذ آلاف السنين.

ولم يفق الأهالي في القبيلة لأنفسهم ولظروف الحياة الجديدة إلا بعد مرور السنة الأولى من الإقامة في أحضان الواحة، فبدأوا يتململون، ويتحركون، ويسعون في الأرض وراء الرزق، يمشون هنا وهناك، ويزحفون نحو الواحات الأخرى، ويتطاولون في أعمال لم تكن لتخطر لهم على بال، وانطلقوا حتى بلغوا مدن الشمال البعيد الراقدة بجوار البحار، فأيقن العقلاء من أعيان القبيلة أن السبل قد بدأت تتفرق بهم حقاً!

ظل الشيخ غوما يراقب ما يحدث بهدوء برغم القلق الذي حاول أن يخفيه باستمرار حتى عن الشيخين آهر وخليل.

فكر أكثر من مرة بضرورة أن يفعل شيئاً ما لإيقاف هذا الانهيار وقال في نفسه لا بد لأحد ما أن يبادر ويقتني أرضاً للزراعة. التفت يميناً ويساراً وأدرك أن هذا القرار سيستدعي الشجاعة في مواجهة المعارضين لفكرة الإقرار بالواقع والاستقرار في الواحة والارتباط بالأرض، لأن ذلك سوف يعني الوداع لحياة الصحراء . ويقيناً أن الأهالي لن يستسلموا للأمر الواقع وسوف يتعرض كل من تسوّل له نفسه القيام بهذا العمل للسخرية والتجريح والنقد بل وحتى الهجاء! وسبق للشيخ غوما أن سمع بعض الأبيات الجارحة من قصائد الهجاء التي نظمتها فتيات الواحة في حق أولئك الشباب الذين هجروا القبيلة ونزحوا إلى المدن للبحث عن الخبز! وردت في هذه الأبيات - التي لم يستطع أن يحفظ منها شيئاً - عبارات قاسية صاغتها فتاة موهوبة تلسع حبيبها الذي أجّل الزواج منها لكي يعود بالمهر ومصاريف العرس من البلاد البعيدة فطال به المقام هناك وندرت أخباره حتى انقطعت نهائياً، مما جعل الفتاة تنبري لتجريحه فتعيّره بأنه فضل أكل اللحم على الإيفاء بوعده، وتلسعه بالعبارات الشعرية اللاذعة أحياناً والهازئة أحياناً أخرى حتى شعر الشيخ بالإنفعال عند سماعه للأبيات وسحب لثامه على وجهه كي يغطي حبّات العرق التي نزّت من أنفه وجبينه خجلاً وعاراً!

وبرغم أنه أجّل القيام بهذه المجازفة أكثر من مرة لا خوفاً من الألسن السليطة أو خجلاً من مواهب الفتيات الشعرية ولكن الظروف التي لم تكن تسمح وقتها هي التي سوف تساعد فكرته في المستقبل على النضج وتفرض تنفيذها في الواقع. وكثيراً ما كان الشيخ يلجأ لظلال تلك النخلة الباسقة الهيفاء في تلك السنوات ويتأمل ما يجري حوله حتى توصل لقناعة مؤداها أن القدر قد ابتلى قبيلته بعدوّين

شرسين: الأول مثلته باتا في محاولاتها السابقة لتدمير القبيلة، وعودتها هي عودة الخطر إلى القبيلة. والثاني استمرار الحياة في الواحة الذي نتج عن قساوة الطبيعة وغياب الأمطار واستمرار الجفاف في كل الصحراء الكبرى شاملاً حتى الأجزاء الجبلية شمال الحمادة الحمراء المشهورة بمراعيها الخضراء طوال السنوات الماضية. ولكن مزاج السماء المتقلب في السنوات الأخيرة أدرك حتى المساحات الممطرة من جبل نفوسة. وهذا ما جعله - وجعل حتى أولئك الذين يعرفون الصحراء جيّداً ويخبرون أسرارها - ييأس ويدرك أن الخطر قادم طالما ليس من السهل التنبؤ بأطوار السماء، فأصبح من الصعب توقع الانفراج في مزاج الطبيعة التي أطلقت سراح الشمس الوحشية لصلي الإنسان والحيوان بالحر والعطش والجفاف، تأكل النباتات وتقتات المزروعات، تبذر العدم وتزرع في الصحراء الموت دون أمل.

فتوّصل إلى قناعة لخّصت له مأساة القبيلة في شيئين اثنين: باتا والطبيعة. وإذا كان عجز في معركته مع باتا وإن لم يستسلم للهزيمة ولم يترنح وصمد في وجه الضربة التي وجهتها عندما مدّت يدها في عقر داره وسرقت آيس فإنه حاول أن يقاوم الطبيعة عندما باع عدداً من جماله التي تركها أمانة عند شيخ غدامس وعقد الصفقة مع عبد الجليل الجاروف واشترى المزرعة وتعاقد مع مرزوق مقابل حصة لا تزيد عن ربع المنتوج للإشراف على الجداول، وسحب الماء من البئر وري المزروعات وتقليب الأرض، تساعده في ذلك أسرته المكونة من زوجة شريرة، سليطة اللسان وولد مريض بالصرع يثير الشفقة. وها هو يضيف أمود كشريك مقابل الإشراف على المزرعة وتدبير الأعمال المتعلقة بتسويق المنتوج أو الحصول على البذور النادرة.

* *

«سوف تخوض معارك كثيرة. ولكن احذر من المعركة الأخيرة. إني أراها أشرس المعارك».

هكذا قالت له العرّافة الزنجية التي تطل خصلات شعرها المجعّد الأشيب من تحت لحافها الأسود. كانت تقتعد الأرض بجوار السور الكبير الذي يفصل السوق عن قصر السلطان في «أغاديس». بسطت أمامها قطعة قماش باهتة الألوان، تضع فوقها سبع حبات من النوى. تتناولها وتحتويها لحظات في قبضتها ثم ترمي بها فوق قطعة القماش وهي تتمتم بالتعاويذ. كررت ذلك أكثر من مرّة قبل أن تلخّص نبوءتها: «سوف تخوض معارك كثيرة. ولكن إحذر من المعركة الأخيرة. إني أراها أشرس المعارك». ثم التفتت خلفها وبصقت لعاب التبغ الرمادي وطلبت منه قطعة

من الطرونة[٨] مقابل النبوءة. قالت انها قرأت في عينيه أنه إنما جاء مع القافلة من فزّان البعيدة. وهناك تنتشر حقول شاسعة من أجود أنواع الطرونة. قبضت حبات النوى في كفها وأعادت طلبها بإلحاح أقرب إلى التوسل فأخرج صرّة صغيرة من جيبه وانهمك يفك طياتها وهو يراقب أنامل العجوز المرتعشة وبريق المدمنين يطل من عينيها وهي تتابع حركة أنامله. أخرج قطعة صغيرة الحجم، تلمع كالجوهرة، كسرها بأسنانه إلى نصفين. قدّم لها النصف وأعاد النصف الباقي إلى جيبه بعد أن لفّه في الصرة الصغيرة بعناية.

قضمت من القطعة البراقة، وبدا على وجهها الإرتياح. وهي تقول:

«كنت على استعداد لأن أدفع لك وزنها ذهباً! ولكن النبوءة أثمن من الذهب!».

ثم ابتسمت ابتسامة غامضة وتمتمت بالشكر وتمنّت له التوفيق في رحلته.

انطلق خلف القافلة التي ابتعدت عن السور واتخذت طريقها إلى الشمال عائدة إلى فزّان فسمعها تهمهم وراءه وترفع صوتها الواهن الذي أضعفه العجز بعبارات لم يتبينها بوضوح.

ابتسم لنفسه وهرول كي يدرك القافلة. هاجمه شريط ذكرياته الشيقة مع العرّافين وقارئي الحظ والكاشفين عن الغيب منذ تجربته المسلية مع ذلك العرّاف الغدامسي الأعمى الذي اتخذ من قراءة الطالع حرفة تدر عليه رزقاً يكفيه شرّ التسوّل كما صرّح له، خلال أول رحلة تجارية يشترك فيها إلى غدامس. لجأ إلى العرّاف الأعمى من باب التسلية فصافحه وأبقى على يده في كفه طويلاً ثم طلب منه أن يتطهر في عين الفرس بالماء البارد ويعود لزيارته في صباح اليوم التالي قبل شروق الشمس. وعندما جاء في الصباح حسب الموعد انطلق الأعمى يسرد عليه تاريخ حياته السابقة كأنه يقرأه من كتاب. اندهش أمود يومها لدقة التفاصيل التي أوردها العرّاف، حتى ظن أن أحداً من أفراد القافلة قد أخبره بها. ولكن التفاصيل تضمنت حقائق دقيقة وشخصية تخفى حتى على أقرب الناس إليه فقفز قلبه من فرط الرهبة! ثم مضى يتحسس وجهه ويتسلل بأصابعه المرتعشة خلف اللثام بجوار الأذن اليمنى، ثم مرّر راحة يده فوق عينيه مبسملاً مترنماً بالتعاويذ مردداً أوراداً خاصة حتى انتهى الى القول بأن حياته في المستقبل سوف تكون غنية ولكن التسلح بالصبر شرط واجب إذا أراد التوفيق، وقد أوصاه، بعبارات غامضة، بضرورة الصمود. ثم انحنى نحوه برأسه الأصلع وهمس بأن جهوده في الزواج من تلك الحسناء - التي يتكوّن اسمها من أربعة حروف - سوف

تكلل بالنجاح. وأخرج قرطاساً ومحبرة وكتب له حجاباً قال: انه سوف يعصمه من الحسد وأطلق سراحه. لحظتها قفز قلب أمود مرّة أخرى وهو يعد على أصابعه اسم الحسناء:

«تـ ... أ... لـ.. أ.. تالا.. تالا..». ظلّ يردد الاسم بلا وعي حتى أنه كافأ العرّاف بمبلغ كبير من الفرنكات أخرجها من محفظته دون أن يدري.

وبالفعل وفى المنجم بوعده بعد عام، فتزوّج تالا التي رفض أهلها في البداية تزويجها له بدعوى أنها مخطوبة لابن عمّها الذي ذهب إلى تمبكتو بغرض عقد صفقة تجارية رابحة هناك. ولكن الأخبار ما لبثت أن نعته بعد أن لقي حتفه مذبوحاً بسكاكين قبائل بامبارا التي أغارت على القافلة في منتصف الليل واستولت على الذهب والبضائع، فتنفّس أمود الصعداء وشكر العرّاف الغدامسي الأعمى وتقدّم للزواج من حسنائه تالا.

ولا ينسى أمود زيارته إلى سوق الحدّادة في غات بعد اقتحام الواحة وسحق الغزاة بأيام فقابل تلك المرأة الشيقة التي أخبرته، بعد أن تفرست فيه وحدّقت في عينيه طويلاً، بأن الحجاب المعلّق في رقبته ضد الحسد بطل مفعوله بفعل الزمن وحظه يستوجب أن يسارع بكتابة حجاب آخر. سألته وهي ترمقه بنفس الفضول: « .. ما لون العقرب التي لدغت الطفل؟» فقال لها: انها قاتمة تميل إلى السواد حسب رواية الناس القادمين من المضارب فسارعت تؤكد أن العقرب السوداء هي العين الحسود تسعى في الأرض. وانتهت إلى القول ان الحسّاد في الدنيا بكثرة حبات الرمل في الصحراء، وعلى الإنسان أن يحذر شرّ العين الحسود لأن الإصابة بها أسهل من الإصابة بالزكام. في النهاية رددت: « .. هذه المرّة أصابت الطفل وأرسلته إلى العالم الآخر. وفي المرّة القادمة ستحاول أن تصيبك أنت، لأنك أنت الهدف..».

استفهم منها: «ولكن من يريد بي الشرّ؟ ليس لدي أعداء..».

ابتسمت باستخفاف وقالت تخرق صدره بنظرتها الحادة: «لا يحيط بنا سوى الشرّ، ولا نخوض ونمشي إلا بين الأشرار. والدنيا مليئة بالأعداء شئت أم أبيت، عرفتهم أم لم تعرفهم، وجد السبب أو لم يوجد..».

صمتت لحظات ثم أضافت بلهجة ذات معنى: « .. لقد تزوجت فتاة حسناء. هذا سبب أول. كانت مخطوبة لرجل آخر. هذا سبب ثان. مات الرجل مقتولاً. هذا سبب ثالث. تزوجتها قبل أن يمضي أربعون يوماً على وفاته. هذا سبب رابع». ثم هزّت رأسها يميناً ويساراً وتنهدت بعمق قائلة: « .. الأسباب كثيرة كما ترى.

وأنت هائم بفاتنتك، غائب عن الوجود والأعداء تحيك الشرّ وتزرع حولك الحسد.. أسرع باستبدال الحجاب الآن قبل مغيب الشمس..». وعندما همّ بالانصراف استوقفته وسألت: «هل تحفظ آية الكرسي؟» فهزّ رأسه بالنفي فقالت وهي تحدق في وجهه دون أن ترف جفونها ولا مرّة: «يلزمك أن تحفظ آية الكرسي وتبحث في بيتك عن صرّة مخبأة بإحكام في ركن ما. اقرأ عليها الآية سبع مرات قبل أن تحرقها».

يذكر يومها أنه ذهب إلى شيخ متخصص في كتابة الأحجبة وفاز منه بتعويذة حصينة وانطلق إلى عجوز متصوف وحكيم في أمور الدين والقرآن اتفق معه على أن يحفظه آية الكرسي. ولم يغادر غات متجهاً مع المحاربين إلى البيوت إلاّ بعد أن أثمر تردده على العجوز الوقور بحفظ آية الكرسي مضافاً إليها سورة الفاتحة أيضاً. ولكن كل جهوده في البحث عن الصرّة التي أشارت إليها المرأة الحكيمة أفضت إلى الفشل حتى اعتقد أن ما أشارت إليه لم يكن سوى رمز من الرموز التي يتعمد مثل هؤلاء العرّافين أن يلجأوا له لمداراة عجزهم الذي لم يعصم الله منه أحداً بما في ذلك العلماء وأهل الحكمة. فكر طويلاً فيما يمكن أن يشير إليه هذا الرمز من معنى دون أن يتوصل إلى نتيجة.

لحقه الأذى الذي حذرته منه تلك المرأة بعد عامين عندما عجزت تالا عن الحبل وفقدت القدرة على اكتساب طفل طوال هذه الفترة الطويلة التي تفصلها عن وفاة الابن البكر. بل أصابها مرض الهستيريا، فسهرت الليالي، واتخذت من البكاء عادة ليلية بدل النوم الذي يأتيها بالكوابيس فتزحف نحوها العقارب السوداء بمجرد أن تغمض جفنيها. حاول أمود أن يواسيها ويخفف عنها قائلاً انه على يقين أنها ستحبل وستنجب فرقة من الأولاد الذكور، ولكن مواساته لم تخفف آلامها فازداد شحوبها وفقدت الشهية وهجرها النوم ففكر أمود أن يرحل إلى غات لاستشارة تلك العرافة. وهنا حدثت المعجزة. حدثت بعد قراره بأيام فقط عندما اضطرته عاصفة رملية أن يسند عمود الخيمة المهدد بالسقوط بكلتا يديه، في تلك الأثناء، وهو منشغل بمقاومة الريح الهائجة، وقع بصره على الصرّة مندسة بجوار العمود، ملاصقة له، مغمورة تحت التراب بعد أن كشفت عنها اهتزازات العمود العنيفة. انتظر حتى هدأت العاصفة وفتح الصرّة فعثر على الأظافر وخصلات شعر باهتة بشعة.

تقيأ ثلاث مرات وهو يقرأ آية الكرسي قبل أن يلقي بها في موقد النار.

في تلك الليلة نامت تالا كالقتيلة. واستمرت نائمة ثلاث ليالي وثلاثة أيام

وهي تسبح في العرق. وعندما أفاقت من النوم أصابتها نوبة من القيء استمرت عدة أيام أخرى. استعادت صحتها وعادت الحياة إلى وجهها، وبعد سبعة أسابيع أخبرته أنها حامل!

من يومها آمن بالعرافين وقراء الغيب وأدرك أن قدراتهم في مقاومة الشرّ خارقة، ولم يملّ ترديد تلك الهدية التي وهبتها له تلك المرأة الصارمة في سوق الحدّادة بغات عندما لخّصت حكمتها قائلة: «.. سم العقرب الخضراء ليس قاتلاً، ولكنه يتحوّل إلى سم زعاف مع تحوّل لونها إلى القتامة والسواد. لأن حقد الناس الأسود وشرّهم هو الذي يجعل لونها يسودّ ولسعتها قاتلة..».

ولم تغب عن باله مواهبهم حتى عندما هجروا الصحراء وفرضت عليهم الحياة في الواحة ظروفاً جديدة من المعيشة دفعته لأن يخوض غمار معركة أخرى لم يقرأ لها حساباً.

فبعد جفاف الماء في بئر أطلانطس توقفت القوافل المتجهة إلى الجنوب نحو غات أو أغاديس أو تمبكتو أو تامنغست عن المرور به واستبدلته ببئر العطشان كنقطة مرور تتزود منه بحاجتها من الماء لمواصلة الرحلة الطويلة. فاضطر أن يبحث عن مصدر آخر للرزق. في البداية لم يكن اقتناء البرسيم الأخضر أو التبن أو حتى الشعير - اللازم لتغذية الإبل والمواشي - أمراً مكلفاً بالنسبة لأبناء القبيلة، ولكن زيادة الطلب واستمراره أيقظ النهم في قلوب الفلاحين فزادوا التكلفة المدفوعة على أساس المقايضة ببضائع أخرى، ورفعوا الأسعار المدفوعة نقداً. ومع تزايد التكلفة - التي أصبحت في ارتفاع مستمر - أصبح من الصعب على أبناء القبيلة تربية المواشي بقطعان كبيرة، وأصبح ترك قوافل الإبل النهمة قبالة أكواخ الجريد أمرا أصعب، بل ومستحيلاً، لأن الإبل التي صقل الإجترار المستمر أسنانها وجعلها المضغ الدائم قادرة حتى على هرس الشوك وابتلاعه أصبحت كثيراً ما يضطرها الجوع لأن تهاجم كوخ صاحبها وتلتهم جريد السقف، بل وحتى السعف.

وقد وقعت أكثر من حادثة عندما صحا صاحب البيت ووجد نفسه في كوخ مسقوف بالسماء ومحاط بهيكل من الأعواد العارية بعد أن التهمت الإبل السعف وأوراق النخيل، مما اضطر أبناء القبيلة للتفكير جديا في إيجاد حل يكفل للأهالي طرد الحيوانات النهمة وإبعادها عن التسكع بجوار الأكواخ فلجأ بعضهم إلى تكتيف قوائمها الأمامية وتركوها تسرح في السهل الغربي الذي يؤدي إلى طريق غدامس. ولكن الحيوانات الماكرة كانت تجد في سعيها نحو غابات النخيل فتلتهم العراجين، أو تأكل المزروعات أو تدوس النباتات في الحقول مما أثار سخط أهالي

الواحة من الفلاحين، وكثرت شكاويهم ومطالبهم بدفع الخسائر، والتعويض بالمال، فحدث الصدام مع أبناء القبيلة وتطور مراراً إلى عراك بالأيدي وتناشب بالعصي والهراوات. وحسماً لهذه النزاعات وقع عليه اختيار الشيخ غوما ليتولى الإشراف على رعي إبل القبيلة في المراعي والمنحدرات الجبلية جنوب غرب الحمادة الحمراء حيث تنتشر النباتات الشاحبة والأشجار اليابسة الباقية التي تقف دليلاً على كرم السماء في السنوات الماضية. ولتنفيذ هذه المهمة التحقت به مجموعة من الرعاة والأتباع والزنوج المتخصصين في مهنة الرعي، العارفين بأسرار الحيوانات المدركين لخفايا الإبل ومزاجها المتقلب!

وهكذا قضى سنوات متنقلاً بين الشعب والأودية والمنحدرات والسهول والجبال يطارد الأعشاب اليابسة ويبحث عن النباتات البرية الباهتة ويقتفي آثار السيول الماضية حتى أصيبت أول ناقة بذلك الوباء الذي كاد يقضي على بقية القطعان.

في البداية لم يول الأمر اهتماماً كبيراً معتقداً أن تلك البقعة الداكنة على فخذ الناقة لن تكون مرضاً يمكن أن يتجاوز الجرب في السوء، فأمر الرعاة بتدليكها بالزفت والزيوت والمراهم الخاصة بعلاج الجرب فماتت الناقة بعد أيام. ولم يفق من المفاجأة حتى نفقت ثلاث نوق أخرى ومهري أصيل يملكه الشيخ خليل.

هنا كثرت الآراء وتضاربت الاقتراحات وثارت البلبلة بين الرعاة ومضت على جناح الريح حتى وصلت آذان القبيلة في الواحة فجاء الشيخ آهر يرافقه متخصص في معرفة داء الإبل. وهو رجل ضعيف البنية، نحيل الجسم، كفيف البصر، يتمتع بموهبة خارقة في تأدية عمله. جاء في الليل ونهض عند الفجر، شرب كوب الشاي الأول على الخواء وقرأ سورة الفاتحة مع الشروق قبل أن يبدأ عمله. زحف نحو الإبل وشرع يتحسس شواربها الكبيرة ويزيح الحيوانات المريضة ويأمر بعزلها عن بقية القطيع فوراً حتى فرز كل الإبل مع حلول القيلولة فاستلقى في الخيمة مسنداً ظهره إلى العمود وطلب تحضير الشاي الأخضر.

هنا تنفس الرعاة الصعداء ونشبت المعركة التي لم يكن ضحيتها سوى أمود نفسه. انبرى رجل حاقد من الأتباع يكيل له التهم ويحمله مسؤولية نشر الوباء بين الإبل بسبب إهماله واستهتاره ورفضه الاقتراح بعزل الناقة المصابة منذ البداية. وادّعى أن أمود على معرفة جيدة بسرّ الوباء ولكنه آثر النوم وتعمّد القضاء على القطيع لغرض شرير في نفسه لا يعلمه إلا الله.

دهش أمود لهذا الاتهام وتساءل بينه وبين نفسه عن السبب الذي يدعو هذا الرجل لتلفيق التهم ضده فتذكر كيف رفض طلباً بالإذن له لزيارة الأهل في الواحة

منذ شهور، فاستغرب أن يكون هذا السبب التافه مبرراً لكبت الحقد وإلحاق الأذى.

استولى عليه الغضب فهجم على الرجل وأطبق بيديه على عنقه يريد خنقه، ولم يتمكن الشيخ آهر من نزعه من بين يديه إلاّ بعد محاولات متكررة عاونه فيها عدد من الزنوج الأقوياء.

منذ ذلك اليوم حلف أمود يميناً بالطلاق بأن رجله لن تطأ المراعي مرة أخرى.

ظلّ الشيخ آهر طوال الليل يهدىء من غضبه ويحاول إقناعه بالعدول عن قراره ولكن جهوده لم تفض إلى نتيجة.

مكث ـ بعدها ـ في الواحة، يرقد حتى الأصيل، ويقضي الوقت في التسكع بين الأكواخ أو زيارة سوق الواحة في الساحة الكبيرة التي تتوسط البيوت المشيّدة بالطوب الأحمر، الراكعة بحذاء الجبل المتوج بمغارة الساحر مهمدو. وكان يقطع هذه المسافات مع من تبقى من شباب القبيلة الذين ركنوا إلى العطالة، واستسلموا للكسل يتوجون رؤوسهم بأذرع القماش الأبيض، يرفلون في القمصان الفضفاضة فيبدون في كبرياء خطواتهم كالطواويس المنفوشة!

في البداية شغل نفسه بالتردد على كهف العجوز مهمدو لمجرد تضييع الوقت وطلب التسلية ولكن مع الأيام وتكرار الزيارة أدرك أنه يفعل ذلك كسباً للحكمة أيضاً وسعياً وراء الفائدة.

فتجرأ مرة وقال له: « .. يا شيخ مهمدو. منذ زمان وأنا أريد أن تقرأ لي المستقبل. فهل حققت لي هذه الرغبة؟ ».

ثم سرد عليه قصته مع العرّافين منذ تحسس وجهه الكفيف الغدامسي وحتى الزنجية العجوز في أغاديس. ولكن مهمدو حدّق فيه طويلاً بعينيه الكابيتين اللتين يغزو مقلتيهما البياض تحت ضوء القمر الساطع، واستمرّ يحدق طويلاً حتى ظن أمود أن العجوز لن يجيبه.

في النهاية قال:

« .. لم أعد أقرأ الحظ منذ زمان. لقد تركت هذه المهنة لغيري ولا أبغي إلا رضى الله ومغفرته إذا حدث وأخطأت في التقديرات. أما بشأن سؤالك حول تنبؤات المنجمة العجوز فأريدك ألاّ تعيرها اهتماماً. ما هي الحياة إذ لم تكن معركة كبيرة وأخيرة أيضاً؟ لا تنس أننا معشر المنجمين كذبنا حتى لو شاءت الصدفة وصدقنا .. ».

ثم أعقب ذلك بابتسامة تحوّلت فيما بعد إلى ضحكة أقرب إلى قهقهة منهكة،

ضعيفة، أشبه بحشرجة مكتومة.

صمت أمود وتابع النور الخافت المنبعث من النار الخابية في الموقد. في البيوت الراكعة تحت الجبل تلمع أضواء النيران بين الحين والآخر، وترتفع أعمدة الدخان إلى السماء مشيرة إلى اقتراب موعد العشاء. تضج أصوات النساء بالنقاش ويصرخ الأطفال بالبكاء.

ولكن أمود لم يلح على مهمدو في أن يكشف له عن المستقبل برغم رغبته المحمومة في رؤية ما يخبئه الغيب.

قال في نفسه وهو يلقي بالحطب إلى الموقد: «قراءة الغيب كمضغ التبغ، إذا جربتها مرة وسرى خدرها في جسمك فإن روحك تطلبها باستمرار...».

كان قد سرح بفكره إلى أغاديس ورأى الحكيمة الزنجية الملتحفة بردائها الأسود الذي تطل منه خصلات شعرها المجعد الأشيب، تجلس القرفصاء بجوار قصر السلطان، تلقي بحبات النوى على رقعة القماش فتكشف الستار عن المجهول.

* *

في الشهور التالية قرر أن يجرب حظه في تجارة الحطب!

لم يدفعه الملل وحده لاتخاذ هذا القرار الغريب في احتراف مهنة أدهشت الجميع في القبيلة، ولم يحفزه لذلك الدوار الذي سبّبه له النوم حتى مطلع الشمس أو الغثيان الناجم عن التسكع بين الأكواخ أو قطع المسافة إلى سوق الواحة والعودة يومياً، كما لم تكن إلحاحات مهمدو وحدها في تنفيذ عمل ما وضرورة معرفة طعم الجهد وممارسة طقوسه المقدسة - كما يقول - ولكن الحاجة هي التي فرضت عليه هذا العمل الجديد الذي رأت فيه القبيلة ابتكاراً جديراً بالتحفظ في البداية ومن ثم الاستنكار في النهاية.

فبعد أن كفّت أعمدة الدخان عن التصاعد من الكوخ وغابت فيه روائح الطعام وهمدت النار في الموقد ولم يعد إناء الشاي الأخضر يغلي فوق الجمر، والخباء خلا حتى من حبات التمر ورأى التساؤل والتأنيب ومشاعر أخرى غامضة في عيني تالا نهض في فجر أحد الأيام وأسرج المهري وانطلق عبر الطريق الجنوبي الذي يقود إلى غدامس وهو يفكر كيف أنه من قبيلة غريبة ذات أبناء من طينة أغرب: لا يتحركون لعمل شيء إلاّ عندما يتبدد الزاد نهائياً ويلدغهم الجوع، لحظتها فقط يصحون وينطلقون للكسب كأنهم يستمدون هذه العادة السيئة من طبيعة جِمالهم! أم أن حياة الاسترخاء في الواحة هي التي ربّت فيهم هذه النزعة التي تطورت - فأصبحت عادة؟ أم ذلك هو الزهد الذي يتحدث عنه العجوز مهمدو

ويدعو له وينصح الجميع للالتزام به؟

في الشهور الأولى من تأدية عمله الجديد ابتسم له الحظ وحالفه النجاح وكسب المال الوفير حتى ظن أن تجارة الحطب أشرف مهنة وهنأ نفسه كثيراً على هذا الاكتشاف الذي لم يهتد إليه أحد من أبناء القبيلة ولم يعرف له أهل الواحة سرّاً في السابق. ولكن الحظ الذي ابتسم له سرعان ما عبس وتجهم بعد أن تسابق الشباب من القبيلة وكذلك من الواحة في جلب الحطب وإغراق السوق بكميات ضخمة ساعدت على كساد بضاعته بسرعة لم يتوقعها. بل إن منافسيه قد تفوقوا عليه قبل إغراق السوق بعد أن استفادوا من أخطائه وأدخلوا تعديلات على البضاعة منها تحويل الحطب الى فحم وتخزينه لمواسم البرد في الشتاء فاختصروا الطريق إلى النجاح والربح والتفوق فعجّلوا بسحب البساط من تحت قدميه حتى وجد نفسه يتراجع عن ممارسة هذه المهنة الشقية!

والحق أن انسحابه جاء في أوانه بعد أن لسعت أذنه أغانٍ هجائية تتردد على الألسن تشنع عمله الذي لا يليق بأمود النبيل وتنعته بارتكاب العار وتصفه بالأكول الشره الذي استخدم المهري الرشيق لحمل أثقال الحطب بدل السرج الأنيق الذي طرزته أنامل حسناء فاتنة من تامنغست! ومضت القصيدة تنهش لحمه وكرامته فخاطبت تالا بقصد تأليبها عليه قائلة انها فتاة من عائلة نبيلة وأشرف لها أن تطلب الطلاق من رجل لم يعد يستحقها بعد أن مرّغ سمعتها في التراب! وتمادت تلك الشابة الوقحة التي ألّفت القصيدة ـ وقيل له أنها من عشيرة الشيخ آهر ـ فقالت في أحد الأبيات أن: « .. وجوه حسان القبيلة اسودّت من الخجل قبل أن يسوّدها الفحم الذي يبيعه أمود في السوق..» . هنا أحسّ أمود أن كل بيت من هذه القصيدة الهجائية هو بمثابة سكين مغروس في قلبه فوثب واتجه إلى بيت الشيخ آهر كي يطلب تفسيراً لهذا العداء الذي لم يجد له مبرراً. ولكنه قابل الشيخ غوما في الطريق فاستوقفه وسأله عن الأحوال، وعندما أحس الشيخ، بفراسته، أن أمود يغلي في الداخل ويفور طلب منه أن يجلس قليلاً ويلتقط أنفاسه. جلسا على الأرض مباشرة في تلك المسافة التي تفصل خيمة غوما عن كوخ آهر فلم يستطع أمود أن يحبس انفعاله أكثر فسرد قصته مع الحطب ومع القصيدة المعادية فضحك الشيخ غوما بصوت عال برغم أنه نادراً ما يفعل ذلك خاصة مع الشباب وقال وهو يسحب لثامه على فمه:

« .. لا أنصحك بأن تذهب للشيخ آهر في أمر كهذا. سوف تثير سخرية الناس! » .

صمت لحظات حتى اختفت آثار تلك الابتسامة الرائعة التي أعقبت ضحكته المفاجئة، ثم أضاف بصوت جاد، بل أن أمود اصطاد فيه نبرة كآبة:

« .. الرجل الجاد لا يعير اهتماماً لما يقال حتى لو كان قصائد فتيات القبيلة. لا تعر اهتماماً لا لقصائد الهجاء ولا لقصائد المدح. إمض إلى عملك، ولا تضيّع الوقت...».

وبرغم أن كلام الشيخ ساعده في تحمل أبيات القصيدة الشريرة التي استمرت تتسكع بين الأكواخ وتتردد في الأفواه، وهدّأ من غضبه وحفّزه على الاستمرار في عمله إلاّ أن جمرة الألم في أعماقه لم تنطفىء حتى تكاثر على تجارته المنافسون وأغرقوا السوق بالحطب فوجد المبرر الذي كان يبحث عنه فانسحب الى كوخه وعاد إلى النوم حتى مطلع الشمس.

لم يقض وقتاً كثيراً في التسكع والتثاؤب هذه المرّة. فقد دفعه شجار عنيف وقع بينه وبين نفس الرجل الحاقد من قبائل الاتباع - الذي سبق واصطدم به في الصحراء عندما كان يتولى رعي الإبل - إلى الزحف نحو الشمال والالتحاق بأقرانه الذين قضوا زمناً وهم يحرثون رمال الصحارى بين الواحات المجاورة ويقاومون العواصف والأتربة الزاحفة على الطرق. حدث ذلك عندما قصد حفلة سمر ليلية أقامتها فتيات القبيلة بمناسبة حلول عيد الأضحى فنصبن حلقة حول الطبول وآلات إمزاد في العراء الذي يمتد بين الأكواخ وغابات النخيل. انهمكت الأيدي في قرع الطبول، وتسللت الأنامل الرقيقة فعزفت على إمزاد وارتفعت الحناجر بغناء ممتع فتلقفت حناجر الرجال اللحن ورددته بصوت جماعي فوقع من وقع من الشباب في الوجد وطفقوا يصفقون ويترنحون في رقصهم حول حلقة النساء حيث تصدح الموسيقى الجنونية حتى أحس أمود بلكزة قوية من مرفق أحد الشباب فلم يهتم في البداية مقرراً أن من يلقي بنفسه في الزحام عليه أن يتحمل لكمات المناكب بل وحتى رفس الأقدام، ولكن الشاب عاود اللكزة بغلّ واضح فأدرك أمود أن صاحبها يتحرش به، التفت فرأى رجلاً ملثماً بعمامة مخططة فعرف من اللباس أن الرجل لن يكون سوى من الأتباع ولكن الشاب اقترب من وجهه وهمس في أذنه بصوت حقود: « .. إنني أرى بائع الحطب يشارك في أفراح النبلاء ..». لحظتها عرف الصوت. لم يكن سوى ذلك الرجل الذي اتهمه في المراعي أمام الشيخ آهر بتعمد القضاء على قطيع الإبل.

إذن اللكزة كانت متعمدة. انقض عليه أمود ونزع عن وجهه اللثام، ثم عاجله بلكمة عنيفة على فكه الأيمن، ثم توالت اللكمات حتى سقط الرجل على الأرض

بجوار حلقة النساء فاستبدل باللكمات الرفسات من كلا رجليه، توقف الغناء وارتفعت أصوات النساء وتدافع الشباب لفصل العراك فأمسكت مجموعة بأمود الهائج وتسابقت مجموعة أخرى إلى الرجل الملقى على الأرض الذي استمرّ يردد كي يسمعه الجميع: « .. بائع الحطب! بائع الحطب يشارك في أمسيات إمزاد .. بائع الحطب يردد أغاني الغزل.. بائع الحطب.. بائع..»، ثم بصق الدم ممزوجاً بحبات الرمل وانطلق في ضحكة عصبية شريرة. عاد أمود يقسم اليمين مرة أخرى.

أقسم هذه المرة ألاّ يمكث في هذه الواحة الملعونة يوماً واحداً. ذهب إلى سوق الواحة في اليوم التالي واستأجر مكاناً شاغراً في سيارة اللاندروفر التي تتردد على الواحة في رحلة شهرية لدفع مرتبات موظفي الحكومة ونقل البريد.

قبل أن تنطلق السيارة وتخترق الجبال الشمالية الحزينة المطلة على الواحة من الشمال رأى أمود الشيخ غوما يقطع المسافة بين ساحة السوق وسفح الجبل متجهاً - كما خمّن - لزيارة مهمدو، ويبدو أن الشيخ لم يلحظه فانتهز الفرصة واختبأ خلف السيارة حتى لا يقع عليه بصر الشيخ. وعندما اختفى خلف بيوت الطين قفز أمود في مؤخرة اللاندروفر التي هدر محركها وتأهبت للرحيل، وقبع بين مجموعة من الركاب الذين تفوح من أجسادهم رائحة العرق والطين.

داس السائق على البنزين فانطلقت السيارة في الطريق الصحراوي المترب مثيرة زوبعة كثيفة من الغبار.

* *

استقر في خيمة باهتة اللون منسوجة من قماش خاص سميك يراه لأول مرّة.

الخيمة لم تنسج من وبر الإبل أو الماعز مثل خيم القبيلة ربما لهذا السبب لا تصمد في وجه الرياح العنيدة. ما أن تهب زوبعة محملة بالأتربة أو تهجم عواصف القبلي الرملية حتى يتعالى صياح الشباب: «أدركوا الخيمة! أدركوا الخيمة!» ويلقوا بأدوات العمل ويتدافعوا - في سباق مضحك - نحو الخيمة التي ينفشها الغبار فتنطلق من عقالها وتطير مع الريح ساحبة الأوتاد وراءها متجهة صوب السماء.

أثار هذا المنظر دهشته في البداية، ثم أصبح يضحكه عندما تكرر أكثر من مرة. بل أصبح يتمنى أن تهب الرياح لكي تأخذ هذه الخيمة الغريبة إلى الشيطان حتى يروّح عن نفسه ويلتقط أنفاسه ويريض رئتيه بالضحك قليلاً. فيجلس على الأرض ويتابع الجماعة وهم يتسابقون نحو الخيمة التي تبدأ في محاولة نزع أوتادها من الأرض في حركات عنيفة متتالية كطائر خرافي يصفق بجناحيه

استعداداً للطيران. يدركها الجماعة فيتشبثون بأطرافها ويسارع البعض للإمساك بالحبال التي تصل الخيمة بالأوتاد، ويدوس البعض الآخر على الأوتاد نفسها، ويظلّون يتكأكأون حولها حتى تهدأ الريح وتمضي العاصفة. ولكنهم لا يدركونها في أغلب الأحيان فتتمزّق إذا قاومت الأوتاد إنطلاقها أو ترفرف بجناحيها للسفر إلى السماء!

يروق لأمود أن يلقي بالفأس جانباً، ويغرق في نوبة من الضحك. وكان في هذه الأثناء يتلوى فينحني إلى الأمام ثم يعود فيستلقي إلى الوراء دون أن يتوقف عن الضحك. هذا التصرف يثير حنق المجموعة فيبادره منصور برجوج: « .. تضحك وتتفرج. غداً سوف أتفرج عليك عندما تغلي الشمس رأسك وتكوي مخك حتى ينضج..».

فيصيح آخر: « .. بل ستكوي رأسه وتعيده إلى الصواب فيعرف كيف يتحرك ويفعل شيئاً من أجل إنقاذ الخيمة بدل الفرجة والضحك..».

ولكن هذه التعليقات لا تساعد أمود في الكف عن الضحك وإنما تزيد من حدّة النوبة فيضرب منصور برجوج كفاً بكف مردداً: « .. لا حول ولا قوة إلا بالله..».

أطلق أمود على الخيمة إسم « جناح الشيطان » وظلّ يردده حتى راق للجماعة - أو ربما فرضه عليهم التكرار - فطفقوا يرددونه بدورهم. فبمجرد أن تطير الخيمة أو تتمزق يجلس منصور برجوج على الربوة ويخرج من جيبه ورقة صفراء مطوية ومبقعة الأطراف بالعرق ويتناول قلم الرصاص الذي يبريه بسكين لا يفارق جيبه أيضاً ويوجه خطابه - الذي أصبح تقليدياً باستمرار مناوشة الرياح وإتلافها للخيمة - إلى رئيس العمّال ببراك يطلب فيه تزويده بخيمة جديدة بعد أن عملت الريح عملتها وطارت بالخيمة إلى السماء!

وكان منصور - وهو ينهمك في تسطير الرسالة - يردد كلمات مسموعة، يتهجّى حروفها ببطء شديد مثل: « حض... رة.. جنـ.. أ.. أ. ب.. ألـ... مـ... حـ... تـ... ر.. م...». وعندما ينتصر على نفسه وعلى الكلمة وينتهي من تسطيرها على الورقة يعيدها بصوت مسموع عدّة مرّات يتخللها بحركة يده المستمرة التي ترفع قلم الرصاص إلى شفتيه فيبلّله بلعابه ويعود للانكفاء فوق الورقة المبسوطة على ركبتيه. وعندما ينتهي من عمله يطوي الورقة وينتظر حتى تمر إحدى السيارات فيقدمها عادة للسائق ليسلمها لرئيس عمّال الطرق في واحة براك.

والجماعة يتمتعون بموهبة نادرة في معرفة السيارات العابرة إلى الجنوب نحو

الواحة أو العكس.

فما أن يرتفع الغبار في الطريق البعيد حتى يتصايح الجماعة: «هذه سيارة البريد قادمة..». أو: «هذه سيارة البوليس» أو: «هذه سيارة المتصرفية» أو «هذه سيارة شحن البضائع القادمة من طرابلس».

وقد أدهشت هذه الموهبة أمود في البداية واستغرب كيف يستطيع الرجال أن يتنبأوا بتبعية السيارة ونوعها بمجرد أن يبدو للعيان الغبار الذي تثيره في الأفق. ولكنه حبس دهشته ولم يبح بها لأحد برغم يقينه أن هذه الموهبة مؤهلة لأن تنافس مواهب أولئك المنجمين الذين عرفهم في غدامس وأغاديس وغات.

مع الأيام اكتشف أن موهبتهم مزيفة بعد أن أدرك أن زملاءه إنما يعرفون تبعية السيارة ونوعها حسب أيام الشهر. فكل مصلحة حكومية تبعث بسيارتها في يوم معين من الشهر لدفع مرتبات الموظفين والمستخدمين والعمّال أو توزيع بريد المغتربين على الأهالي أو تفريغ حمولات البضائع في حصص معلومة يتلقفها تجار الحوانيت والدكاكين المنتشرين في جنبات ساحة السوق بالواحة. ونادراً ما تمرّ سيارة أخرى خارج هذا الجدول الذي حفظه الجميع عن ظهر قلب. وإذا حدث هذا الاستثناء فإن السيارة غالباً ما تكون لمسؤولي الأمن في رحلاتهم التفقدية ودورياتهم المتباعدة على المناطق النائية أو لكبار موظفي الولاية الذين يروق لهم أن يشرّفوا أهالي الواحات المساكين بالزيارة لجبر الخاطر والقضاء على ما تيسر من خرافهم ومواشيهم التي يقدمها الأهالي عن طيب خاطر كقرابين لكسب رضى هؤلاء السادة المتخمين الذين تلمع وجوههم تحت أشعة الشمس، وقد تكون السيارة تابعة لإحدى شركات النفط الباحثة عن الغزلان!

وهذا النوع الاستثنائي من السيارات لا يتوقف عادة. يمر على معسكر العمّال في سرعة جنونية ويغرق الجماعة في عاصفة من الغبار يجرّها خلفه في ذيل طويل لا يختفي حتى تقطع السيارة مسافة بعيدة. يظلّ الغبار معلقاً في الهواء كسحابة شيطانية تتسلل إلى الرئتين فيتوقف الجماعة عن العمل ويبدأون في مغالبة نوبات السعال زمناً طويلاً فينتهزها البعض فرصة للراحة والتقاط الأنفاس وتدخين لفافة من تبغ «الرايس» أو «الجفارة» أو حفنة من التبغ للمضغ فيرتفع النقاش ويحتدم الخلاف ويغرقون في الجدل. فهذا يستعير سيجارة من ذاك، وذاك يرد الدين لآخر، وثالث خبأ لفافتين في أحراش الأثلة المجاورة لليوم الأسود ويقسم الآن بأغلظ الإيمان أن اللفافة التي بين يديه هي الأخيرة ويحاول إقناع صديقه الملحاح اللجوء إلى منصور برجوج الذي لا تخلو جيوبه من الاحتياط ولا ينسى أن يردد

المثل: «بيت الأسد لا يخلو من العظام».

أما السيارات المنتظمة في مواعيد معينة فهي التي تتوقف عادة وتجلب الخيمة البديلة والتموين والماء والسجائر ورسائل الأهل والمرتبات التي تدفع مرتين كل شهر، كما تحمل منهم الرسائل المكتوبة والتوصيات الشفوية والنقود التي يرسلونها إلى أهلهم وعائلاتهم. وقد يتشرف رئيس العمّال بالمجيء شخصياً للاطلاع على سير العمل وتفقد الأشغال والاستماع إلى آرائهم وشكاويهم التي يدونها في دفتر يحمله معه باستمرار، وقد لاحظ أمود أنه يخرج نفس الدفتر كل مرّة ويدوّن نفس الملاحظات والشكاوى دون أن يتذكر أنه سجل نفس الكلام في المرة الماضية، ويبدو أنه ينسى ما يسجّل بمجرد أن يطوي الدفتر، حتى أصبح أمود يكتم الضحك كلّما رأى رئيس العمال يسحب الدفتر العتيد ويكتب الملاحظات التي لا يمل منصور برجوج من تكرارها. والحقّ أن أمود شعر بالاعجاب نحو منصور لإصراره المستميت في إعادة نفس الطلبات.

وعادة ما تتوقف السيارات المنتظمة حتى لو لم تحمل أيّاً من تلك الأشياء التي تعودت أن تحملها إليهم. فيتزاحمون عليها ويتحدثون مع السائق أو مع الركاب ليتسقطوا الأخبار ويطمئنوا أنفسهم عن الأهل والأقارب والأصدقاء ويقدموا الدعوة لاحتساء الشاي الأخضر أو تناول طعام العشاء، وقد يقبل البعض وقد يعتذر البعض الآخر متعللاً بالاستعجال الذي أصبح ظاهرة جديدة لم يألفها أهل الصحراء والواحات من قبل عندما كانوا يتنقلون على ظهور المهاري والحمير! فيفرحون بأولئك الذين يلبّون الدعوة لمشاركتهم الطعام أو احتساء الشاي ويغمرونهم بالاهتمام ويظلون يحومون حولهم. يتسابقون لتنفيذ طلباتهم ويهرعون لأية حركة يأتي بها الضيف قد تنم عن رغبة أو حاجة أو نية. ويبالغون في حفاوتهم إلى حد إحراج الضيوف. والحق أنه لا يمكن إدراك مدى صدق مشاعرهم إلا لمن ذاق مرارة العزلة في العراء، وكتب عليه أن يعيش منفياً بين كثبان الرمال متخذاً من مقاومة الرياح التي لا تهدأ وصدّ زحفها حرفة له!

وعندما يغادر الضيوف يشيعونهم صامتين وهم يقفون في صف لتحيتهم. يحيونهم بالمصافحة في البداية ثم بتلويح الأيدي في النهاية.

يختفي الغبار فيعودون منكسرين إلى آلاتهم، يسوون التضاريس، أو يردمون الحفر أو يزيلون الارتفاعات والمنحنيات، يمسحون التجاعيد والغضون والأخاديد التي خطتها السيارات على وجه الطريق. يفعلون ذلك صامتين، ربما لأن قلوبهم ما زالت ترحل مع السيارة التي غادرتهم إلى الواحة، وغالباً ما ينسون أنفسهم

ويصومون عن الكلام حتى حلول المساء. فيخيم السكون أثناء تأديتهم لعملهم ولا يسمع إلا أصوات ارتطام الآلات الحديدية بأحجار الأرض، ونادراً ما يسمع من يسعل أو يتنهد أو حتى يسحب النفس بعمق. يسود عليهم وجوم كأنهم في مأتم! وجوم العزلة والحنين.

أما تلك السيارات العابرة التي لا تتوقف فإنهم يرفعون أيديهم لتحيتها بمجرد أن يبدو الغبار الذي تثيره في الأفق، ويستمرون يهزون أيديهم فوق رؤوسهم حتى تمر السيارة دون أن تهدئ من سرعتها فيتابعونها بعيونهم حتى تختفي ليستنشقوا الغبار الذي خلفته ويغرقوا في السعال والخيبة.

وحتى إذا لم تتوقف السيارة فإنهم يكفون عن تبادل الكلام زمناً دون أن يعرفوا لذلك سبباً ويظلون يتبادلون النظرات الصامتة من تحت عماماتهم دون أن تجرؤ ألسنتهم على النطق. ربما لأن السيارة لم تتوقف، ولم يرووا عطشهم إلى التحدث مع الناس القادمين من الواحات الشمالية الراحلين إلى واحاتهم الجنوبية، أولئك المحظوظين الذين يستطيعون أن يتمتعوا برؤية الأهل ويتبادلوا الأحاديث مع الأقارب والأصدقاء. وربما لأن حالة الاستعجال التي استحدثتها الأيام وجاءت مع السيارات نفسها هي التي تمنعهم، وربما كان ما اصطلحوا على تسميته أخيراً « الظروف » هو العائق.

كل يرمق زميله من طرف خفي ويبحث عن المبررات لسائق السيارة التي مرت كالسهم ولم تتوقف. بل ان السائق لا يتنازل أحياناً حتى لتحيتهم بإنارة مصباح السيارة وإطفائه في إشارات متتالية كما اصطلح السائقون على تسميته « تحية الصحراء ».

في الأيام الأولى التي أعقبت مجيئه وجد نفسه يراقبهم بفضول، وعندما فهم آلامهم - شعر نحوهم بالعطف والاشفاق ليس لأنه مدرّب على أن يمكث شهورا قد تمتد إلى أعوام وحيداً في الصحارى العارية من النبات، الخالية من البشر والحيوان. وليس لأن هذه التجربة علّمته فنوناً تقهر الفراغ كالغناء، أو تذيب الوحشة مثل ترويض النفس وإجبارها على الإصغاء لموسيقى الصمت الأبدي، ولكن لأنه استطاع أن يتصوّر نفسه مكانهم: بضعفهم أمام العزلة، وشوقهم للقاء الأحباء وعطشهم الوحشي للفرح بين الأهل والأصدقاء. ففي الغد ربما جعلته الأيام يحتل موقف أحدهم عندمايطول به المقام. حتى إذا قامت جدران الصمت المتوتر الكئيب بينهم وهرب كل منهم الى نفسه بحثاً عن السلوى يلجأ أمود إلى الربوة ويرفع عقيرته بالغناء، أو يقطع مسافة طويلة في الخلاء، ويجلس على الأرض ويراقب

الأفق وهو يسبح في السراب ويصغي للأنغام الشجية التي يعزفها الصمت أو يتمايل طرباً لإيقاع الطبول التي تقرعها الرمال مع تراجع موجات الحرّ وحلول الفرج الذي يأتي به المساء.

ولم يكن يستطع أن يفعل ذلك دون أن يثير حنقهم، أو حنق ضعاف النفوس منهم. لم يصرحوا له بذلك في الأيام الأولى ولكنه قرأ الحنق المكتوم في عيونهم. ضاق سعد الزكارّ مرة ذرعاً باحتجاجه فأطلق لمشاعره العنان قائلاً: «لماذا لا تحترم حزننا وتصرّ أن تردد أغانيك الوقحة في كل وقت؟». حدجه أمود بنظرة استغراب في حين تدخل منصور برجوج: «من حقه أن يغني. من حق أي فرد منا أن يفعل ما يشاء ويغني ما شاء له الغناء. الصحراء شاسعة تسع الجميع، وتبتلع الأصوات والضجيج والغناء. افعلوا ما تشاؤون وتمتعوا بوجودكم في الصحراء».

ابتسم أمود بعدها ولم يعلّق بكلمة في حين احمرّ وجه الزكار ووثب إلى الخلاء مدعياً أنه يريد أن يقضي حاجته.

ولكن سوء التفاهم ذاب بينه وبينهم مع الزمن بل وتحوّل إلى ألفة خاصة عندما تولّى أمود أمر «جناح الشيطان» وانهمك يبحث عن سرّ إصراره في رفض الأرض وعشقه السّفر نحو السماء!

ظلّ يحوم حول الخيمة أياماً متتالية يتفقد زواياها، ويفحص أوتادها، وأعمدتها ثم جاء إلى الجماعة المجتمعين حول شاي المساء وأعلن:

«تلزمنا أوتاد أخرى لشدّ جناح الشيطان إلى الأرض. السرّ الأول في الأوتاد».

تبادل الجماعة النظرات في حين استمرّ أمود:

«أوتاد النخيل لا تصلح. لا بد من الأوتاد المصنوعة من السدر!».

قفزت الدهشة من محاجرهم وتساءل منصور برجوج:

«كيف عرفت؟ ما الفرق؟».

ألقى أمود بالوتد أمامه وقال:

«أنظر إليه إنه مستوي وأملس ومجرّد من تلك النتوءات التي تميّز وتدّ السدر وتجعله يتشبث بالأرض ويمنع الوتد من الانزلاق إلى أعلى!».

تناول منصور الوتد وشرع يتفحصه ويقلّبه بين يديه ثم قال دون أن تختفي الدهشة من عينيه:

«صحيح. هذا صحيح يا جماعة. الوتد أملس. ولكن كيف سنحصل على أوتاد السدر؟».

استمرّ أمود متجاهلاً سؤاله :

« لا تستطيع انتزاع وتد السدر من الأرض إلاّ إذا زحزحته يميناً ويساراً وأنت تسحب إلى أعلى بكل قوة. والريح تدفع باتجاه واحد لأنها تجهل حيلة الإنسان. السرّ بسيط كما ترون ».

عاد منصور يتساءل بإلحاح :

« ولكن من أين لنا بأوتاد السدر؟ ».

استمرّ أمود يتجاهل سؤاله للمرة الثانية وقال بلهجة غامضة وهو يتنقل ببصره بين وجوههم :

« ثمة سرّ آخر ».

تصاعدت الدهشة في عيونهم وظلّوا يراقبونه بفضول من ينتظر معجزة.

قال :

« الخيمة مقفلة من الجوانب ومن الخلف بإحكام. هذا يساعد الريح على تلقفها وإلقائها في الهواء كالكرة! ».

تبادلوا نظرات الدهشة حتى قال منصور :

« واللّه صحيح. هذا يساعد الريح. كيف لم نهتد إلى هذا السر حتى الآن؟ الشيطان. لعنة اللّه على الشيطان. حقاً سميتها يا أمود، إنها جناح الشيطان.. هذه الخيمة اللعينة! ».

وكان من نتيجة ذلك أن قام أمّود في اليوم التالي بشق أطراف الخيمة بالسكين من الجهتين لايجاد منافذ للهواء ورئتين تستطيع الخيمة أن تتنفس بهما عندما تهب العواصف. كما أرسل في طلب أوتاد السدر من الواحة فحملها سائق سيارة البريد الذي نزل ضيفا عليهم في طريق العودة وجلس بجوار منصور الذي بدأ في تحضير الشاي معلنا عن رغبته في مشاهدة ما سيفعله أمود بتلك الأعواد التي سلّمها له الشيخ خليل في كيس من القماش وطلب منه أن يعتني بها ولا يسلمها لأحد غير أمود نفسه. كان السائق مندهشاً لهذا الاهتمام الذي يوليه أهل الصحراء المجانين لأعواد الحطب!

وعندما انتهى أمود من عمله قال ضاحكا يخاطب منصور برجوج :

« تستطيع الآن أن تتحدّى بجناح الشيطان كل شياطين الصحراء. لن يتمكن حتى الجن الأزرق من انتزاعها من الأرض بعد اليوم! ».

عقب سعد الزكار :

« سوف نرى. سوف نرى عندما تهجم عواصف القبلي ».

وأعقب ذلك بضحكة خبيثة.

ولكن الطبيعة في الصحراء فنان كبير في اختراع المفاجآت ينافس الآلهة. وقد أيقنت الجماعة بهذه المقدرة عندما ثبتت الريح أقدام الخيمة وتوقفت عن مشاكستها وانتقلت لتسبب لهم المتاعب في موقع آخر: لقد وقع اختيارها على الطريق هذه المرة! والطريق الذي يشكل حداً فاصلاً بين شريط الرمال الزاحفة والسهل المكسو بأرض طينية حمراء تعلوها طبقة من الحصى والأحجار التي كوتها حرارة الشمس ولونتها بالسواد. ويمتد السهل العظيم إلى الشمال نحو الحمادة الحمراء، تتخلّله في رحلته الشاقة الطويلة لملاقاة جبال نفوسة، الأودية والمرتفعات والجبال والمنحدرات والشعاب، أمّا الصحراء الرملية فتستلقي جنوباً في شريط وحشي يزحف بعناد نحو الشمال ويغزو في هجماته الشرسة الوادي الطويل الذي تحتمي به الواحات منذ آلاف السنين. والطريق تلتزم ضفة الرمال وتصعد بحذر عبر الشريط الذي تتنازعه القوتان وتتناثر عبره سلسلة الواحات الصامدة في وجه الريح وغزو الرمال.

في قلب الشريط يقبع معسكرهم الصغير حيث تشكل الخيمة مركزه الذي يعودون إليه مهما ابتعدوا عندما يستدعي عملهم قطع مسافات بعيدة لمسح التجاعيد عن وجه الطريق. وكلّما انتهوا من موقع حزموا خيمتهم ولملموا أمتعتهم وحملوا قِرَب الماء والمؤن على ظهورهم وتحركوا إلى الأمام لازاحة غضون جديدة أو لصد هجوم مباغت من الرمال على الطريق المهددة. يبحثون عن مكان مناسب مثل مرتفع أو ربوة أو شجرة أثل صامدة وقديمة بجذوعها الخالدة التي تعيش مئات السنين وتصنع تراكمات أوراقها وفروعها ربوة عالية ترتفع على وجه الرمال وتصلح للاحتماء. فيحطون رحالهم، وينصبون خيمتهم التي فشلوا في الكف عن تسميتها «جناح الشيطان»، ويجلبون الحطب، ويكبرون النار احتفاء بموقعهم الجديد. وكانت طقوس هذا الرحيل المنظم كل ثلاثة أو أربعة أسابيع تكلفهم من الجهد والعناء ما يفوق عمل شهر في مقاومة جيوش الرمال. وقلّما تفلح جهود منصور برجوج وإلحاحاته الموجهة لرئيس العمّال في واحة براك لمساعدتهم في الحصول على سيارة شحن تنقلهم إلى الموقع الجديد. وقد يتكرم رئيس العمّال بالموافقة ويتصدق بسيارة الشحن، ولكنه يرفض في أغلب الأحيان متذرعاً بنقص السيارات ويشكو في ردّه من سوء العمل في الورشة وتكاسل الميكانيكيين في إصلاح عطب السيارات العاطلة فيضطر منصور لتصديقه ويزحف بمجموعته المحملة بالأثقال على الأقدام. وقد تشاء الصدفة أن تمر إحدى السيارات من النوع المنتظم فيتوقف

السائق ويتبادل معهم الحديث لدقائق، يسقيهم الماء أو يقدّم لهم علب البسكويت والسردين ويعتذر عن عدم قدرته على تقديم مساعدة لأن السيارة مكتظة بالركاب مثل «علبة سردين» - هكذا يروق للسائقين أن يعبروا - ويحييهم بعاصفة من عبارات التعاطف ويدوس على البنزين ليغرقوا في زوبعة الغبار.

استطاع سائق سيارة البريد أن يقدم لهم المساعدة مرة واحدة طوال وجود أمود معهم. إذ تمكن بعد محاولات مكثفة أن يصنع مكاناً لـ«جناح الشيطان» بين الركاب وصاح يخاطب منصور برجوج الذي ينوء بحمل قربة الماء:

«سوف تجدها في «رأس الغرنوق» قبل المنحدر».

وبالفعل أدركوا الخيمة مع حلول المساء ملقاة بجوار ربوة صغيرة يطلق عليها إسم «رأس الغرنوق». وفيما عدا ذلك فإن الفضل في قطع المسافات التي قطعوها يعود لأقدامهم وحدها.

والمفاجأة التي خبأتها لهم الطبيعة كانت تنتظرهم هناك، بعد المنحدر حيث استطاعت غارات الرمال وحملاتها ضد السهل المسكين أن تكسب المعركة وتزحف على الطريق، بل ومضت في هجومها فابتلعت بضعة أمتار من المساحات الشمالية وبدأت تشيد المتاريس والكثبان في الوادي أسفل المنحدر حتى أصبحت تشكل خطراً حقيقياً يحرج السائقين ويخضعهم لامتحانات قاسية في فن القيادة! فبمجرد هبوط السيارة من المرتفع تندفع في فخ الرمال الرخوة في قاع الوادي فتغمر العجلات بالرمل ويرتبك السائق ويفقد السيطرة على المقود فتنحرف السيارة يميناً نحو الرمال - إذا كانت قادمة من الغرب - أو تندفع يساراً حيث يتلقفها اللسان الرملي الذي عززت به الصحراء الرملية موقعها في نشوة انتصارها على السهل.

وكثيراً ما تسبب هذا الفخ - الذي دبرته الطبيعة بإتقان - في حدوث حوادث خطيرة اختطفت الأرواح وأصابت الكثيرين بالجراح وهشمت السيارات. وتقف المقبرة الصغيرة من حديد الخردة الملقاة على جانب الطريق شاهداً على ذلك.

نصبوا الخيمة بجوار مقبرة الخردة. في الليل وضعوا الخطة، وفي الصباح أعلنوا الحرب ضد الرمال.

قرروا مدّ يد المساعدة للسهل ودعم كفاحه البطولي ضد غارات الرمال. وبعد معركة استمرت قرابة الأسبوعين استطاعوا أن يزيحوا الكثبان الزاحفة فأصبح اللسان الرملي الأمامي محاصراً ومعزولاً عن محيط الرمال الجنوبي وتنفست الطريق بعد أن انزاحت الكثبان التي تكتم أنفاسها وتعرقل حركة مرور السيارات.

احتفل الجماعة بالانتصار حتى أنهم غنوا في الليل ورقصوا وعزفوا على المزمار وقرعوا صحن الالومونيوم الذي تعودوا أن يقلبوه رأساً على عقب ويتخذونه طبلاً يدقون عليه في تلك الأمسيات النادرة التي يرتفع فيها القمر ويعم السكون في الخلاء، فيروق المزاج وتتفجر ينابيع الشعر والحلم، فيطلقون حناجرهم للغناء ويحرقون أيديهم بالتصفيق ويثبون على أرجلهم للرقص والفرح.

تجاوز فرحهم في تلك الليلة الرقص والغناء فنظموا لعبة الهوكي على الرمال، وظلّوا يتصايحون ويتراكضون ويتسابقون في الصحراء، على ضوء القمر، حتى آخر الليل. حتى غاب القمر وعمّ الظلام.

ولكن الصحراء، لم تمهلهم طويلاً وسارعت تقصّر من عمر فرحتهم.

حدث ذلك بعد نهار قائظ من أيام الخريف.

كان الليل ساكناً والهواء خانقاً عندما خلدوا للراحة ولجأوا للنوم. وفي منتصف الليل صحا أمود على حفيف الريح ولكنه لم يقدّر خطورته إلاّ في الصباح عندما نهض ووجد حوله سدوداً من الرمال. نفض عباءته واكتشف أن سداً حقيقياً وقف خلف الخيمة من الناحية الجنوبية. التفت نحو الطريق فوجد أن خطة الرمال في استعادة الموقع ـ الذي اعتقدوا أنهم كسبوه ـ قد كللت بالنجاح.

لقد استطاعت أن تكتسح الطريق وتقطعها الى الناحية الأخرى مادّة يد المساعدة للطرف الأمامي من اللسان الرملي الذي اعتقد الجماعة أنهم عزلوه عن جسد الصحراء الجنوبية. قفز أمود وسحب الغطاء عن وجه منصور:

«انظر ماذا فعلت الصحراء بعملنا!».

فركَ منصور عينيه بيديه ثم تثاءب وهو يفتح جفنيه فيرى التلّة التي تدفن الطريق. قفز فوراً وصرخ:

«يا رسول الله! ما هذا؟ وكأننا لم نفعل شيئاً!».

ثم غرق في نوبة من الضحك لا تناسب ذلك الوقت المبكر من الصباح.

بدأت بقية الجماعة تنهض وتتقاطر للتفرج على نتيجة الخطة الناجحة التي نفذتها الصحراء ضدّهم في الليل.

* * *

لم يستسلموا.

صمدوا في وجه الضربة الأولى وتحاملوا وقاموا لإزاحة الرمال. ولإنجاز العمل بالسرعة المطلوبة عكفوا على تنفيذ المهمة في الليالي المقمرة إلى جانب النهار فأصبحوا ينامون بمعدّل أربع أو خمس ساعات فقط ليقوموا إلى آلاتهم من جديد.

أنجزوا نصف المهمة ودفعوا بكميات هائلة من الرمال وأبعدوها عن الطريق ولم يبق سوى شريط صغير يقوم على جزء من الطريق عند نقطة صعودها من الوادي إلى المرتفع المتجه إلى براك.

ركنوا إلى النوم مقررين أن ينتهوا من كومة الرمل في الصباح.

في الصباح أدركوا أنهم يقاومون الباطل ويقبضون الريح.

في الليل شنّت الصحراء هجوماً جديداً توّج بالتوفيق بعد أن رأى الجماعة تلّة الرمال تتربع فوق الطريق بعد أن قطعته نصفين مقررة بذلك أن تضاعف عملهم بالتحامها باللسان المعزول.

قال منصور بعد أن انتهى من ضحكته التي أثارت سخط المجموعة هذه المرة:

«هذه لعنة. هذا شيطان رجيم. أحلف بالله أن الشيطان يتلبس هذه الرمال ويتعمد أن يعاندنا من خلالها!».

قال أمود:

«تحقيق النصر على الشيطان يستدعي الحيلة. لا بد أن نغيّر من إتجاه الطريق!».

هتف منصور:

«كيف؟ أفدنا بالله ووفّر علينا الجهد. أنا لا أستطيع الاستمرار في إزاحة هذا الجبل من الرمل».

قال أمود وهو يشير بسبابته إلى الناحية الشمالية من السهل:

«من هذا الجانب. سوف نغير سير الطريق من عند مرتفع «رأس الغرنوق» ونذهب به الناحية الأخرى حتى يلتف يميناً مرة أخرى ويلتقي بالمرتفع ويلتحم بالطريق بعد أن يكون قد تجاوز الوادي الذي تحل فيه شياطين الرمل».

اقترب الجماعة من أمود صامتين كأنهم يدرسون الخطّة في نفوسهم. قال منصور:

«هذا يستدعي عمل أسابيع وشهور».

اقترب الزكّار وأثار نقطة كانت غائبة عن بال الجميع قال:

«تغيير الطريق يتطلب إذناً يا جماعة!».

تبادلوا النظرات وأضاف سعد الزكار:

«... إذناً رسمياً من المصلحة».

اقترح أحد الشباب الذي وقف يستمع طوال الوقت:

«وماذا في ذلك؟ سوف نطلب الإذن الرسمي ونبدأ في العمل منذ الآن».

ولكن الزكار اعترض طريقه قائلاً :

« هذا لا يجوز . الإذن الرسمي قبل كل شيء . الحكومة هي الحكومة . أنا لا أريد أن أخالف القانون! » .

تساءل نفس الشاب :

« وماذا سنفعل حتى يأتي الإذن من الحكومة؟ » .

تنهد الزكار وسلّم نظرة للأفق البعيد .

أشرقت الشمس فقال منصور :

« هل تريدنا أن نستمر في العراك مع هذه التلال الشيطانية؟ » .

قال الزكار :

« الرأي النهائي رأيك . أنت المشرف وعليك تقع مسئولية المخالفات . أما أنا فأرى أن نستمر حتى نستلم الإذن المكتوب » .

ضحك أمود بسخرية وتبعه ثلاثة شباب في وقت واحد .

ساد صمت قبل أن يحسم منصور برجوج الموقف :

« اقتراحي أن نبدأ في تغيير اتجاه الطريق حتى يأتي الرد من المصلحة . سوف أكتب طلباً إلى رئيس العمال في براك اليوم مع سائق سيارة البوليس . وحتى يجيء الرد بالموافقة علينا أن نبدأ في تنفيذ اقتراح أمود » .

حدجه سعد الزكار بنظرة غامضة .

يومها لم يفهم أحد ماذا تعني .

بدأوا في تنفيذ الاقتراح ولكن الرد لم يأت حتى أشرفوا على الانتهاء من عملهم .

وقبل أن ينتهوا من إعادة الطريق وتوصيلها نهائياً بالطرف الرئيسي جاء الرد وجاء معه رئيس العمّال بنفسه .

لم يتوقع أحد هذه المفاجأة ، خاصة وأن الرئيس لم يأت بالموافقة كما توقع العمّال ولكنه جاء بالرفض القاطع .

جلس الرئيس على بطانية أمام النار التي يعلوها وعاء الشاي مع حلول المساء . وتحلّق حوله الجماعة في دائرة واسعة . قابله أمود من الناحية الأخرى وشرع يتأمله بفضول : رجل بدين ، مكتنز الجسم ، قصير القامة ، ناعم البشرة ، يتصل رأسه بصدره مباشرة . ربما من فرط البدانة ، يسعل طوال الوقت ويدخن لفافة وراء أخرى . يحفر حوله طوال الوقت ويبصق البلغم .

« إنه مصاب بداء السلّ » .

هكذا قال أمود في نفسه وهو يراقبه.

قال الرئيس وهو يتنفس بصعوبة:

«لا أدري السبب، ولكن الحكومة لا تتخذ قراراتها عبثاً. في كل قرار ثمة حكمة خفية لا يعلمها العباد. هي تقرر وما علينا إلاّ التنفيذ».

ساد صمت قبل أن يحاول منصور برجوج الدفاع عن فكرته:

«ولكننا أنجزنا العمل. أقصد نكاد ننجزه. ما الضرر من حفر انعطافة صغيرة في اتجاه الطريق تجتاز الرملة وتكفي عباد الله شرّ الحوادث؟».

قال الرئيس وهو يبصق البلغم ويهيل عليه التراب:

«ثمة ضرر. أؤكد لك أن ثمة ضرراً. طالما الحكومة ترى عدم التغيير فإن الضرر موجود. ثم إننا ورثنا الطريق هكذا منذ العهد الايطالي. وتغيير أي شيء في المجرى المتوارث القديم يستدعي الدراسة الطويلة. هذا ليس شأني على أي حال».

سعل بحدّة فقال أمود:

«من الغباء أن نبقي على الطريق في مجرى الخطأ لمجرّد أننا ورثناها عن العهد الايطالي. إذ حكمنا العقل فإن المشكلة بسيطة.. و....».

قاطعه الرئيس باستنكار:

«المشكلة بسيطة في نظرك. آه. من أنت؟ أنت أمود صاحب الاقتراح.. الرأس المدبر.. آه. المشكلة ليست بسيطة. لو تركنا الحبل على الغارب وسمحنا لجميع العمّال بتغيير الطريق على هواهم لعمّت الفوضى ولسلّمنا كل طرق «فزان» ضحية للرمال ولذهب أولئك الأفراد المغامرون من العمال إلى أبعد وسلّموا الطريق إلى طرابلس وذهبوا بها إلى شواطىء البحر!».

ضحك بتهكم حتى تحوّلت ضحكته إلى نوبة من السعال.

لم يضحك معه أحد سوى الزكار الذي انشغل بمروح النار في الموقد طوال الوقت ويحدج أمود بنظرة ذات معنى.

قال أمود بيقين:

«الرمال سوف تزحف على شواطىء البحر شئنا أم أبينا».

هتف الرئيس وهو يلوّح بيده في الهواء:

«فال الله ولا فالك يا شيخ. أعوذ بالله. من أين أتيت بهذه المعلومات؟».

مال منصور نحو أمود وهمس في أذنه: «انتبه! هذا الكلام لن يعجبه. إنه يسكن في الشمال في بلدة على شاطىء البحر نسيت إسمها! هناك يخافون

الصحراء ويكرهون الرمال..».
ثم ابتعد برأسه وسعل مرتين سعالاً مفتعلاً. لم يلحظ الرئيس حركته ولكن الزكار سدّد نحوه نظرة شريرة.
قال الرئيس:
«على كل حال سنرى. سوف نرفع اقتراحكم مرة أخرى إلى الجهات العليا وسنطلب إعادة النظر في المشكلة مع وضع اقتراحاتكم بعين الاعتبار».
ثم انحنى فوق التراب وبصق البلغم في حفرة صغيرة وسعل بحدّة.

* * *

مع المساء تولّى أمود طقوس تحضير العشاء. انطلق في العراء قبل المغيب بحثاً عن الحطب وعندما عاد يجر كومة كبيرة بحبل من مسد رأى الجماعة يتجمعون حول سيارة البريد. مرّ بجوار مقبرة السيارات التي هشمتها الحوادث وتجنّب بقع الزيوت والدهون المتناثرة في قعر الوادي.
فرغ من عجن الدقيق ودسّ القطْعة الكبيرة في الرمال تحت الجمر والتفت نحو «رأس الغرنوق» حيث يتجمع الجماعة. تحرّكت السيارة وتفرّق الجماعة في الطريق إلى الخيمة تقدمهم منصور برجوج يمسك بورقة يلوح بها في الهواء ويتلوى من الضحك. ينثني إلى الأمام، يحتوي بطنه بيده، ويستوي في قامته، ثم يعود ينحني إلى الأمام.
قبل أن يبلغ الخيمة أعلن لأمود وهو يلوّح بالورقة:
«بشرى يا أمود. عندي لك بشرى. جاء ردّ الرئيس بأسرع مما توقعنا. نفّذ وعده ووضع مقترحاتنا في عين الاعتبار!».
ثم عاد يتلوى من الضحك.
ولما وصل رأى أمود الدموع في عينيه. ربما من فرط الضحك.
قال منصور وهو يجلس ويلتقط أنفاسه:
«إسمع يا سيدي. يقول الرئيس في ردّه. السيدان منصور برجوج وأمود ميسان. بعد التحية. بالنظر إلى ما شكلته مبادرتكما في تغيير إتجاه الطريق دون إذن مسبق من مخالفة جدية واعتبار هذا العمل سابقة خطيرة في تاريخ الطرق والمواصلات بالواحات، ونظراً لما يمكن أن يؤدي إليه من نتائج من شأنها أن تربك سير العمل وتهدد بتعميم الفوضى فقد رأت المصلحة الاستغناء عن خدماتكما فورا وحرمانكما من حقوق التعويض وتحريم انخراطكما في العمل مستقبلاً بأي قسم من أقسام المصلحة مع تعيين السيد سعد الزكار مشرفاً عامّاً على العمّال في

المنطقة. والسلام عليكم و...».
و.. انخرط منصور في الضحك مرة أخرى.
لقد استلقى إلى الخلف هذه المرّة رافعاً يده الممسكة بالورقة إلى أعلى.
ابتسم أمود بمرارة واقترب من موقد النار. أزاح الجمر جانباً وبحث عن قطعة العجين في أحشاء الرمال. زحزحها بالعصا الطويلة فوجد أنها سوداء كالفحم.
احترق الرغيف.
في الليل غاب القمر وهبت نسمات الشمال المحملة بالرطوبة والحياة مبشرة باقتراب الفرج وتراجع موسم الجحيم في الواحات. سكن القبلي وتوقفت موجات الأتربة في السماء. نهاية الخريف.
همس منصور الذي نام بجوار أمود في العراء حيث تناثر الجماعة:
«ماذا قررت أن تفعل؟ لديّ اقتراح. أنا الذي سوف يقترح هذه المرّة!».
غالب ضحكة قبل أن يضيف:
«اقتراحاتك شردتنا من الخدمة أمّا اقتراحي فسوف يقودك إلى الخلاص. سوف ترى».
ضحك ضحكة مكتومة ولكن أمود لم يجب.
عاد منصور يلح بصوت مخنوق:
«هل أنت نائم؟ أعرف أنك تبحلق بعينيك في الظلام الآن وتتعلل بالنوم. إسمع اقتراحي: سوف نتحرك إلى الأمام نحو عروس الواحات!».
ساد سكون يخرقه شخير الجماعة وتنفسهم المنتظم.
في النهاية جاء صوت أمود كأنه يأتي من بئر:
«وماذا سنفعل في عروس الواحات؟».
رفع منصور رأسه وأسنده إلى مرفقه المغروس في الرملة. قال:
«حدست أنك لست نائماً. أحسست بعينيك وهما تبحلقان في الظلام. في عروس الواحات ينتظرنا الفرج. لديّ قريب يعمل هناك في البناء سوف يساعدنا في الحصول على عمل. أكّد لي في رسالة منذ يومين عن حاجة الشركة التي يعمل بها إلى عمّال بناء».
عاد الصمت إلى السيادة.
تساءل أمود:
«ولكن ليس لدينا خبرة في البناء».
فنّد منصور الاعتراض على الفور:

«وهل لديك الخبرة عندما جئت للعمل في مسح الطرق؟ سوف نتعلم، لن يحتاج البناء إلى خبرة كبيرة. ثم لا تنسَ أن لدينا خبرة سابقة. العمل في الطرق يعتمد كخبرة سابقة. غداً سوف أجعلك تطّلع على التفاصيل الاضافية. في الصباح سوف نتصيّد سيارة البريد في طريق عودتها. الصباح رباح».

وضع رأسه على الوسادة وسحب على وجهه الغطاء.

* * *

سبها.

عروس الواحات وعاصمة الصحراء، تلمع في شوارعها أضواء الكهرباء فتومض من بعيد وتتلألأ كالجوهرة.

دخلوها مع هبوط المساء. وعندما تخلّصت السيارة من الرمال التي تعيقها ككتل من الوحل وأدركت الطريق المعبد بالإسفلت. كفّت عن الاهتزاز والانتفاض.

هتف منصور:

«ياه. هذا هو الاسفلت. تجري السيارة وكأنها واقفة لا تتحرك. ياه. إنه طريق لا يشبه طريقنا الذي نقضي العمر في العراك معه. حقاً ان العمل في الطرق مثل طرق الواحات هو جنون!».

انفجر في ضحكة قصيرة وأضاف بعصبية:

«ولكن الرئيس قدّم لنا هديّة وحررنا منه».

لم ينتبه أمود إلى ثرثرة منصور. ظلّ قابعاً في ركن السيارة، مختبئاً بين الركّاب، ملفوفاً بعباءة بيضاء، ولثام مخطط باهت اللون، يراقب أعمدة النور العالية والفلل الفخمة والبيوت الجميلة المنسقة على جانب الطريق المعبد بالإسفلت الأسود.

كان أمود غارقاً في الحلم.

يعاني من تلك «النشوة» التي هاجمته في تلك اللحظة وتذكرها فيما تلى ذلك من سنوات. تذكرها إلى الأبد.

داهمه إحساس غامض لم يعرفه من قبل، بأن ما يراه أمامه الآن سبق وأن رآه وعاشه وشارك فيه. إحساس خفي يشابه ذلك الإحساس الذي يسيطر عليه غالباً ويؤكد له عودة موقف ما إلى الحدوث، فيجزم أن ما حدث سبق وأن حدث بالتفصيل في لحظة ما، في يوم ما، ولكن: متى؟ وأين؟ وكيف؟

قال في نفسه وهو يستسلم لتلك الرعشة الممتعة التي جعلها هذا الشعور المدهش تتأجج: «هذا في الحياة السابقة. رأيت هذه المدينة في الحياة السابقة. في

حياة مّا».

لم يبح لزميله بتلك اللحظة المبهمة، لم يخبر منصور بإحساسه الخفي. أخفى عنه السّر.

* * *

ألقت بهما اللاندروفر على قارعة الطريق في منطقة «قعيد» بجوار محطة بنزين «شلّ»، وأخبرهما السائق أن المنطقة تشكل مركز المدينة الذي يؤمه الزوار وينطلق منه المسافرون والمارة إلى المناطق الأخرى.

لاحظ خلو الطرقات من المارة وهما يتجهان صوب الجامع. في الطريق عثرا على مقهى يزمع أن يقفل أبوابه. على الطاولة جلس رجل عجوز يعد الأوراق النقدية بعناية في حين انهمك طفل في السادسة أو السابعة من عمره، في سحب الكراسي الخشبية من ساحة أمام المقهى وحشدها داخل جدران المقهى الصغير.

ردّ العجوز على تحيتهما بإيماءة من رأسه واستمر في تقليب الأوراق النقدية بين يديه بسرعة تنم عن خبرة ومهارة.

قال الطفل دون أن يتوقف عن جرّ الكراسي إلى الداخل:

«خلاص. قفلنا. تصبحوا على خير».

ولكنهما لم يتحركا.

في تلك اللحظة انتهى العجوز من حساباته ودسّ النقود في درج قفله بالمفتاح ووضعه في جيبه. وأخرج مسبحة طويلة من نفس الجيب وتساءل دون أن يلتفت بوجهه نحوهما:

«يبدو أنكما غرباء. للضيوف الغرباء دائماً يوجد الاستثناء».

لم ينتظر جوابهما فقال ملتفتاً إلى الطفل الذي انتهى من تصفيف الكراسي ورصّها لتلاصق الطاولات في نظام من يتقن عمله:

«حضّر لهما طاولة يا صادق».

ظلّ أمود يراقب عمل الطفل بفضول وإعجاب في حين قال منصور:

«وصلنا توّاً من الواحات. نزور العاصمة لأول مرة. سبها جميلة وأضواؤها تبهر العين كتلك التي تحدث عنها القرآن ووعد بها عباده في الجنة».

ابتسم العجوز ابتسامة غامضة وهو يضع سندوتش التن وزجاجتين من البيبسي كولا أمامهما على الطاولة.

همهم وهو يحدج منصور بنظرة كسولة:

«.. تبهر العين. قلت تبهر العين.. سبحان الله..».

عاد وجلس إلى طاولته في الركن وبدأ يداعب حبات مسبحته ويترنم ببعض الأدعية.

انهمكا في تناول الطعام. كان أمود يشعر بالحرج ويتنقل ببصره بين منصور والعجوز القابع في الركن. راقب منصور الذي انشغل في التهام السندوتش، ثم أزاح لثامه ـ الذي يعلوه غبار الطريق ـ عن فمه وبدأ يمضغ. لاحظ أن منصور يشرب من زجاجة البيبسي مباشرة. لم يجرؤ أن يجاريه فطلب من الطفل أن يأتي له بكوب.

قال العجوز:

« .. تبهر العين ولكنها لا تبهج الخاطر. ليس كل ما يلمع ذهباً ولا يغرينا بالبريق إلاّ الشيطان الرجيم ».

صمت مرة أخرى فتبادل أمود مع منصور نظرة طويلة.

عاد العجوز يحتج:

« .. قلت تبهر العين. هذا صحيح. هذا حالها مع الغرباء. تبهر عيونهم فيضلون الطريق حتى يسقطوا في الهاوية ».

ضحك منصور ولعن العجوز الشيطان بصوت مسموع. كان صوت المؤذن قد ارتفع معلناً حلول صلاة العشاء.

قال العجوز بصوته الكسول الذي ينطق الكلمة ببطء ووضوح حتى يفقد المستمع إليه الأمل في أن يواصل الكلام:

« .. اختلط عليك الأمر يا ولدي. القرآن لم يعد العباد بالنور الذي يبهر العيون وإنما بنور الإيمان الذي يبهر الروح ».

دفعا الحساب وانطلقا لقضاء ليلتهما في الجامع. سمعا العجوز يترنم بدعاء:

« يا رب إهدنا سواء السبيل ».

في مدخل الجامع استقبلهما شيخ يجلس على حصير في المدخل يتحسس لحيته الكثيفة البيضاء بيده المرتعشة، يتمايل ويترنح يميناً ويساراً ويردد بلا انقطاع:

« الداخل مفقود والهارب مولود .. ».

انخرط منصور في الضحك ولكن أمود عاجله بلكزة من مرفقه فابتلع ضحكته وافترش الحصير خلف الشيخ مباشرة واضطجع مسنداً رأسه بيده. استمر الشيخ يتمايل ويهذي في نوبة من الوجد حتى غلبهما النعاس واستسلما للنوم.

استيقظ أمود عند الفجر فوجد أن الشيخ قد اختفى واختفى معه نعليهما. قفز

أمود وصرخ وهو يزيح العباءة عن وجه منصور برجوج:
«انهض! شيخ البارحة سرقنا».
جلس منصور وهويتثاءب ويدعك عينيه متمتماً ببعض اللعنات الموجهة إلى الشيطان الرجيم. ويبدو أنه لم يفهم، وعندما أفاق وعاد إليه وعيه أدرك ما حدث. قفز واقفاً وهو يفتش جيوبه ويردد:
«المحفظة. سرق المحفظة».
تحسس أمود جيبه فوجد أن محفظته أيضاً اختفت.
إتجها إلى مقهى البارحة حفاة الأقدام. ظلّ منصور يسب ويشتم اللص المتنكر في ثياب الشيخ الوقور، بل ولعن في العلن كل شيوخ الأرض الذين يسمحون للأشرار بأن يتقمصوا دورهم. ظلّ حانقاً طوال الطريق.
حاول أمود أن يهدىء من ثورته ولكنه لم يتوقف عن ترديد الشتائم حتى بلغا باب المقهى.
قال لهما العجوز وهو يقدم لهما القهوة بالحليب وقطعاً من البسكويت:
«نسيت أن أحذركما البارحة. للأشرار المقدرة في تقمص الملائكة».
جلس على كرسي بجوارهما وعبثت أصابعه بالمسبحة وهو يضيف:
«الحمد لله الذي أنهاها على خير. في مدن الشمال يسلبون حتى اللباس. اللصوص هناك قساة، يتركون ضحيتهم عارية في عزّ البرد».
صرخ منصور:
«اللّهم احفظنا!».
قال العجوز بنفس الهدوء:
«وفي مدن أخرى يختلق اللصوص معركة. ويلجأ أحد الأطراف للاحتماء بالضحية فيسلبون الجيب وإذا اكتشف الحيلة وقاوم يكتمون أنفاسه بأيديهم أو يغرسون في ظهره السكين..».
صرخ منصور:
«.. اللّهم إحفظنا..».
قال العجوز وهو يتحرك نحو الدرج:
«كل شيء مباح في المدن. أشياء كثيرة تختبىء وراء تلك الأضواء».
تبادل أمود مع منصور النظرات ولم ينبسا.
القهوة بالحليب بردت دون أن يتناولا منها رشفة.

* * *

استلقى منصور في العراء الرملي المجاور لبيت صغير شيّد بقوالب الطين الأحمر ومطلي بالجير فيبدو مثل أضرحة الأولياء.

يستأجر البيت قريبه عمّار مع مجموعة من شباب الواحات الأخرى الذين لجأوا إلى سبها بحثاً عن عمل: التحق بعضهم وما زال أغلبهم ينتظر فرصته. البيت ملاصق لبيت آخر يستأجره بعض العائدين من المهجر من قبائل التبو الذين لا يكفون عن الثرثرة بلغتهم الحادّة اتي تشبه مخارج ألفاظها عبارات السباب، يتنازعون بالكلام طوال الليل أو يطارد بعضهم بعضاً بالسكاكين التي تلمع تحت ضوء القمر ويعتبرون أمهر من يستعملها في كل الصحراء الكبرى.

وربما لهذا السبب ظلت علاقتهم بجيرانهم من أبناء الواحات باردة مزروعة بالحذر والشك. فلا يتبادل ابن الواحة كلمة واحدة مع تباوي حتى يستعد للدفاع عن النفس ويتوثب للمقاومة تحسباً لأي حركة غادرة قد يأتي بها الطرف الآخر. وبرغم الضجيج المنبعث من بيت التبو إلاّ أن منصور رفع صوته بأغنية شجيّة أثارت الشجن وحركت الذكريات في نفس أمود الذي يجلس بجوار زميله يسلّي بصره بالأضواء المتلألئة المنبعثة من الأعمدة المصطفة على الطريق الذي يخرق المدينة ويتجه صوب قلعة القارة في الشمال الغربي.

هبت نسمة شمالية محملة بالرطوبة، مشبعة بالماء.

نسمات الشمال المسائية دائماً منعشة، نديّة.

تساءل منصور وهو يقطع الأغنية فجأة:

«لم تقل لي، كم اختلس منك شيخنا الوقور».

ابتسم أمود قبل أن يجيب:

«كل ما معي. معاش الشهر الأخير زائد ستة جنيهات ونصف وفرته من معاشات الشهور الماضية. وأنت؟».

ردد منصور مقلّداً صوت اللص المتنكر:

«الداخل مفقود. الهارب مولود. الساعي موعووو.. د ...».

ثم ضحك بعصبية وهو يقول:

«كل ثروتي. كل المدخرات التي اقتصدتها في أربع سنوات. كتب عليّ أن أشقى في أعمال الطرق أربع سنوات لأعود إلى الواحة مديوناً. أنا مديون بأربع جنيهات اقترضتها من صاحب دكان في الواحة عندما عزمت على الرحيل أضف إليها ديننا الجديد الذي اقترضناه من صاحب المقهى».

لقد أقرضهما صاحب المقهى ثلاثة جنيهات وأرسل معهما صادق ليدلهما على

دكان في الزاوية اشترى فيه كل منهما صندلاً أنيقاً. قال صاحب المقهى العجوز: «أنتما شابّان طيبان من الواحات البعيدة وقعتما ضحية الحيل التي تستقبل بها المدن ضيوفها الأغراب. سأقرضكما ثمن الأحذية. فإذا استطعتما تسديده كان بها، وإذا عجزتما فأجري عند اللّه».

وسحب الأوراق النقدية من الدرج ودفع لهما ثلاث جنيهات من فئة الخمسين قرشاً وطلب من صادق - الذي أخبرهما في الطريق أن العجوز جدّه - أن يرافقهما إلى الدكان الذي يقع في الزاوية عند نهاية الشارع.

قال أمود وهو يرفع طرف لثامه إلى أنفه:

«الحق أني أجرمت في حق صاحب الدكان. لقد حكمت عليه بالجشع عندما رأيته يعدّ النقود بتلك العناية».

قال منصور وهو يتابع قرص القمر:

«بعض الظن إثم. لا ينبغي أن نتسرع في الحكم. إنه ليس صاحب الدكان. والمال الذي كان بين يديه أمانة في عنقه حتى يسلمها لصاحب الشأن».

التفت أمود وهو يتساءل باهتمام:

«ليس صاحب الدكان؟ كيف عرفت؟».

استمر منصور:

«عمّار قال ذلك. عمّار يعرفه وكثيراً ما يقترض منه».

قال انه رجل نزح من الواحات وأقام في سبها منذ زمان بعيد. نشأ يتيماً بعد أن شرّد الطليان أهله فهاجروا إلى السودان وتركوه في رعاية أحد الأقارب الذي مات أيضاً فاضطر إلى أن يزحف نحو الشمال. عمل في بيوت الأسر الإيطالية وفي معسكرات الجيش الإنجليزيّ بعد انسحاب الطليان حتى رمت به الأقدار إلى هنا».

ساد صمت قصير خرقه منصور بأغنية. مزاجه رائق وضوء القمر ساحر، وحفيف نسمات الشمال المشبوبة برائحة البحر البعيد تهب بين الحين والآخر في موجات متقطعة.

قال أمود:

«خرجنا من الواحات بجيوب خالية ونعود بجيوب خالية. كما خرجنا نعود».

علّق منصور:

«سافرنا وعدنا من منتصف الطريق. لقد رفضت أن نكمّل مشوارنا».

وهم بأن يرفع عقيرته بالغناء ولكن أمود قاطعه:

« أراك ما زلت متحمساً برغم كل ما سمعته عن رذائل المدن في الشمال. تلك دنيا لم تخلق لأمثالنا. أخشى أن نعود بخيبة أكبر إذا تجاسرنا ورمينا بأنفسنا إلى تلك الدنيا. ألم تكفك الهزائم التي منينا بها؟ ».

أمود يلمح إلى تلك المقابلة الأليمة التي أجريت لهما مع رئيس شؤون الموظفين في الشركة حيث وعدهما عمّار بأن يلتحقا بها كعمّال بناء.

استقبلهما رجل أصلع بدين يرتدي بدلة أنيقة زرقاء ويصرّ على أسنانه بلا مناسبة. اعتقد أمود في البداية أن ذلك ناجم عن الأعصاب، ناتج عن مواقف تثير أعصابه، ولكنه أدرك ـ باستمرار الملاحظة ـ أنه لا يكف عن ممارسة هذه العادة حتى وهو يبتسم. أجلسهما على كرسيين في مواجهته ورحب بهما طويلاً وهو يسألهما عن الصحة والأحوال، وبالغ في ترحيبه وكرمه فطلب لهما قهوة. كان الرجل لطيفاً.

سألهما عن الخبرة السابقة كما توقع منصور برجوج فأجابا بأنهما عملا في الطرق فطلب شهادة الخبرة. هنا أخرج منصور رسالة فصلهما من الخدمة السابقة فلاحظ أمود كيف اضطرب الرجل وتوتر وهو يقرأ رسالة رئيس العمال الوقحة. ولما انتهى طلب منهما أن يعودا في الغد لتسلم الجواب. لاحظ أمود أيضاً أنه دس الرسالة في الدرج.

وعندما عادا إليه في الغد اعتذر عن مقابلتهما وأرسل لهما الرسالة مع أحد مستخدميه وتوصية شفوية تقول: ان قبولهما بالشركة مع ماضيهما في الشغب أمر مستحيل.

هكذا عبّر لهما الموظف المرؤوس نقلاً عن شفتي رئيسه: « ماضيهما في الشغب ». أمضى منصور يوماً وليلتين وهو يسب ويلعن. وفي الليلة الثالثة اقترح على أمود أن يسافرا إلى طرابلس.

استمرّ منصور يعاند لحناً مرزكاوياً قديماً بعد أن نسي مقاطع من كلماته الحزينة. الأغنية تتحدث عن شاب دفعه عناد فتاة حسناء إلى الهجرة ليحصل على المال اللازم ليدفعه لها كمهر. ولكنه لم يعد. ابتلعته الغربة.

قال منصور:

« كنت أريد أن أكمل المشوار. أن أمشي في المغامرة إلى نهايتها، أكتشف المجهول على شواطىء البحار في الشمال وما بعد الشمال. ولكني فكرت. العودة من منتصف الطريق أفضل من الذهاب بلا عودة. قررت أن أذهب إلى « برقن » وأحفر بئر السانية الذي ردمته العواصف، وأسحب الماء وأسقي الجداول وألقح

النخيل وأعيش... مثل كل الناس في برقن..».
غرق في ضحكة مفاجئة.
انتظر أمود حتى انتهى منصور من ضحكته الطفولية فقال: «أمّا أنا فلم أرث سانية أحرثها. لم أرث سوى الصحراء والسراب. الجفاف دفعنا إلى الواحات وأنا لا أعرف كيف أمسك الفأس لأفلق الأرض. نحن، أهل الصحراء، لم نتعلم سوى امتطاء المهاري الهيفاء ومطاردة الغزلان الساحرة، نعرف أيضاً أصول الرقص والغناء وفن مخاطبة الحسان ولكننا نجهل الفلاحة ونحتقر الأرض والفلاحين..».
انطلق منصور يروّض اللحن المرزكاوي ويطوّع كلماته. ويبدو أن اللحن بدأ يلين في النهاية بعد أن تذكر الكلمات فانساب صوته عميقاً، حزيناً، صافياً يشق سكون الليل.
حاول أمود أن يردد خلفه اللحن ولكنه فشل. كان لحناً من النوع المركب يبدو بسيطاً ينساب بسهولة وعذوبة ولكن ترديده يحتاج إلى خبرة وتدريب.
سكت أمود وقد شعر بالخجل والحنق.
سكت منصور أيضاً فقال أمود:
«أتدري يا منصور؟ لقد تنبأت لي عرّافة من أغاديس بمعركة أخيرة سوف تكون أشرس المعارك في حياتي. قالت ان معارك كثيرة سوف تواجهني، ولكن حذرتني من المعركة الأخيرة بشكل خاص. قالت ذلك بغموض المنجمين. أنت تعرف أنهم لا يقولون شيئاً إلى النهاية أبداً. من يدري.. ربما أخوض الآن معركتي الأخيرة دون أن أدري».
صمت لحظة ثم أضاف بسرعة:
«ربما أنا في معمعة المعركة الأخيرة الآن..». ابتسم تحت اللثام وهو يستلقي على ظهره بجوار منصور. يتوسد مخدّة صنعها من الرمال، وشرع يراقب قرص القمر الفضي.
قال منصور:
«لا معركة ولا يحزنون. ما هي الحياة إذا لم تكن معركة كبيرة ومستمرة إلى الأبد؟ كذب المنجمون ولو صدقوا. أنا أرى أن تلقي بكبرياء الفرسان جانباً وتشمّر عن ساعديك وتحرث الأرض مثلي. سوف تتعلّم.. لا أحد يولد وهو عالم. إذا سعيت إلى المعجزة كسبتها وإذا انتظرت افلتت منك. نحن نقول إذا أعطيت الأرض حبة عرق كافأتك بكيس من القمح، ومشكلتكم أنتم أهل الصحراء أنكم مكابرون. أنت مكابر وتعتقد أن النزول من سرج المهري في الحقل سوف يلطخ

قدميك ويديك بالوحل».

صمت أمود فعاد منصور إلى الأغنية التي نسي مطلعها فارتبك اللحن وفقد صوته الإنسجام. صوته أربكه الإنفعال فتحوّل اللحن إلى نشاز.

سكت بدوره فسمع ضجيج التبو الذين يرطنون بلغتهم الزاعقة ويتنابزون بالألقاب.

قال منصور:

«زرني في برقن وسترى كيف أحرث أنقاض السانية التي كاد يقضي عليها الإهمال. لم يبق منها على قيد الحياة سوى النخيل الصبور. وفيما عداها عليَّ أن أبدأ من جديد.. من الصفر.. لا بد من معاندة الأرض..».

قال أمود وهو يحلم:

«.. أمّا أنا فسوف أدعوك إلى الحمادة. ستنزل الأمطار. لا بد أن تنزل الأمطار يوماً ما، وستجري السيول وستجرف كل شيء في طريقها، كما في الزمان الماضي.. وسوف ينمو الترفاس[٩] بأنواعه: الأبيض والأحمر والأسود.. هل ذقت الترفاس الأسود؟ يا ربي ما أحلاه، وما أزكى رائحته..

رائحته تذكر بالعالم القديم، القديم الذي حدثتنا به جداتنا في الأساطير. لا أستطيع أن أصف لك شعوري عندما اشتم تلك الرائحة. ثم.. ثم ستتكاثر الطيور، وتدب الأرانب والغزلان والودان[١٠]، فترتفع النباتات الشهية، وتخضرّ الأشجار وتزدحم الأودية والسهول بالغابات والحياة وسوف نتمتع بالصيد.. وباقتناء الترفاس.. ونأكل العشب ونفرح ونختلق الألعاب المسلية.. و...».

كان السكون عميقاً.

انتظم تنفس منصور برجوج ونام متوسداً ذراعه.

العرّاف

(١)

استيقظ الشيخ غوما على صوت غريب. فتح عينيه فرأى كلباً ضخماً ناصع اللون يقف فوق رأسه ويهز ذيله يميناً ويساراً ويطل حزن عميق من عينيه الكبيرتين. تناول عرف نخلة وألقاه باتجاه الكلب. أصدر نفس الصوت الباكي المشحون بالشكوى وتراجع بضع خطوات، ثم توقف والتفت وهو يلهث ويمدّ لسانه الطويل. يحدج الشيخ بنظرة استعطاف. قعد على مؤخرته مفترشاً ذيله الكثيف وانتصب بقائمتيه الأماميتين وشرع ينظر إلى الشيخ نظرة ذات معنى. نظرة إنسان فضولية!

وجد الشيخ أن طرف لثامه مبتل. تفصد منه عرق غزير أثناء الإغفاءة القصيرة. التراب تحت رأسه أيضاً مبتل.

تحرّك النسيم فاستجابت أعراف النخلة الهيفاء بحفيف. هذا إعلان عن اختلال ميزان النهار وانحراف الشمس نحو الغرب. اعتدل الشيخ في جلسته عندما سقطت حبتان من البلح أثر إحتكاك العراجين المثقلة. حبة صفراء أجهضها الريح فسقطت قبل أن تنضح وحبة أخرى نضج نصفها. حبة خضوري[١١]. قضم غوما نصفها الذي نضج وقال في نفسه: «موسم التمر. هذا يؤذن بإنتصاف الصيف». رمى بالنصف الباقي نحو الكلب ونهض واقفاً. انحنى الكلب وشمشم حبة البلح ثمَ رفع رأسه وعاد يحدج الشيخ بنفس النظرة. نظرة إنسان يريد أن يقول شيئاً. يبوح بسرّ!

ولكن الشيخ أحكم اللثام حول رأسه وانطلق باتجاه القلعة عازماً أن يقوم

بزيارة العجوز مهمدو.

طوال الطريق كان غارقاً في التفكير بالسانية وبطلب مرزوق ورغبته الأخيرة في اقتناء حمار آخر. والحق أن طلبات مرزوق أرهقته والسانية أثقلته بالديون بعد أن التهمت قوافل الإبل وقطعان المواشي، وقصمت ظهره بالتكاليف التي تجاوزت تقديراته ولم يقرأها في حساباته عندما اشتراها معلقاً الآمال لتكون الحل لمشاكله، ولمشاكل غيره من أبناء القبيلة. أقنع أمود بالإنضمام إليه والعمل معه في السانية ـ بعد عودته من عروس الواحات ـ خصيصاً كي يقدّم البرهان أمام أبناء القبيلة الذين ظلّوا ينظرون إلى الأرض والفلاحة بعين الشك. ولكن السانية لم تعط في السنة الأولى سوى ٨ شوالات تمر و٦ قمح، خمسة ونصف شعير، ٥ قصب، أربعة وربع ذرة عدا الخضروات والفواكه التي لم يكن محصولها أوفر من محصول الحبوب.

وعلل مرزوق بؤس المنتوج في العام الأول بضعف التربة التي تركها الشيخ عبد الجليل الجاروف بوراً وعطشى مدة طويلة، وعملية إعادتها إلى خصوبتها الطبيعية تستدعي الصبر في تقليب الأرض وإغراقها بالماء في عمليات ري مستمرة، وتغذيتها بكميات أكبر من السماد الطبيعي الذي يحتاج استجلابه إلى حمار ويذكر الشيخ أن مرزوق جاءه وقتها بقائمة من الطلبات والمستلزمات التي تحتاجها معركة السانية بإستثناء ذلك الحمار الشقي ـ الذي مات بعد شرائه بشهرين متأثراً بمرض إنتفاخ البطن فاضطر الشيخ أن يبيع جملاً آخر وثلاثة رؤوس من الماعز كي يغطي تكاليف شراء الحمار الجديد وبقية المستلزمات التي رأى مرزوق ضرورتها لدعم السانية ورفع مستوى المنتوج.

ولكن العام الثاني جاء بنتائج أسوأ من العام السابق خاصة بالنسبة لمنتوج الحبوب. وقد تذرع مرزوق هذه المرّة بأسراب الجراد التي شنت هجوماً مكثفاً على الواحة تطلّب مقاومة الأهالي الذين هبوا لإنقاذ المزروعات واستطاعوا بعد عمل استغرق أسبوعاً كاملاً أن يطردوا هذا الجيش الشره. وانتهزوا الفرصة فاصطادوا منه كميات هائلة شووها ودقوها في مسحوق خبأوه في القدور لاستعماله كدواء للحمّى الموسمية في الصيف.

وعندما اعترض الشيخ قائلاً ان جيوش الجراد لم تتمكن من إلحاق الأضرار بالمحاصيل والدليل على ذلك محاصيل السواني المجاورة. انبرى مرزوق يتحدث بإسهاب عن دودة لعينة تفتك بالمنتوج وتتكاثر بسرعة تسببت في إتلاف الجزء الأكبر من المحصول. ولكن هذا لم يقنع الشيخ الذي قال وقتها: «لا أعرف لماذا لا

أرى لهذه الدودة وجوداً إلاّ في سانيتنا!». هنا شرّع مرزوق فمه الواسع المحشو بأسنان صفراء اسودّت عند اللثة وتآكلت بسبب مضغ التبغ، ولم يعلق على ملاحظة الشيخ القاسية.

احتار الشيخ الذي لم يجد لبؤس المحصول سبباً، ولم يستطع أن يتهم مرزوق بالتقصير أو الإهمال لأنه يعمل ليل نهار. كلما جاء لتفقد السانية. وهذا حدث في مختلف الأوقات. وجد مرزوق ينشغل في عمل ما: يدندن بأغنية في قمة نخلة أو يزأر كالوحش مع كل ضربة وهو يقلب الأرض، أو يبصق حوله لعاب التبغ وهو يسحب الماء من البئر بمساعدة الحمار، أو يرفع عقيرته بأغاني كالصراخ مسمّياً ذلك «أهازيج الفرح» أثناء جني البرسيم في الحقل. ولم يضطر الشيخ لتقريعه بالملاحظة إلاّ مرتين: مرّة عندما اكتشف بالصدفة أن شجرة التين الكبيرة التي أثارت إعجابه بجمالها ووفرة إنتاجها مهددة بالموت بسبب العطش. والمرّة الثانية عندما وجد أن مرزوق قام بزراعة جدولين كاملين بالتبغ دون علم الشيخ. وبّخه وذكّره بموقفه من زراعة التبغ الذي أعلنه في السابق فبكى مرزوق وقال ان التبغ المزروع لاستعماله الخاص وليس للتجارة كما تبادر إلى ذهن الشيخ. وترجّى الشيخ أن يغفر له هذه المخالفة التي لم يرتكبها عناداً أو بسبب سوء النية وإنما لأن: «.. التبغ هو زادي، ولا أستطيع أن أنهض إلى الحقل بدونه». ومرزوق يبدو رجلاً طيباً وسوياً. إذا استثنينا ضعفه نحو التبغ. إذا ما قورن بغيره من الفلاحين في الواحة المصابين بأمراض أخطر بكثير من تعاطي التبغ وعلى رأسها تأتي عادة اللاقبي[١٢]. وهي رذيلة تعاني منها كل الواحة لأنها موجهة للقضاء على ثروتها الرئيسية المتمثلة في غابات النخيل. وقد شبه العجوز مهمدو هؤلاء الأنذال الذين يسمحون لأنفسهم بأن يسكروا بقلب النخلة بذلك الفريق المخيف من الجلاّدين. الذين تتحدث عنهم الأساطير في الواحة. يزحفون ويقطفون بسيوفهم البتّارة رؤوس البشر ليقتاتوا بالمخ ويتركوا الأجساد واقفة بلا حياة!.

ظلّ غوما يتمسك بمرزوق بسبب هذه الميزة النادرة بالذات خاصة بعد أن انتشرت رذيلة اللاقبي بين الفلاحين حتى أصبح من الصعب العثور على فلاح للعمل في السانية دون أن يقفز إلى قمة النخلة في اليوم التالي مباشرة ليحلق رأسها وينفذ إلى قلبها ليسكر بعصارته أو يقضي الليل تحت النخلة في ضوء القمر يغني المرزكاوي حتى الصباح. وبدل أن يقوم إلى عمله عند الفجر تدركه الشمس وهو يتخبط في القيء أو يحطم رأسه الصداع فيقضي النهار كله مريضاً بالبوظة.

حمد غوما اللّه الذي عصم مرزوق من هذا الشرّ برغم أنه ظلّ يتساءل بينه

وبين نفسه ويبحث عن سرّ تخلف سانيته عن بقية السواني في الإنتاج وهو الذي لم يبخل عليها بالمال والصرف ولم يهمل في مدّها بالإمكانيات والمستلزمات. مهمدو قال له بلهجته الغامضة: «السرّ ليس بعيداً عن الجداول. إبحث عن السرّ داخل السانية». أمّا أمود فقد علّق مرة: «هذا المرزوق لا يعجبني!». ولكن هذه العبارات الغامضة لم تزده سوى حيرة.

وما يثير حيرة غوما أيضاً هو هذا البرود الذي يتمتع به مرزوق سواء في إيجاد المبررات لإنتاج السانية المخيّب للآمال أو في اختراع الأسباب لإنتزاع المال. المال اللازم لشراء الحمير أو تغطية النفقات والمعدّات التي بلغت حد أن يتجرأ ويسحب من جيبه البائس ثلاثة جنيهات كاملة لابتياع أعمدة كوخه الذي أقامه وسط السانية معللاً هذه الصفقة بقوله: «لا أريد أن أغامر باقتطاع الأعمدة من أشجار السانية. هذا يهدد حياة الأشجار، ويعرض الجذوع للتلف والموت».

ولم يكن بوسع الشيخ أن يجادله في شؤون لا يعرفها فسارع للتضحية بالثلاث جنيهات بدل المغامرة بحياة الأشجار دون أن يدرك إذا كان مرزوق يفعل هذا من باب الإبتزاز أم من باب الحرص على السانية والشفقة على الأشجار والنباتات.

وغوما ـ الذي تنقصه الخبرة في شؤون الزراعة ـ لا يجد من يحتكم إليه سوى أمود الذي لا يعرف في هذه الشؤون أكثر مما يعرف الشيخ نفسه، بل وربما يجهل أمور الفلاحة أكثر بحكم السن.

سأله الشيخ عن رأيه في مبرر مرزوق بشأن جذوع الأشجار وعمّا إذا كانت ستتعرض للتلف فعلاً فأجاب أمود وهو ينزل طرف لثامه حتى يغطي عينيه تماماً: «ربما هو على حق». ويظل يخفي عينيه. يصغي لجوقة الجنادب في الجدول وعندما يكون الشيخ قد نسي السؤال ونسي الجواب يستدرك أمود ويضيف إلى عبارته السابقة جملة أصبحت بحكم التكرار تقليدية: «.. هذا المرزوق لا يعجبني!».

ولكن الشيخ في تلك اللحظة يكون قد انكفأ فوق الساقية وغمر وجهه بالماء بادئاً طقوس الوضوء إستعداداً لصلاة العصر.

هذا لم يعط الشيخ المبرر كي يستنتج أن علاقة أمود بمرزوق سيئة. علاقتهما ليست حميمة وليست عميقة أيضاً. يمكن القول انها عادية بل وربما حسنة إذا وضعنا في الاعتبار مداعبات أمود لمرزوق التي سمح لنفسه أن يرددها أكثر من مرّة بحضور الشيخ، فيقول وهو يتناول كوب الشاي الأخضر المتوّج بعمامة كثيفة الرغوة: «زوجتك مبروكة وجدت اليوم فأراً صغيراً يتخذ من الشقوق في رجليك

مخبأ له! ». فيضحك مرزوق كاشفاً عن أسنانه الصفراء التي اسودت عند اللثة بسبب التبغ، ولكن الشيخ لم يضحك للدعابة، بل حدج أمود بنظرة إستنكار من تحت لثامه ونهض يتمشى في الحقل إحتجاجاً.

وبرغم أنه سمع أمود يكرر مثل هذه الدعابات لاستفزاز مرزوق أكثر من مرة إلا أنه لم يحدث أن عاد وصرّح بنكتة من ذلك النوع أمام الشيخ.

والحق يقال فإن أمود لم يخطىء كثيراً في دعابته. فالشقوق في رجلي مرزوق عظيمة، وإذا كان اختباء فأر بين « جدرانها » من قبيل المبالغة التي تحتمها الدعابة فإن اختفاء الحشرات كالنمل والخنافس الصغيرة في تلك الشقوق هو أمر قابل للتصديق. فمرزوق الذي لم يتعود ـ وفشلت محاولات الشيخ في جعله يتعوّد ـ على ارتداء نعل فاخشوشنت قدماه، علتهما طبقة كثيفة من اللحم الميت جعلته مؤهلاً لأن يهرس الحشرات الضارّة، بل والمسمومة؛ أكثر من مرة. داس بقدميه عقارب كبيرة أمامه ثلاث مرّات دون أن تتمكن الحشرة المسمومة من نفث سمّها في جسمه نظراً لخشونة الطبقة التي تحمي اللحم الحي في القدم. أمّا يداه فخشونتهما يضرب بها المثل في كل الواحة. فإذا صافحك وأطبق على كفك فإنك لا بد أن تصرخ من الألم. وإذا منعك الخجل من أن تفعل ذلك فلا بد أن يحمّر وجهك وأنت تكتم الوجع. ولذلك يتحاشى الشيخ أن يضع يده في يده ويحاذر دائماً أن يصافحه. أما فيما يخص تلك الطبقة فإن الشفقة جعلت غوما يسارع لمد يد المساعدة لمرزوق فاشترى له نعلاً أنيقاً مخرّماً كي ينفذ منه الهواء ويريح القدم في أيام الصيف. ولكن مرزوق ارتدى هذا النعل يوماً واحداً هو أول يوم في عيد الأضحى ثم خبأه في كوخه ولم يرتده بعدها أبداً. ولم يلح عليه في أن يرتديه، ليس بسبب الإحراج الذي قد يسببه له بهذه الملاحظة ولكن لأن مرزوق بدا مضحكاً حقّاً وهو يضع في رجليه ذلك النعل، فقد مشيته الطبيعية وارتبكت خطواته واختل توازنه أمام الناس في الجامع بعد صلاة العيد فسقط وأثار الضحك والتعليقات في تلك اللحظة المهيبة التي أعقبت الخطبة مباشرة وتهيأ فيها الناس إلى معانقة بعضهم ولطلب المغفرة.

شعر غوما بالخجل، وتطوّر فتحوّل إلى ندم عندما اختلى به الشيخ عبد الجليل الجاروف وقال له بصوت يفضح نبرة لوم: « أنت تفسد طباع الفلاحين يا شيخ غوما. تشتري لهم الصنادل وأرجلهم لم تتعوّد حتى على إرتداء مداس الملخة أو المداس المستقطع من عجلات السيارات ».

ترك غوما ملاحظته بدون تعليق وإتجه بخطوات واسعة إلى مغارة مهمدو

ليتبادل معه التهاني.

أمّا أمود فلم يدع هذه الحادثة تفلت من قاموس مداعباته الموجهة لمرزوق، فانتهى إلى هذه الخلاصة: « .. وما حاجتك إلى نعل يا مرزوق؟ إن نعل اللّحم الذي تلفّ به قدميك أخشن وأفخر أنواع الأحذية»، ويستغرق في الضحك وهو يستلقي إلى الوراء ويسحب طرف لثامه على فمه، أو ينحني إلى الأمام وهو يقهقه ويضرب فخذه ضربات متتالية. وكان مرزوق يشاركه الضحك وهو يخلط الشاي ويبصق لعاب التبغ، أو يتفقد قدمه وينتزع من طبقه اللحم الميت شوكه نخيل أو يزيح خنفسة ميتة علقت بشقوق القدم. يفعل ذلك دون أن تفارق الابتسامة شفتيه. ويمكن اعتبار مرزوق من أكثر فلاحي الواحة مرحاً. والفرح يطل من عينيه الهادئتين، والابتسامة مرسومة على وجهه حتى في تلك المواقف - عندما ينبري الشيخ يوبخه ويؤنبه لسبب ما. فيمضي مرزوق يطاطيء رأسه ويبتسم ابتسامة خفيفة - ربما خشية أن تستفز الشيخ الغاضب - وهو يرفع بصره نحو غوما بين الحين والآخر، ثم يعود فيسقط بعينيه نحو الأرض مرة أخرى وقدمه لا تكف عن رسم الخطوط المتقاطعة أو نخلة عالية. ولا يعرف لماذا يروق له أن يرسم النخلة. ربما لأنها أسهل ما يمكن رسمه في المواقف التي يكون فيها الشيخ ثائراً!

ولكن مرزوق أيضاً يمر بلحظات كآبة.

ومبعث هذه الكآبة لا يمكن أن يكون غير ابنه المصاب بالتخلف العقلي منذ الولادة. وقد تطور هذا المرض مع العمر وبلوغه العاشرة فتحوّل إلى نوبات من الصرع فشل الممرض الوحيد بمستوصف الواحة في علاجها أو التخفيف من حدتها كما فشل الفقهاء قبله في إيجاد علاج للطفل المسكين. ولما لم يستسلم مرزوق لليأس واستمر يتنقل بالطفل بين هؤلاء الفقهاء القساة فإن أثر الأسياخ في رأس الطفل ازدادت وتضاعفت، والأحجبة المتعلقة في رقبته تزايدت وتكاثرت مع كل زيارة لفقيه جديد.

وكان غوما لا يستطيع أن ينظر إلى رأس الطفل الموسوم بالحروق الناتجة عن الكوي المستمر دون أن يشعر بالحزن والشفقة والعجز.

- حاول تقديم المساعدة وطلب من مهمدو أن يفعل شيئاً من أجله ولكن العجوز العتيد قال ان النجوم أخبرته بعدم جدوى الكوي بالنار، لأن تخلف الولد العقلي ونوبات الصرع ليست ناتجة عن مسّ الجن ولكن أمرها وراثي وسرّها مدفون مع أجداده الأولين من أمّه، وطلب منه أن يؤثر في مرزوق ويكف عن التعذيب، والتجارب الوحشية التي يجربها الفقهاء الأشقياء على رأس الطفل.. لأن شفاءه

بيد الله وحده. ولكن غوما لم يستطع أن يقنع مرزوق بعدم جدوى محاولاته مع الفقهاء الذين لم يكتفوا بحرق رأس الغلام فقط ولكنهم سلبوا جيب مرزوق واستولوا على كل ما يملك من المال والحيوان الذي كسبه طوال حياته من عمله في السواني.

لاحظ الشيخ أن لحظات الكآبة التي تنتاب مرزوق تبدأ قبل أن يقع الطفل في نوبة الصرع بفترة قصيرة. فتفيض عيناه بحزن مفاجىء.. تلمع بدموع طارئة، ويسدد نظره إلى نقطة محددة، قد تكون شخصاً يجلس قبالته أو شجرة التين أو الرمان أو حماراً مرّ، ويظل يحدّق في ذهول، ساهماً، غائباً. يمتنع عن الكلام ويتوقف عن المشاركة في الحديث ولا يجيب عن السؤال. بعد لحظات يسقط البهلول صريع النوبة. والغريب أن هذه الحالة التي تتلبس مرزوق تبشر بالنوبة سواء كان بهلول موجوداً بقربه أو بعيداً في الحقل أو يلعب ويتسلّى بالسباحة مع الأطفال في عين الكرمة. وقد انتابت الحالة مرزوق في احدى المرّات فنهض وانطلق يجري نحو العين حيث وجد الطفل وهو يصارع النوبة داخل الماء في غفلة من بقية الأطفال. فأنقذه من الغرق.

ويقول أهل الواحة أن الأرواح الشريرة هي التي تتلبس مرزوق في البداية ثم تنتقل إلى بهلول فيما بعد.

والحق أن هذه الكآبة التي تنتاب مرزوق قبل أن يقع الطفل ضحية النوبة كانت تثير حيرة غوما.

(٢)

لم يكن مزاجه في حالة تسمح له بأن يتبادل الحديث مع أحد فتحاشى أكواخ القبيلة لكي لا يعترضه آهر أو خليل، فانحرف يميناً بمحاذاة غابات النخيل مقرراً أن يتجاوز الأكواخ باللف شرقاً ليسلك طريقاً صغيراً يصعد إلى المغارة من تلك الجهة.

التفت فاكتشف أن الكلب يتعقبه ويتتبع خطواته طوال المسافة المؤدية إلى الأبنية الطينية. استمر يقتفي أثره ولم يتراجع حتى وقف الشيخ أمام باب المغارة يحيي مهمدو الذي سارع يطرح حصيراً متآكلاً قديماً ويدعو غوما للجلوس. تقرفص الشيخ على الحصير ومسح العرق بكمّ جلبابه الفضفاض وخطر له أن يشكو من موجة الحرّ ويصب اللعنات على رأس القيظ ولكنه خالف هذه القاعدة ووجد نفسه يلعن الكلاب.

قال:

ـ لم أحب الكلاب يوماً.. وهذا الكلب يتبعني ويقتفي أثري من النخلة بجوار

عين الكرمة حتى هنا.

تنهد كأنه يلتقط أنفاسه وأضاف:

- وتجربتي مع الكلاب مريرة!

قال العجوز وهو يتنقل بين المغارة وبين المدخل حيث يجلس غوما محتمياً من الشمس، بقطعة صغيرة من الظلال:

- يقولون ان الكلب حيوان وديع وموهوب.

ابتسم غوما وهو يعدّل لثامه على وجهه قبل أن يقول:

- يقولون. غريب أمر هؤلاء الذين يقولون ذلك. لأنهم هم أنفسهم الذين يقولون: «إنه يشبه الكلب» عندما يريدون أن يقدموا مثالاً على الإخلاص، وهم أنفسهم ينعتونك بـ«يا كلب» عندما يروق لهم أن يسوقوا مثالاً في الغدر والوضاعة!

اعترض مهمدو وهو يلقي بالحطب في موقد النار ويستعد لتحضير شاي بعد الظهر:

- هذا تناقض ناتج عن تقلب مزاج البشر وتردد أحكامهم وليس شرّاً كامناً في الكلاب.

التفت غوما نحو الكلب الذي أقعى على قائمتيه الخلفيتين وشرع يراقبهما بعينيه الفضوليتين اللتين تشبهان عيني إنسان.

لاحظ غوما بعد قليل:

- لا أخفي عليك أن في عينيه وداعة خفية لم أرها في عيون بقية الكلاب.

تأمله مهمدو بعينيه الكابيتين الضعيفتين وقال:

- عيناه صافيتان.

ثم عاد يتمتم:

- في عينيه نظرة ودّ.

أثار التحديد إعجاب الشيخ غوما فردده مرتين بصوت مسموع.

لمهمدو موهبة في إيجاد التعبيرات المناسبة مما يجعل الشيخ يشعر نحوه بالإعجاب.

في تلك اللحظة تذكر غوما ذلك التعبير الدقيق الذي وصف به باتا عندما قال انها «امرأة سفيهة» فدهش لأنه كان يحس بهذا التعبير دون أن يكتشفه في اللغة.

قال غوما:

ـ الآن ستجد باتا مادة ثرية للتشنيع بي. ستقول ان الشيخ غوما لم يكفه التطاول في الزراعة واقتناء الحمير ولكنه قرر أن يجرب حظه في تربية الكلاب!

ضحك بعصبية ثم أضاف:

ـ سوف تغرقني بالشائعات.

ابتسم مهمدو وهو ينكب فوق أدوات الشاي. تساءل:

ـ ولكنك لم تخبرني. ما قصتك المريرة مع الكلاب؟

راقب الشيخ قمم التلال الموحشة المغطاة بطبقة الأحجار المحروقة. كانت أشعة الشمس الغاربة تقبّل تلك القمم الحزينة.

قال:

ـ ربما بالغت في التعبير. القصة لم تكن مريرة إلى هذا الحد. كل ما هنالك أن كلباً مجنوناً تصرّف معي تصرفاً لا يليق بالإخلاص المعروف عن الكلاب وخلّف في نفسي أثراً سيئاً كاد يتحوّل إلى عقدة من الكراهية.

صمت لحظة. تناول حجراً صغيراً ألقى به ناحية الكلب الذي رقد على الأرض ماداً رقبته فوق قائمتيه الأماميتين دون أن تكف عيناه عن مراقبتهما. وقع الحجر بجواره ولكنه لم يعره اهتماماً. لم يتحرك.. استمر يحدجهما بتلك النظرة الغامضة التي تقول انه يفهم ما يقال. اتكأ الشيخ مسنداً رأسه بيده واستمر يسرد قصته.

ـ .. استقرّ بنا المقام في الأطراف الغربية من الحمادة الحمراء بعد أن طفنا كل الصحراء الكبرى بحثاً عن الكلأ. كم كان عمري وقتها؟ ثماني أو تسع سنوات. الذي أعرفه انني لم أكن قد بلغت العاشرة بعد. وبرغم ذلك فإنني على علم بالعداء بين أهل الصحراء والكلاب دون أن أدرك سرّه. وهذا طبيعي.. إذ نشأت دون أن نربي كلباً كما لم يحدث أن جاورنا رحلاً يقومون بتربية هذا الحيوان الذي لا أعرف عنه شيئاً حتى ذلك الوقت سوى أنه شرس وكريه. ولكن استقرارنا في ذلك العام اضطرنا أن نجاور قبائل البدو الرحل الذين تعودوا أن يتخذوا من الزراعة البعلية مصدراً للرزق وتعوّدوا أيضاً أن يتخذوا من تربية الكلاب عادة اشتهروا بها. تلك الجيرة كانت السبب في أن أرى الكلب عن قرب لأول مرة. تطورت علاقتي بهذا الحيوان إلى صداقة أو مشروع صداقة إذا أردت. استقبلتنا كلاب تلك القبيلة بمظاهرة من النباح منذ نزلنا الوادي عازمين الانضمام إلى النجع. اقترح الخبراء بشؤون هذا الحيوان تجاهل المظاهرة وعدم الرد على الاستفزاز قائلين أن أفضل وسيلة للنجاة من أنياب أشرس الكلاب هو أن تتجاهلها تجاهلاً تاماً. وحذروا من أن مشاكستها وإلقامها بالأحجار عمل استفزازي أسوأ.

قررت التسلح بهذه القاعدة فكان من نتيجة ذلك أن وقعت ضحية هجوم ثلاثة كلاب مرة واحدة نهشني أحدهم في فخذي عندما كنت أقضي حاجتي خارج البيت. فوبختني جدتي وهي تسكب الزيت المغلي فوق الجرح قائلة أنه ما كان ينبغي أن آخذ بنصيحة ذلك الخبير في شؤون الكلاب. ونصحتني أن أملأ حجري بالأحجار وألقمهم أحجاراً أو ألقي بها بعيداً حتى تنشغل الكلاب الشرسة بمطاردة الحجر وأكون أنا قد وصلت برّ الأمان. كلفتني هذه النصيحة جروحاً أعمق وأخطر. حدث أن تعرّضت لهجوم كوكبة من الكلاب الشرسة فبدأت أرد على استفزازها بإلقاء الأحجار هنا وهناك. ولكنني اكتشفت في تلك المرة أن أمزجة الكلاب مختلفة كاختلاف أنواعها وسلالاتها، فإذا كانت بعض الكلاب تطارد الحجر وتنشغل به فإن ثمة كلاباً أخرى لا تعير الحجر الطائر اهتماماً إلا إذا أصابها إصابة مؤلمة. وكان من نتيجة ذلك أن عدت إلى جدتي في البيت لأدعها تتفرج على ثمار نصيحتها في جسدي الملطخ بالدماء. كنت أبكي بالطبع.

لزمت البيت أياماً عديدة خوفاً من الكلاب التي خيل لي طوال الوقت أنها تحاصر الخيمة وتنتظرني في الخارج.

طبعاً كنت أفكر طوال الليل في أمر الكلاب حتى أخبرني جارنا، الذي يربي كلباً ضخماً شرساً يربطه بجوار الخيمة، بأن طبيعة الكلب خاضعة لنوع سلالته. ثمة كلاب لا يروق لها الاستفزاز وتجاهلها أفضل وسيلة للتخلص من شرها، وثمة نوع آخر لا تسكت ولا تدعك في شأنك إلا إذا ألقمتها حجراً، وأكد لي أن أفضل وسيلة لتفادي الكلاب هو أن تصادقها. قفز قلبي من فرط الانفعال وسألت الرجل عن الكيفية فقال: «عليك أن تتودد إليها وتقدم لها الطعام. قطعة لحم أو طرف عظم ثم تكسب ودّها». ضحك الرجل طويلاً وهو يضيف: «الكلاب كالبشر تماماً تكسب ودّها وقلبها بقليل من الكلام اللطيف». ويعلم الله كم كلفتني نصيحته برغم انني لا أنكر الآن فعاليتها وصدقها. أصبحت أخبىء نصيبي من اللحم وأتسلل خارج الخيمة لأطعمه للكلاب في ظلام الليل. ولمّا كان اللحم نادراً فإنني تجاسرت وشرعت أسرق القديد من قلة الفخار التي تخبئها جدّتي في ركن الخيمة وأقدمه لقمة لأصدقائي الكلاب. وبالطبع اكتشفت جدتي الأمر وحرقت خياشيمي بسائل الفلفل الأحمر حتى اعترفت لها بمشروعي في بناء علاقات الصداقة مع الكلاب. ولكن ذلك لم يعفني من العقاب، فاستمرت تحرقني بسائل الفلفل كل صباح لمدة ثلاثة أيام متتالية.

ولكنني بدأت أجني ثمار عملي وأصبحت الكلاب تستقبلني بالقبل وتلعق

يدي بألسنتها وهي تهز ذيولها وتتقافز حولي فكان ذلك الانتصار عزائي في فقدان ثقة جدتي وخيبتها في شخصي. توطدت علاقتي بكلب وديع يملكه جارنا العجوز الذي يقضي نهاره يحرث الأرض بمحراث يجرّه جمل عجوز أيضاً. وكنت أساعد الجار بأن أسوق الجمل أمامه وأغير اتجاهه عند الضرورة، وكان هذا الكلب يرافقنا في هذه الرحلة اليومية ولا يكف عن لعق يدي ووجهي معبراً عن مشاعره حتى حدث لعقله ما حدث فهاجمني في إحدى الليالي وعضني في عجيزتي عضّاً أليماً دامياً. قال صاحبه العجوز أن الكلب أخطأ. وبعد يومين استدرك وجاءنا إلى الخيمة فوجدني طريح الفراش وقد بدأت تجتاحني الحمّى فقدّم اعتذاره وأعرب عن أسفه واعترف أن الكلب لم يخطئ ولكنه مريض. هنا قفزت جدتي وأعربت عن قلقها خوفاً من أن يكون الحيوان مصاباً بالسعار. ولكن الجار نفى ذلك وأخذ أمر معالجتي ففوجئنا به يقتل الكلب في اليوم التالي برصاصة ويشرف على نحره بيده. ثم سلخه وترك لحمه يغلي في الحلة يوماً وليلة وجاءني بحساءه وأجبرني أن أحتسيه. بدأت وقتها أهذي وأطرافي تشتعل بحرارة كالنار وجدتي ساهرة فوق رأسي تقرأ التعاويذ وتردد آيات القرآن. ثم أصابتني نوبة من الغثيان كدت أتقيأ فيها أمعائي. وقد تراجعت تلك الحمّى بعد احتساء ذلك الحساء المستحضر من لحم الكلب مباشرة، برغم استمرار حالات القيء.

صمت غوما وهو يتناول كوب الشاي المتوج بالرغوة. أزاح لثامه ورشف من الكوب رشفتين متتاليتين. قال وهو يتذوق طعم الشاي:

ـ آه.. هذا شاي ممتاز يا شيخ مهمدو.

رشف رشفة أخرى وأضاف:

ـ شاي ممتع أفلحت في تحضيره.

ابتسم مهمدو. كان سعيداً لأنه استطاع أن يسعد الشيخ غوما بكوب الشاي الجيّد، لأنه يعلم أن تحقيق هذا صعب نظراً لخبرة غوما بأنواع الشاي ومعرفته في فنون صناعته، ونادراً ما يبارك أحداً ما بالثناء. فاز الآن باعجابه مما يدل على الموهبة في التحضير. وهو ما لا يستطيع أن يضمن فيه التوفيق دائماً. فيحالفه الحظ مرة، ويخفق مرّات! التوفيق في صناعة الشاي يخضع للصدفة.

قال غوما وهو يعيد له الكوب الفارغ:

ـ هذه قصتي الأولى مع الكلاب.

ثم التفت نحو الكلب فوجده يرمقه بنفس الفضول كأنه يتابع القصة باهتمام!

استمرّ غوما في سرد قصته الثانية:

ـ .. أقمنا في ذلك العام بوادي الجعيفري حيث تعوّدنا أن نقضي الصيف هرباً من جحيم الحمادة الحمراء بسهولها العارية وخلائها المهجور وأوديتها التي تتنفس الحمم في الصيف. كنت وقتها شاباً مولعاً ـ ككل الشباب ـ بالصيد وترويض المهاري والسباق والمصارعة وقراءة قصائد الغزل على رؤوس الفتيات. أهيم بالملذات الكاذبة، ولا ينقصني الطيش إذ ينقصني العقل فوقعت في حب فتاة فاتنة ونبيلة من قبيلة «أوراغن» تمتّ بصلة قرابة لشيخ القبيلة، وأعتقد أن أب الفتاة ابن عم شيخ القبيلة إن لم تخني الذاكرة الآن. تعاهدنا على الزواج وأرسلت وفداً من قبيلتنا لتنفيذ الخطبة، عاد الوفد من رحلته من «عوينة ونين» حيث تقيم قبيلة الفتاة وأبشرني بموافقة الأب وكذلك شيخ القبيلة الذي أكد أن التقارب شرف سوف يساهم في توطيد العلاقة بين القبيلتين اللتين دفعتهما الخلافات القديمة إلى الصدام وإشهار العداء بل والاحتكام إلى السلاح. وهي صفحات سوداء نريد أن نطويها إلى الأبد. وقال الشيخ الحكيم أن أفضل وسيلة لدفن العداوات القبلية هي إيجاد رابطة بالدم. والمرأة هي المخلوق الوحيد الذي يستطيع أن يحقق هذا الهدف. بارك شيخ قبيلتنا وصيته وأرسل له بمكتوب يشكره فيه على اهتمامه وضمّنه موافقته حول قدرة الزواج على إلغاء الخلافات القديمة ودفن الضغائن الموروثة. فتقرر أن أقوم بزيارة لأهل الفتاة لقراءة الفاتحة وتوقيع عقد القران قبل البدء في الزواج وتنفيذ مهرجان الاحتفالات. أعددت أمتعتي وأسرجت المهري وانطلقت إلى «عوينة ونّين». بعد ثلاثة أيام أشرفت على نجع القبيلة. رأيت أن أنزل النجع في وقت مناسب فانتظرت حتى حلول الضّحى فاتجهت إلى المضارب. هنا ساق اللّه في طريقي ذلك الكلب المشؤوم الذي لا أعرف من أين أتى. لم أسمع بقبيلة من أهل الصحراء تقوم بتربية الكلاب. فمع سكون الضّحى بدأت الحركة تدب بين المضارب. تجمعت النساء والصبايا في مداخل البيوت وخرج الصبية الفضوليون والرجال والشيوخ ليستطلعوا القادم الجديد. في تلك اللحظة هجم الكلب الشرس على المهري فجأة وهو ينبح بوحشية ويكشف عن أنياب كريهة فقفز المهري قفزة لم أقرأ لها حساباً فانزلق السرج وتعلقت أنا برقبة المهري الهائج. سقط السرج ولكن كبريائي ساعدتني في الصمود وعدت بحركة بهلوانية إلى ظهره ولكنه استمرّ ينتفض كفرس مجنونة حتى وجدت نفسي أطير في الهواء وأسقط فريسة في متناول الكلب الذي تجرأ ونهش قطعة من سروالي. لحظتها أنقذتني من أنيابه مجموعة من الشباب أسرعت لنجدتي. ماذا أقول لك؟ فضيحة. وقعت الفضيحة أمام الغرباء من القبيلة الغربية التي وافقت أن يقترن بابنتها نبيل

يتفنن في الصمود على ظهور المهاري. كنت على يقين أنني خيبت أمل القبيلة وخيبت أمل الفتاة التي جللتها بالعار. ستعيرها بقية الفتيات بخطيب انهار من على المهري أمام الجميع وفي النهار بسبب كلب بائس! يا للعار! يا للعار! الحق أقول: لا أعرف كيف مضى ذلك اليوم. قضيته محموماً أهذي وأسبح في العرق، وفي اليوم التالي استأذنت الشيخ في إرجاء عقد القران إلى وقت آخر متذرعاً بزيارة للأودية المجاورة لتفقد مراعي إبل القبيلة التي يشرف عليها الرعاة.

أعرب لي الشيخ عن الأسف لما حدث وأذن لي بالإنصراف. وفي طريق العودة هاجمني نفس الكلب المتوحش - الذي علمت فيما بعد أن صاحبه لم يكن سوى أب الفتاة التي أنوي الإرتباط بها - بنفس العداء. كنت مترجلاً هذه المرّة أقود المهري خلفي لكي أجلس على السرج بعد أن تجاوزت المضارب بمسافة. وشاءت الصدف أن يأتي هذا الجني بعد أن تراجع الشباب الذين شيعوني مباشرة. كنت أغلي من الغيظ ولكن المراسم منعتني من اتخاذ أي إجراء ضد الوحش على مرأى من أفراد القبيلة الذين لا أشك في أنهم يقفون الآن خارج المضارب يراقبونني ويترصدون حركاتي.

كتمت غيظي. ومضيت أقود المهري. ظلّ يرفس بساقيه محاولاً أن ينزع الرسن من يدي. مشيت وأنا أروّض الجمل الهائج وأحاول أن أهدىء من ثورته متحايلاً على الكلب حريصاً ألاّ آتي بحركة قد تثير إستفزازه حتى حجبني عن المضارب مرتفع صغير تعلوه أشجار الرتم. تناولت بندقيتي المعلقة في السرج وأطلقت الرصاصة الأولى في وضع الوقوف. ولا أعرف عما إذا أصابته الطلقة الأولى لأنني ركعت على ركبتي وألحقته بطلقة أخرى قضت عليه في الحال.

جلست على السرج وانطلقت إلى وادي الجعيفري. وبعد يومين جاء رسول من شيخ أوراغن يحمل مكتوباً إلى شيخ قبيلتنا يخبره فيه بإلغاء الزواج لأن «ابنكم أهان بيت خطيبته وأراق دم حيوان بريء عانى أبوها في تربيته. وقد دلّل ابنكم غوما على طيشه وبؤس خبرته بالحياة لأنه فشل في ضبط النفس واستجاب لإستفزاز كلب فكيف يمكننا أن نثق به ونسلّمه فتاتنا مدى الحياة. إنه ليس أهلاً لها وليس أهلاً للتوفيق بين قبيلتنا أيضاً. ولولا معرفتنا الجيدة بكم وافتراضنا لحسن النية لاعتبرنا هذا العمل عدواناً مبيّتاً يستوجب حشد الفرسان للرد. ولكننا حكّمنا العقل حقناً للدماء واحتراماً لجنابكم وحكمتكم». هكذا عبّر شيخ أوراغن عن سخطه لمقتل الكلب اللعين فاستدعاني شيخ قبيلتنا وقرأ لي الرسالة، ثم قرّعني وأسمعني خطاباً طويلاً من العتاب وانتهى إلى أن عملي سوّد كل القبيلة

لأنني لم أنجح في الإمتحان واحتكمت إلى السلاح وأشهرته في وجه كلب بائس، بدل أن آخذ الأمر على أنه «مجرد دعابة»! واذكر وقتها أن عبارته القاسية «مجرد دعابة» استفزتني ولكنني كتمت غيظي إحتراماً.

ولا أدري عما إذا كانت تلك «الدعابة» هي مؤامرة مدروسة مسبقاً أم أنها حدثت بالصدفة. والأرجح أنها خطة أشرف شيخ القبيلة نفسه على تدبيرها. فقد وجد من همس لي بأن الكلب كان مربوطاً إلى وتد بجوار البيت طوال الوقت نظراً لشراسته وعنفه ولم يطلق سراحه إلا في اليومين السابقين لوصولي. وترددت شائعة تقول ان صاحب الإقتراح لم يكن سوى شيخ القبيلة نفسه. ولم يفهم أحد سبب تصرفه: هل لأنه يريد أن يرفض طلب يد الفتاة بصورة مّا؟ أم أنه حقاً أراد أن يمتحنني ليرى مدى قدرتي على السيطرة على نفسي؟ هذا ما ظلّ غامضاً حتى اليوم برغم أن أحد أقربائي أخبرني بما ردده شيخ أوراغن في مجلسه حيث قال بالحرف: «من لا يستطيع أن يروّض كلباً لا يستطيع أن يروّض امرأة». ولا أخفي عليك بأنني أعجبت وقتها بهذه الجملة التي صاغتها تجربة الشيخ الحكيم. أدركت قيمة الحكمة فيما بعد عندما عرفت نساء كثيرات وذقت مرارة الزواج. وحرق القلق والتنقل بين الفتيات قلبي وعقلي وعرفت أن أشبه مخلوق بالكلب هو المرأة!

ضحك الشيخ وهو ينهي قصته ويختطف نظرة نحو الكلب فبادله الكلب بنظرة ودّ كشفت عن ابتسامة حقيقية فقال الشيخ في نفسه «ما أشبه هذا الكلب بإنسان ما!».

بدأ مهمدو يخلط الشاي بين وعائين لاستجلاب الرغوة. قال بعد قليل:

ـ الكبرياء. الكبرياء هي التي ستدفنكم جميعاً معشر أهل الصحراء.

أعاد وعاء الشاي إلى الجمر للتسخين ثم أضاف:

ـ نفس الكبرياء التي جعلت تلك الحسناء تحبس آلامها وتكتم أمر النزيف بحضور الحبيب في القصة المشهورة. هل سمعتها؟

رفع الشيخ نحوه نظرة مستفهمة فاستمرّ مهمدو:

ـ جاء العاشق لزيارة معشوقته لكي يزفّ لها بشرى موافقة قبيلته على الإرتباط بها (الفتاة من قبيلة أخرى معادية) لوضع حدّ للتناحر المستمر بين القبيلتين فوجد الفتاة جالسة تتمتع بنسيم المساء خارج الخيمة فرشق رمحه بجوارها وجلس قبالتها. كان ضعيف البصر ولم يلحظ في ظلمة الليل كيف اخترق الرمح فخذ الفتاة التي كتمت الأمر ورحبت به وهي مسمّرة إلى الأرض. تبادلا الحديث حتى مطلع الفجر دون أن تدعه يلحظ آلامها. كانت تحاصر النزيف المتدفق

على الأرض وتهيل عليه الرمال حتى أستأذن الضيف وودعها على أمل لقاء قريب. وبمجرد أن بلغ نجع قبيلته أدركه رسول بخبر وفاة حبيبته!

صمت مهمدو ورمق غوما بنظرة خاطفة وتمتم:

ـ قصة قاسية أليس كذلك؟

هزّ غوما رأسه موافقاً. ثم التفت إلى مهمدو قائلاً:

ـ ولكنني لم أسمعها من قبل. هذه قصة لم أسمعها.

أدرك مهمدو فوراً أن غوما قد راوده الشك في صحة القصة، بل ربما اعتقد أنها من تأليفه.

ولكن مهمدو مضى يستنتج بهدوء:

ـ مشكلتكم أنتم أهل الصحراء أنكم تخلطون في فهم الكبرياء وتعتقدون أنه مرادف للنبل. إنني أسمّي هذا النوع من الكبرياء بـ«الكبرياء القاتلة».

نزع وعاء الشاي من فوق الجمر وشرع يرفعه إلى أعلى حتى يحجب وجهه عن وجه غوما فيتدفق الشاي من فتحة الوعاء في خيط طويل دقيق فقال الشيخ غوما في نفسه أن الشاي سوف يخطىء الكوب الصغير ويندلق الآن لأن إرتفاع مستوى الوعاء في الهواء لا يناسب الرجفة في يدي مهمدو.

ولكن خيط الشاي لم يخطىء الهدف.

(٣)

منذ متى يقيم العجوز مهمدو في تلك المغارة؟ منذ متى وهو يتخذ من ذلك الكهف الموحش المحفور في قمة الجبل مأوى؟.

لا أحد يستطيع أن يجيبك على هذا السؤال في كل الواحة دون أن يلجأ إلى الأساطير التي ورثها عن جدّه أو سمعها من أبيه أو أمه. لأن تاريخ المغارة هو تاريخ حياة العجوز ليس لأنه أول من لجأ إليها واتخذها مأوى، ولكن لأن تاريخ إقامة مهمدو في الكهف من القدم بحيث يعجز أهل الواحة عن تحديد الفترة بالضبط. الله لم يمن على أحد من أهل الواحة بعمر يوازي عمر مهمدو حتى يستطيع أن يروي تاريخ المغارة بيقين رجل عاصر الأحداث ورأى بعين اليقين. وحتى المعمّرون من أهل الواحة، على قلّتهم، الذين بلغوا الثمانين، يعجزون عن رواية أحداث عاشوها بأنفسهم فيلجأون في روايتهم الى عبارات مثل: «قال فلان رحمه الله» أو «سمعت جدّي يقول...» أو «يحكى أن..» بانين الأفعال للمجهول أو للموتى برغم أن مهمدو لا يمكن أن يكبرهم إلى هذا الحدّ طالما لم يتجاوز المئة عام في عمره أو تجاوزها بقليل كما يؤكد هؤلاء المعمرون أنفسهم.

ويؤكد ذلك أيضاً بقية المهتمين بتاريخ المغارة وهو التاريخ الذي يرى فيه العقلاء جزءاً من تاريخ الواحة.

وأكثر ما يثير الدهشة هو هذا التكتّم الذي عامل به مهمدو ماضيه. فلم يحدث أن سئل عن حدث من الأحداث الغنية التي توالت على الواحة وأجاب عنه. ولم يحدث أن كشف عن عمره الحقيقي، وعجز حتى صديقه الشيخ غوما عن استنطاقه في مثل هذه الشؤون.

ولا أحد يستطيع أن يجزم عمّا إذا كان غوما حقاً قد حاول استنطاقه أو إنتزاع معلومات عن حياته الماضية لأن لا أحد من أهل الواحة يعرف طبيعة علاقتهما التي توصف في أوساط الأهالي كثيراً بأنها علاقة غامضة. ويقال ان هذه العلاقة قد توطدت في تلك الأثناء التي كان فيها غوما مولعاً بالتصوّف وجاء إلى الواحة طلباً للحكمة، وانخرط في جماعات الطرق قبل أن يتولّى مشيخة القبيلة بزمن طويل. بالطبع لم ينس أهل الواحة أن يضيفوا قليلاً من المبالغات إلى الشائعات فقالوا أن جنون غوما بالمعرفة واستكشاف البلدان دفعه لأن يبوح لمهمدو بنيّته في التوجه شمالاً إلى مدن السواحل ومنها إلى وادي النيل لطلب الحكمة. أدرك مهمدو بخبرته الطويلة أن غوما مصاب بمرض الشقاء الذي يصاب به البشر في فترة معينة من العمر وقرر أن يحول دون تنفيذ غوما لهجرته لأنه يرى أن يتوجه غوما في طريق آخر، إلى نفسه وليس إلى مصر أو طرابلس، ويؤكد مهمدو أن هذا هو طريق الحقيقة وليس التسكع بين الأمصار والأقطار التي لن تفعل شيئاً سوى أن تضاعف الشقاء. فماذا فعل مهمدو لإنقاذ غوما؟

يقول أهل الواحة أنه لجأ إلى سلاحه القديم: السحر! وعندما بدأ مفعول السحر فقد غوما القدرة على التوجه نحو الشمال ولم يستطع أن يتجاوز سلسلة التلال الرمادية التي تشكل حدود الواحة الشمالية.

ويسرد أهل الواحة أكثر من قصة لتأكيد هذه الواقعة.

فيحكي البعض عن محاولة غوما الأولى قائلين انه دفع مبلغاً كبيراً من المال لسائق سيارة شحن كانت تجلب البضاعة للواحة كل شهرين كي يقلّه إلى طرابلس. ولكن السيارة أصيبت بعطب استعصى أمره على الميكانيكي الذي يرافق السائق في كل رحلاته. وظلّت السيارة جاثمة في ساحة الواحة شهوراً كاملة بعد أن يئس صاحبها من إصلاحها، فعزم غوما على الإنضمام إلى قافلة قادمة من تمبكتو متجهة إلى جبل غريان وقرر مرافقتها إلى طرابلس. مشى كل شيء على ما يرام حتى بلغت القافلة أعتاب السلسلة الجبلية فانهار غوما وخرّ صريع الحمّى.

فاضطر أن يتخلف لتواصل القافلة طريقها. ولكن الحمّى تراجعت فور وصول غوما إلى الواحة محمولاً على أعناق مجموعة الفلاحين.

ظلّ يعاني الحمّى كلما تجاوز بيوت الطين ميمماً شطر الشمال. وكان أقصى ما يستطيع أن تصل إليه قدماه هو أعتاب السلسلة الجبلية، بعدها يبدأ الصداع ثم الحمّى وأحياناً الغيبوبة. أشار عليه شيخ الطريقة القادرية أن يلجأ إلى العرّافين والسّحرة، لأن في الأمر سرّ لا يستطيع الكشف عنه سواهم، وقال له أحد أمهر السّحرة في الواحة في تلك الفترة: «هذا عمل محكم. هذا عمل لا حيلة لي في إبطال مفعوله لأنه عمل شيطاني من صنع بلاد شنقيط[١٢]». ثم تمتم بالتعاويذ وأغرقه في عاصفة من البخور والطيب المستورد من بلاد الهند وحذره من التوجه نحو الشمال، ونصحه بأن يلجأ إلى الجنوب إذا أراد النجاة.

ويقول أهل الواحة أن غوما أعاد ما قاله الساحر على مسمع شيخ الطريقة فهزّ رأسه طويلاً ثم لاذ بالصمت ولم يعد إلى الموضوع أبداً. لم يعجب ذلك غوما فاستمرّ يبحث ويسأل ويستشير حتى وجد من تطوّع وأباح له بأن مهمدو هو المسؤول عن هذا العمل، ودعّم زعمه بتلك الإشارة الخاطفة من السّاحر عندما قال أن طريقة تنفيذ السحر هي من عمل أهل شنقيط المعروفين بتفوقهم في السحر ومصارعة الجن ولا أحد في الواحة يمكن أن تحوم حوله الشبهات غير العرّاف مهمدو الذي تتلمذ على يدي معلم مشهور جاء من بلاد شنقيط. وبرغم أن غوما لم يصدّق هذا الإحتمال في البداية نظراً لحسن علاقته بمهمدو وعدم توفر الأسباب التي تجعله يلجأ إلى الأذى إلا أنه لم يلبث أن استسلم فذهب الى مهمدو وسرد عليه القصة. كانت دهشة غوما كبيرة عندما لم يسارع العرّاف إلى نفي التهمة كما توقع وإنما بدأ حديثاً مفاجئاً عن معنى الحياة وعبث البحث عن الحقيقة خارج النفس حتى وصل إلى نتيجة ارعبت غوما عندما قال حسب رواية أهل الواحة: «البحث عن الحقيقة، في العالم الخارجي يشكل خطراً على حياتك. ذلك يهدد الإنسان بالفناء ويزين في عينيه الإنتحار» ثم ضرب صدره بيده مرتين وهو يردد:

«ابحث عن الحقيقة هنا وليس في مصر أو طرابلس»، ثم أضاف وهو يشيعه في طريق عودته إلى القبيلة: «سوف تشكرني يوماً ما على ما فعلت».

ولا أحد يعرف ما إذا قال مهمدو ذلك فعلاً أم أن الأمر لا يعدو أن يكون مبالغات الرواة المعروفة. والمرء لا بد أن يجد لهم العذر طالما لا يجدون عملاً سوى الجلوس في ظلال الجدران يطردون أسراب الذباب عن وجوههم بمراوح

النخيل ويفترسهمَ الفراغ.

ولكن ليس أمامنا إلا أن نردد معهم أقاويلهم طالما ليس لدينا وثائق أخرى من شأنها أن تفيدنا في معرفة تاريخ المغارة الخفية وحياة مهمدو الغامضة. والمغارة تقوم في قمة المرتفع الجبلي المغطى بالجماجم وعظام البشر من القمة حتى الحضيض. وترقد في جهته الجنوبية المقبرة الجديدة. ومن المرجح أن يكون المرتفع قد قام نتيجة تراكم الجماجم والجثث على مدى مئات أو ربما آلاف السنين التي شهدت فيها الواحة معارك دامية وغزوات وحشية تجيء من الشمال أو من حملات قبائل الصحراء بالجنوب. ويدلل أولئك الذين يقولون ان المرتفع الجبلي قطعة من الجماجم بانتشار عظام الموتى من الكهف في القمة حتى أعتاب الجبل عند المقبرة الحديثة مروراً بالسفح متناثرة هنا وهناك حتى أصبح إرتطام الأقدام بالجماجم أمراً عادياً. وكثيراً ما يلجأ الأطفال إلى التراشق بقطع كاملة من الجماجم أو بتلك الأجزاء من العظام التي لم يأكلها التراب. وتطل رؤوس الموتى من جدران الكهف وتتناثر أطراف البشر في أماكن مختلفة من المغارة. أما مهمدو نفسه فيتمتع بصحة جيدة يحسده عليها الشباب برغم عمره الذي يناهز المائة إن لم يتجاوزها بقليل. وهو شيخ أسمر قاتم البشرة، طويل القامة، نحيف الجسم، نحيل الأطراف، يضع على رأسه زمالة مهترئة ويرتدي ثوباً فضفاضاً ويتوكأ في مشيته على عكاز من السدر المزخرف يقال انه تلقاه هدية من الشيخ غوما في الزمان البعيد. ولا يستطيع أهل الواحة إلاّ أن يرمقوه بالدهشة الممزوجة بالإعجاب وهم يشاهدونه يذرع الواحة عند الفجر متجهاً نحو الغابة في جولته اليومية أو وهو يخرق السوق في ساحة الواحة ميمماً شطر الشمال نحو التلال الجبلية الرمادية. يمشي بخطوات واسعة واثقة، لا تتناسب مع شيخوخته. ويقال ان الفضل يرجع إلى القدح الكبير من البول الذي يتناوله فجر كل صباح قبل أن ينطلق في جولته. ويتندر أهل الواحة على بعضهم فيقولون: «إذا شئت أن تعيش عمر مهمدو وتتمتع بصحته فما عليك إلا أن تستبدل كوب اللبن أو الحليب بقدح البول على أن تتناوله على الخواء عند صياح الديكة» فيغرقون في الضحك حتى يعتقد من يسمع نكاتهم أن أمر هذا القدح لا يعدو أن يكون نكتة لا أساس لها من الصحة. ولكن العقلاء يؤكدون أن العجوز يتناول القدح بالفعل وقد اعترف بنفسه بذلك قائلاً ان هذا المنهج متبع في بلاد الهند ويشفي كل الأمراض التي تعجز حيل الإنسان.

أما قصة تتلمذه على المعلم القادم من بلاد شنقيط فيرجع تاريخها إلى العهد العثماني عندما كانت واحات الصحراء الكبرى منفى مناسباً إتخذه سلاطين

الإمبراطورية في الأستانة للتخلص من منافسيهم على السلطة.
في ذلك العام دفع السلطان إلى طرابلس بفريق جديد من المنفيين الذين حامت حولهم الشبهات في التآمر على العرش، ولمّا لم تثبت التهمة فقد نجت رؤوسهم من المقصلة وكان المنفى إلى الصحراء الكبرى في انتظارهم. ففاز الباشا المتهم بتدبير الإنقلاب بولاية طرابلس فوراً. أمّا اتباعه فقام بتوزيعهم على بقية المدن والواحات النائية وكانت واحة «آدرار» من نصيب سعادي الحائز على لقب «بك». وهو رجل كريه، محتقن الوجه، بدين الجسم، يشهر أمامه كرشاً فخماً ترافقه حاشية من الأتباع والمساعدين والجنود وابنته الحسناء. دخل الواحة مع حلول المساء فنصب معسكراً وأمر جنوده بإستباحة الحقول واجتياح الغابة وانتزاع الخرفان من الفلاحين لتحضير الوليمة. فسالت دماء عشرات الخراف في تلك الليلة، بل واستمرت عمليات النهب التي أشرف عليها نفر من الإنكشاريين الأشقياء فشملت كل اللاقبي الذي قاموا بمصادرته وتقديمه للبك على مائدة الطعام. سكر سعادي من فوره فأمر بإحضار شيخ الواحة فوراً. أشرف بنفسه على سلخ جلده بثمانٍ وأربعين جلدة عقاباً له على سوء الإستقبال كما برر الطاغية عمله الإجرامي في الصباح عندما صحا من السكرة!.
ولم يكتف هذا الوحش بجلد الشيخ الوقور وإنما أصدر فرماناً بعزله فورا وتعيين عاشور الجاروف بدلاً عنه (وهو جدّ عبد الجليل الجاروف شيخ الواحة الحالي). ثم بدأ سعادي بك سلسلة من الإجراءات التنكيلية بالأهالي وفرض عليهم ضرائب قاسية وإتاوات مجحفة أفلست الكثيرين ودفعت بالبقية إلى مضاعفة العمل لدفع المصيبة وتغطية الضرائب التي اعتبرها البعض جزية كان أحرى لسعادي بك أن يفرضها على الروم لأنها لا تجوز على معشر المسلمين. وصل هذا الهمس إلى آذان سعادي على الفور فاعتبره تحدياً لسلطته ورأى فيه بوادر للتمرّد فأطلق جنوده يقتحمون الأكواخ والبيوت وأمرهم بجلد كل من تقع عليه يدهم ما لا يقل عن اثني عشر جلدة ولم يستثن من هذا القمع حتى النساء والأطفال.
أدرك الأهالي أنهم وقعوا ضحية رجل مريض لا يعرف الرحمة. أعماه حقد السلطان عليه فدفعه للإنتقام من أهل الواحة الأبرياء لكي يعوّض الظلم الذي وقع عليه من سلطانه في الاستانة. فكان يعد المآدب كل مساء ويلتهم مجموعة من الخرفان على العشاء ويرفع عقيرته بـ«أمان.. أمان» ثم يبدأ في سرد بطولاته المزعومة ضد الروم في القرم والبلقان. وكانت كريمته الحسناء تومىء برأسها وترمقه بإعجاب كأنها تثني على هذه البطولات التي يعرف الجميع أنها مختلقة من

البداية حتى النهاية. وقد تناقلت الألسن في الواحة شائعة تقول أن هذا السعادي بك على علاقة آثمة بكريته تلك. وبرغم أن الرعب الذي يسيطر على الأهالي يمنعهم من تناقل الشائعات أو ترديدها إلاّ أن ذلك لم يمنع هذه الشائعة من التنقل والإنتشار حتى عادت إلى مسامع البك نفسه. وكم كانت دهشة الجميع بالغة عندما وجدوا سعادي يقهقه ملء شدقيه ويعلّق ببرود إجرامي: «وماذا في ذلك؟ لماذا أترك هذا الملاك يفلت مني ليرقد في مخدع الأغراب؟».

اقترست القشعريرة كل من سمع هذا التعليق الوحشي الذي استمرّ يردده في مجالسه دون أن يشعر بذرة خجل!.

ويروق له أن يمهّد لأي عمل إنتقامي يزمع القيام به ضد الفلاحين بقوله: «هؤلاء الملاعين. إنهم من سلالة العبيد الذين قال عنهم الشاعر لا تشتري العبد إلا والعصا معه..» ثم يكمّل الشطرة الثانية من البيت باللغة التركية. وكان يحب أن يثني على المتنبي ويردد دائماً أنه أحسن شاعر برغم أنه لا يحفظ من شعره سوى الشطر الأول من هذا البيت الشهير. ولا أحد يعرف عما إذا كان يحفظ أشعاراً أخرى للشاعر الكبير بلغته الأم.

ولم يجرؤ أحد أن يطرح عليه هذا السؤال طالما كان أهل الواحة أنفسهم يجهلون المتنبي تماماً إذا استثنينا الشيخ المراكشي المعزول الذي لزم الجامع يضمد جراحه الجسدية والروحية.

ولسوء حظ المعلم الشنقيطي أن يأتي إلى الواحة في هذه الفترة العصيبة بالذات. يذكر أنه دخل الواحة على حمارة بيضاء يجرّ خلفه جملاً محمّلاً بالأمتعة والماء والمؤن، ويؤكد آخرون العكس فيقولون انه دخل الواحة راكباً الجمل ويقود خلفه تلك الحمارة البيضاء التي أثارت موجة الفضول بسبب لونها الغريب. فلم يحدث أن رأى أحد في الواحة حمارة بلون أبيض. وقد بعثت هذه الحمارة الفضول في نفس مهمدو الشاب الذي كان حتى ذلك الوقت عطّاراً يتخذ من بيع الأعشاب البرية والتطبيب بالنباتات الجافة مهنة يتعيش منها. فاستغل غياب المعلم في السوق لشراء بعض الحاجيات وتقدّم من الحمارة البيضاء المربوطة بجوار الجمل في الساحة الكبيرة وطفق يداعبها ثم لا يعرف نفسه كيف ذهب إلى الحقل وأتى لها بحزمة كبيرة من البرسيم الأخضر. وقد اعترف للمعلم الذي أدهشه هذا الكرم وشكر مهمدو على الاهتمام قائلاً انه لم ير حمارة بيضاء في حياته فقال المعلم بغموض وهو يكشف عن أسنانه بابتسامة صادقة: «السرّ في لونها يا بني. لقد قضيت سنوات وأنا أبحث عنها في صحارى الله الواسعة». ولما لم يفهم مهمدو

شيئاً مما قاله المعلم فقد اضطر الأخير أن يوضح اللغز ويبسّط الرمز فروى له قصته عندما اطمأن إليه بعد مضي أيام من الإقامة في المغارة التي دعاه إليها مهمدو فرفع المعلم يديه إلى السماء كأنه يكبر للصلاة ثم أعلن في وجد درويش: «هذا أنسب مكان لمن ينشد العزلة ويسعى لاكتشاف كنوز الروح وترويض النفس الأمّارة بالسوء». ولكن المعلم لم يأت إلى الواحة بهدف العزلة أو ترويض النفس كما صرّح في ابتهال ذلك اليوم، لأن الأيام كشفت هدفاً آخر لم يبح به المعلم لشخص سواه. ففي جلسة شاي المساء سرد المعلم كيف طاف الأطراف الغربية من الصحراء الكبرى بداية من تمبكتو ونهاية بمراكش مروراً ببلاد شنقيط وتافيلالت وتوات ووهران حتى وجد ضالته ترتع في حقل البرسيم في أطراف مراكش. وقد ماكس صاحب الحمارة ودفع له مالاً مغرياً ولكن الفلاح الخبيث أدرك بحاسة المزارع ومكره حاجة المعلم الخفية إلى الحمارة فرفع السعر إلى حد خيالي ولكن المعلم اضطر أن يدفعه في النهاية. وقال ان الأصعب من العثور على حمارة بيضاء ناصعة هو قطع كل هذه المسافة من الصحارى الرملية الرخوة التي تغوص فيها حوافر الحمير حتى الرقبة مما أجبره أن يحملها على ظهر الجمل أكثر من مرة ولمسافات طويلة. وعندما سأله مهمدو عن علاقة الحمارة البيضاء برحلته الشاقة إلى الواحة التفت المعلم الشنقيطي حوله وأجال بصره في الظلام ثم أخبره أن هذا يتطلب أن يحكي له قصة أخرى ووعده أن يقصها عليه غداً أو بعد غد ثم نهض وافترش الحصير ونام.

نام مهمدو بجواره في الباحة أمام المغارة. وعندما أفاق في منتصف الليل فوجىء بحركة في الظلمة. تعمّد المعلم أن يوقد عود ثقاب وهو يكتم ضحكة لا تناسب الهزيع الأخير من الليل. في تلك اللحظة وقع بصر مهمدو على أفعى تتلوى دون أن تغادر مكانها. في البداية ظن أن المعلم قطع رأسها ولكنه لم يخف دهشته عندما رأى رأسها الشرس ملتصقاً بجسدها الكريه والمعلم يوقد عود ثقاب وراء آخر ويضحك ضحكاته المكتومة. تساءل مهمدو عمّا أصابها فقال الشنقيطي ببرود: «لا شيء. كل ما هنالك إنني قررت أن أعبث بها قليلاً فقرأت على رأسها آية الكرسي بالمقلوب». فردد مهمدو في دهشة: «آية الكرسي بالمقلوب؟ هل بوسع آية الكرسي المقلوبة أن تفعل شيئاً كهذا؟». ولكن المعلم استمر في مداعبته للأفعى قائلا: «تفعل ما هو أسوأ من ذلك. الحق أنني لم أقرأ الآية كاملة. الآن سأريك ماذا ستفعل بها الآية كاملة» فسمعه مهمدو وهو يتمتم بالآية بشكل مقلوب. ثم أشعل عود ثقاب في قطعة من القماش ولما سأله مهمدو عن وظيفتها

قال المعلم بلهجة من يتقن صناعته: «لا شيء. وظيفة الحجاب مساعدة». لحظتها همدت الأفعى تماماً حتى اعتقد مهمدو أنها ميتة، ولكن الشنقيطي حذّره قائلاً «حاذر أن تلمسها بيدك. ذلك من شأنه أن يبطل مفعول السحر!». ثم أطفأ عود الثقاب وسحب الغطاء على رأسه وهو يتمتم:

«الآن تستطيع أن تنام بهدوء».

ولكن مهمدو لم ينم أبداً، ليس خوفاً من الأفعى الملقاة بجواره ولكن لأنه ظلّ يفكر في قدرة السحر على خلق المعجزة، ولأنه لم يكن يعتقد أن هذه المعجزة يمكن أن تتحقق بهذه السرعة، وبهذه البساطة.

نهض في الصباح فوجد الأفعى ما تزال موثوقة وعاجزة عن الحركة فقال المعلم وهو يوقد النار ويستعد لتحضير شاي الصباح: «الآن سوف نطلق سراحها». ثم تمتم بآيات وقرأ بعض التعاويذ. مرت لحظات قبل أن تنطلق الأفعى وتزحف نحو المنحدر كأنها تفرّ هاربة!

تقرفص الشنقيطي حول عدة الشاي وباح لمهمدو في ذلك الصباح بأول سرّ بنفس البرود: «تقييد حركة الزواحف أمر بسيط. أما مصارعة الجن فذلك هو الخطر الذي قضيت العمر كي أتعلمه».

ثم ابتسم وهو يرى الفضول يقفز من عيني مهمدو وأخرج من جيب جلبابه قطعة متآكلة من الجلد بسطها في حجره وشرع يفحصها بعناية. غلى الشاي في الوعاء فطوى القطعة الجلدية المزينة بالرسوم المبهمة، المخرمة بالثقوب المتآكلة وأعادها إلى جيبه وهو يتساءل: «كم يبعد بئر العطشان من هنا؟». أجاب مهمدو: «مسافة يوم ونصف على ظهر دابّة». بعد تناول الدور الأول من الشاي أعلن أنه سيضطر لأن يغيب في الخلاء بضعة أيام وطلب من مهمدو أن يكتم الأمر وألاّ يبوح بمهمته لمخلوق. عاد بعد انقضاء قرابة الأسبوع يجرّ جمله خلف الحمارة البيضاء وقد سيطر عليه التوتر واختفت ابتسامته التي لم تكن تفارق شفتيه وغاب المرح حتى أنه وقع فريسة الحمّى في تلك الليلة التي أعقبت عودته من الرحلة. طفق يهذي طوال الليل. وبلغ الكابوس ذروته عندما تناهى إلى سمع مهمدو (الذي هجره النوم فلم يغمض له جفن) صرخات متتالية أليمة وسباب بذيء لم يسمع بمثله من قبل خاصة من رجل وقور ومعلم حكيم مثل الشنقيطي فاضطر أن يوقظه أكثر من مرة. ولكن المعلم يفتح عينيه الزائغتين اللتين رأى مهمدو مقلتيهما المخيفتين تدوران في محجريهما تحت ضوء القمر بسرعة من يقاوم نوبة اختناق. وبمجرد أن يغمض الرجل جفنيه يبدأ العراك ويتدفق سيل الشتائم البذيئة أعنف مما

كان. ارتعب مهمدو وقضى الليل وهو يقرأ سورة الفاتحة ويردد آية الكرسي حتى قصم ضوء الفجر ظهر الليل البهيم وفتح المعلم عينيه فلاحظ فيهما مهمدو الهدوء. اختفى ذلك الوميض الجنوني الذي لمع فيهما طوال الليل.

حول الشاي تساءل مهمدو: «هل هو الجن؟» فهزّ الشنقيطي رأسه علامة الإيجاب. ثم ابتسم لمهمدو بودّ ودعاه لمرافقته إلى بئر العطشان. وعندما رأى التردد في عيني مهمدو ضحك ضحكة أنهكها المرض والحمّى وطمأنه إلى أن المرحلة الحرجة من الصراع قد توّجت بالنصر ولم يبق الآن سوى البدء في الاجراءات التي تتطلبها مهمته، وقال له أنه لم يكن يريد أن يسبب له كل هذه المتاعب ولكن ما حدث ضروري لحسم المرحلة الأخيرة. سيطر عليه قلق مفاجىء عندما أخبره مهمدو بزيارة الشيخ عاشور الجاروف للمغارة وسؤاله عنه ولكي يطمئنه سارع مهمدو يقول: «ولكنني كتمت عنه الحقيقة وقلت له أنك تغيب في الغابة بحثاً عن قلة لاقبي!». ضحك المعلم أيضاً برغم أن شعوره بالقلق لم يفارقه ثم قال في النهاية: «حسناً فعلت. الشيخ الجاروف لا يطمأن له».

وما استرعى إنتباه مهمدو في ذلك اليوم شهية المعلم للطعام، إذ التهم الفطائر والتمر وخبز الشعير على الغذاء، ثم شرب ثلاثة أقداح من اللبن بعد صلاة العصر، ومع حلول المساء اشتكى بأنه جائع. ولمّا استغرب مهمدو هذه الشراهة سارع الشنقيطي يوضح السبب بعد أن قرأ التساؤل في عيني مهمدو: «لم أذق طعماً لطعام منذ خرجت إلى بئر العطشان. المعركة مع المردة لا تتيح الفرصة لتناول الطعام».

روى مهمدو للشيخ غوما تفاصيل تلك الرحلة المثيرة الى بئر العطشان التي رافق فيها المعلم فتحدث قائلاً:

(٤)

«قضينا ليلتنا الأولى بسلام على مشارف ذلك البئر المهجور الذي غمرته موجات الرمال. في جانب البئر الغربي تنتصب ربوة صغيرة مغطاة بالأحجار والصخور، يحيط بها حزام من الرملة المحروقة كالرماد. وتبدو الربوة من بعيد في عزلتها كأنها تغرق في محيط الرمال العظيم الذي يطوقها من كل جانب. اتخذنا مقامنا بجوار البئر في مواجهة الربوة. وبعد تناول طعام العشاء (واذكر أنه مكوّن من قطعة خبز شعير جافة وبضع حبات من التمر وكوب من الحليب) لجأت إلى الفراش دون أن نشرب شاي المساء لأنني كنت متعباً أما المعلم فقد أخرج من جيبه كتيباً صغيراً متآكل الأوراق قال لي فيما بعد أنه يحوي أسرار العفاريت، ثم

جلس في مواجهة الربوة وشرع يقرأ التعاويذ على ضوء النار الخافتة. ولا أدري كم مضى من الوقت عندما استيقظت على انهيار جبلي رهيب، ورأيت بوضوح صخوراً هائلة تتدحرج نحوي وتكاد تهرسني فقفزت واقفاً. وكم كانت دهشتي عظيمة عندما وجدت المعلم جالساً في نفس الوضع، يرتّل تعاويذه الغامضة، دون أن يغير من جلسته المواجهة للربوة ودون أن يدع النار تخبو أيضاً. ومما زاد دهشتي أنه لم يعر رعبي اهتماماً، بل أنه لم يكلف نفسه حتى جهد الالتفات. قلت في نفسي أنني أهذي وما رأيته منذ قليل لا يعدو أن يكون حلماً. تحسست جبيني فلم أجد أثراً للعرق ولا للحمّى. عدت إلى الفراش مقرراً أن أنام. وبمجرد أن أسبلت جفني سمعت قهقهة عالية وأصوات كثيرة لم أتبين لغتها جيّداً، ثم صوت ارتطام الأقدام بأحجار الطريق. ثم قهقهات متتابعة مرة أخرى. فتحت عيني ورفعت رأسي فاختفى كل شيء. استمرت هذه الفوضى حتى الفجر. بعدها هدأ كل شيء وخمدت الضوضاء وثبتت الصخور في الجبل. وجدت المعلم يفحص المكان حيث تتناثر صخور البئر ثم بدأ يخطو بخطوات واسعة باتجاه الربوة وهو يعدّ خطواته بصوت مسموع. فركت عيني وطفقت أراقبه دون أن أزيح الغطاء أو أغادر فراشي البائس. برد الفجر لاسع في الصحراء كما تعلم. وأذكر أن الشنقيطي توقف بجوار الربوة بالضبط وهو يكرر رقم الخطوة الأخيرة: «أربعون. أربعون. أربعون». أعادها ثلاث مرات دون أن يتحرك ثم دار يميناً كما يدور طابور الجنود الطليان عندما يصرخ فيهم المدرّب: «يميناً در!».

عدّ سبع خطوات في هذا الاتجاه ثم توقف وهو يردد: «سبعة. سبعة. سبعة». وأدخل يده في جيبه وأخرج قطعة الجلد المزخرفة بالدوائر والرسوم والخطوط المتقاطعة وفحصها طويلاً. أعادها إلى جيبه ووضع حجراً في المكان، وجاء بالحمارة البيضاء وقيّد قوائمها الأمامية والخلفية وطرحها على الأرض ودعاني لمساعدته. لم يطلق تحية الصباح ولم يتبادل معي كلمة واحدة منذ الأمس، فشعرت بالانزعاج لأنني حدست ما يريد أن يفعله وأنت تعرف أنني لا أطيق رؤية الدم. أوكل لي مهمة تثبيت قوائم الحمارة الخلفية وجثم هو على قائمتيها الأماميتين وأمسك برقبتها بيده اليسرى ودفع المدية في نحرها بيده اليمنى. انتفض الحيوان المسكين انتفاضات عنيفة متتالية ولكن نزيف الدم الغزير المنبثق من الرقبة أضعف قدرة الحمارة على المقاومة فخفتت حركتها حتى هدأت واستسلمت تماماً. أثارني منظر الدم على الفور فمشيت خطوات وبدأت أتقيأ. كدت أتقيأ أمعائي في ذلك اليوم. أما هو فلم يهتم ولم ينطق حتى بكلمة مجاملة. كان غارقاً في أفكاره وهو يحفر

التراب بيديه.

أشرقت الشمس والمعلم ما زال يحفر الأرض بجوار جثّة الحمارة الذبيحة التي انعكست أشعة الشمس في مقلتيها الجاحظتين وظلّت تحدّق في الفراغ بذهول. كانت يدا الشنقيطي ملطختان بالدم معفرتان بكتل التراب التي التصقت بالسائل القاني الذي لطّخ جلبابه عند الأكمام. استمرّ في الحفر حتى أدرك طبقة كثيفة من الرماد القاتم، ولم يطل به الحفر بعدها حتى تحسس أول قلّة فخار. كانت متوسطة الحجم، غامقة اللون تميل إلى اللون الرمادي، ثم حفر بضعة أشبار في الطرف الآخر من الحفرة فعثر على القلة الثانية. أما القلّة الثالثة فقد استدعى الوصول إليها وقتاً أطول. أزاح المعلم التراب عن كل قلّة وتحسسها بأصابع مرتعشة قبل أن يضعها بحنان على الأرض بجوار الأمتعة. وما أن انتهى من عمله وصفف القلل الثلاث حتى ركع على الأرض ورفع كلتا يديه الملطختين بالدماء إلى السماء وهو ميمم وجهه صوب القبلة يقرأ ابتهالات الشكر لله. ثم التفت نحوي وعانقني وهو يردد: «الحمد لله. الحمد لله. هذه ثمرة كفاح سبع سنوات كاملة. الحمد لله. الحمد لله». ثم أفرغ القطع الذهبية البرّاقة في جراب صوفي أعدّه خصيصاً لهذا الغرض وأجلسني على المهري خلف السرج وانطلقنا في طريق العودة إلي الواحة فدفعني الانبهار بجمال القطع الذهبية (كانت كل قطعة متوجة برسم رأس امرأة خارقة الجمال. أما الوجه الآخر للقطعة فمزين بكتابة مجهولة الأبجدية) لأن أسأله عن عمر هذا الكنز فقال انه يفوق الثلاثة آلاف عام وأضاف يقول ان طول مدة التخزين هي التي جعلت أمر انتزاعه من أيدي الجن صعبة بل ومستحيلة، لأن الذهب ملك للجن وحدهم وسوف يعود إليهم في النهاية طال الزمن أم قصر. وكلما طال امتلاكهم له كلما ازدادت صعوبة استرداده منهم. وهذا ما جعلني أعاني سبع سنوات من تجميع الأساطير والمعلومات والتأكد من صحة الخرائط الدالة على الموقع الصحيح والبحث الطويل عن الواسطة المساعدة وتحديد مكانها وتقديمها كقربان لملك الجن، وهو الدور الذي لعبته تلك الحمارة البيضاء. ولمّا أبديت دهشتي من امتلاك الجن لكل ذهب الأرض ضحك طويلاً وقال ان هذه مسألة يعرفها حتى الأطفال في بلاد شنقيط ولإقناعي وجّه لي سؤالاً ما زلت أذكره حتى هذه اللحظة. قال: «هل سمعت عن شخص أضاع قطعة ذهبية في الصحراء الكبرى ثم عاد وعثر عليها؟» ابتسم وأضاف أن الجن يستولي على القطعة فورا ويضمّها إلى ثروته، وسرد قصصاً كثيرة تؤكد أن الصحراء الكبرى هي مملكة الجن والكنوز المغمورة في أحشائها تفوق كنوز قارون الأسطورية ولكن العثور عليها يستدعي مصارعة الجن.

والصراع مع الجن مغامرة تحتاج الى الشجاعة، وعدد الذين هلكوا في مثل هذه المعارك لا يحصى، ومن لم يهلك منهم فقد البصر أو أصابه الشلل أو أضاع عقله وعاش معتوهاً. وهذا يحدث عادة بسبب الخوف أو الاخلال بنصوص الآيات أو بالتعاويذ.

وفي تلك الليلة التي قضيناها على مشارف الواحة جمّع كوماً من الحطب وأوقد ناراً هائلة وعجن الدقيق وأخرج من أمتعته قطعة كبيرة من لحم الغزال المجفف وقال انه من حقنا أن نحتفل ونرقص ونغني احتفاء بنهاية المتاعب وفرحاً بالانتصار. وبالفعل غنى أغنيتين حزينتين وعزف لحناً كئيباً على المزمار وقلب وعاء النحاس وصنع منه طبلاً قرع عليه ألحاناً جنائزية وكنت أحاول طوال ذلك الوقت أن أساهم في فرحه فأردد خلفه الكلمات المفهومة من أغانيه وأدعم دقات الطبل بالتصفيق وأحياناً أتابع لحن المزمار بهمهمة دون أن أردد الكلمات التي لم أعرفها. وفي تلك الليلة روى لي بمزاج رائق قصته فقال: «بدأت مصيبتنا فجأة عندما شنت قبيلة الركاكبي على معسكرنا غارة مباغتة فقتلت الرجال وأسرت أفراد القبيلة من النساء والأطفال وساقتهم إلى رؤوس الجبال حيث تستقر القبيلة المغيرة واتخذت منهم عبيداً يخدمون في أعمال الزراعة ويقلبون الأرض ويسوون المساحات الصخرية وتهيئتها للفلاحة بعد أن وهب الله تلك القبيلة المستبدة الأمطار السخية وقررت أن تقوم بتنفيذ طموحاتها في توسيع المشاريع الزراعية. وشاءت الصدفة أن أكون غائباً عن المعسكر يوم الهجوم، إذ خرجت قبلها بيومين لتفقد إبلي في السهول الغربية ومكثت هناك أياماً بعد أن اكتشفت إصابة ثلاث نوق بالجرب فعدت إلى البيوت لاستجلاب المراهم فوجدت آثار المذبحة. قضيت اليوم كله وأنا أبحث بين الجثث التي بدأت تتعفن. كنت أبحث بين الجثث عن زوجتي وأبنائي الذين لم أجدهم فحمدت الله على ذلك. الإنسان يحمد الله في المصائب طالما توجد مصائب أهون من مصائب أخرى. همت في الصحراء أياماً بل وأسابيع قبل أن أتخذ قرار تسليم نفسي للركاكبة. لم يلهبوا جسدي بالسوط كما توقعت ولم يحبسوني في كهوفهم المظلمة حيث يقيمون، ولكنهم جاؤوا بي للمثول أمام شيخهم المهيب الذي قال لي وهو يتكيء على وسادة وثيرة من الحرير ويمروح بريش النعام: «سمعت من رجالي أن لك خبرة في فن السحر بل ومدرّب حتى على مصارعة الجن والعياذ بالله من الجن. سوف أكون رحيماً معك وأوكل لك مهمة لا يستطيع غيرك القيام بها. المهمة صعبة لأن المقابل أيضاً صعب. سأطلق سراح أسرتك وأنظر في أمر أفراد قبيلتك أيضاً إذا استطعت أن تأتيني بالكنز المدفون في

الصحراء. وهذه الخريطة سوف تكون دليلاً يساعدك على الاهتداء للمكان». ثم بسط في الهواء قطعة متآكلة من القماش وأضاف: «ولكن احذر. فسلطة الجن على الكنز عظيمة. أنا لا أريد أن أخدعك وأسهل الأمر». سمح لي برؤية أطفالي وزوجتي، وقضيت ليلتين معهم. وفي اليوم الثالث خرجت في رحلة طويلة الى تمبكتو، حيث وضعت تلك الخريطة، التي اكتشفت بعد سنوات أنها مزيفة. والخريطة الأصلية موجودة في مكان ما في مراكش. في ذلك الوقت لم أكن متمكناً من مهنتي، ولم أكتسب سوى مبادىء علم الفلك وبعض المحاولات المتواضعة في التنبؤ، وقد قضيت ثلاث سنوات في تمبكتو وأنا أدرس لغة الجن وأسوأ أنواع السحر على أيدي فقهاء وشيوخ مخيفين غرقوا في المهنة حتى نسوا الدنيا وأصبحت معاملاتهم مقتصرة على الجن. ثم لجأت إلى توات فعرفت بأمر الخريطة المزيفة، وفي تافيلالت قيل لي أن الخريطة الحقيقية موجودة في مرّاكش. هناك قضيت سنة ونصف قبل أن أعثر عليها في حوزة درويش مخبول قال انه ورثها عن جدّه. ابتاعها لي بثمن كلفني نصف ثروتي من الإبل لأن قيمتها ليست في أنها تشير إلى مكان وجود الذهب ولكن لأنها رمز لأثر توارثته العائلة. وقال ان دفعي لنصف ثروتي أمر عادل طالما قررت أن أدفع عمري كله مقابل الكنز، إذ حذرني من شؤم الذهب ولعنة الكنز. وأكّد أن خشيته من هذه اللعنة هي التي حالت دون أن يجدّ في البحث عن الثروة. الدرويش الحكيم يرجع الفضل في اهتدائه الى الحمارة البيضاء التي قال ان تقديمها كقربان شرط لإنقاذ الذهب من غضب الجن والحصول عليها سليمة».

هنا سكت قليلاً ورأيت في ضوء النار كيف لمعت عيناه بتعبير أليم وتمتم كأنه يخاطب نفسه: « .. ولكن كل متاعب السنوات الماضية لا تعادل في شقائها يوماً واحداً من الأيام الماضية عندما زرت بئر العطشان وبدأت أمهّد للسيطرة على الكنز». سكت مرة أخرى وظلّ العذاب في عينيه حتى ختم حديثه: «الحمد لله أنني لم أدعك لمرافقتي في ذلك اليوم. فعلت ذلك تحسباً للمصاعب». هنا استلقى على الرمال وحدّق في السماء المرصعة بالنجوم ولم يعد لهذا الموضوع أبداً فلم تسنح لي الفرصة لمعرفة الأحداث التي رافقت زيارته السابقة لبئر العطشان وإن كنت أتصوّر أهوالها من خلال تلك الانهيارات الجبلية الرهيبة وتلك الجلبة والقهقهات التي كانت تخرق سكون الليلة السابقة على اكتشاف الكنز».

(٥)

هكذا روى مهمدو قصة الاستيلاء على الذهب الذي لم يطل الاحتفاظ به على

أي حال. ويبدو أن الشنقيطي كان حكيماً عندما قال ان الذهب يعود إلى أصحابه الحقيقيين (ويقصد الجن طبعاً) طال الزمن أم قصر.

وقصة اختفاء الكنز وفقدانه لم يروها مهمدو ولكن تناقلها الأهالي، وإذا كنا لا نستطيع أن نعتمد كثيراً على أساطير أهل الواحة كمصدر موثوق ووحيد فإن أغلب التفاصيل التي سترد بشأن هذه الوقائع الدامية قد وجدت مكتوبة بخطوط مختلفة رديئة في مخطوط ضخم مغلف بالجلد وجد في الجامع بين كتب التفسير والفقه المصففة على السدّة المحاذية للجدار خلف المنبر الذي يعتليه الإمام لتأدية خطبة الجمعة. وهذا يضمن صحة المصدر طالما خطته أيدي شهود العيان. أما فيما يتعلق بما سيرد من تواطؤ الشيخ عاشور الجاروف مع حضرة القائمقام سعادي بك وتورطه في التآمر ضدَ ضيفنا الشنقيطي فقد اعتمدنا فيه على رواية الأهالي المتوارثة. لأن كل الصفحات التي تتعرض لهذا الأمر قد وجدت منزوعة من الكتاب. ولم يستغرب أحد من أهل الواحة ذلك طالما توارثت عائلة الجاروف منصب المشيخة منذ الشيخ عاشور حتى الشيخ عبد الجليل اليوم مروراً بعبد الله الجاروف ابن عاشور وأب عبد الجليل الذي تولى المنصب في العهد الايطالي.

ومن حسن حظنا أن تبدأ الأحداث المسجلة في الكتاب حيث انتهت قصة مهمدو للشيخ غوما، أي في ذلك اليوم الذي عاد فيه مهمدو من رحلته مصحوباً بالشنقيطي الضيف. وربما تعمّد مهمدو أن ينهي قصته في هذا المكان بالذات بسبب علمه بوجود مصدر مكتوب يتولى رواية بقية الأحداث، وكأنه يبارك هذا المصدر ويفوضه في سرد بقيتها بالنيابة عنه.

ترك الشنقيطي جمله - بعد عودته من رحلته في ذلك اليوم - في ساحة الواحة حيث تعوّد أن يتركه دائماً. أحكم الوثاق حول قائمتيه الأماميتين وربط الزمام بالسور. ولكن ما أثار إنتباه المارّة هو غياب الحمارة البيضاء التي كانت تجذب الأهالي بلونها الغريب وخاصة الأطفال الذين تعوّدوا أن يتجمعوا حولها. والاهتمام بغياب الحمارة لم يأت هذه المرّة من جانب الأطفال وإنما (هنا تمّ نزع الصفحة من المخطوط ولم يبق منها سوى أثر التمزيق وجزء صغير أبيض من الكتابة من الورقة المنزوعة، مما يضطرنا لأن نلجأ إلى رواية الأهالي الشفوية لملء الفراغ الناجم عن مصادرة الصفحة) أتى من الشيخ عاشور الذي لم يخف فضوله ودهشته من اختفاء الحمارة. بادر مهمدو بالسؤال عندما التقاه في السوق عن مصير «تلك الحمارة اللطيفة الغريبة اللّون» - على حد تعبيره - فأجابه مهمدو بأنها ترعى بهدوء وتلتهم البرسيم في الحقل. وقد دقق الشيخ مستفهماً عن إسم الفلاّح المحظوظ الذي

شـرّفـه الغـريب القـادم من بلاد شنقيط بتـرك حـمـارة نـادرة مثل هذه أمـانة في مزرعتـه. هنا أدرك مـهـمـدو سـوء النيّة في لهجة الشيخ فـأجاب باقـتـضاب: «في الغـابة» وانصـرف إلى الكهف تـاركـاً عـاشـور يقف وسط السـوق دون أن تتـوقف عيناه عن متابعة مهمدو.

ويبدو أن مهمدو باح للمعلم باهتمام الشيخ عاشور فعزم الشنقيطي أن يحزم أمتـعتـه، بل وحزم الأمـتعة في تلك الليلة مـقرراً أن يتـوكل على الله وينطلق في الصبـاح. ولكن القدر (هنا نعـود إلى الاقتـبـاس من المخطوط) حال دون أن ينفّذ المعلم عزمه. فجاء جنود القائمقام في الهزيع الأخير من تلك الليلة نفسـها لاعتقاله ومصادرة الذهب أيضاً. بل انهم صادروا الذهب قبل كـل شيء، ثم التـفتوا بعدها وأخذوا المعلم في طريق خروجهم من المغارة. فالتفتيش تمّ بطريقة جعلت مهمدو يجزم بأن الذهب هو المستهدف وليس الشنقيطي. جاؤوا بعد أن نام كل من في الواحة، خمسة رجال يحمل كل منهم مشعلاً بيد وبندقية عثمانية باليد الأخرى. وقف ثلاثة منهم بالخارج ودخل إثنان منهم إلى المغـارة، لم يقلبـوا الأمـتـعـة، ولم يعبثوا بالمحتويات ولم ينثروا شيئاً على الأرض كما توقع مهمدو وربما المعلّم أيضاً، ولكنهم ذهبوا الى أمتعة الشنقيطي مباشـرة وكأنهم على علم بالهدف وأخرجوا الجراب الصوفي ثم عادوا من حيث أتوا بعد أن قادوا المعلم أمـامهم. تمّ كل شيء دون جلبة أو ضوضاء، بل انهم لم يتفوهوا بكلمة واحدة طوال الوقت. وهذا ما أثار دهشة مهمدو وجعله يتابعهم حتى غابوا. اختفت نيران المشاعل وبقي واقفاً في الظلام والصمت. ولكن الجنود لم يمهلوه طويلاً، فقد عادوا في الصباح وحملوه مقيداً على محفّة مضفورة بجريد النخيل ووضعوه بين يدي القائمقام. استجوبه بتأفف واختصار وقرف واتهمه بالتواطؤ مع العملاء الأجانب لنهب ثروات الواحة ثم أمرهم أن يفعلوا شيئاً كي يغرب هذا المتآمر. غمز بعينه لمستشاره الانكشاري الذي حضر الاستجواب ففسّر الأخير الغمزة على هواه وقرر أن يذيقه السـوط فمـزّق الجندي جسـده بثلاث وعشـرين جلدة. (وفي رواية الأهالي ثلاث عـشـرة جلدة، أما مـهمدو نفسـه فيؤثر الصمت إزاء هذه الحادثة الوحشـية). ويقال ان مهمدو كان يتساءل طوال الوقت عن تفاصيل تبدو تافهة بجوار جلال تلك اللحظة كـأن يتـسـاءل عن سبب تقييـده على المحفـة وحـمله على الأعناق طالما لم يبـد مقاومة. ويروي البعض فيؤكد أنه تجاسر وألقى بهذا السـؤال في حضرة القائمقام فأثار غضبه وأمر بجلده. ويمضي البعض فيقول ان أحد الأهالي اقترب منه عندما جاؤوا به الى السـاحة لتنفيذ عقوبة الجلد وأخبره أن النقل على متن محفة أمر شائع

لنقل العصاة العثمانيين في وطنهم عكس بقية المسلمين الذين لا ينقلون على المحفة سوى الموتى. ويبدو أن هذا التفسير أقنع مهمدو فكفّ عن استفزاز الجنود.

وفي رواية أخرى (ورد نصّها في المخطوط) أن ذلك المواطن الذي تطوع لإشفاء غليل مهمدو من باب التعاطف قد أذيق طعم السوط أيضاً لأن أحد الجنود تبيّن همسه فاتهمه بالتهكم على سدّة الباب العالي وعاقبه بسبع جلدات.

ووردت عبارة في ختام هذه الحادثة نقتطفها هنا حرفياً كما وردت في مخطوط الجامع إذ يقول كاتب النص بخط رديء: «آه، ما أسهل عقوبة الجلد في تلك الأيام!».

وبعد أن تناول القائمقام إفطاره في ذلك اليوم ممزوجاً بدماء مهمدو (دوّنت هذه السطور في الكتاب بخط جميل كأن الكاتب رأى من غير اللائق أن يسجل هذا التعبير الأدبي بخط رديء فاجتهد في الكتابة كما اجتهد في الصياغة، ويرجح أغلب الرواة في الواحة أن يكون الشيخ المرّاكشي - الذي استمر معتصماً بالجامع - هو صاحب الخط معتمدين في اعتقادهم هذا على ثقافة المراكشي وخياله الأدبي وحفظه لأشعار المتنبي) اعتقد الناس أن يتغدّى بلحم الشنقيطي الذي أقبل من آخر الدنيا في غرب الصحراء خصيصاً كي يستولي بمساعدة السحر على كنوز الامبراطورية المدفونة بجوار بئر العطشان! ولكن قدرتهم في التنبؤ بتصرفات القائمقام فشلت، وليس ذلك غريباً في الواقع لأنه لم يحدث أن استطاع مخلوق أن يتنبأ بتصرفات هذا الرجل الغريب الأطوار. فاكتفى أن أودع السجين داراً مظلمة بناها بجوار معسكره خصيصاً لهذا الغرض، ويقال ان الدهليز المحفور في باطن الأرض يفوق في عمقه طول البناء الخارجي، وقد تمّ تشييد هذا السجن بسرعة فائقة، وسخّر سعادي بك لهذا الغرض خيرة شباب الواحة معتمداً على حكمة أناضولية قديمة مفادها أن أفضل وسيلة لردع العصاة ونشر الطاعة بين الرعيّة هو إقامة السجون قبل الحصون وقبل تشييد المساجد والقصور. ويعتقد أن القائمقام طبق هذه الحكمة حرفياً عندما جعل بناء تلك الدار المظلمة الخالية من النوافذ سابقاً على بناء قصره الذي بدأ التخطيط له وحفرت أسسه بجوار معسكره الحالي في الجهة الشمالية الغربية من الواحة. إستقدم خبيراً تركياً متخصصاً في المعمار جاء خصيصاً من بلاد الأناضول لتنفيذ المهمّة في المتاهة الرمليّة.

ويحكى أن مائدة القائمقام في تلك الليلة كانت من السخاء بحيث ظلّت تتناقلها الأفواه ردحاً طويلاً من الزمن. فنحرت الذبائح وتصاعدت روائح الشواء وتدفقت أنهار اللاقبي، وأهم ما ميّز احتفال تلك الليلة مزاج سعادي بك الذي كان

من الأريحية بحيث أمر بتوزيع شرائح اللحم على الفقراء وأجبر كل من وقعت عليه عينه أو ساقته إليه الصدف أن يشاركه باحتساء ماء الحياة (هكذا تعوّد القائمقام أن يسمّي النبيذ) ويساهم في فرح استرداد أموال المسلمين من الكفرة الأغراب الذين يتعاطون السحر! ويؤكد شهود العيان أن تاريخ معاقرة الشيخ عاشور الجاروف للخمر يعود لتلك الليلة بالذات. إذ أجبره القائمقام مشاركته الكأس. وفي رواية أخرى أن سعادي ثمل حتى فقد هيبته ووقاره وقفز فوق جسد الشيخ وأمسك بلحيته ودسّ فوهة القارورة في حلقة بالقوة! ويبدو أن مفعول هذا السائل الشيطاني قد نال إعجابه فرقص وغنى ووقع على الأرض مرتين. ومنذ ذلك التاريخ أصبح من الشائع رؤية هذا الشيخ وهو يعود من الحقل على ظهر حمارته وهو يدندن ألحاناً محرّفة ويردد الأهازيج بلغة قيدها شيطان الخمر. ولم يعد غريباً أن يراه أهل الواحة ملقى تحت شجرة نخيل في الغابة فاقد الوعي وقد أغرق نفسه في بركة من القيء، وفي قول آخر، من البول!

بلغت غبطة سعادي بالذهب حدّاً جعله يبالغ في التواضع حتى أنه سرد قصص بطولاته في حرب البلقان ليلتها وهو جالس على النطع في مواجهة موقد النار، متفضّلاً، بين الحين والآخر بتوزيع قطع اللحم والكبدة على الحاضرين مردداً الحديث الشريف: «خادم القوم سيّدهم». وقد لاحظ الجميع ـ بما فيهم بعض أفراد الحاشية المتدينين ـ كيف أن سعادي بك لا يغرم بترديد الأحاديث الشريفة والاستدلال بآيات القرآن الكريم إلاّ في لحظات التجلّي عندما يلعب به الخمر المشؤوم. وبالطبع لم يستطع أحد أن يتولى نصحه للتخلّي عن هذه العادة.

تسربت من بعض أفراد الحاشية معلومات تؤكد نية القائمقام القيام برحلة عاجلة الى استانبول لتقديم جزء كبير من الكنز للسلطان مشفوعاً بفروض الولاء والطاعة حسب التقاليد المتبعة طمعاً في الحصول على منصب كبير. ويقال انه أقسم اليمين أن يظفر بمنصب والي طرابلس نفسه مقابل هذه الرشوة. والواقع أن أحداً لم يستغرب أن يلجأ سعادي بك إلى هذه الحيلة المنتشرة بين الولاة نظراً لما عرف عن الرجل من تعطش للحكم وحبّ للمناصب. وربما كانت هذه النية المزعومة مجرد دعاية رددها أفراد الحاشية الذين لم يتمكنوا من التخلّص من بعض رذائل الحاشية التي تعودت، هناك في بلاط الباب العالي، أن تردد الشائعات وتحيك المكائد كأي حاشية عرفتها بلاد الأناضول.

ويجدر بنا، كي لا نسبق الأحداث، أن نمضي لزيارة المعلم الشنقيطي في دهليزه المظلم مع مهمدو الذي سمح له القائمقام، وسط دهشة الجميع، بالقيام

بزيارة «شريكه» ـ كما سمّاه ـ بعد أن تماثل مهمدو للشفاء وإن لم تلتئم الجروح الدامية على ظهره تماماً، حيث لاحظ أكثر من شاهد عيان آثار الدم تتفصد من جلبابه الخلفي أثناء دخوله الى الدهليز في خطوات، متعثرة حتى أنه ترنّح واستعان بالباب الثقيل المصنوع من جذوع النخيل كي لا يسقط على الأرض. تمّت المقابلة في الظلام الدامس، ولم تستغرق أكثر من ربع ساعة حسب بعض الروايات.

أما فيما يخص الحوار القصير الذي دار بين مهمدو ومعلّمه الشنقيطي فاختلفت المصادر التي تولت نقله. فثمة من قال ان السجّان الانكشاري المتهجم هو الذي تولى هذه المهمة، ومنهم من قال ان القائمقام لم يفته أن يدسّ بجوارهما ـ في الظلام ـ جاسوساً مكلفاً بنقل تفاصيل الحوار. وذهب البعض إلى أبعد من ذلك كله فادّعى أن سعادي بك نفسه وجد حيلة يتنصّت بواسطتها على الصديقين أملاً في الاهتداء إلى مزيد من المعلومات التي قد تفيده في تنفيذ خطّته الشيطانية التي يعجز الشيطان نفسه عن التنبؤ بها. وبرغم الظلام إلا أن المعلّم استطاع أن يهتدي الى معرفة الزائر، ويبدو أن عيناه قد تعودتا على الظلمة لدرجة جعلته قادراً على تمييز الأشخاص، فقد بادر جليسه بلهجة وصفها مهمدو فيما بعد بالمرح: «جفّت الأقلام وطويت الصحف وإنتهى كفاح السنوات السبع الى الباطل». ثم ضحك بطريقة لا تليق بجلال الموقف وأضاف ساخراً: «دائماً يوجد قائمقام يعترض طريقك ويطلع كالجن من تحت الأرض ليصادر غنيمة العمر من بين يديك». ساد صمت ثقيل قبل أن يخرقه صوت الشنقيطي وقد رنّ بنبرة تعاطف هذه المرّة: «تعذبت كثيراً بسببي. قل لي: هل تألمت كثيراً؟» ولكن مهمدو لم يجب، وربما أجاب بإيماءة من رأسه، ولكن من الصعب تبيّنها في ذلك الستار الكثيف من الظلمة فأضاف الشنقيطي: «برغم أن معلمي الجليل في تمبكتو قد علمني أن الإنسان خلق للألم لم أستطع أن أسلّم بهذه الحكمة عندما أرى الأبرياء يعاقبون على ذنب لم يقترفوه. ألم الأبرياء لا يطاق». خيّم الصمت مرة أخرى قبل أن يقول السجين: «فعلت ما بوسعي لإنقاذ أسرتي وقبيلتي وإذا لم يحالفني التوفيق فيعلم الله أنني لم أقصّر في شيء. والآن مهمتي انتهت كما ترى».

هنا تكلّم مهمدو أول مرة: «لا ينبغي أن تستسلم لليأس. سوف أسعى لدى القائمقام، سوف ألجأ للشيخ عاشور، سوف يقف معنا الأهالي. سعادي بك رحيم.. رحمه الله..» فقاطعه الشنقيطي: «لم يعد بإمكاننا أن نخدع بالعواطف. يجب استقبال الحقيقة بنفس عارية من الأوهام. أعرف أن البك لن يثنيه عن الاستيلاء على الذهب شيء. وهو في سبيل ذلك على استعداد ليس لسحقي فقط وإنما لسحق

الشيخ عاشور والأهالي والواحة كلها. بريق الذهب يعمي ويذهب بالعقل. نسيت أن أقول لك أنه ساومني البارحة...». صمت لحظة كي يشدّ اهتمام مهمدو، ثم اقترب منه وهمس بصوت خافت: «وعدني أن يطلق سراحي مقابل التخلّي عن الكنز. ولكنني رفضت لأنني لا أستطيع أن أعود إلى قبيلتي المعتقلة في حقول الركاكبة الجبلية بيدين فارغتين. قلت له من أين آتي بوجه أقابل به أبنائي الذين ينتظرون سبع سنوات كي أجيئهم بالحرية؟ فقال انني أنا المسؤول عن تقرير مصيري بهذا الرفض. وبرغم ذلك أمهلني أياماً أخرى للتفكير». ولما سارع مهمدو يقول: «اقترح أن تقبل العرض. في حريتك حرية أهلك وقبيلتك. وربما استطعت أن تفعل شيئاً وأنت طليق..» دخل السجّان الانكشاري وأعلن انتهاء المقابلة فهتف مهمدو وهو يرى جانباً من وجه المعلم الشاحب أثر انبعاث الضوء من الباب: «.. ربما فتحها الله في وجهك وعثرت على كنز آخر..» هنا ضحك المعلّم بسخرية أليمة ثم قال بلهجة من تذكر شيئاً فجأة: «لا تنس أن تضع البخور في المبخرة الليلة. ستعثر على البخور في كيس وضعته بين فكي الجمجمة الوسطى تحت السقف».
ولحسن حظ مهمدو أن السجّان لم يمهله للاستفسار عن أمر البخور، إذ لم يخطر بباله أن يسفر هذا الرمز الحكيم عن تلك المكافأة التي حضّرها له المعلم بين فكي الجمجمة (ورد وصف هذه الحادثة بإسهاب وتعددت الخطوط التي تناولت الموضوع كما جرت العادة في هذا الكتاب وفي غيره من الكتب عندما يتعلق الأمر بالمال) فبعد عودته من الزيارة هجع وهو يفكر في المصير المجهول الذي ينتظر معلمه العنيد حتى حلّ المساء فتذكر أمر البخور وسارع لتفتيش الجمجمة. كان ذهوله عظيماً عندما عثر في الكيس على القطع الذهبية بدل البخور. وقد بلغت خمسين قطعة وفي قول آخر أربعاً وخمسين قطعة، سارع مهمدو إلى إخفائها في المقبرة القديمة خلف المغارة، وفي رواية أخرى أنه تركها في مكانها بين فكي الجمجمة معتمداً على القاعدة القديمة التي تؤكد أن «من التنكّر ألاّ تتنكّر». وهذا المال هو الذي وفّق مهمدو منذ ذلك التاريخ حتى اليوم في أن يؤمّن حياته ويقيه غدر الزمان.

توالت الأحداث بعدها بسرعة فاقت توقعات الأهالي. استمرّ انتظار قيام القائمقام التنكيل بـ«اللص الوقح» الذي أراد أن يسرق كنوز الامبراطورية فانتشرت البلبلة وتسكعت الشائعات من كل نوع. أكّد البعض أن الغريب سيواجه عقوبة الاعدام غداً بحزّ رأسه، وروى البعض الآخر أن سعادي بك تعمد تهريب السجين في الليل تحت ستار الظلام لتسليمه للوالي في طرابلس كي يتخذ

هناك الاجراءات الكفيلة بتصديره إلى الأستانة لأن السلطان نفسه اهتم بأمره ويريد أن يقوم باستجوابه شخصياً لانتزاع المعلومات اللازمة للاستيلاء على مزيد من الكنوز المغمورة في الصحراء. هذا «الشيطان» وحده يستطيع أن يفاوض الجن. ويقال ان السلطان ابتكر أساليب جديدة في التعذيب سوف تجبر هذا «الجنّي» على الكلام والرضوخ لمشيئة الباب العالي في إشباع شهوته لكنوز الصحراء. وذهب بعض المتطرفين من أهل الواحة إلى التأكيد أن وزراء السلطان في البلاط ينتظرون وصول السجين بفارغ الصبر بعد أن أشاروا لجلالته بضرورة ابتكار كل الحيل لاستنطاقه لأن في ذلك المخرج الوحيد لمأزق الافلاس الذي تعاني منه الخزينة وإذا استمرّ الافلاس فإن هذا يفتح الباب واسعاً أمام انهيار الامبراطورية.

ولمّا طال الانتظار واستمر انقطاع الأخبار عن مصير السجين نشطت شائعة تقول ان الشنقيطي المسكين ما زال مدسوساً بين جدران النفق والقائمقام قرر أن يشرف على تسليم هذه «الهدية الثمينة» للسلطان بنفسه كدليل على إخلاصه وطاعته ليكسب رضى الباب العالي ويضرب ضربته في الحصول على ولاية من الولايات التي استمرت الشائعات تؤكد أنها لن تكون سوى طرابلس. دعم هذا الاستنتاج من قبل الأهالي رؤيتهم للاستعدادات التي بدأت تجري لسفر سعادي بك وتحضير موكبه في رحلته الى الشمال. ولكن حدثت مفاجأة قلبت الواحة رأساً على عقب وكانت بداية لتطورات مثيرة لم تشهدها الواحة المسالمة من قبل.

فقد مات القائمقام!

وجد ميتاً في فراشه في الصباح بعد سهرة سخية رتبها خصيصاً لتكون بمثابة حفل الوداع حضرها الأصدقاء والأعيان والمقربون من أفراد الحاشية فشاءت الأقدار أن تكون هذه الوليمة «حفل وداع» إلى الدار الآخرة بدل «حفل وداع» إلى الأستانة!

رافق وفاة سعادي بك المفاجئة هروب إبنته مع عشيقها الانكشاري واختفاء الذهب من الصندوق الحديدي الذي تعوّد القائمقام أن يضعه بجوار مخدعه.

وتأكد بعد أيّام أن تلك الفتاة الفاجرة مسؤولة عن مصرع أبيها. إذ دست له السم في قدح الخمر في تلك الليلة الساهرة وقبل أن يتحرك الموكب ـ الذي كان مقرراً أن ينطلق في الفجر ـ بساعات قليلة! ثم اختفت مع عشيقها واختفى الذهب معهما.

أثارت هذه الجريمة أفراد الحاشية من المدنيين والانكشاريين وأربكتهم. أشار البعض بضرورة البحث عن الفتاة الآثمة واعتقالها قبل أن تتوغل في الصحراء.

واقترح البعض الآخر الاهتمام بالجثمان والاسراع في ترتيب الدفن، لأن الجثة معرضة، بفعل الحر، إلى التحلل والتعفن خلال يوم واحد.

وبعد مشاورات مكثفة ومناقشات عنيفة توصلوا الى حل تمت الموافقة عليه بالاجماع ويقضي بإيداع الميت في الأرض أولاً احتراماً للموتى كما تقضي الشريعة وبعدها تتم مطاردة المجرمين وإنزال القصاص بهم معتمدين على الطبيعة التي لن تتيح لهم الفرار بعيداً بسبب جهل العشيقين بطرق الصحراء.

وبالفعل تم التفرغ لملاحقتهما بمجرد الإنتهاء من مراسم الدفن فطافوا الصحارى المجاورة وفتّشوها شبراً شبراً دون أن يعثروا على أثر. انقضت ثلاثة أشهر على حادثة الهرب بالكنز عندما وجدوا الفتاة وعشيقها ميّتين من العطش، عاريين من الملابس، متعانقين، وفي رواية أخرى، متلاصقين في وضع جنسي. امتصت أشعة الشمس الدماء من جسديهما وتولّت الصحراء - كعادتها - مهمة إنزال العقاب نيابة عن العباد .ولكن الذهب نفسه لم يعثر له على أثر. فتش رجال الحاشية والجنود أمتعتهما، وحرثوا الأرض حولهما وتتبعوا كل الطرق التي يعتقد أنهم سلكوها في رحلتهم دون فائدة. (وكالعادة تمّ تناول هذه النقطة في المخطوط بإفاضة شديدة وأورد كتّاب تلك الفقرة روايات وأساطير مختلفة عن اختفاء الذهب نكتفي منها بالمقتطف المقتضب التالي:) فبعد أن سلّم الجميع بضياع الذهب سأل الشيخ المراكشي مهمدو عن رأيه في هذه القصة فقال العرّاف بيقين: «الشنقيطي يقول ان الذهب لا بد أن يعود - في النهاية - إلى أصحابه الحقيقيين، وأنا لا أزكي هذا الرأي فقط ولكنني على يقين أنّ الجن تمكن من استعادة الكنز مرة أخرى». فأذاع الشيخ المراكشي بين الأهالي قصصاً خرافية - أرجع مصدرها إلى كتب ورثها عن الأولين - تتعرض لهذا الكنز بالذات وتصفه بـ«المشؤوم»، وتارة أخرى بـ«الملعون» نظراً للمصائب التي أحاقت بالأقوام والقبائل التي حازت عليه في الماضي وأدّت بها إلى الزوال. ويصرّ البعض على رأي مفاده أن المراكشي تعمّد اختلاق هذه الأساطير خصيصاً كي يخيف الأهالي ويجعلهم يفيقون لأنفسهم بعد موجة البحث عن الذهب الضائع التي سيطرت عليهم فطفقوا يذرعون الصحراء طولاً وعرضاً ويحفرون الأراضي في المتاهات البرية.

أساطير المراكشي أفلحت في كبح جماح المتعطشين للثروة وامتلاك الذهب.

أعقبت هذه الحمّى التي سيطرت على ضعاف النفوس أحداث دموية لم تشهدها الواحة من قبل. تناحر أعضاء الحاشية العثمانية على منصب القائمقامية فوراً. وبرغم أن المنصب سيظل شاغراً بالصفة الرسمية التي يقرها قانون

الامبراطورية إلى حين تعيين قائمقام بفرمان الوالي بطرابلس الذي يملك الشرعيّة إلاّ أن الحاشية عقدت اجتماعاً طارئاً ورأت أن يتم اختيار أحد الأعضاء من بينهم ليتولى منصباً استحدثوه من باب الحرص على المصلحة العامة. لأن الرعية بدون قائمقام كالقطيع بدون راع. كما عبر أحدهم في تلك الليلة. فأطلقوا إسم: «القائم بشؤون القائمقام» على المنصب الجديد وبدأ العراك في اختيار العنصر المؤهل لشغل المنصب. اقترح أحد أفراد الحاشية المستنيرين اللجوء إلى الاقتراع بين المرشحين الثلاثة المؤهلين لتولي القيام بشؤون القائمقام كصيغة وصفها بالديمقراطية. ولمّا كانت هذه الكلمة مصادرة من قاموس الامبراطورية السياسي فقد أثارت زوبعة من الاستنكار. فاتّهم صاحب الاقتراح بالتشبّه بالنصارى ووصفت العبارة بـ«المستوردة من قاموس الأوربيين الكفرة». فتكلم رجل متقدم في السن كان يجلس صامتاً طوال الوقت، يجول ببصره بين الحاضرين، يداعب لحيته البيضاء بأصابعه النحيلة فقال ان التشاور من شأنه أن يضع حدّاً للخلاف علاوة على كونه مستمد من صلب الشريعة. وزكّى نوري بك للفوز بالمنصب لأنّه الوحيد الحائز على مثل هذا اللقب الفخم.

تولّى طرف من الحاضرين الدفاع عن هذا الترشيح ورأى فيه الحكمة، لأن احترام الألقاب أمر يقرّه دستور الامبراطورية ويدعو إليه، وانبرى فريق آخر مناوىء بمهاجمة الاقتراح معتمدين على صغر سن البك وافتقاره الى التجربة. احتدم النقاش حتى آخر الليل عندما سمع أهل الواحة تطور الأمر إلى الصدام بالأيدي. ثم انفضّ الاجتماع ليتواصل في اليوم التالي وفي نفس الموعد. أسفر هذا الاجتماع الأخير عن اختيار ذلك الشيخ نفسه ويدعى محمد سليم. ويبدو أن القدر اختاره كي ينال حتفه بعد ثلاثة أيام بالضبط حيث وجد مقتولاً بطعنة سكين في صدره فاستولى نوري بك على المنصب بعد قيامه بمذبحة صفّى فيها معارضيه من الفريق الآخر وبالغ في القمع فزاد في الإتاوات على القوافل، وضاعف الضرائب المفروضة على المزارعين، وأنزل العقوبات القاسية بالناس لأتفه الأسباب، وأوكل للشيخ عاشور الجاروف مهمة جديدة مخجلة أضافها لمهامه السابقة: استدعاء الفتيات العذارى لمخدعه سواء بالرضى أو بالرشوة أو بالقوة. وقد بلغت به البجاحة أن وصف هذا العمل الاجرامي بأنه «تحسين للنسل سوف يشكره عليه أهل الواحة في المستقبل عندما يرون الحسناوات البيضاوات وهن يتبخترن في أزقة الواحة الضيقة وقد جرى الدم التركي في خدودهن».

ولم يستح أن يجلس مع الشيخ عاشور في الأمسيات ليتشاورا في وضع قوائم

الفتيات المرشحات لزيارة مخدعه. فأدرك الأهالي كم كانت رذائل سعادي بك التي لا تعدو هيامه بابنته وبسرد بطولاته في حربي القرم والبلقان - محتملة إلى جانب رذائل البك الجديد، فلعن كل من رزقه الله بمولودة أنثى ذلك اليوم الذي جاءت فيه للوجود لأن المرأة لا يمكن أن تجلب لأهلها غير العار. فتسلل التململ بين الأهالي ونقموا على الحاكم الجديد. وتطورت هذه النقمة وتحوّلت إلى عصيان حقيقي فتجمهر الأهالي بعد صلاة الجمعة اثر خطبة تحريضية شجاعة من الشيخ المراكشي دعا فيها إلى الثورة ضد الطاغية، فتسلح الحاضرون بالعصي والهراوات والأحجار واتجهوا إلى مقر «القائم بشؤون القائمقام». اشتبكوا مع الجنود في معركة حامية أسفرت عن مقتل الكثيرين من الطرفين، ومصرع عدد كبير من الجنود وأفراد الحاشية. أمّا نوري بك نفسه فقد استطاع الافلات مع نفر من اتباعه.

هجمت جموع المنتفضين على الشيخ عاشور الجاروف وأمطرته بوابل من الأحجار، ثم اعتقلته وحفرت حفرة عميقة في الأرض بجوار المعسكر العثماني وقامت بدفنه في هذه الحفرة حياً (وبالطبع تم حذف هذه الفقرة من المخطوط). ونصبوا المراكشي شيخاً على الواحة مرة أخرى وهدّموا تلك الدار المظلمة التي بناها سعادي بك خصيصاً كي تكون سجناً للشرفاء. فتشوها أملاً في العثور على الشنقيطي أو الاهتداء إلى أثر يدلهم على مكان وجوده. ولكن الشنقيطي المسكين اختفى. فتضاربت الروايات حول مضيره. فثمة من قال ان سعادي بك قبل مصرعه استطاع أن يهرّبه إلى الشمال، ورأى فريق خصب الخيال مولع بتلفيق الأساطير أن الله هب لمساعدة هذا المعلم الصبور وأنقذه من أيدي العثمانيين بمعجزة رفعته إلى السماء. ولكن فريقاً ثالثاً أكثر واقعية أكّد أن الشنقيطي أعدم بسيخ ملتهب دسه الانكشاريون في بطنه حتى مات، ثم دفنوا جثته تحت أسس القصر الذي ما يزال تحت البناء. ولمّا كان هذا الاحتمال أقرب إلى التصديق فقد سارع الأهالي لنصب ضريح عند جدران القصر المزمع بناؤه أصبح منذ ذلك اليوم مزاراً يؤمه الناس في المناسبات ويضعون البخور تحت جدرانه التي لونوها باللون الأبيض، الذي يناسب هذا الولي. وما يزال هذا الضريح قائماً حتى اليوم. وبالطبع فإن أنباء هذه الانتفاضة زحفت الى الشمال حتى بلغت مسامع الوالي في طرابلس، ومضت في رحلتها فركبت البحر أو طارت على جناح الريح (وردت هذه التعبيرات المتهكمة بخط جميل مما يؤكد ضلوع المراكشي في صياغتها) فطرقت الباب العالي في الأستانة فملأت قلوب الولاة الجدد بالرعب وجعلتهم يجمعون على أن هذا المنفى مسكون بالأرواح الشريرة. فزهدوا في القدوم إلى الواحة خاصة وأن الحروب

كانت قد أنهكت الامبراطورية وجعلت السلطان يولي اهتمامه بمواقع أخطر وأهم من العصيان في واحة مغمورة في الصحراء.

وهكذا عاشت واحة «ادرار» فترتها الذهبية. كانت وقتها الوحيدة من بين الواحات كلها التي تمتعت بالاستقلال الذي دام حتى دخول الطليان في الربع الأول من القرن.

كانت هذه السنوات ذهبية حقاً في عمر الواحة إذ استطاع الشيخ المراكشي بخبرته وحكمته أن يتخذ مجموعة من الاجراءات الاصلاحية جعلت الاهالي يتنفسون الصعداء ويتمتعون بالحرية التي حرموا منها طويلاً فخفف من وطأة الضرائب وبنى المدارس القرآنية والكتاتيب وشجع على النهل من منابع العلم. فكان يبعث بالمتفوقين من أبناء الواحة لاستكمال علومهم في الأزهر بمصر والزيتونة بتونس، وأضاف إصلاحات واضحة على مبنى الجامع القديم فاتسعت ردهاته للمصلين والزائرين فأصبح مجلساً للشورى ومكاناً لمناقشة أمور الدنيا والدين. مضى المراكشي في إصلاحاته فألغى الإتاوات المفروضة على تجار القوافل مما أثار في البداية دهشة الأهالي الذين رأوا أن هذا سيحرمهم أموالاً كثيرة، ولكنهم ما لبثوا أن أيقنوا بحكمة الاجراء عندما أصبحت الواحة - من دون بقية الواحات التي ما زالت تحت الحكم الأجنبي - قبلة لتجار القوافل المتجهة الى أعماق القارة أو العائدة منها. ازدهرت الواحة وانتعش اقتصادها واستعادت أنفاسها. رأى تجار القوافل تمتع هذه الواحة بامتيازات أخرى أهمها ليس كونها معفاة من الضرائب فحسب وإنما لغياب بطش الحكام وجنودهم. وهو حال استمرّ في الواحات الأخرى، فاتخذوا من «آدرار» مركزاً نادراً في أمانه يلتقون فيه ويتشاورون، ويسقون إبلهم ويتزودون بالماء والمؤن قبل أن يواصلوا طريقهم الطويل. ومما ساعد في إنعاش الواحة أيضاً لجوء أغلب هؤلاء التجار إلى تبادل بضائعهم مع التجار القادمين من مختلف الأنحاء سواء بالمقايضة أو بدفع الدنانير الذهبية وهي عملة ساد التعامل بها بين تجار القوافل في تلك الأيام.

ولم يكن من المستغرب أن تثير هذه المكانة التي احتلتها الواحة غيرة الواحات الأخرى خاصة تلك الواحات العريقة في استقبال قوافل الصحراء الضليعة في ابتكار الحيل لإغراء التجار وإجبار أصحاب القوافل على اتخاذها نقطة للمرور برغم الضرائب المرهقة وبرغم بطش الحكام في مختلف العهود. وأبرز تلك الواحات التي تأكل قلبها الغيرة وتوثّبت لتلقين الواحة درساً هي غدامس ومرزق وغات. وقد اشتكى أهالي تلك المناطق من كساد السوق وبور التجارة وتدهور الوضع

الاقتصادي، وساد السخط والتذمّر فرفع القائمقامون الأمر إلى الوالي بطرابلس يستشيرونه فيما ينبغي عمله. ولكن الوالي المنشغل في مؤامرات الانكشاريين المستمرّة ضدّه لم يفعل شيئاً سوى احالة الأمر إلى الباب العالي الذي لم يلتفت للشكوى بسبب انشغال الامبراطورية بالمشكلات الداخلية وانتفاضات شعوب المستعمرات في البلقان، واستمرار الحروب ضد الأوروبيين، فأنعم اللّه على الواحة استمرار الرخاء وذاق الجميع طعم الحرية التي حرموا منها طويلاً.

(٦)

قيل ان مهمّدو قضى بعض الوقت في الجامع بعد تعرضه لعقوبة الجلد مباشرة، ويؤكد الكثيرون أن الشيخ المراكشي أجبره على البقاء في الجامع إلى حين يضمّد جراحه ويتماثل للشفاء. فأشرف الشيخ بنفسه على علاجه مستعملاً عاطفة التعاطف أكثر مما استعمل المراهم والأعشاب والزيوت، لأن الجرح - في رأيه - ليس في الجسد ولكنه في الروح.

ومهما قيل فإن إقامة مهمدو لم تدم طويلاً في الجامع. إذ ما لبث أن عاد إلى صومعته في المغارة، واعتزل كما تعوّد أن يفعل في الماضي دون أن ينسى لحظة واحدة مصير معلمه الشنقيطي الذي ألهاه حتى عن المشاركة في ثورة الأهالي ضد حكم القائمقامية كما ذهبت بعض الروايات المغرضة. وفي روايات أخرى أن العكس هو الصحيح، فلم يمنعه إخلاصه لمعلمه ولم ينسه المشاركة في الأحداث بل هو الذي حفزه إلى تحريض الناس ودفعه لشحن المراكشي للثورة مستغلاً ثقة الأهالي بالفقهاء ورجال الدّين.

وفي تلك الأثناء التي احتفى فيها الأهالي بالتحرر وانشغلوا بتنظيم تجمعات الفرح ابتهاجاً بالخلاص كان مهمدو يهيء نفسه لرحلة طويلة إلى غرب الصحراء. ويقال ان الشيخ المرّاكشي ساعده في ترتيب الرحلة ووجد من بين أهل الواحة من تطوع لمرافقته وفي قول آخر أن مهمدو غادر الواحة بصحبة قافلة متجهة إلى تمبكتو ولم يرافقه من أهل الواحة أحد. رفض اقتراح الشيخ في أن يجد له مرافقاً.

المهم أن مهمدو بلغ في النهاية أراضي أولئك القوم الغريبي الأطوار الذين اتخذوا من رؤوس الجبال مأوى لهم، بل وجعلوا من تلك القمم حدائق تشقشق فيها الطيور وحقولاً مزروعة بمختلف المحاصيل والفواكه، ومراعي تنتشر فيها الحيوانات.

والحق أن مهمدو شعر بالإعجاب نحو هذه القبيلة التي استطاعت أن تحوّل هذه الطبيعة الجبلية الى جنة عامرة. ما رآه فاق كل توقعاته لدرجة أنه لن يصدّق أن

تكون أراضي الركاكبة التي سمع عنها من أحاديث الشيخ الشنقيطي على هذا النحو الذي يراه الآن.

وبمجرد أن علم فرسان الركاكبة أنه يحمل أخباراً عن مصير الشنقيطي قادوه إلى باب محفور في قمة الجبل ودخل البيت الذي يشبه الكهف من الخارج ليجد نفسه يمثل بين يدي شيخ مهيب، أبيض اللحية، مريح السمات تنم قسمات وجهه عن الحكمة وهدوء الروح يفترش البسط الوثيرة ويتوسّد الوسائد المحشوة بالريش، ويروح طوال الوقت بالمروحة المصنوعة من ريش النعام. وقد جعله الاطمئنان الذي أحس به أنه يخيم على تلك المملكة الصغيرة الشبيهة بجنة الله على الأرض يقص على الشيخ الجليل قصة الشنقيطي كاملة محاولاً ألاّ ينسى أدق التفاصيل، حتى إذا انتهى من سرد حكايته بادر قائلاً: «الآن بعد أن تفضلتم يا سيدنا الشيخ وسمحتم لنا بأن نأخذ من وقتكم ونسمعكم قصة المرحوم الشنقيطي وما عاناه طوال سنوات من المحن فأرجو أن يتسع صدركم لرجائي الذي جئت من آخر الدنيا في صحارى «فزان» البعيدة خصيصاً كي أبوح به لحضرتكم وكلّي ثقة في أن تنظروا إليه بالاعتبار، لأن إخلاصي لذلك الرجل المجاهد ووفائي لذكراه الطيبة هو ما جعلني أتجرأ وأطرح عليكم الأمر».

هزّ الشيخ الجليل رأسه علامة الموافقة وهو يعبث بلحيته بيد ويداعب حبات مسبحته العاجية باليد الأخرى، وأغلب الظن أن أسلوب مهمدو في المخاطبة قد أثار إعجابه (ويعلم اللّه أن مهمدو عانى في سبيل إعداد هذه الصياغة وبحث في الكتب المدسوسة في الجامع واستعان بموهبة المراكشي الأدبية وأضاع من الجهد والوقت أكثر مما كلفته رحلته الطويلة من محيطات فزّان الرملية حتى قمم جبال الركاكبة في أقصى الغرب) فأشار له بأن يواصل فاستمرّ مهمدو: «الحق أني أردت منكم إطلاق سراح قبيلته، وإذا تعذّر ذلك فإطلاق سراح أسرته، خاصة بعد ما علمتوه مني الآن من قيام الرجل بواجبه الذي أوفى بوعده وكاد يعود إليكم بالكنز لولا ذلك القائمقام» ارتسمت على شفتي الشيخ ابتسامة غامضة ما لبثت أن تحولت الى ضحكة، والضحكة إلى قهقهة طويلة لا تتناسب مع وقاره وهدونه وبياض لحيته! ثم اعتدل في جلسته ولاذ بالصمت طويلاً. فركن مهمدو إلى الصمت أيضاً وشرع يطوف ببصره بين أفراد حاشيته وفرسانه ففشل في أن يقرأ شيئاً في عيونهم. إعتقد مهمدو أنه ارتكب خطأ ما، ولم يدر لحظتها ما إذا كان الخطأ كامناً في مضمون الكلام أم أنه أساء التعبير. ولكن الشيخ أنقذه من هذه الشكوك عندما تكلم قائلاً: «إعلم أيها الضيف الكريم أنني لا أعتقل أحداً، ولا

أنوي أن أفعل ذلك في المستقبل كما لم أقترف هذا الفعل في الماضي. وإذا كان المرحوم الشنقيطي قد زلّ لسانه وأخبرك بما يفيد أنني أقوم باعتقال قبيلته فقد خدعك. ذلك لأنه لم يفهم، أو استعصى عليه أن يفهم، طبيعة البشر. فقد رأيت خيرهم عندما جئت بهم كي يزرعوا هذه الجبال التي تعتبر أخصب أرض في الدنيا كلها، وبالفعل استطاعوا أن يحولوا هذه الجبال الجرداء الى جنة خضراء كما ترى. وهم الآن - بعد كل هذه السنين - سعداء لقيامهم بهذا العمل ولا يطيقون أن يعودوا إلى أي مكان. إنهم يلعنون كل من يأتي على ذكر الصحراء التي أذاقتهم أمرّ العذاب يوماً ما عندما كانوا يطاردون السراب ويصارعون العدم دون أن يعلموا أن الجنة بجوارهم إن لم تكن تحت أقدامهم. وأنا لم أفعل شيئاً سوى أنني هديتهم الى الصّراط الصحيح. أشرت لهم بالطريق الذي يؤدي إلى الجنة. وهم الآن سعداء بحياتهم، عاشقون الأرض التي أشبعتهم من جوع وآمنتهم من خوف. أمّا الشنقيطي الشقي فقد نسوه منذ سنوات».

والحق أن مهمدو لم يتوقع أن يكون الأمر على هذا النحو فارتبك قليلاً وتلعثم وهو يحاول أن يعترض ثم سكت. ثم استجمع شجاعته وأعلن بصوت حاول أن يكون هادئاً وإن فقد خصوبة الخيال وحلاوة اللغة: «ولكن المرحوم أخبرني أن الأمر لم يتم عن قناعة واختيار. إذ تخلل نقلهم الى هنا عمليات صدام و...». ضحك الشيخ مرة أخرى ولكنه تعمد أن يختصر الضحكة ويجيب محدثه: «أنا لا أنكر أن الصدام حدث في البداية. هل تعرف لماذا؟ لأن الإنسان لا بد أن يساق إلى الجنة بالسلاسل». ثم ضحك مرة أخرى وأضاف بعد صمت قصير: «الإنسان يهيم في الصحراء ويطارد السراب معرضاً حياته للخطر طوال عمره. وهو في هذا العمل يشبه الغزال الذي يقضي حياته البائسة يرعى في الوادي الأجرد ولا يغادره حتى يموت في حين يكتظ الوادي المجاور بالعشب. الإنسان عادة يسمّي هذا الضياع في الصحراء حرية. ولكنه لا يلبث أن يقنع بخطأ معتقداته عندما يكتشف فجأة جنة خضراء في جبال الركاكبة فيسخر من نفسه ويلعن كل يوم من حياته السابقة». في هذه اللحظة الهم الله مهمدو بفكرة مفاجئة إذ اكتشف بحدسه أن في حكمة الرجل ومنطقه القوي خطراً مّا لم يعرف حتى تلك اللحظة ما هو بالضبط. فتشجّع وقال محاولاً أن يخفف من حدّة اعتراضاته للشيخ حتّى لا يثير استفزازه: «ولكن يا سيدنا الشيخ النبي عيسى بن مريم يقول: ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، فهل تعتقد أن الحقول وأنهار الماء كفيلة بإسعاد الإنسان دون أن يشارك الحيوان بعض خصائصه؟». هنا احتقن وجه الشيخ بالدم وتوتّر حتى أن

أيدي فرسانه المستنفرين سقطت على مقابض سيوفهم كأنهم يتحفزون للقتال فأدرك مهمدو أنه لم يوفق هذه المرة في إيجاد الصيغة المناسبة، بل استغرب هو نفسه كيف نطق بعبارة: « .. دون أن يشارك الحيوان بعض خصائصه » وهي عبارة قاسية استفزت الشيخ الذي يحاول الآن أن يعود الى وقاره، ولكن هذا لم يثبط همة مهمدو وقرر أن يصمد حتى النهاية. قال الشيخ: « في حجتك معتقد من معتقدات الزنادقة الذين يتخذون من تحقير نعم الله وخيراته سلاحاً لإثارة البلبلة بين العباد، وهم يبالغون في الإدعاء القائل ان السعادة هي سعادة الروح برغم أنهم لا يستطيعون أن يصوموا عن الطعام يوماً واحداً. وكي تقف بنفسك على حال قبيلة الشنقيطي فما عليك إلا أن ترافق أحد هؤلاء الرجال ».

ولم يخطىء مهمدو نبرة التهديد التي ضمَّنها الشيخ لردّه عندما أشار إلى منهج الزندقة الذي يعاقب عليه في تلك الأيام بفصل الرأس عن الجسد فغمرته قشعريرة لم تتراجع حتى أذن له الشيخ بالخروج. وقد طاف مهمدو، مع رجال الشيخ، بيوت الأهالي المحفورة في الجبال مستفسراً عن أحوالهم، مستوضحاً آراءهم في حياتهم اليوم بالمقارنة مع إقامتهم السابقة في الصحراء فكادوا يجمعوا على أنهم في أنعم عيش، وقد مضى مهمدو في استقصائه المدهش فبحث عن أسرة الشنقيطي فصعقه أن يرى زوجته في ذمة رجل آخر، وصعقه أكثر أن يرى أولاده وهم لا يحملون أي ذكرى لأبيهم، بل انهم اكتفوا بأن هزّوا مناكبهم إستخفافاً ومضوا يقلّبون الأرض في الحقل. وإذا كان هذا حال الأبناء فإن مهمدو لم يلم بقية أفراد القبيلة الذين نسوا الشنقيطي تماماً وأنكروا علمهم بوجوده أصلاً قائلين أنهم ليسوا في حاجة الى الدراويش كي يتطوعوا لإنقاذهم لأنهم جاؤوا الى هنا عن طيب خاطر. فعاد مهمدو وهو يفكّر بهذا الإنكار الذي تعرّض له المرحوم وهو الذي ضحى بحياته في سبيلهم ليواجهوه الآن بالجحود وهم يتسكعون بين المزارع والحقول مدعين أنه لم يكن سوى درويش بائس! ولكنه عزّى نفسه في النهاية قائلاً ان الجحود من خصائص البشر وطلب الإذن له للمثول بين يدي الشيخ ليقدّم له اعتذاره. وقد أذنوا له بالمقابلة في اليوم التالي فبادر الشيخ الجليل بالقول: « أجل يا سيدنا الشيخ لقد استطعت بحكمتك أن تجعل هؤلاء الناس سعداء في عبوديتهم » أثار قوله عاصفة من الاستنكار ولكن الشيخ ابتسم فجأة وقال بتسامح: « أراك اكتشفت الحقيقة وعرفت السرّ أيها الضيف الغريب. أولاً: كلنا عبيد الله. ثانياً: لا يضير الإنسان أن يكون عبداً حتى لعبد طالما هو سعيد بعبوديته ».

وقيل بعدها أن مهمدو غادر ديار الركاكبة وهام على وجهه في المتاهات الصحراوية في تلك الأطراف النائية من الصحراء الكبرى، وأمضى في عزلته شهوراً، وفي قول آخر سنوات، حتى انقطعت أخباره وفقد الناس الأمل في أن يكون على قيد الحياة. وبعد سنوات جاءت الى الواحة بأخباره قافلة قادمة من تمبكتو أكّد شهود عيان رؤيتهم لمهمدو الذي سخّر حياته للتنجيم وقيل انه يتلقى علمه هذا على يد عالم مشهور ذاع صيته.

والواقع أن معلمه الثاني هذا لم يكن ضالعاً في علم التنجيم بقدر ما كان خبيراً في ممارسة السحر وترويض الجن. وبرغم أن مهمدو نفسه أخفى على أهل الواحة دراسته لهذا الفن وادّعى أن التنجيم هو هدفه في رحلته الغامضة إلا أن الأنباء التي جاءت بها القوافل وسبقته الى الواحة تؤكد غير ذلك وترى أن مهمدو استعار هذه الحيلة من أهل تمبكتو الذين تعوّدوا أن يتستروا وراء حجاب التنجيم عندما ينخرطون في تلقي فنون السحر حتى يكسبوا ثقة الناس الذين تعودوا أن يتحاشوا السحرة.

المعلّم الثاني يدعى أناسباغور، وهو نفسه ذلك الشيطان الرجيم الذي انتزع الشهرة وذاع صيته ليس في تمبكتو وحدها - أو الواحة التي عرفته من خلال متابعتها لأخبار مهمدو - وإنما في الصحراء كلها بسبب تلك المعجزة التي حققها عندما غافل الذات الإلهية وسرق ثلاثة أيام - وفي رواية أخرى ثلاثة أسابيع - عاشها زيادة فوق العمر المكتوب له أن يحياه. أما كيف استطاع أن يتوصل الى هذا السرّ الإلهي الذي يتوق كافة البشر الى معرفته فهذا سرّ آخر لا يعلمه إلا أناسباغور نفسه. وتفيد أسطورة تؤكد أن أناسباغور هذا قد لجأ إلى الحيلة في تحقيق الخلود فاستطاع أن يطعم الجمل البارك بجوار البيت برسيماً مخدّراً كي يمر من تحت رقبته الطويلة وهو نائم. فحقق ما عجز عن تحقيقه السابقون وكذلك اللاحقون حيث أشار الأوّلون في «كتاب الحكمة» إلى أن الله قد وضع شرطاً تعجيزيّاً للفوز بالخلود هو المرور تحت رقبة الجمل أثناء خلوده للرّاحة دون أن يصحو من إغفاءته. وأدرك الناس من قديم الزمان استحالة هذا الشرط فاستسلموا لليأس وقنعوا بالقدر ككل المخلوقات الزاحفة نحو الزوال.

وفي قول آخر أن أناسباغور كان أذكى من أن يلجأ لتخدير الحيوان بالبرسيم لأن هذه حيلة مبتذلة تصلح لخداع الأطفال، ولكنه فعل ذلك بمساعدة موهبته في استعمال السحر برغم إجماع كل السحرة، في كل الصحراء الكبرى، عبر مختلف العصور، عن عجز السحر في جعل الجمل الراقد يغفل عن مجرد اقتراب الإنسان

فكيف بالمرور تحت رقبة هذا الحيوان وعبورها إلى الجانب الآخر دون أن يفيق من سباته الغريب؟

الجمل هو الكائن الوحيد الذي ميّزه اللّه عن بقية المخلوقات فينام وهو يقظ حتى أطلق عليه أهل الصحراء اسم «الحيوان اليقظ في نومه» أو العكس فيقولون: «الحيوان القادر على أن ينام في يقظته».

والانتصار على هذه الخاصيات الخرافية للجمل هي التي رفعت من شأن أناسباغور لأن قواه الروحية - أو فلنقل قواه السحرية - هي التي ساعدت في الترويض فكافأه الله بإضافة تلك الأيام الثلاثة - أو الثلاثة أسابيع حسب رواية أخرى - زيادة على عمره المكتوب. وقد حدثت هذه المفاجأة أمام شهود عيان عندما رسم أناسباغور على الأرض تلك الخطوط المتقاطعة أحياناً المتوازية أحياناً أخرى وشرع يقرأ أمام جمع من الحاضرين أحداث الأيام القادمة. (لا يفوتنا هنا أن نشير إلى ملاحظة هامة أغفلها المخطوط وهي تعدد أساليب العرّافين في الصحراء وطرق قراءتهم للغيب. فمنهم من يتخذ من تلك الخطوط الغامضة لوحاً، ومنهم من يلجأ إلى مناجاة النجوم لمعرفة المستقبل، وفريق ثالث يستعمل حبّات النوى برغم أن الفريق الأخير مطعون في كفاءته متهم بالقصور في المهنة) وفجأة ظهر الاهتمام على وجهه وبرقت عيناه بوميض من اكتشف كنزاً وصاح: «يا ربي! هل تخطيت أجلي وأضفت إلى عمري ثلاثة أيام (وفي قول آخر ثلاثة أسابيع)؟ هل يعقل أن تكون المعجزة قد تحققت».

ثم مسح الخطوط مرة أخرى وأعاد رسمها من جديد وسط ذهول الحاضرين، واستمرّ الوميض في عينيه (ويبدو أن الوميض كان بسبب انتصاره في تحقيق المعجزة وليس بسبب الخوف من الموت) ثم تأمل رسومه طويلاً ورفع رأسه نحو جمع الحاضرين وأجال بصره بين وجوههم وردد: «نعم يا جماعة. المعجزة قد تحققت». ومسح براحة يده خطوطه المجهولة وانطلق إلى بيته (وفي رواية أخرى أنه ودّع الحاضرين وطاف على البيوت وصافح الأصدقاء، وعانق مهمدو بالذات وقال له أنه يرى فيه خليفته وتمنى له التوفيق) ورقد في فراشه وسحب الغطاء على وجهه ومات!

والأساطير التي تتناول حياة أناسباغور كثيرة. منها تلك القصة التي يتناقلها عنه أهل تمبكتو عندما كان شابا حديث العهد بالمهنة فتنبأ له - بسببها - أساتذته وأقرانه على حد سواء بمستقبل عظيم في كسب ثقة الجن. ويطلق على هذه الحادثة اسم «حادثة البرنس» فيؤرخ بها الأهالي قائلين: «هذا حدث قبل حادثة البرنس

بثلاث سنوات» أو: «هذا حدث بعد حادثة البرنس بسنتين» كما اتخذها بعض الفقهاء، علامة تاريخية فاصلة في حياة تمبكتو الاجتماعية فترد في سجلات المواليد والوفيات عبارات مثل: «لقد حباه الله بمولود ذكر بهي الطلعة، متكامل الجسم، تستقر على وجهه سيماء مستقبل سعيد ولد بتاريخ كذا أي بثلاثة أشهر قبل حادثة البرنس» وما يقال هنا عن المواليد يمكن أن ينطبق على الوفيات أيضاً كما يمكن أن ينسحب على الأحداث الأخرى الأكثر جدية مثل غارات قبائل بامبارا أو غزوات الأهالي الموسمية إلى الأدغال لنهب الذهب أو أسر العبيد.

وملخص الحادثة يقول ان أناسباغور رأى نفسه في المنام غارقاً في بركة من الدم، فأيقن أن الأجل قد طرق بابه وحياته قاب قوسين من قبضة عزرائيل فطاف أحياء المدينة يسرد على المارّة تفاصيل الرؤيا ويردد عبارات الوداع طالباً من الناس أن يغفروا له إذا حدث وأساء بغير قصد أو أخطأ عن حسن نية وبلغ به الأمر أن وزع ثروته على الأهالي صدقة لوجه الله كما عبر في وجده الصوفي الذي يميز كل أولئك الذين يكتشفون فجأة أنهم مصابون بمرض خبيث يصعب الشفاء منه.

وقد رثى لحاله الأهالي وأشفقوا عليه حتى إذا طال مجيء عزرائيل واتسعت الهوة الفاصلة بين الحلم وموعد الوفاة ملّ الناس شكوى أناسباغور من حظه الشقي فبدأوا يكشفون عن أسنانهم الصفراء بالابتسام والسخرية والدعابات الشريرة حتى أنهم أطلقوا عليه ألقاباً مهينة مثل: «درويش» و«مجنون» و«المريض الباكي» الخ..

ولم يمض شهر على الرؤيا حتى فوجيء أبناء المدينة بغارة ليلية مباغتة شنتها قبائل الزنوج بزعامة تلك القبيلة الشرسة بامبارا. فقاتل أناسباغور ببسالة اليائسين، لأنهم هم وحدهم القادرين على التضحية أكثر من سواهم بسبب زهدهم ويأسهم في الحياة. جعلته هذه البسالة يفوز من السلطان بلقب «بطل تمبكتو». وهو أعلى وسام تلك الأيام - كما أهدى له السلطان برنساً بديعاً أحمر اللون!

وما أن ارتداه أناسباغور وخرج يطوف بالمدينة مردداً خرافاته السابقة عن اقتراب الفراق الأبدي حتى رآه أحد الدراويش الحقيقيين - وهو رجل مقعد يحتمي بأحد الجدران الآيلة للسقوط يمتهن بيع عقاقير قيل انها ترفع همة الرجال برغم أن الكثيرين شككوا في فعاليتها فبارت بضاعته - فغرق في ضحك هستيري حتى استلقى على قفاه وهو يردد: «أنظروا أيها الناس أنظروا! البرنس الأحمر. أناسباغور يلتحف بتلك البركة الحمراء من الدماء التي رآها في حلمه!». تجمع

المارّة حول «البطل» فغرقوا في الضحك بعد أن اكتشفوا الرمز في الحلم، ولم يلبث أناسباغور نفسه أن غرق في الضحك وتلوّى على الأرض حين فهم ما يرمي إليه الدرويش الحكيم. ويقال ان أناسباغور كافأه بعد ذلك بأن اشترى منه كل العقاقير التي بحوزته في ذلك اليوم السعيد ووعده بأن يعود غداً ليشتري المزيد إذا أثبتت التجربة العملية فعالية الدواء الذي ينوي أن يستخدمه احتفاء بالمناسبة!

ويقول مهمدو أن أناسباغور هو الذي يعود له الفضل في جعله يتيقّن أن شيخ الركاكبة الرهيب قد دبّر مؤامرة ضد معلّمه الأول الشنقيطي! لأن الشيخ هو الوحيد الذي يعلم بأمر تلك اللعنة التي تلاحق كل من يريد أن يمتلك هذا الكنز بالذات المدفون بجوار بئر العطشان فحدّثه أناسباغور بتفاصيل لم يتوقعها فقال وهو يدس حفنة التبغ تحت لسانه ويبصق اللعاب الرمادي جانباً: «في الصحراء الكبرى كنوز عديدة وردت الإشارة لها في «كتاب الكنوز» الذي يحذر في أكثر من فقرة من محاولة حيازة هذا الكنز بالذات. مما يقطع بأن شيخ الركاكبة ينوي الشرّ بالرجل. أما قولك ان الشيخ أعطاه خريطة مزيفة عن موقع الكنز مما يدل على حسن نيته فإن الإعتراض على رأيك هنا سهل. كل حكماء الصحراء معروفون بفن المداراة! إذا وصف لك أحدهم الطريق إلى الجنة ونصحك بأن تلزم الناحية الغربية فما عليك إلا أن تسلك الطريق المعاكس إذا أردت أن تبلغ هدفك دون أن يعترضك الأفعوان الخرافي الأسود ويبتلعك! والشيخ تعمّد أن يلجأ إلى هذه الحيلة القديمة لاعتماده على ذكاء الشنقيطي ومعرفته لأسلوب العرّافين في التفكير. وقد أخضع الشنقيطي لإختبار ولم يكن من الصعب عليه أن يكتشف التزوير. وهنا يكمن سوء حظه، لأن الذكاء في كثير من الأحيان ضرر».

ثم هرش أناسباغور رأسه واشتكى من الصداع وقال انّه لم يذق طعماً للطرونة منذ شهرين وطلب من مهمدو أن يدبّر له قطعة مهما كانت صغيرة من تجار القافلة القادمة من «فزان» التي دخلت المدينة منذ ساعات. ذهب مهمدو واستطاع - بعد مفاوضات - أن يحصل له على حبة الطرونة التي يعاملها المدمنين على مضغ التبغ هنا معاملة أهل الشمال للجواهر!

قضم أناسباغور القطعة وتحسسها تحت لسانه وأغمض عينيه ليستسلم للنشوة ثم تهللت أساريره وعاد يواصل قصته: «أنت تعلم أن أشهر كتابين في كل الصحراء هما: «كتاب الكنوز» الذي أشرت له و«كتاب الحكمة». وقد ضاع كلاهما ففقد أهل الصحراء أهم منارتين للهداية. وكما هو الحال مع الحكمة المسكينة دائماً فإن كتابها أكله التراب والفئران وما تبقى من صفحاته تناقلتها

الرياح دون أن يكلف أحد من هؤلاء الناس نفسه عناء الإطلاع عليه ولا أقول العناية به. عكس هذا حدث للكتاب الثاني. «كتاب الكنوز» الذي ضاع بسبب الصراع حول امتلاكه من طرف القبائل والأفراد على حدّ سواء، فتمزّق من جرّاء النهب والتنازع فضاعت بذلك أنفس خريطة للكنوز في الدنيا كلّها». بصق المعلم لعاب التبغ واقترب من أذن مهمدو وقال بصوت كالهمس: «أصارحك القول انني استطعت أن أطلع على صفحاته خلسة قبل أن تمزقها أيدي أولئك الوحوش المتعطشين لنيل الذهب».

نظر حوله في عتمة المساء وأضاف بنفس النبرة: «ولكن لا تخبر بذلك أحداً لأن السلطان نفسه سيقطع لساني إذا لم أنطق بما قرأت في الكتاب حرفياً لأن الجميع هنا يتصوّرون أن كل حرف في ذلك المخطوط النفيس ذا قيمة تعادل وزنه ذهباً إذا كان في الإمكان وزن الحروف في الميزان!». وغرق في ضحكة خبيثة طويلة قبل أن يواصل الحديث: «المهم، إنني قرأت في تلك الصفحات عن وجود الكنوز في كل أنحاء الصحراء وإن لم تتح لي فرصة قراءة الصفحات التي تتناول تحديد المواقع وقد تعرّض المخطوط لكنز بئر العطشان بصفحتين كاملتين محذراً من امتلاكه ليس لأن أعتى قبائل الجن تقوم بحراسته ولكن لأن اللعنة تلاحق كل من تسوّل له نفسه أن يستولي عليه حتى أن هذه اللعنة أصابت بعض ضعاف النفوس من معشر الجن أنفسهم. وأفنى هذا الكنز في الأزمنة القديمة قبائل كاملة مدفونة في كل الأراضي المجاورة للبئر في مقابر متلاصقة زحفت عليها الرمال وأخفتها كي لا تفزع المارّة وعابري السبيل في الخلاء الموحش. من هنا أستطيع أن أؤكد سوء نية شيخ الركاكبة في دفع الشنقيطي إلى الهلاك».

(٧)

وبمجرد وفاة أناسباغور تلك الوفاة المثيرة قرر مهمدو أن يضع حدّاً لغربته ويتوجه في طريق العودة إلى الواحة لولا أن عشقته تلك المرأة الجنيّة وقررت أن تزوجه نفسها. وكان يمكن أن يكون الأمر هيّناً لو كانت المرأة مجرد امرأة عادية، ولكن تمكنها من أسرار السحر وتفننها في استعماله ساعدها في التنكيل به وهو اليافع في خبرته بهذا الفن، الحديث العهد بالإحتراف. تعمّدت أن تعشقه بعد وفاة المعلّم الذي ترك فراغا هائلاً استغلّه الشياطين الذين يستعملون السحر لا لمساعدة الناس ولكن لاستخدامه في أهداف شريرة كما هو الحال مع هذه السيدة التي بلغ بها الحقد حدّاً دفعها لأن تجعل مهمدو يزحف على ركبتيه كالكلب ويلعق قدميها المتشققين الخشنتين مدعية أن ذلك هو أسمى أنواع الغزل في قاموس قبيلتها،

ويبدو أنها ورثت هذه العادات من أصلها الزنجي لأن قبيلتها الأولى من زنوج فلاتة وقعت أمّها في الأسر بعد غزوة موفقة قام بها السلطان لإستكمال العبيد اللازمين للقيام بخدمة الردهات الجديدة التي استحدث بناءها في القصر.

أقسمت هذه المرأة بكل آلهتها أنها لن توقف سطوتها عليه إلا إذا أعلن أمام الجميع يوم الجمعة في ساحة السوق، عن إستعداده لأن يتخذها زوجة له. ولم يجد مهمدو سبيلاً للتخلص من هذه الورطة إلا الرضوخ بعد أن فشلت محاولاته في استعمال علومه المتواضعة في السحر، لأن أكثر من محترف لهذا الفن في تمبكتو نصحه أن يمتثل لأوامرها إذا أراد النجاة لأنه ليس هناك أحد بوسعه أن ينقذه منها طالما لا يوجد لها منافس في المهنة لا في المدينة ولا في الصحارى المجاورة.

ولم يفهم مهمّدو معنى هذه النظرة الصارمة التي كانت تسترقها إليه خفية عندما كان يمرّ بجوار بيتها المتصدّع وهو في طريقه الى بيت أناسباغور. أدرك متأخراً أن النظرة الصارمة في عرف هذه القبيلة المجوسيّة تعني الحب! وها هي تكشّر الآن عن أنيابها وتعتقله لتجبره على الزواج بالقوّة مستغلّة غياب معلّمه، الذي كان الإنسان الوحيد المؤهل لمقاومة ظلم أولئك المردة الذين تعوّدوا أن يستغلوا هذا الفن العظيم للأهداف الشريرة.

فكر مهمدو طويلاً وانتهى إلى ضرورة الإستسلام لهذه المرأة التي لا تفرق بين الحب والإنتقام!.

حاول مرّة أن يجعلها تفهم الفرق بين هذين المفهومين فغضبت ولمعت مقلتاها الشيطانيتان ببريق الجنون فوجد نفسه مدفوعاً بقوة خارقة إلى الأرض يزحف راكعاً على ركبتيه ويتمسح بقدميها من باب الاعتذار فقرر منذ ذلك اليوم أن يغيّر من أسلوبه ويحتكم إلى السياسة، لأن «تامزا»[١٤] - وهذا هو إسمها - تعتقد بما لا يدع مجالاً للشك أنه مسؤول عن استعباد السلطان لأهلها فقررت أن تنتقم منه في شخصه.

ذهب مهمدو بعيداً فتذكر عبارة الشنقيطي المريرة في الدهليز المظلم عندما قال: «ثمة دائماً قائمقام يطلع لك من تحت الأرض ويعترض طريقك..». وابتسم وهو يقارن هذه المرأة الطاغية بأعمال القائم بشؤون القائمقام في الواحة.

وقبل أن يقرر مهمدو الزواج من تامزا طلب مهلة. انطوى على نفسه واعتزل في كوخه وعصف به الشجن والحنين إلى الواحة. فكّر طويلاً في الأحداث التي تلاحقت عليها في السنوات الأخيرة فشهدت في زمن قصير ما لم تشهده طوال قرون وقرون. أحسَ بألم وهو يرى الآن أمام عينيه الشاب المعذّب وهو يحوم حول

معسكر نوري بك في إنتظار خطيبته المعتقلة في مخدع هذا الشهواني حتى إذا تفضّل وأطلق سراحها في الصباح استقبلها الشاب بوجل وفي عينيه عذاب ثم أخذها من يدها وعبر بها التلة الغربية التي تطل على الحقول وغابات النخيل فرآهما من المغارة بوضوح وهما يقفان متقابلين. وقفا طويلاً قبل أن تلتفت الفتاة وتستدير إلى الجهة الأخرى ناحية الحقول، ويبدو أن الشاب هو الذي طلب منها أن تفعل ذلك قبل أن يشهر مديته ويوجه لظهرها طعنات عنيفة متتالية خرّت بعدها الفتاة على الأرض.

كان واضحاً أن الشاب لم يقو على مقاومة التعبير في عينيها فطلب منها أن تستدير قبل أن يستل سلاحه وينفذ فيها الإعدام. فعلت الفتاة ذلك بصورة آليّة فأدرك مهمدو لحظتها أنهما قد اتفقا مسبقاً فجاءت الطعنات تنفيذاً لخطّة، أمّا الشاب نفسه فقد وجدت جثته في اليوم التالي تستقر في عين الكرمة بعد أن قيّد جسده بصخرة كبيرة منعته أن يطفو على سطح الماء.

ثم تجوّل بخياله حتى داهمته ذكرى ذلك الفلاّح الذي جاء إلى الشيخ عاشور الجاروف في بيته يجرجر ابنته وطلب منه أن يقدمها إلى نوري بك مقابل مبلغ من المال ولمّا رفض الشيخ عاشور قائلاً انه يخشى ألاّ تكون الفتاة بكراً نظراً للشائعات التي تشكك في سمعتها وتتهمها بالإستهتار مما سيعرضه للمجازفة فينال عقاب الحاكم. يئس الفلاّح من أن يقوم الشيخ بدور الوسيط في هذه الصفقة فساق ابنته بنفسه وعرضها على ياور نوري بك الذي لم يفته أن يحذره من الغش لأن البك لا يغفر خاصة إذا تعلّق الأمر بالعذارى. ولكن الفلاّح الجشع أقسم بأنه متأكد من نقاء «بضاعته». ولضمان ذلك طلب أن يقبض عربوناً مقدماً على أن يتم دفع باقي المبلغ بعد «تجريب البضاعة». وبعد مفاوضات طويلة وافق الياور على الإقتراح حتى إذا جاء الصباح استيقظ الناس على صياح الأب المجرم وهو «يقبض» ثمان عشرة جلدة بدل أن يقبض على الجزء الباقي من المال. ذهب الإنكشارية وصادروا العربون الذي دفع مقدماً كما صادروا أكياس الغلال ورؤوس الماشية عقاباً لهذا الزنديق الذي تجرأ وخدع البك فنال الفلاح - إلى جانب العقاب - شماتة الأهالي واحتقارهم الأبدي.

وجد مهمدو نفسه يبتسم وهو يتذكر هذه الحادثة المخجلة التي سبقت خطبة الشيخ المراكشي عندما صاح في جمع الحاضرين لتأدية صلاة الجمعة: قال الله تعالى: «إن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم..» فسرت الهمهمة وتعالت الأصوات التي تبارك رأيه، كأن الناس - الذين كانوا يتململون منذ زمن

بعيد . ينتظرون هذه الشرارة للزحف على مقر نوري بك. ولكن هذا كله الآن مجرد ذكرى في حوزة الماضي أما الواحة فتتنفس مناخاً آخر تعم فيه الحرية ويتمتع الناس فيه بالسكينة فهل ما زالت الواحة تتمتع بهدوئها كما تركها؟

فاض الشوق فقرر أن يفعل المستحيل للتخلص من هذه الورطة. جاء إلى تامزا في بيتها فوجدها جالسة تتدفأ بموقد النار وتمشط شعر رأسها المجعّد بمشط ذكّره طول أسنانه بشوك النخيل، ولم تخجل هذه السيدة التي تجري في عروقها دماء الزنوج القوية أن تطلب منه أن يجلس بجوارها ويساعدها في تفتيش رأسها بحثاً عن القمل. فعل ذلك مكرهاً ثم استأذن في أن يقضي حاجته فخرج وتقيأ بجوار الجدار وعاد جاحظ العينين وأعلن لها أنه وافق على الزواج فجرجرته الى السوق فوراً وفرضت عليه أن يعيد ما قال أمام الجميع ففعل ذلك أيضاً وجبينه يقطر عرقاً وعاراً.

في اليوم التالي جرّته إلى القاضي لتسجيل العقد وقراءة الفاتحة ثم حزمت أمتعتها وركبت بغلتها وسافرت الى الجنوب حيث عزمت أن تقدَم الدعوة لأبناء قبيلتها . الذين يقيمون في الأدغال . لحضور العرس وإعداد بعض الرقصات المجنونة. وقد هددته بسبابتها محذرة من أن يحاول الهرب لأنه مهما فعل فإن: «حرّاسها المخلصين لن يتيحوا له فرصة الإفلات».

فرأى ألا يضيّع الوقت ويستغل فرصة غيابها فتوجه إلى فقيه شهير عرف عنه أنه الوحيد الذي يجمع بين التعامل بالدين وتعاطي السحر فوجده وحيداً يكبّر لصلاة العصر في الجامع المهجور. انتظر حتى انتهى الرجل من صلاته وتمنى أن يتقبلها منه الله ثم سرد عليه القصة. استمع الفقيه بإهتمام وعندما انتهى من روايته بادره قائلاً: «حقاً أيها الغريب أنت في موقف لا تحسد عليه. لأن تامزا بلوى كبيرة»، ثم شحذ منه قطعة من الطرونة عندما علم أنه قادم من الصحارى الشمالية ووعده أن يبذل مساعيه وهو يردد بين الحين والآخر: «تامزا بلوى كبيرة» وطلب منه أن يعود إليه في الغد في نفس الموعد.

في عصر اليوم التالي طلب منه قطعة أخرى من الطرونة وسقاه كأساً من الحنظل وجرعة من الزبد السائل ثم أذاب تعويذة قال انه حضرها له خصيصاً في كوب من الماء، أجبره أن يتجرعها كذلك وطلب منه أن يعود في اليوم التالي.

استمرّ في زياراته للفقيه ثلاثة أيام. في نفس الوقت بلغته أنباء تفيد أن تامزا ستضطر لأن تتأخر قليلاً في عودتها لأن فصل الخلافات التي نشبت داخل قبيلتها يستدعي بعض الوقت فساهم هذا التعطيل في اضعاف مفعول «عملها» كما أكد

له الفقيه الذي نصحه ألاّ يتوقف عن قراءة القرآن آناء الليل وأطراف النهار. فسهر الليالي ورأى الأشباح وصارع المردة حتى تذكر ذلك الصراع الذي خاضه الشنقيطي في تلك الليلة التي سبقت إنتزاع الذهب من أيدي الجن. دعا مهمدو الله أن يوسع من هوة الخلاف بين أفراد قبيلتها حتى يتمكن من أن يبطل المفعول نهائياً ويتحرر من «الأسر»!.

وبعد تجارب ثلاثة أيام أخرى قضاها مهمدو ساهراً يعارك القوى الغيبية أحسّ بقدرته على التوجه نحو الشمال فانطلق إلى السوق ودفع ثلاثة دنانير ذهبية للتاجر الغدامسي كي يقلّه الى الواحة.

تحركت القافلة مع حلول المساء على ضوء القمر واجتازت الطوق الجبلي المحيط بتمبكتو من ناحية الشمال واستمرت تقطع المساحات الصحراوية الأبدية.

مع مغيب القمر توقفت القافلة وأزاح المسافرون الأثقال عن الجمال وقضوا ليلتهم الأولى في قلب العراء. ولم يصدّق مهمدو عندما استيقظ في الصباح أنه نجا من قبضة تلك الجنية التي كادت تستحوذ عليه إلى الأبد.

كان يتمتع حتى تلك اللحظة بالعافية.

ولكن الآلام بدأت بعد ثلاثة أيام.

في البداية شعر بصداع ثم تطور الأمر فأصيب بالغثيان الشديد حتى انه سقط من الجمل مرتين فاضطر الغدامسي وأعوانه أن يقيّدوه بالحبال كي يثبّتوه على ظهر الحيوان. وفي مساء نفس اليوم - عندما تأهبت القافلة لمواصلة الرحلة ليلاً على ضوء القمر بعد تناول وجبة العشاء التي لم يذق المريض لها طعماً - سقط مغشيّاً عليه مما اضطر الغدامسي أن يلغي الرحلة الليلية على أن يواصلوا السفر في الصباح الباكر إذا شعر مهمدو بتحسن. أفاق من الإغماء فشعر بتلك الآلام الوحشية في أمعائه فظل يصرخ وجسده يسبح في العرق دون أن تتوقف السكاكين عن تمزيق أحشائه. هرع الغدامسي إلى أمتعته وأخرج جراباً جلديّاً قديماً تآكل طرفه العلوي وأخرج منه قطعة مجففة من اللحم - قال إنه لحم ثعلب - ملفوفة بعناية في صرة صغيرة من القماش الشفاف الذي تغيّر لونه فاستحال رمادياً باهتاً. طبخ قطعة اللحم في قدر كبير من الماء وسقا المريض حساء الثعلب بالقوة.

مع منتصف الليل بدأ مهمدو يتقيأ واستمرّ هكذا حتى انبثقت خيوط الفجر الأولى لدرجة أفزعت رفاقه الذين سهروا عليه بالتناوب.

بعد ذلك شعر بالتحسن حتى انه استطاع أن يصمد بعض الوقت على ظهر

الجمل ولكن الوهن منعه من مواصلة الجلوس على الجمل فعاد الغدامسي يوثقه بالحبال على الجهة اليمنى في حين تحتل الجهة اليسرى من الظهر أكياس البضائع للمحافظة على التوازن.

في الأيام التالية تولى الغدامسي ـ الذي يبدو أن تجربته الطويلة في الرحلات علمته أن يتسلح دائماً ببعض الأدوية ـ معالجته بخلطة من الأعشاب البريّة لانتزاع الأمراض الباطنية فتواصلت عند مهمدو حالات القيء طوال الأيام الخمسة التالية. وبرغم أن مهمدو لم يصارح الغدامسي بأمر تامزا إلاّ أن خبرة الرجل جعلته يهز رأسه الأشيب المتوج بزمالة بيضاء وهو يرمق رفاقه بنظرة ذات معنى. تلك النظرة الخفيّة التي يترجمها أهل الصحراء هكذا: «الأمر لا يخلو من سحر» دون أن يأتوا على نطق الكلمة حرفياً.

وبعد تحسّن مهمدو استطاع الثبات فوق ظهر الجمل دون مساعدة الحبال، لم يفت الغدامسي أن يقترب ويجاوره بجمله وهو يسأله عن أحواله الصحية. فهم مهمدو من النظرة أنه يريد أن يعرف منه القصة فرواها مهمدو عند أول فرصة.

(٨)

طوال الأسابيع الستة التي استغرقتها الرحلة ظلّت الحمّى وحالات الإغماء تتنازع مهمدو. تتراجع الحمّى ليومين أو ثلاثة أيام فيتماثل للشفاء بضعة أيام فتعاوده حالات القيء والإغماء حتى بلغوا مشارف غات. في ذلك الوقت كانت غات تعاني من بطش قائمقام متسلط يفرض عقوبة الجلد لأتفه الأسباب ويرهق كاهل الأهالي بالضرائب والإتاوات. أما القوافل فكثيراً ما تعرّضت للنهب ونفذت عقوبات الجلد بأصحابها الذين حاولوا الإعتراض مما جعل التجار يتحاشون المرور بالواحة والتوجه إلى «آدرار» مباشرة.

كان في نيّة الغدامسي أن يلف حول غات من أبعد طريق ولكن مرض مهمدو أجبره أن يشرف على الواحة من ناحية المرتفعات الغربية وعسكر هناك لمناقشة إعتراض رفاقه على دخول الواحة خوفاً من بطش القائمقام. أسفرت المشاورات عن حلّ وسط يتسلل بموجبه نفر من أفراد القافلة ليلاً ويأتوا بمزيد من الأدوية لتطبيب المريض.

حالف الحظ الرسل ونفذوا إلى الواحة وقصدوا العطارين والعرّافين والسحرة المشهورين الذين سبق للغدامسي أن تعامل معهم في الماضي أثناء مروره بغات واستجابوا لإنقاذ حياة مهمدو، فعاد الرسل بالمراهم والأعشاب والأحجبة ومزيداً من لحم الثعلب البري المجفف. فكان لهذه الأدوية الفضل في شدّ أزر مهمدو حتى

بلوغ «آدرار» بعد إثني عشر يوماً من ذلك التاريخ. وقد طار خبر عودة المهاجر وسبق وصول القافلة الى الواحة فهب الأهالي لإستقباله عند أطراف التلال الرملية الجنوبية وهم يقرعون الطبول ويرددون الأهازيج ويعزفون على المزامير ويرقصون ابتهاجاً. ولم يعرف مهمدو عمّا إذا كانت هذه الحفاوة هي من تنظيم صديقه المراكشي - الذي قاد المظاهرة وتقدّم جموع المستقبلين - أم أن شوق الأهالي لأبناء الواحة المهاجرين الذين غابوا زمناً طويلاً هو الباعث على احتفال يليق بزعيم عائد من غزوة ظافرة!

وبالطبع فإن وجهه الممتقع وملامحه الشاحبة التي افترسها المرض وهدّها التعب أثارت دهشة أهل الواحة وعلى رأسهم المراكشي الذي جلس على الكليم الأحمر بجوار مهمدو في ساحة الجامع أثناء الوليمة الفاخرة التي ساهم الأهالي في التحضير لها وحضرها الأعيان والعقلاء إحتفاء بعودة مهمدو وامتناناً للغدامسي الذي كافح في سبيل العناية بالمريض. فمال الشيخ على ضيفه الغدامسي وهمس في أذنه ببعض الكلمات فرد عليه الأخير بنفس اللغة الخفيّة وجرى بينهما حوار لم يتبينه مهمدو. رأى في عيني المراكشي بعدها تعبيراً يؤكد علمه بالقصة.

لاذ مهمدو بالصمت. وحاول أن يرد على تساؤلات الحاضرين ويجيب على إستفساراتهم الفضولية - كما تعودوا أن يفعلوا مع كل مهاجر عائد - باقتضاب لا يتيح المجال لسرد القصص الطويلة لأن شعوره بالضيق ووضعه الصحّي فرضا عليه أن يلجأ إلى هذا الأسلوب. فأجبر الأهالي أن يتراجعوا عن إلقاء الأسئلة وآثروا أن يحدقوا في وجهه بنظرات امتزج فيها الإشفاق بالشوق باللوم.

اختلى به الشيخ وطلب منه القصة لأنه يريد أن يسمعها من شفتيه فوجد نفسه يبوح له بسر لم يقله لأحد من قبل فهمس ممتقع الوجه: «إن لها رائحة كريهة لا تطاق. رائحة أبطيها ما زالت في أنفي وأشعر بالدوار كلما تذكرتها». سرد هذا التفصيل لإعتقاده بأنه هو الشيء الوحيد الذي لم يسمعه صديقه من الغدامسي ولكنه فوجيء بالمراكشي يرمقه بقلق ثم تحسّس جبينه بكفه قائلاً: «هل أنت على ما يرام؟ آه. أنت محموم!». بدأ يرتعد ولم يصل المغارة حتى وقع فريسة الحمّى مرة أخرى!

في تلك الليلة زارته تامزا لأول مرة منذ مغادرته تمبكتو واستعطفته أن يعود إليها وروت له قصة غريبة لم يسمعها منها من قبل فتقرفصت في مدخل المغارة وأزاحت اللحاف الأزرق الذي يغطي رأسها ورآها ترتديه لأول مرة وقالت بلهجة ودودة لم يألفها أيضاً: حنثت بوعدك وهربت. أعرف أنك ستفعل ذلك لأنك لا

تحبني وتعتقد جازماً أن نيتي في الزواج منك مجرد نزوة من امرأة شريرة تسخر الأرواح لتنفيذ أهدافها الأنانية. ولكن الأمر ليس كذلك. منذ خمسة عشر عاماً مات زوجي أثناء قيامه باستنفار المقاتلين من أبناء قبيلتنا الأصلية. لقد علم بنية السلطان في تنظيم غزوة إلى الأدغال بعد تلك الصفقة المشبوهة التي عقدها مع التجار البيض لابتياع رؤوس العبيد لتصديرها لبلدان ما وراء البحار فأعدّ العدة لتنفيذ غارة خاطفة على قبائلنا لاستجلاب العدد اللازم من الأسرى، وقد عانى زوجي طويلاً من الصراع مع نفسه بسبب إزدواجية أصله. فهو مثلي مهجن وخليط من تزاوج الدم الأبيض بالأسود ؛ أمّه كانت محظية لأحد جنود السلطان الذي ما لبث أن طلق زوجته الأولى وعقد عليها شرعاً على دين الإسلام. أنا شخصيّاً نصحته بألاّ يذهب في تلك الرحلة لإخطار القبيلة لأني يائسة ولا أرى فائدة من عمله هذا طالما يستطيع السلطان أن ينفذ هدفه في كل الأحوال. وهذا ما حدث. إذ اتهموه بالإنحياز لقبائل المجوس واقتراف الخيانة العظمى ضدّ صاحب الجلالة فقطعوا رأسه على الفور وعلقوه على رأس الشجرة لكي يكون عبرة. وبعد موته بأسبوع جاءني في الليل ومنعني من الزواج من أهل تمبكتو جميعاً. وكان يزورني ليليّاً ويقف معي كدليلي في الحياة ويساعدني في متاعبي ويشير عليّ بالرأي ولا يفوته أبداً أن يعيد تحذيره لي في الزواج من رجال تمبكتو في كل مرة عندما يتأهب للخروج. أخبرني بعد سنوات أن إلحاحه عليّ ليس عائداً لإنانيته في أن أظل مخلصة لذكراه وإنما يفعل ذلك حرصاً عليّ من هؤلاء الأنذال الذين سيجعلون حياتي شقية. والحق أني مللت الإخلاص وغمرني حنين الأمومة إلى تزيين حياتي بطفل أو طفلين خاصة وأن الحظ لم يحالفنا لإنجاب أطفال أثناء حياته، وقد بكيت بين يديه عندما زارني في المرّة التالية وأعلنت له أن زواجي ضروري ليس بسبب عطشي كأنثى ولكن بسبب حنيني كأم فسيطر عليه الغضب واتهمني بالخيانة والضعف وأعاد على مسمعي تحذيره السابق فأدركت أن حقده عليهم أبدي. ولكني فوجئت بزيارته في إحدى الليالي المقمرة عندما جاءني رائق المزاج وبشرني بأنه قرر أن يأذن لي بالزواج وقال انه يرشح رجلاً نبيلاً جاء من الصحارى الشمالية البعيدة ولا علاقة له بأهل تمبكتو على أي حال وهو يطوف الصحراء الكبرى منذ سنوات طلباً للعلم وبحثاً عن الأسرار. ولا أخفي عليك أنك أثرت إعجابي عندما وقع عليك نظري أول مرة في ساحة السوق برفقة الجبّار أناسباغور الذي لم يمنعني سواه من الإقتراب منك. وقد سخرت «أعواني» للتفاوض معه ولكنه رفض مدعيّاً أن الغريب حلّ ضيفاً علينا لتلقي العلم ولا يجوز

أن نقف في طريق عودته إلى وطنه بربط مصيره بمصير امرأة شهوانية فاستفزني ردّه فأرسلت مزيداً من «الأعوان» الذين اصطدموا بأعوانه في معركة حامية أسفرت عن انتصاره طبعاً، إذ لم يستطع مخلوق لا من الأنس ولا من الجان أن يتغلب على هذا الجبار. وكان سوء حظي أن الإنسان الوحيد الذي أذن لي زوجي في الإرتباط به يقع في حماية أناساغور. نسيت أن أقول لك أن زوجي لم يعد بعد تلك الزيارة التي رشحك فيها لي أبداً ففقدت النجم الذي يهديني سواء السبيل. ولما كنت أعرف أنني - كامرأة خلاسيّة - لا أستطيع أن أطمع في الزواج من رجل أبيض حتى لو تسامح زوجي المرحوم وسمح بذلك فإنني قررت أن يتوّج تريثي بالنجاح عندما علمت بوفاته آملة أن أفوز بك. وبقية القصة تعرفها..».

تألّم عندما ذرفت الدموع وترجته أن يسرع بالعودة إليها لأنها تنتظره بفارغ الصبر. ولكن اختفاءها أعقبه ظهور معلّمه الجبار أناسباغور الذي وقف بقامته الطويلة يسدّ مدخل المغارة ويهدده بسبابته وهو يردد: «إيّاك أن تذهب إذا أردت ألاّ تضيع. في عودتك إلى تمبكتو قضاء عليك. إني أمنعك».

وحتى عندما أقبل الشيخ المراكشي بعقاقيره مستحضرات الأعشاب من الأدوية ظلّ تحذير المعلّم يطن في أذنه وقامته استمرت تنتصب في مدخل الكهف. فوقع بين توسلات تامزا وتحذيرات المعلم ففاتح المراكشي بالأمر ولكن الشيخ استمرّ يتحسس جبينه ويحيط رأسه المحموم بالضمادات ويتمتم: «الإنسان الوحيد يرى ما لا يُرى ويَسمع ما لا يُسمع» ثم اقترح عليه أن يبدل مكان إقامته ويهجر كهفه الموحش - وينتقل للإقامة في الجامع حيث سيضمن له العناية. ولكن اقتراح الشيخ لم يجد الترحيب من مهمدو فاستمرّ يقاوم المرض في مغارته المجيدة حتى سلطت عليه تامزا أولئك العمالقة الذين طفقوا يزورونه كل ليلة فيشتبك معهم في معارك وحشية. وقد استطاع بصموده أن يقف على قدميه ويحول دون أن يتمتعوا بانتصارهم الكامل فاستمر الصراع أسبوعاً آخر حشد فيه كل طرف قواه الروحية واستعمل خبرته التي تلقاها طوال الأعوام الماضية من الشنقيطي ومن أناسباغور فاختل ميزان القوى مع نهاية الاسبوع الأول مرة وأحرز انتصارات باهرة على المردة. ومع بداية الاسبوع الثاني تراجع العمالقة فتنفس الصعداء حتى أنه استطاع أن يزور الشيخ في الجامع ويسرد على مسمعه نكتة فاضحة قال انه سمعها من أناسباغور في تمبكتو فأعجبت الشيخ الذي ضحك طويلاً وشكره عليها. وقد ورد في مخطوطنا أن مهمدو استمرّ بعدها في التحسن حتى أيقن المراكشي وكل أهل الواحة أن الله أنعم عليه بالشفاء، فخرج من عزلته

وحرص على حضور صلاة الجمعة وعادت له روح المرح وأعاد علاقاته مع الأهالي خاصة الفقهاء والدراويش الذين اتخذوا من الجامع مقراً. يحتسون الشاي ويتحدّثون حول الدنيا والدين وطبائع المخلوقات من الأنس والجان حتى جاء اليوم الذي سقط فيه مهمدو جثّة هامدة.

حدث ذلك قبل صلاة الجمعة بقليل.

اعتقد المجتمعون وعلى رأسهم الشيخ المراكشي أن مهمدو سقط مغشيّاً عليه اثر عودة مفاجئة لنوبات الإغماء ولكن العقلاء وأهل الخبرة ـ الذين سارعوا يجسّون نبضه ـ أجمعوا على أن الروح انفصلت عن الجسد والجسم المسجّى أمامهم غادرته الحياة إلى الأبد.

حدث ذلك وسط ذهول شامل فعقدت الدهشة أكثرهم شجاعة فوقفوا طويلاً وهم يتبادلون نظرات الارتباك. حتى الشيخ عقدت الدهشة لسانه فلاذ بالصمت. (وترد في المخطوط ملاحظة يجدر بنا أن نوردها هنا تقول ان أكثر من مواطن أكّد أنه سمع صراخاً وجلبة وصياحاً في المغارة في قلب الليل والواحة تهجع مستسلمة للأحلام. مضى شهود العيان بالحديث فقالوا انهم قابلوا مهمدو في الصباح الباكر وهو يدور حول المغارة كالمجنون وفي قول آخر أنهم التقوا به في الهزيع الأخير من الليل بجوار المقبرة القديمة في سفح الجبل الجنوبي. وبرغم أن الأهالي رددوا هذه الروايات بعد تشييع الجنازة إلا أن كاتب النص في المخطوط رأى أهميتها فبادر بتوثيقها من باب العلم بالشيء حسب تعبيره الحرفي). ولم ينتزعهم من ذهولهم إلا صوت الحاج البكاي أحد أتباع الطريقة القادرية وهو يقول بصوت خشن: «لا حول ولا قوة إلا به تعالى. استغفروا الله يا جماعة. ان الموت أقرب لنا من حبل الوريد فما بالكم تقفون كالبلهاء؟ رحمة الميت أن تغسلوا جسده وتودعوه القبر بأسرع وقت».

كانوا في جمودهم لا يريدون أن يصدقوا أن مهمدو الذي كان يجالسهم ويبادلهم الحديث ويناقشهم منذ لحظات فقط غاب إلى الأبد. ولم يكن مدهشاً أن يكون الشيخ المراكشي أكثرهم ارتباكا وذهولا. وبعد هذه الصيحة القاسية، سارع المراكشي يهز رأسه في بلاهة حتى أن أغلب الحاضرين لم يعرف عما إذا كان الشيخ يقصد الموافقة بهزات الرأس أم يعبر عن حيرته وارتباكه.

وفي اللحظة التي دبت فيها الحركة وتحرر أغلب الحاضرين من الصدمة وسارعوا لتنفيذ الإجراءات الخاصة بتشييع الميت إلى مثواه الأخير كما تقضي الشريعة وحسب ما نصح الحاج البكاي أبدى أحد الحاضرين ملاحظة اكتسبت

أهمية بالغة فيما بعد فقال: «ولكن الجسد ما زال ساخناً يا جماعة».

سمعه أكثر من مواطن يكرر هذه الملاحظة، ولكن الرغبة الصادقة في رحمة الميت جعلت الناس يسرعون في غسل الجسد كما أسرعوا في إعداد الكفن ومدّدوا الجسد على محفة في الجامع وتجمهروا للصلاة على روح الميّت. ويعترف الجميع أن الواحة لم تشهد طوال تاريخها مظاهرة كتلك التي مشتها في ذلك اليوم خلف المرحوم مهمدو. فانتقل الخبر واقتحم الغابة وطاف بين الحقول واخترق الجدران فدخل البيوت فازدحمت الساحة المواجهة للجامع بعد أن فاض رواق الجامع نفسه بالمصلين وامتدّت الجموع حتى اكتظت في ساحة السوق التي فاضت أيضاً بالناس من أطفال ورجال ونساء. وحتى العجزة وذوو العاهات من العمى والعرج والمقعدون وجدوا حيلة يهتدون بها الى الطريق ففاضت ساحة السوق فصدّرت جموع البشر الى الشوارع الصغيرة المؤدية إلى طوابير البيوت الطينية التي تطوّق الجبل. تحرّك موكب الجنازة نحو المقبرة قبل غروب الشمس. تدافع الأهالي بالمناكب وتزاحموا عبر الأزقة والطرقات المفضية للمقبرة وهم يرددون القرآن بأصوات جماعية عالية حتى أن الحاج البكاي علّق بعد انتهاء مراسم الدفن قائلاً: «لم أر تجمعاً للمسلمين كهذا التجمع إلا في مكة أثناء موسم الحج. كما لم أسمع تراتيل للقرآن أحلى من التراتيل التي سمعتها ذلك اليوم ولا تضاهيها إلاّ تراتيل المسلمين عند أعتاب الكعبة».

(٩)

لم يتوقع أحد من أهل الواحة أن يعود مهمدو من رحلته الى العالم الآخر ويبعث حيّاً بهذه السرعة. فلم يمض على انتهاء مراسم الدفن ومواراة المرحوم التراب عدة ساعات حتى جاء من يهمس في أذن الشيخ المراكشي. الذي جلس مع عقلاء الواحة في الباحة أمام الجامع يرتلون القرآن ترحماً على روح مهمدو. مما يفيد أنه سمع صراخاً ينبعث من القبر. كان هذا المتطوع الذي جاء بهذا الخبر شاباً طويلاً حافي القدمين ينز العرق من جبينه ويتنفس بصعوبة مما يقطع بأنه أقبل راكضاً. نظر إليه الشيخ لحظات ثم انتقل ببصره الى قدميه الملطختين بالطين والجير ونهره بخشونة.

حمد الشيخ الله أن أحداً من الحاضرين لم يسمع هذا الهذيان، لأن ضجة المقرئين الذين تقرفصوا في جلستهم ووضع كل منهم المصحف في حجره وشرع يتمايل يميناً ويساراً مع الترتيل الجماعي للسور، لمّا كان كل منهم يقرأ في حزب يختلف عن الحزب المجاور رغبة منهم لإنهاء الطقوس بأسرع ما يمكن فإن التلاوة

تحوّلت إلى نوع غريب من اللغط الفوضوي الذي يبتلع كل الأصوات الأخرى التي تتحدث بلغة عادية، فيضطر أولئك الذين يقومون على خدمة المقرئين إلى الابتعاد عن الحلقة لمسافة تؤهل الأذن للاستماع وفهم الكلام. ولكن الشاب زحف بين جموع الحاضرين حتى رآه الشيخ يقترب من الحاج البكاي ويبتعد به عن مركز الحلقة فعرف أنه يكرر على مسمعه نفس الهراء. ظلّ يترنح يميناً وشمالاً مع جمهرة المقرئين كالمجذوب مردداً الآيات بصورة آلية دون أن تكف عيناه عن متابعة حركة البكاي من المأتم مع نفر من ضعاف النفوس. استمرّ غيابهم قرابة ثلاثة أرباع الساعة قبل أن يعودوا ليسحبوا مجموعة أخرى من التجمع ولكن الحاج البكاي لم يره بينهم. اقترب منه أحدهم وأفصح له عن خشيته من أن تكون روح المرحوم قد تملّكتها الأرواح وبدأ مهمدو يخضع للحساب لأن ثمة أنيناً موجعاً لا ينقطع يصدر من داخل القبر.

سخر الشيخ المراكشي من هذا التفسير في البداية ثم وجد نفسه ينطلق مع من تبقى من المقرئين إلى المقبرة حيث وجد أن جموع المعزين والمقرئين والفقهاء قد حوّلوا طقوسهم من الجامع إلى القبر فاستغرقوا في قراءاتهم وتراتيلهم وتلاواتهم.

اقترح الحاج البكاي وهو يركع على ركبتيه أمام القبر: «إذا تملّكت القوى الخفية روح الميت فليس للمسلمين غير طريق القرآن لتخليصها من العذاب».

فسرت الهمهمة وارتفعت الحناجر بالتلاوة.

في هذه اللحظة فوجىء الجميع بالشيخ المراكشي يهجم على القبر بالفأس وينهمك في الحفر. تبادل المتجمهرون نظرات متسائلة وكفوا عن التلاوة. أفاق الحاج البكاي من غيبوبته وقفز نحو المراكشي محاولاً أن يستولي على الفأس ويمنعه من الاستمرار في الحفر. قال: «هذا جنون. هذا تدنيس لقداسة الموتى واقتراف للإثم. إتقِ الله يا شيخ والعن الشيطان». لعنه الحاضرون دفعة واحدة واشتبك البكاي مع الشيخ في معركة حامية لعب فيها المجتمعون دور المتفرج. ساد الصمت، يخرقه الأنين المتقطع المنبعث من باطن الأرض. استبسل المراكشي برغم شيخوخته وسدد للبكاي ضربات متوالية حتى سقط الأخير على الأرض وهو يمسح التراب والعرق عن جبينه مستسلماً، فقال المراكشي يخاطب الأهالي: «هيا. ساعدوني في الحفر ولا تضيعوا الوقت».

تردد الأهالي لحظات. ربما خوفاً من اقتراف الإثم الذي حذر منه الحاج البكاي. ولكن نظرات الشيخ المصممة شجعت ثلاثة شباب فتقدموا ناحية القبر وانهمكوا

في إزاحة التراب بأيديهم العارية. أما الناس فازدادت حيرتهم فحاولوا أن يهدئوا البكاي الذي وقف على قدميه ودفعه العناد لأن يدور بين الجماهير ملوحاً بيديه في الهواء مردداً كالمجنون: «تقفون كالبلهاء، مكتوفي الأيدي في وقت يعمد فيه الأحياء إلى نهش رفات الأموات. يا جماعة الضرب في الميّت حرام!».

ولكن هذا التحريض لم يخرج الأهالي عن حيادهم فتمادوا في سلبيتهم وتراجعوا خطوات إلى الوراء وكأنهم يفسحون المجال للبكاي كي يواجه المراكشي لوحده حتى إذا انتزع الشباب «الجثة» من أعماق الأرض وضعوا حداً للنزاع وقطعوا الطريق نهائياً على المواجهة.

وبرغم أن قرص القمر قد ارتفع فوق قمة المغارة وبسط نفوذه على المقبرة القديمة إلاّ أن الأهالي تزودوا بالمشاعل والقناديل لطرد فلول الظلال وتعميم النور، بادروا على الفور بتسليط الضوء على وجه «المتوفي». قام الشيخ بتمزيق الكفن المعفر بالتراب وتحسس وجه مهمدو المسجّى بجوار فوهة القبر. فتح عينيه ببطء ثم عاد وأغمضهما بسرعة خاطفة ويبدو أن السبب يرجع إلى وخز الضوء الذي يزداد حدّة بالنسبة لمن ألف ظلمات القبر.

ضج الناس بالهمهمة وتمتم آخرون بالتسابيح وترديد آيات القرآن.

قام المراكشي يغمر وجه مهمدو وجسمه بالماء فجلس العرّاف ممتقع الوجه ونظر حوله في اشمئزاز وأجال بصره بين الوجوه الواقفة فوق رأسه، وقال: «ماذا حدث؟ لقد وعدتني يا شيخنا أن توقظني كي نؤدي الصلاة معاً!».

ثم عاد يرقد في الكفن.

ويروى في الواحة أن الحاج البكاي الذي انتقل بعد هذه الحادثة إلى واحة أخرى لجذب الناس وحشد المريدين والأتباع لمذهبه تنبأ لمهمدو بعمر نوح وأضاف أن من يموت مرّة ويبعث حيّاً سوف ينساه الله ويبتعد عن طريقه عزرائيل وذهب هذا المتصوف المتجوّل إلى القول - ردّاً على سؤال: لماذا تهجر واحتنا؟ - أن لا مكان للمذهب في واحة يبعث فيها الناس أحياء بعد أن أودعوا القبور وتولّى أمرهم عزرائيل نفسه، ولكن لم يفت الخبثاء من الأهالي أن يرجعوا سبب هجرته المفاجئة إلى سبب آخر هو تلك الشائعات القاسية التي تناقلتها الأفواه وأدانت تصرفات البكاي إزاء مهمدو حيث تعمّد أن يعجّل بالدفن قبل التأكد من أن الروح قد غادرت إلى بارئها الأعلى متجاهلاً تلك الملاحظة التي تنبّه إلى سخونة الجسد مدعياً أن عمله هذا من قبيل رحمة الميت التي يجمع عليها فقهاء الشريعة. وممّا يؤكد نيّة البكاي في التآمر على حياة مهمدو إصراره على تجاهل استغاثات

المقبور بل ومضى في سبيل تحقيق هذا الهدف إلى أبعد من ذلك فتعمد تجميع المقرئين والفقهاء فوق حافة القبر لتصعيد الجلبة وكتم صوت «الميّت». أما في اشتباكه مع الشيخ المراكشي للحيلولة دون إنقاذ الرجل فيكمن الدليل القاطع على تآمر البكاي الذي يرى في مهمدو عدوّاً خطيراً لفلسفته التي لم يستطع حتى الآن برغم نضال ربع قرن من الزمان أن يجذب لها فرداً واحداً من المريدين أو الأتباع فوجد في «إغماءة» مهمدو فرصة للتخلص منه وتحقيق ما كان يخطط له في السرّ منذ زمن طويل.

استطاعت هذه الألسن أن تجرح كبرياء الحاج البكاي وتدفعه الى البحث عن واحة أخرى.

أما الأهالي فأجبروا أنفسهم على الصبر والتزموا تريثاً يفوق طاقتهم كبشر عندما كبحوا فضولهم وأجّلوا الإفصاح عن شوقهم الأبدي في معرفة ما يخبئه لهم اللّه في العالم السّفلي. فتجمعوا حوله بباحة الجامع، يلتهمونه بنظراتهم ويتابعون كل حركة من حركاته كأنه شبح من الأشباح أو مخلوق غريب سقط من كوكب آخر.

وبالطبع فإنه لم يلحظ فوراً لأنه هو نفسه لم يفق - حتى ذلك الوقت - من «صدمة» القبر ولم يستطع أن يفتح عينيه على اتساعهما لأن تلك الساعات القليلة التي قضاها في النفق الخانق المظلم كانت كفيلة لأن تصيب عينيه بالضرر أمداً طويلاً. ورويداً رويداً بدأ يكتشف الدنيا ويصطاد تلك النظرات المتسائلة العطشى لمعرفة الحقيقة عن دنيا الأبدية.

ولم تمض أيّام أخرى حتى كشفوا عن ضعفهم الإنساني وساروا خلفه في تظاهرة يمطرونه بالأسئلة عن النار والحساب والجنة التي تجري من تحتها أنهار الحليب والنبيذ وتزدحم بالحسان والغلمان.. الخ. ويمضون في فضولهم فيلقون مثلاً بهذا السؤال: «مهمدو قل لنا باللّه كيف وجدت الدنيا هناك؟ هل جاءك عزرائيل؟ هل دق رأسك بهراوته المخيفة حتى نزلت إلى الأرض السابعة؟ أم أنه كان رحيماً فاستجاب لشفاعة الملائكة فخفّف؟».

وبلغ الفضول ببعض الأهالي الأشقياء أن وجّهوا له بعض الأسئلة الدقيقة المتعلقة بطبيعة الجحيم. هل هي حقّاً مخيفة كما يصفها القرآن؟ هل النار العادية مجرد برد وسلام بالمقارنة مع جهنم؟ وثمة مواطن طريف جاءه في المغارة في الليل وسأله ساخراً: «هل عذاب الغفور الرحيم أقسى من سياط القائمقام؟» وعندما حدق فيه مهمدو دون أن يجيب ضحك وقال: «أنا لا أشك لحظة واحدة في أن

عذاب الله أرحم من عذاب البشر خاصة القائمقامية »، وقد وجد من اعترض طريقه بعد عودته من القبر بأسبوع وسأله عن أخبار الشنقيطي قائلاً: « هل رأيت الشنقيطي هناك؟ كيف حال ذلك الرجل الفاضل بالله؟ ».

وكان مهمدو في البداية ينظر إليهم في بلاهة ويهرش عمامته بأصابعه كمن يحاول أن يتذكر شيئاً نسيه دون أن يبوح بكلمة، ثم أصبح يتحاشاهم ويهرب من مواجهتهم فاضطر الشيخ المراكشي أن يهدىء من فزعه قائلاً: « عليك أن تعذرهم وتغفر لهم ضعفهم. ان الإنسان توّاق للاكتشاف ميّال لمعرفة ما يخبئه القدر! وهم يعتقدون أنك قادر أن تكشف لهم الحجاب عن اليوم الآخر لأنك الوحيد الذي ودّع هذا العالم إلى الآخرة ثم عاد سالماً فكيف لا تريدهم بعد ذلك، ألاّ يتلهفوا لسماع الخبر اليقين من بين شفتي المعجزة التي تسعى أمامهم على قدمين؟ ». جلسا في ذلك اليوم وحيدين بعد تأدية صلاة المغرب يقتلان الوقت ويشربان الشاي الأخضر فقال مهمدو وقد طفحت عيناه بألم عميق: « لم أشعر بالعجز كما شعرت به عندما أيقظني ذلك الفلاّح المقعد بعد منتصف الليل وتوسل لي أن أجيبه عن سؤال واحد: « هل هناك في العالم الآخر عدالة أم لا؟ » ولما نكست رأسي وأبطأت في الجواب قال: « أنا عاجز كما ترى وقد جئتك زحفاً على ركبتي وأنت تعلم ماذا يمكن أن يعنيه صعود الجبل بالنسبة لي. وعجزي سببه ظلم البشر. جلدني أعوان سعادي بك وجاء خليفته الطاغية كي يلوث شرفي ويغتصب ابنتي البكر التي لم تبلغ السابعة عشر عاماً وعندما بكيت وقلت له أنها ما زالت قاصراً سخر مني وقال ان شمس فزان كفيلة بأن تبكّر بنضجها كما تبكّر بالبلح، والمرأة لا تختلف عن الثمار إذا برز النهدان وتكوّر الردفان فإن ميعاد قطافها قد حان. وأعقب هذا الكلام الداعر بضحكة كريهة، وبدا من رائحته النتنة أنه ثمل ولم يفق من شرب اللاقبي منذ أيّام. ولما ألححت وأصررت أزاحني من طريقه وأمر أعوانه باعتقال الفتاة التي كانت تصرخ وتستغيث. تمزق قلبي وهرولت وراء جنوده الأنذال كي أساعد في تخليصها من بين أيديهم ولكنهم ركلوني بأرجلهم وجلدوني بالسياط ثم ضربوني بالهراوات حتى كسروا ظهري وأصابني الشلل الذي قيّد كلتا الرجلين كما ترى. جئتك كي أعرف ما إذا كنت أستطيع أن اعتمد على عدالة السماء في اليوم الآخر. هل بوسعي أن أشكوه إلى الله فينتقم منه ويلطخ شرفه ويكسر رجليه ويجعله يزحف على الأرض كالحشرة مثلي؟ ». والحق أن آلام الرجل اعتصرت قلبي فاضطررت أن أكذب عليه. قلت له أن العدالة هناك مظلة للجميع والله يشرف بنفسه على محاسبة القوم الكافرين أمثال الزنديق نوري بك أو سلفه

سعادي بك. أما صنوف العذاب التي يسومها لهم الله هناك فهي فظيعة. واختلقت قصصاً مدهشة واجتهدت في تأليف أسوأ أنواع العذاب الذي يمكن أن يتصوّره إنسان. سردت كل ذلك على مسمع الرجل المسكين واستطردت في حكايات ألف ليلة وليلة هذه حتى الصباح».

سكت مهمدو ورمق الشيخ فخيل له أن عيناه فضحتا استنكاراً مكتوماً فسارع مهمدو يقول: «ماذا تريدني أن أفعل بالله؟ هل أقول له أنني لم أر شيئاً من هذه الرحلة سوى الظلام في ذلك الدهليز الرهيب الذي أحكمتم إغلاقه على جسدي؟».

ابتسم الشيخ بمرارة ولكنه آثر الصمت.

ولكي يضع حداً للموضوع رأى أن يخوض في أمر الأنباء المزعجة التي تتحدث عن نوايا الطليان العدوانية تجاه البلاد وحشود أساطيلهم في عرض البحر.

ولم تمض أسابيع حتى جاء الرسل لجمع المجاهدين لصدّ الغزو، لأن الطليان بدأوا يدقون فعلاً أبواب طرابلس البحرية بالمدافع.

العقارب

(١)

تمكن الكلب من أن يفرض نفسه على الشيخ غوما فتوطدت علاقته به مع الأيام رغماً عنه. فبعد عودته من كهف مهمدو في تلك الليلة مضى الحيوان يتعقبه مرة أخرى حتى وصل بيته. تمدّد أمام الخيمة ووضع رأسه على قائمتيه الأماميتين وحدج الشيخ بنظرة تقول: «لقد قررت أن أقضي ليلتي هنا. لا تتعب نفسك فتحاول طردي!». وظل على هذا الوضع حتى الصباح عندما جاءته الزنجية العجوز بالإفطار. وضعت الطبق المتوج بوعاء الشاي وقطعة خبز جافة تعودت المرأة أن تأتي بها كل صباح وتعود بها في نفس الصحن برغم أن الشيخ قال لها أكثر من مرة أن معدته لا تتقبل أي شيء في الصباح باستثناء الشاي إلا أن العجوز ـ التي تشكو دائماً من سوء شهيته للطعام ـ تصرّ أن تضع قطعة الخبز بجوار الوعاء في الصحن آملة ـ كما يبدو ـ أن تتحسن شهيته فيقضم من الخبز في يوم من الأيام. أفزعها الكلب في البداية وحدجت الشيخ ـ الذي جلس في المدخل يقرأ بعض التسابيح الصباحية ويتمتّع بزحف ضوء النهار على قمم التلال الرملية الجنوبية ـ بنظرة متسائلة فطمأنها إلى وداعة الحيوان بإشارة من رأسه. وقبل أن تنصرف قال لها محاذراً أن ينظر في عينيها:

ـ لا شك أنه جائع. يلزم بعض اللحم.

تذكر ندرة اللحم فاستدرك قائلاً:

ـ أو العظام.

ثم صمت وتردد قبل أن يضيف:

ـ الحق أنني لا أعرف طعام الكلاب تماماً. أنت أدرى بطعام الكلاب!

رأى في عينيها إحتجاجاً خفياً لم تجرؤ أن تعلن عنه كأن معرفة طعام الكلاب تهمة تريد أن تنفيها فأدرك أن هذا الكلب ورطة عليه أن يتحملها فقال يخاطب العجوز كأنه يقدم مبرراً لوجود الكلب:

ـ إنه ضالّ. اقتفى أثري أمس من عين الكرمة حتى «بيت» مهمدو. ثم اصطحبني في طريق العودة أيضاً.

صبّ الشاي في الكوب الصغير وأضاف مبرئاً نفسه من المسؤولية:

ـ يجب البحث عن صاحبه. وحتى نتمكن من العثور عليه لا بد من سد رمقه ببعض الطعام.

رشف من الشاي وهو يحدج الكلب بنظرة سريعة فقرأ في عينيه تعبيراً ينم عن الارتياح كأنه يوافقه ويباركه فابتسم الشيخ تحت اللثام وابتهجت العجوز وهي ترى الابتسامة في عيني الشيخ.

وبالفعل كلّف الشيخ نفسه مهمة البحث عن صاحب الكلب فأبلغ أمود ومرزوق والزنجية أن يسألوا معارفهْم ويبحثوا عن صاحب الكلب. وبعد انقضاء أسابيع أسفرت نتيجة البحث عن لا شيء فاستسلم الشيخ وأيقن أن الحيوان سقط على رأسه من السماء والقدر هو الذي أرسله له خصيصاً كي تجد باتا مادة أخرى للتشنيع به تعد أغنى وأثمن من الحمير الذين سبق وأن عيّرته بهم.

وكما توقع فإن باتا لم تفوّت هذه الفرصة. فتلقفت الخبر من فورها وصاغته على طريقتها. سمع الشيخ همساً يدور على لسان مبروكة في السانية أن الشيخ باع آخر جماله الرشيقة كي يشتري هذا الكلب الأجرب بثمن غال جداً. وضعت باتا سعراً خيالياً كثمن له حتى أن جمله النادر الرشيق المدرب على الرقص والقتال وقطع المسافات لم يستطع أن يغطي ثمن هذا الكلب المسعور. انتشرت هذه الشائعات الساخرة حتى أن غوما ذهب من فوره الى نخلته الطويلة الهيفاء بجوار العين وغرق هناك في الضحك حتى وقت متأخر من القيلولة. وقد توقف عند بعض التفاصيل والأوصاف مثل نعتها للكلب بأوصاف مختلفة كـ«المسعور» أو «الأجرب» أو «الشرس». وطاف بخياله أيضاً فتذكر الصفات النبيلة الرائعة التي ألصقتها بالمهري المباع كي تحقق التناقض المطلوب. صاغت أجمل القصائد كمرثية للجمل المفقود الذي كان مفخرة للقبيلة كلها على حد تعبيرها الشيطاني. شعر يومها بالإعجاب بشخصية هذه المرأة وقدرتها على إدارة المعارك وقال في نفسه أن موهبتها في التكتيك وبراعتها في المناورة تؤهلها لكسب أشرس المعارك في أي حرب لو قامت باستغلال عبقريتها في هذا الاتجاه.

أمّا مهمدو فعلّق فيما بعد على قصة الكلب مازحاً: «مرحى يا شيخنا. لا شك أن هذا الكلب من سلالة ذلك الكلب الأسطوري الذي ساهم في تضليل الغزاة وتأسيس الواحة. عليك أن تفخر به يا شيخ غوما!».

أرخى الشيخ من لثامه يومها وأزاحه عن فمه كي يرشف الشاي وقال:

ـ باتا تبالغ في تعداد محاسن المهري الذي تزعم أنني بعته كي أدفع ثمن الكلب!

فغرق مهمدو في الضحك قبل أن يقول:

ـ إنها سفيهة حقاً. لقد اتفقنا على ذلك!

ـ نعم سفيهة. هل تعلم أنها ألّفت قصيدة في هذا الشأن بمساعدة بعض شويعرات القبيلة؟

ثم أسمع العرّاف بعض الأبيات التي سمعها بدوره من مبروكة وحفظها فوراً فعاد مهمدو يغرق في الضحك.

قال غوما:

ـ الحق أنني ضحكت أيضاً. ذهبت إلى النخلة وقضيت قيلولتي في نوبة من الضحكات التي لا تليق.

استمرّ مهمدو في ضحكه المتقطع ثم قال وهو يستغفر الله:

ـ حقاً ما يقال: شر البلية ما يضحك.

ـ الشيخ آهر حدثني فقال ان القصيدة على كل لسان.

في تلك اللحظة وقف الكلب أمام المغارة وهو يهز ذيله يميناً ويساراً تعبيراً عن الشوق وتحية لصاحبه الجديد.

بدأ غوما يفهم هذا الحيوان برغم قساوة تجاربه السابقة مع الكلاب.

التفت مهمدو نحو الكلب في حين استمرّ غوما في الشكوى:

ـ بعض الأبيات لها وقع السياط.

ـ هذا بسبب الكبرياء. لماذا لا تعامل القصيدة على أنها دعابة؟

احتج غوما:

ـ دعابة؟ أنت لم تجرّب الهجاء. إنه يثير إذا لجأ صاحبه إلى الغش وألصق بك عيوباً مختلقة. هذا ليس بعدل!

استمرت الابتسامة مرسومة على شفتي العجوز. زحف نحو الموقد وكوّم فيه أعواد الحطب استعداداً لتحضير كأس من الشاي. قال يهدىء صديقه:

ـ لو كنت مكانك لعاملت الأمر كلّه على أنه دعابة. ربما دعابة ثقيلة الظل

طالما أتت من امرأة سفيهة مثل باتا.

كان يفكر في تلك اللحظة أن هذا الرجل العظيم الذي يتربع أمامه الآن وتهابه الصحراء الكبرى كلها يخبىء في أعماقه طفلاً حقيقياً. ومضى مهمدو في تفكيره فقال لنفسه: «كل الرجال العظام يخبئون في أعماقهم أطفالاً. هذه ظاهرة عامة على ما يبدو». أما الشيخ فتبادل نظرة خاطفة مع الكلب الذي جثا أمامه وطفق يراقبه بعينيه الوديعتين.

قال بعد فترة صمت:

ـ الحق أنني أردت أن استشيرك في أمر آخر.

رمقه مهمدو بنظرة مستفهمة ولكن غوما الذي خطط مسبقاً كي لا تلتقي نظراتهما كان ينكفىء ببصره فوق مربعات يرسمها بأصابعه أمامه على الأرض.

استمرّ قائلاً:

ـ أمر السانية يزيدني حيرة كل يوم. اشتريت الحمار الثالث ودفعت دم قلبي ولكن النتائج بائسة والمحاصيل تتضاءل يوماً عن يوم بدل أن تعوّض الخسائر وترد الأموال المدفوعة عكس السواني المجاورة التي رأيت بنفسي ضآلة ما استهلكته من أموال بالمقارنة مع سخائي في الإنفاق. أمّا محاصيل هذه السواني فسخيّة وتدر أرباحاً فهل يرجع الأمر إلى خصوبة الأرض أم إلى الجهد المدفوع أم في تنظيم العمل أم في شيء آخر لا أعلمه؟

تريث مهمدو قبل أن يقول:

ـ ربما في هذه الأشياء مجتمعة. وربما في سرّ آخر لا نعلمه كلانا. وربما كان الأمر أبسط من كل هذه الأشياء.

ـ الحق أنني لم أبخل بشيء، ولهذا فإن النتائج تصدمني في كل موسم، مع نهاية جمع المحاصيل حتى أن الخسائر تدفعني للتفكير جدياً في التخلص من المشروع.

كان يعرف أن مهمدو يسلط عليه في تلك اللحظة، نظرته الكابية فتحاشى غوما أن يرفع رأسه حتى لا تلتقي نظراتهما فيعرف العرّاف ما يدور في سرّه.

ساد الصمت.

في النهاية قال مهمدو وهو يباشر خلط الدور الأول من الشاي:

ـ أنا أرى أن تتريث قليلاً. فرصة الانسحاب دائماً في يدك. ولكن الرجولة في الصمود حتى في مثل هذه المواقف. أنت تعرف..

لم يعلّق غوما فأضاف العرّاف وهو يقدّم له الكأس المتوج بعمامة صغيرة من

الرغوة:

ـ أمهلني بعض الوقت ما دمت تطلب استشارتي.

في تلك اللحظة رفع الكلب رأسه وتثاءب بحركة استعراضية!

(٢)

لم تمر عودة باتا ونزولها للحياة في الواحة دون مغامرات بل وحتى فضائح.

وإذا كان أهل القبيلة قد تعودوا على مزاجها اللعوب وعشقها للمغامرات فإن أهالي الواحة ما لبثوا أن صعقوا بسبب تصرفاتها المثيرة خاصة وأن رتابة حياتهم كفيلة بتحويل أدنى حادثة إلى حدث تستقبله الأفواه وتردده الألسن ويمضغه الكبار والصغار. فوقع في غرامها فلاّح شقي طيّر جمالها عقله حتى حوّله هيامه بها إلى «عبد يداس بالأقدام» كما عبّر أحد خبثاء الواحة تعليقاً على هذه القصة التي جرت أحداثها بعد عودة باتا مباشرة من منفاها إلى أغاديس فتسلّى بها الناس وقتلت الفراغ.

ولم يكن غريباً أن يتخذ الأهالي من القصة وسيلة لطرد الملل والترويح إلى حد بلوغها ذلك المنعطف الذي حورها إلى وجهة أخرى وخلق منها قصة مأساوية رثى فيها الناس لحال الفلاّح المسكين وتوقفوا عن إطلاق عبارات السخرية. تدخل القدر ورحمه الله فأنقذه من بطش باتا وعذاب لذعات ألسنة الأهالي!

وإذا كانت الواحة ارتاعت للمأساة التي انتهت إليها القصة فإن باتا التي تعودت أن تدفع الرجال إلى الهلاك لم تر في الأمر سوى دليل آخر أكّد لها محافظتها على جمالها وسلطتها وسحرها الذي يفوق سحر مهمدو على حد تعبير الأهالي. وجمالها الشيطاني هذا، المعروف في ربوع القبيلة، ما لبث أن أسكر شباب الواحة وذهب بعقولهم. وهو أمر متوقع بالنسبة لمن لا يعرف أن باتا تخبىء وراء هذا الجمال الشيطان الرجيم نفسه. وهو نفس الجمال الذي أودى بحياة الكثيرين في السابق ويخشى غوما أن يكون سببا في هلاك حفيده بعد أن استطاع هو أن يغالب نفسه في ذلك الزمان البعيد ويروضها ويجبرها على هجر باتا فأنقذها مبكرا، وهو ما لم تغفره له حتى اليوم.

أما الفلاّح فساقه حظه إلى طريقها وهام بها، على طريقة الحكايات القديمة، من أول نظرة عندما رآها لأول مرة بصحبة طائفة من نساء القبيلة اللائي تعودن التسكع بين الحقول بحثا عن البرسيم الأخضر لأغنامهن. فتجولن في عشية ذلك اليوم في المزارع الغربية حتى مالت الشمس نحو الغروب ومللن التنقل بين المزارع وكدن ييأسن من الحصول على البرسيم عندما فوجئن بشاب طويل القامة مفتول

العضلات، عريض المنكبين يطلع لهن فجأة كالعفريت من بين الأحراش فأفزعهن حتى أن باتا امتقع وجهها وابتلع قناع الشحوب جمالها للحظات فوقفت تبصق على صدرها. أمّا الفلاح فوقف في مواجهتهن وطفق يبتلع باتا بعينيه في بلاهة فاغراً فمه الذي تطوف حوله سحب الذبابات، ويبدو أن جمال المرأة أذهله فغفل عن الاعتذار وعجز عن الكلام وظل مسمّراً في مكانه حتى أيقظته احدى النساء من غفوته بأن ألقت في وجهه بعرف نخلة كان في يدها وهي تسب وتلعن.

رأى الفلاح الأبله أن أفضل وسيلة لشد انتباه باتا وإثارة إعجابها وإجبارها على أن تبادله نفس مشاعر الحب من أول نظرة هي هذه الحركات البهلوانية التي قام بتنفيذها بحماس: فأحاط رجليه حول رقبته ومشى على يديه مسافة قصيرة، ثم صار يقفز حول بركة قذرة تتوسط الأحراش.

أدركت باتا بحدسها الأنثوي أن الشاب هام بها فقررت أن تجرب عليه سلطانها وتسخّره لخدمتها. ولتنفيذ ذلك رأت أن تسخر منه قليلاً فطلبت أن يعيد القفز حول ذلك المستنقع الفظيع الذي اخضرّ بسبب كثافة الأوساخ وانبعثت منه الروائح الكريهة فنفّذ الفلاح طلبها بسعادة. ويبدو أن غبطته بطلبها كانت كبيرة فعمد الى تكرار هذا المشهد عدة مرّات حتى خذلته مهارته عند تأدية احدى القفزات فسقط داخل البركة.

غرقت النسوة في الضحك ولذعنه بعبارات السخرية ورددت إحداهن المثل: «ما كل مرة تسلم الجرّة» أكثر من مرة. أما الشاب فزحف إلى رمال الشاطىء وتقيأ في الأحراش الكثيفة واغتسل في مياه الساقية المجاورة وعاد لمجمع النساء وأبدى استعداده لأن يحصد لهن كمية من البرسيم. فبدأ عمله مع الغروب بحماس حتى استطاع أن يجمع كومة كبيرة قسّمها إلى حزم ربطها بعناية وأعدّ لكل واحدة منهن حزمة. ولم يكتف المسكين بذلك بل تطوّع لحمل البرسيم على حمارته إلى بيوتهن في حي أكواخ الجريد فأثنت النساء على طيبته وكرمه وتبادلن الغمزات خفية. تحت ضوء القمر الساطع. وترجمن بعيونهن ما يفيد بأن الفضل لا يرجع لطيبته بقدر ما يرجع لجمال باتا الذي تنافست نساء القبيلة. فيما بعد. في استغلاله فيتنازعن فيما بينهن كل مرة لاختيار مرافقاتها لغزو الغابة وجلب البرسيم حتى توصلن في النهاية إلى اتفاق يقضي بالتناوب في مرافقتها.

والاحتكام إلى هذا الاسلوب من قبل نساء القبيلة لم يقتصر على هذا الفلاّح فقط بل ان الدعوة لباتا كي تقوم بمرافقتهن لتأدية الجولة التقليدية لجلب البرسيم

قد شملت بقية الحقول بعد اكتشاف مواهب باتا وسلطتها على قلوب الفلاحين. أما عارف ـ الفلاّح المسكين ـ فقد استولت عليه باتا واحتكرته تماماً إلى جانب ما يملكه من برسيم في المزارع فأصبح يشاهد مساء كل يوم يجلس على حمارته بين حزمتين كبيرتين من البرسيم اللتين يجلبهما بنفسه إلى بيتها.

ولهذا فإن باتا أمّنت البرسيم وانتهت من مشكلة التجوال اليومي بين الحقول لتتسوّل ربطة بائسة من هذا الفلاح أو حزمة صغيرة يجود بها ذاك، فأصبحت الآن ترافق النسوة من باب التسلية.

باشرت باتا استغلال عارف في أغراضها الأخرى بعد أن انتهت من مشكلة البرسيم فأوكلت إليه جلب الحطب من السهول الجنوبية البعيدة فأسرع يلبي الأمر ويشدّ الرحال على حمارته ـ بمعدل مرة أو مرتين في الأسبوع ـ إلى الخلاء الرملي الذي ما لبث أن قصم ظهر دابته وأودى بها إلى الهلاك. فلم يستطع عقله أن يستوعب حقيقة بسيطة يدركها حتى أطفال أهل الصحراء، وهي أن الحمير لم تخلق لمغادرة الواحات، وإجبارها على التنقل في الصحارى الرملية سيؤدي إلى أن تفطس في منتصف الطريق لأن حوافرها تختلف عن خف الجمل المفلطح فتغرق في الرمال الرخوة وتهلك فأضاف الفلاّح بجهله بطبيعة الصحراء نادرة أخرى أضيفت إلى « نوادره » الكثيرة. هذه الحادثة تلقفتها النساء لتجعل منها مادة جديدة للقيل والقال الدال على غباء الفلاحين. ولكن باتا لم تعبأ بمصيبة عارف في فقدان حمارته الوحيدة وقالت انها لا تنوي التنازل عن « حقها » في أن يأتي لأغنامها بالبرسيم، فاضطر المسكين أن يدرّب نفسه على حمل الأثقال ويقطع المسافة الفاصلة بين الغابة الغربية والأكواخ مشياً على الأقدام حاملاً فوق ظهره حزمة كبيرة وأحياناً حزمتين.

مضت باتا إلى أبعد في استعباد الرجل فدفعته إلى أن يستولي لها على البرسيم من الحقول المجاورة بعد أن أتت أغنامها النهمة على آخر نبتة في سانيته. باتا ـ المستعدّة لأن تقفز إلى الجحيم في سبيل تحقيق أهدافها ـ دفعت بعارف إلى السرقة! فجاءت أمه إلى باتا في احدى الأمسيات شاكية واستحلفتها بالرسل والأولياء أن تكف عن اللعب بابنها اليتيم الأب وتدعه في حال سبيله. وقالت أيضاً انه كان شغوفاً بعمله دؤوباً على الاعتناء بحقله ونخيله حتى اعترضت باتا سبيله فضلّ الطريق وأصبح أضحوكة الناس وقضى على حمارته الوحيدة وأطعم كل برسيمه لأغنامها وها هو يضطر ـ يا للهول ـ إلى مدّ يده والاختلاس من جداول جيرانه. ثم ارتمت فجأة تحت قدمي باتا وتوسلت إليها أن تبتعد عن طريقه. ولكن

باتا استنكرت هذه التهم ونفت أن تكون قد أجبرت عارف على أعماله. قالت انه تطوع للقيام بكل ما قام به مساعدة منه لامرأة وحيدة لا حول لها ولا قوة (حسب تعبيرها الحرفي الذي يروق لها أن تردده كثيراً) بدافع من طيبة قلبه ورغبة منه في الخير. وعندما واجهتها الأم بالآمال التي يعقدها عارف على الزواج منها اشتعلت باتا بالغضب وصبت اللعنات على رأس الزائرة المسكينة وقالت ان الرجال لم ينقطعوا من الوجود حتى تفكر في الارتباط بفلاح وهي المرأة المعروفة بأصولها في كل الصحراء.

ويقال ان النقاش في تلك الأمسية تطوّر وأدّى إلى العراك بالأيدي. ولكن أم عارف لم تستسلم فذهبت في اليوم التالي إلى الشيخ غوما وقصت عليه كل شيء، ورجته أن يتدخل ويعيد لها ابنها الذي خطفت باتا عقله ودفعته الى السرقة. ويقال ان الشيخ صمت طويلاً يومها ثم أحكم لثامه على أنفه وقال لها: «من عاداتنا ألاّ نتدخل نحن الرجال في منازعات النساء، وباتا شيطان رجيم سوف يتخلص ابنك من تأثيره حالما يعلم ذلك ويعود إليه عقله».

وفي رواية أخرى غير مؤكدة أن غوما قال لها أيضاً: «حفيدي نفسه قد رهن روحه لها. كان يمكن تدبر الأمر بسهولة لو لم تكن باتا امرأة!». وفي رواية ثالثة غير مؤكدة أيضاً أنه ختم كلامه قائلاً: «إعلمي إننا نحن معشر الشيوخ لم نخلق لفض هذا النوع من المنازعات، ولو تورطنا في مثل هذه الأمور فإننا لن نتمكن لا من فض النزاعات ولا من تسيير أمور القبيلة».

ولكن أم عارف لم تكتف بالشكوى للشيخ غوما بل ذهبت إلى الشيخ عبد الجليل الجاروف الذي فاتح بدوره الشيخ غوما بالأمر من جديد فانفجر في وجه الجاروف وقال له أنه ملّ مؤامرات النساء وليس لديه فراغ ينفقه في صراعاتهن التي لا تنتهي واقترح عليه إحالة الأمر على قاضي الواحة وتردد أيضاً أنه همس في أذنه بلهجة ذات معنى: « .. وسأكون شاكراً له ولك إذا حكم على باتا بعقوبة الجلد كما كان يحكم القائمقام العثماني في هذه الديار في الزمان الماضي».

بعدها بأيام جاء عارف إلى بيت باتا وتجاسر لأول مرة أن يعلن عن رغبته في الزواج ويبدو أن أمّه استفزته بعد الحديث العاصف الذي أعقبه ذلك الشجار. وبالطبع فإن باتا وبخته على الوقاحة وبادرت إلى طرده.

هام الفلاح على وجهه في الغابة أياماً بل وأسابيع، اقتات البرسيم واقتسم حبّات تمر الموسم الماضي مع الدود والآفات ثم عاد يحوم حول بيت باتا مع حلول كل مساء. وقد وجدته في إحدى الليالي نائماً في الزريبة بين الأغنام فطردته

بهراوة كانت تحتفظ بها في الكوخ فرآها شهود تلاحقه في الخلاء المجاور بالهراوة وهو يعدو أمامها كالكلب الضال! ولكنه ما لبث أن عاد إلى الزريبة بعد يومين مما اضطر المرأة أن تبتاع كلباً شرساً في طول بغل ربطته إلى وتد دقته في العراء الممتد بين الكوخ والزريبة وتعمّدت أن تترك الحبل طويلاً حتى يتمكن الحيوان المفترس من التنقل والمناورة. وبالفعل أدّى الكلب مهمته في الليلة التالية. ففاجأ عارف وهو يتمسح بالكوخ ونهش عجيزته بوحشية. ولكن باتا شلّت لسانها الدهشة وهي ترى أمامها عارف وعيناه تلمعان بالعنف والجنون عندما اقتحم عليها البيت عند العشاء فارتمى تحت قدميها وبكى بصوت مسموع وقال لها أنه قرر أن يكتفي بخدمتها لأن مجرد وجوده الى جانبها هو أكبر هدية تقدمها له، ووعدها أن يقلع عن التفكير في الزواج. حمدت الله في سرّها على أن هذا الجنون ليس جنون القتل أو الإنتقام ولكنه جنون الشوق فسايسته ولاطفته حتى ذهب إلى بيته على أن يعود في الغد. والحق أنها كانت طوال حوارها معه تواقة لمعرفة السرّ الذي أسكت الكلب ومنعه حتى من مجرد النباح، فاكتشفت أن الفلاّح الخبيث قد رشى الكلب بقطعة كبيرة من اللحم المجفف. حاولت أن توبخه فاعتدى عليها وعضها في رجلها عند الرسغ فلزمت الفراش خمسة أيام تطبب جرحها بالمراهم ومستحضرات الأعشاب البرية. فاتحت جاراتها بغرابة طباع الكلب الذي تخلّى عنها وطلبت تفسيراً لهذا التصرف من ذوي الخبرة في أخلاق الكلاب. تسقطت إحدى صديقاتها هذه الأسباب وجاءتها في إحدى الليالي لقضاء السهرة وهمست لها أن الكثيرين يؤكدون أن الكلب يفعل ذلك عندما يصاب بمرض قاتل إسمه: السعار! وهو مرض خطير يدفع الإنسان إلى الجنون.

وتحت تأثير الفزع نهضت باتا عند الفجر وسمّمت الكلب الشرس بقطعة لحم مجففة دسّت فيها قطرة من سم أهالي أغاديس المشهور بفعاليته! وبالفعل وجدت أن الكلب الخائن قد نفق في الصباح. فوقفت تتأمل جسمه الضخم المنفوش ـ الذي ساهمت شمس الصيف في تعجيل تحلله ـ بنظرة لا تخلو من التشفي. ثم جرجرته من ذيله وألقت به في مقبرة القاذورات المجاورة.

في مقبرة الأوساخ قابلت جارتها. سدّت السيدة أنفها أيضاً ووجهت إلى باتا سؤالاً ماكراً عما ستفعله الآن بعد غياب حارسها الأمين فأجابتها باتا بكل جرأة أنها سوف تقيم عندها إلى حين يقضي الله أمراً لأنها لم تعد تطيق مضايقات هذا الفلاّح الأبله!

أسفر ذلك الحوار القصير بجوار كوم القاذورات عن انتقال باتا للإقامة في

بيت جارتها فأيقن عارف أن معشوقته ضحكت عليه وأنه وقع في حب غول يختبىء وراء قناع من البهاء فطاف بين الأكواخ يناجي النجوم في الليل ويحدث نفسه بصوت مسموع. أما في النهار فيلجأ للإختفاء في أحراش الغابة. وتناقل أكثر من لسان أنه لا يتوقف حتى هناك عن التحدث مع نفسه بل إنه اعتاد أن يصدر أصواتاً منكرة كأن يقلّد نهيق الحمير أو نباح الكلاب أو مواء القطط وأحياناً صياح الديكة، وقال آخرون أنهم شاهدوه وهو يقلّد هذه الحيوانات ليس في أصواتها فقط ولكن في مشيها أيضاً فوجدوه يقفز على رجليه ويديه معاً ولسانه يتدلّى من فمه كما يفعل الكلب أثناء اشتداد الحرّ. أما عيناه فتقدحان جنوناً حقيقياً. استمر هذا الحال عدة أسابيع قبل أن يجدوا المسكين غارقاً في بركة من الدماء بجوار كوخ باتا بعد أن قطع شرايين يديه ورجليه معاً.

أما الأم المسكينة فقد جاءت بعد إنتهاء مراسم الدفن إلى باتا ووقفت خارج الكوخ ورفعت يديها الى السماء وطلبت من الله أن يعجل بحرق قلب باتا كما حرقت قلبها وقرأت أدعية كثيرة معقدة موجهة إلى مختلف الأنبياء والأولياء كي يتدخلوا لإنصافها. ثم توجهت إلى ضريح سيدي الشنقيطي وقرأت تسابيح حفظتها بمساعدة أحد الفقهاء وتمتمت بالدعاء الانتقامي وعادت إلى كوخها في الغابة ومكثت هناك قرابة شهر ونصف. لملمت أمتعتها وغادرت الواحة نهائياً إلى «برقن» للإقامة لدى أقارب لها هناك.

أمّا باتا التي عادت بهدوء إلى كوخها فقد أغفت في القيلولة وخرجت مع العصر برفقة جارتها الى الغابة كي تحطم مزيداً من قلوب الفلاحين وتأتي لأغنامها بربطة من البرسيم الطازج!.

(٣)

برغم أن التمور نضجت وموعد الخريف قد حلّ إلاّ أن الحرّ لم يتزحزح هذا العام. بل إن موجة عنيدة من جحيم القبلي[١٥] هبت على الواحة عاقدة العزم على الإستقرار في المنخفض، كما طاب للبعض أن يصفها.

ولكن الحرّ دخل أسبوعه الثالث.

وأغرب ما في حرّ ذلك العام أن درجة الحرارة لا تختلف في الليل عنها في النهار. إذ تعوّد سكان الواحات أن يتنفسوا الصعداء ويأتي الفرج في الليل دائماً مهما كان الحر قاتلاً أثناء النهار. ولكن الحرّ كشف عن طبيعة غريبة لم يألفها أهل الواحة من قبل فوقف شرساً في هجومه بالليل بنفس القوة التي عذّب بها الناس في النهار.

كل شيء يحترق ويغلي. عجز الأهالي عن تبادل التحية وتراجعوا عن تلك العادة التي تجعلهم يتساءلون: «كيف الحال؟ كيف الصحة؟ كيف حال الأطفال؟ كيف حال الأهل؟ الخ.». ويحدث أحياناً أن يتكلم الطرفان في وقت واحد ويلتحمان في حوار لا أحد يسمع فيه أحداً. وغالباً ما يسفر هذا الحوار عن هزيمة كلا الطرفين، فيمل أحدهما ويستدير ويمضي في سبيله دون أن يعرف عما إذا كانت أحوال صديقه أو جاره على ما يرام فعلاً أم أن ثمة مرضاً ألم به أو بأحد أفراد أسرته. والمدهش أنه لم يحدث أبداً أن عرف أحد ما من الطرف الآخر شيئاً عن أحواله الحقيقية. فإذا ألمت به مصيبة فإنه لا يكشف عنها عادة في هذه التحية، فتسأله عن ابنه المريض فيقول: «الحمد لله. لا بأس» فتودعه وتمضي إلى السوق وهناك تفاجأ بأن ابنه المريض الذي سألته عن حالته الصحية وأجابك بـ«الحمد لله. لا بأس» قد انتقل الى دار الآخرة. وإجابته لا علاقة لها بمرض الطفل، وإنما لتنفيذ المجاملة والمراسم.

حتى «عمّي عبد السلام» المشهور بعشقه للسلام أربكه الحرّ وأعجزه عن تلحين التحية. حتى أن الصبية تندروا كثيراً بذلك الرهان الذي جرى بين آيس وزميله فضل الله منذ شهور بشأن سلام عمي عبد السلام. فقد أصرّ آيس أمام مجموعة من زملائه أنه لاحظ أن لا أحد يستطيع أن يتفوّق على العم عبد السلام في التحيّة. وهنا قفز فضل الله وقال انه على استعداد لأن يراهن ويهزم العم عبد السلام. دفع كلاهما خمسة قروش لزميل ثالث لهما واتفقا أن يسارع بشراء الحلوى من الدكّان بنقود الطرف المهزوم فور علمه بالنتيجة. تجمعوا في الساحة وانتظروا مرور العم عبد السلام محاذرين أن يقتربوا من الطريق حتى لا يثيروا الشبهات. ولم يكد العم عبد السلام يقترب وهو في طريقه الى الجامع حتى تحرّك فضل الله لإستقباله متظاهراً بالذهاب إلى المدرسة. تلقف العم عبد السلام يد فضل الله وتدفق بالتساؤلات عن حياته وحياة عائلته وجدّه وعماته وخالاته وأقاربه القريبين والبعيدين المتواجدين في الواحة أو الغائبين في الواحات الأخرى ثم عرّج على الجيران فأمطره بالأسئلة عن أحوالهم وصحتهم ومعيشتهم وطبيعة الأمراض التي أصيبوا بها في الآونة الأخيرة. ولا يكاد فضل الله المسكين يجيب عن تساؤل حتى يجد أمامه سؤالاً آخر تحتاج الإجابة عنه إلى إعداد والتأكد من معلومات نسيها. يجيبه عن السؤال الخاص بأمراض الجيران فيقول انهم تعرضوا للزكام والحمّى فيسارع العم عبد السلام يصدّق على كلامه قائلاً: «الزكام. الحمّى. نعم إنها أوبئة منتشرة في الأيام الأخيرة. الخبراء يتوقعون مزيداً من الأوبئة هذا العام.

أخبرهم أن يحرصوا على الطفل الصغير. الوباء القادم يشكل خطراً على الأطفال. الداء يصيب الرئة».. شعر فضل الله بالدوار فهرب ليستقبله الزملاء بعاصفة من الضحك.

جاء الحرّ لكي ينزع منه هذا السلاح.

أمّا الشيخ غوما فلم يستسلم لضغوط الحرّ واستمرّ في تنفيذ مشواره التقليدي فيقطع المسافة من البيت إلى السانية ومن هناك يتجه صوب صومعة مهمدو وقد يعرّج في طريقه على نخلته الهيفاء فيقضي القيلولة وقد يتوجه مباشرة إلى المرتفع لزيارة العرّاف ويستنشق الهواء الذي همد في الواحة نهائياً مع إقبال موجة الحرّ فأصيب الكثيرون بالإختناق. أما أولئك الذين يعانون من داء الربو وضيق التنفس فإنهم عانوا من حالات الاغماء فأصبح استمرار الحرّ وسكون الهواء يهدد حياتهم. فاتح الشيخ غوما مهمدو بقلقه إزاء استمرار هذا «البلاء» . ولمح إلى أن حلول الحرّ مع الخريف واختياره لموعد يلي موسمه المعتاد يكشف عن طبيعة خفية لها علاقة بالغيب. ويبدو أن العراف فهمه على الفور فنظر اليه نظرة غامضة ثم ابتسم وهو يتمتم «سوف نرى. إذا ثبت ذلك فإنني سأحاول أن أفعل شيئاً».

أما الشيخ فتوجه إلى البيت مع المساء قاطعاً المسافة التي تشكل الضلع الأخير من مثلث رحلته اليومية وقضى الليل كله ساهراً يسبح في العرق ويتنفس بصعوبة. يمروح على وجهه كي يتحايل على الطبيعة ويحرّك الهواء الراكد. أحسّ في تلك الليلة بلسعات الحرّ التي حوّلت جسده إلى بساط من الجمر فنهض وانهمك في رش جسمه وملابسه بالماء الذي يتصاعد منه البخار. ساعدت الملابس المبتلة على تحمّل الجحيم في البداية ولكن لم يلبث مفعولها أن تضاءل وتراجع بمرور الوقت فحرقت الجلد بالنار.

استمرّ يعاند الحرّ ويتحايل على سكون الهواء كل ليلة. وحتى إذا حدث واستطاع أن يغفو فإن نومه ظلّ متقطعاً، قلقاً، يتنفض بمجرد أن يهاجمه الخدر ويسلّم أمره للنوم، وإذا كانت خيوط العرق، في أيام الحر العادية، تنساب على جسمه برفق كأنها تربت عليه بحنو فإن هذه الخيوط أصبحت تستفز وتخز أو تحفر عليه أخاديد فيقفز من فراشه كالملدوغ ويدور حول الخيمة عدة مرات وهو يحاول أن يلتقط نسمة هواء. فاضطر أن يغادر البيت مع الظلام متوجهاً لتفقد السانية قبل أن تفيق الزنجية ودون أن ينتظر شاي الصباح. في تلك الفترة اشتد المرض على ابن مرزوق وإزدادت نوبات الصرع فأثر ذلك على مرزوق وأربك مواعيد سحب المياه من البئر. إذ أجبره السهر على الطفل أن يتأخر في القيام

مبكراً. وجد له غوما المبرر وأبدى نحوه تعاطفاً لم يحاول الشيخ أن يخفيه بأسئلته عن حال الطفل واستفساراته عن صحته، ومضى إلى أبعد من ذلك فأخذ على عاتقه مهمة المرور على بيت أمود عند الفجر ليوقظه من النوم «ويجبره» على مرافقته إلى السانية إلى حين استيقاظ مرزوق وانضمامه اليهما.

أما مرزوق فلم يكف عن الشكوى من الحرّ منذ الأيام الأولى. بل انه صعّد من هذه الشكوى حتى أصبح يتفوه بشتائم لا يجوز أن توجه إلى طبيعة الله لما في ذلك من بوادر زندقة. وبالطبع فإن غوما عزى هذه الحماقات إلى حرص الرجل على صحة ابنه المريض التي ساهم الحر في تدهورها.

ولم يمنع الشيخ نفسه من الابتسام وهو يستمع إلى حوار أمود ومرزوق في الطرف الآخر من السانية المجاور للسور عندما قال أمود ان الفقهاء يحذرون من توجيه السباب الى الطقس لأنهم يعتبرون أن سباباً من هذا النوع موجه مباشرة إلى الذات الإلهية وإذا تجاسر عبد ولعن مناخه فإنه لا يلبث أن يدخل في الكفر من أوسع باب. ولكن مرزوق اعترض على حكم الفقيه القاسي قائلاً ان اللّه يعذب عباده مرة واحدة في اليوم الآخر عندما تحل ساعة الحساب أمّا أن يرسل لهم جهنماً في الدنيا ويلقي بهم في جهنم أخرى في اليوم الآخر فإن هذا ظلم لن تسمح به عدالته. ودعّم مرزوق وجهة نظره بآية قرآنية لم يتبينها الشيخ جيّداً. فسارع أمود يسند رأيه إلى الفقيه الجوّال الذي نزل الواحة في السنوات الأخيرة ويدعى مبروك دبّار فأحنى مرزوق رأسه وامتنع عن التعليق.

الفقيه مبروك دبّار يتمتع بإحترام عدد غير قليل من الفلاحين ومرزوق على رأسهم. ويبدو أن أمود علم بذلك بطريقة ما فقرر أن يلجأ إلى هذه الحيلة الخبيثة كي يسكت مرزوق ويضع حدّاً للنقاش.

وبرغم الحزن الذي سيطر على مرزوق طوال تلك الأيام وبرغم الكآبة التي عانى منها الجميع بسبب الجحيم إلا أن مداعبات أمود لمرزوق تواصلت. ولم يفت أمود أن يستغل موجة الحر لينسج دعابة جديدة: فتراهن مع مرزوق قائلاً انه قادر أن يطبق المثل القائل: «شدّة الرمضاء كفيلة بإنضاج بيضة». فأثار سخرية مرزوق، فأخرج أمود من جيبه ورقة من فئة الجنيه وسلمها لمبروكة قائلاً: «جنيه بجنيه. هذا جنيهي فأخرج جنيهك» ذهب مرزوق الى الكوخ صامتاً وعاد بورقة الجنيه. دسّها في يد زوجته ومسح العرق بكم قميصه وشرب الماء من القلّة في جرعات كبيرة متتالية وقال يخاطب أمود الذي وقف يستجير من الشمس بظل نخلة كثيفة: «أرني الآن كيف ستسلق لنا البيض في الرمضاء؟ أريد أن أتعشى

بالبيض المسلوق الليلة » واغتصب إبتسامة حزينة فانطلق أمود فوراً إلى زريبة الدجاج وعاد بثلاث بيضات دفنها في الرملة المجاورة وعاد لظلال الشجرة راكضاً وهو يمسح العرق. جلس في مواجهة مرزوق مقترحاً أن يأتيه بأدوات الشاي.

وقد حمد الشيخ غوما ـ الذي اضطجع تحت نخلة أخرى قريبة يسترق السمع لحوارهما ويتسلّى ـ حمد الله أن أمود أبدى استعداده لتحضير الشاي فأنقذ مشروبه المفضل من يدي مرزوق.

انتصف النهار.

استوت الشمس على العرش واستمرت تصلي الواحة بالنار التي أصرّ أمود أنه يراها بالعين المجردة. كان السراب يتسكع كألسنة حقيقية من اللهب فعلّق أمود وهو يمد لسانه من خلف اللثّام: « السراب يتبختر كالحسناء! » ضحك بصعوبة ومسح العرق واستمرّ يروّض فكرته محاولاً أن يجد لها صيغة شعرية أخرى: « السراب يتمايل كالطاووس! » . صمت وهو يرمق مرزوق الراقد على ظهره على التراب باعثاً بخياشيمه الكبيرة صوتاً منفراً يشبه الأنين.

كتم الشيخ غوما ضحكة حقيقية وهو يستمع إلى تعابير أمود في وصف السراب وقال لنفسه أن الأجدر بأمود أن يؤلف قصيدة. القصائد أقدر على وصف الطبيعة. ولو استغل أمود موهبته في الشعر لرددت حسان القبيلة أشعاره. عزم غوما بينه وبين نفسه أن يسرّب هذا الاقتراح لأمود. ثم أدهشه أنه لم يسخَر موهبة أمود للرد على هجاءات باتا. ابتسم بمرارة وقرر أن يكتم سرّه.

شعر بالسعادة وهو يتناول كأس الشاي الخالي من طربوش الرغوة فبدا لزجاً كزيت الزيتون. رمق أمود بنظرة متسائلة فسارع أمود يبرر فشله: « مرزوق جاءني بماء في وعاء وسخ. رأيت بقع الزيت تسبح فوق الماء. رأيتها بعد طبخ الشاي » . ثم ابتلع لسانه وسكت وهو يرى الامتعاض على وجه الشيخ الذي تذوق الشاي برشفة بصقها في حفرة صغيرة أهال عليها التراب، ثم تردد لحظة قبل أن يدلق الشاي في نفس الحفرة ويعيد الكأس الفارغ إلى أمود. انسحب أمود وهو يردد : « سوف أعدّ شاياً جديداً. سوف أغسل الأوعية بالصابون » .

سمع غوما مرزوق يرفع صوته بضحكة عالية لا تناسب الجو الخانق، فعرف أنه وجد سبباً ملائماً للسخرية.

حان موعد إزاحة التراب عن البيض ومعرفة نتيجة الرهان. جاءت مبروكة بالبيضات الثلاث في طبق مضفور بسعف النخيل مزين بدوائر حمراء من خيوط العهن. وضعت الطبق بينهما ووقفت تنتظر النتيجة. أصاخ الشيخ السمع. مدّ

أمود يده وكسر القشرة برفق.

كانت ناضجة.

ضحك أمود منتصراً وهو ينقر بأطراف أصابعه البيضة الثانية. لم تكن مستوية تماماً. ما زال المحار رخواً فأصرّ مرزوق أن البيضة لم تنضج، فاتفقا أن تقرر البيضة الثالثة مصير الرهان.

البيضة الثالثة متماسكة البياض من الخارج، رخوة المحار من الداخل فاختلف المتراهنان وأقبل مرزوق يحمل كأس الشاي في طبق جميل من النحاس وضعه أمام الشيخ وقال وهو يغرس ركبتيه في التراب في مواجهته: «أمود يدّعي أن القائمقام أيام زمان يفضل أن يأكل البيض رخواً وكذلك كان يفعل الحاكم العسكري الطلياني: فهل هذا صحيح؟ هل رأيت، يا سيدنا الشيخ، من يأكل البيض بهذه الحالة المقززة؟.. هل..».

ولكن السؤال التالي مات على شفتي مرزوق، فجحظت عيناه وبرق فيهما ذلك الحزن الغامض واستمر لحظات يحدّق نحو الشيخ. ثم قفز فجأة وانطلق راكضاً.

لحظتها انبعثت صرخة مبروكة داخل الكوخ فعرف الشيخ أن الطفل قد هاجمته النوبة.

(٤)

في الطريق إلى عين الكرمة حاول أن يحتمي بالأحراش وأشجار النخيل. سفح عرقاً كل ما شربة في ذلك اليوم من ماء فأحس بالعطش وبجفاف في الفم والحلق. شرب من ماء العين مباشرة محاولاً أن يطفىء نارين: نار تتأجج في داخله ونار تشتعل خارجه: في جسمه وملابسه. الماء ساخن جداً. يكاد يفور ويغلي برغم أن الأنهار التي تجري تحت الأرض باردة في العادة ولكن الفرن الخارجي يتولّى أمرها في الحال فيسلط عليها الصهد وأشعة النار. أحس بطعم الحديد يحرق حلقه فأدرك أن حرارة المياه صعّدت من نسبة الحديد وأكسبتها طعم الصديد الذي لا يطاق. شريط الواحات الجنوبية مشهور بمعدن الحديد في الماء مما يدفع ببعض أهالي الشمال للتزود بمياه هذه الواحات لمعالجة المصابين بالأمراض الباطنية.

أجبرته رائحة الماء الكريهة أن يتوقف عن التجرع فاستبدل الشرب برش الماء على أطرافه وملابسه حتى أحس بالرطوبة. همّ بأن ينهض ليواصل طريقه عندما وقف بجواره الكلب وهو يلهث لهاثاً متواصلاً مادّاً لسانه الطويل. عيناه الوديعتان تعبران عن الضيق فعرف غوما أن الكلب يشكو من شدّة الحرّ.

فكر الشيخ لحظات ثم دعا الكلب بحركة من يده وتناول حفنة من الماء بيده

الأخرى. اقترب الكلب فغمره بالماء. انتظر تأثير هذا العمل على الحيوان ولّما رأى في عينيه الارتياح قرر أن يحمّمه في العين فجرّه من رقبته وأغرق نصفه السفلي في الماء وظلّ ممسكاً برقبته بيد مدلّكاً جسم الحيوان باليد الأخرى.

قال الشيخ بصوت مسموع يخاطب الكلب: «آه لو رأتنا باتا بهذه الحال! سوف تسلخ جلدي بقصيدة أشنع من كل القصائد السابقة. لا أعرف أين أختبىء من العار وقتها». صمت الشيخ وراقب الكلب، ولكن الحيوان كان سعيداً.

قال الشيخ: «اقتراحي أن نهاجر معاً. سوف نهرب من العار الذي تخبئه لنا هذه المرأة. ما رأيك؟».

الكلب لم يجب.

اكتفى بأن نفض الماء عن جسمه واقتفى أثر الشيخ الذي توجه نحو نخلته الهيفاء المجاورة للعين.

تبخّرت الرطوبة من الملابس وامتصت الشمس القاسية الماء من الجسم فجلس تحت النخلة وهو يلهث مثل كلبه شاعراً بحرارة القماش تحرق جسده.

التفت نحو الكلب الذي أقعى أمامه على قائمتيه الخلفيتين وقال مداعباً: «لقد قررت أن أنسى تجربتي المريرة مع معشر الكلاب وأدفن الماضي. سأفتح معك صفحة جديدة ونعقد صفقة صداقة».

ابتسمت عينا الكلب فعرف الشيخ أنه يرحب بالفكرة. ابتسم وهو يلتفت شمالاً ويميناً محاذراً أن يسمعه عابر سبيل.

لو سمعوه يخاطب الكلب فسيقولون: «الشيخ غوما جنّ. يتبادل الحديث الآن مع الكلاب الضّالة!». مادة للشائعات. أمّا باتا فسوف تردد في مجلس النساء الصباحي: «هل سمعتن؟ الشيخ غوما فقد عقله تماماً. قيل انه مضى في عزلته شوطاً أبعد وصام عن الكلام مع الناس ليتبادل الأحاديث مع كلبه الأجرب كل يوم تحت نخلته التي اتخذ ظلّها مقرّاً له في الآونة الأخيرة. يقال انه اعتنق دعوة جديدة تدعو للإعتزال. لا شك أن أصابع مهمدو لعبت دوراً. مسكين الشيخ غوما». ويعلم اللّه ما ستجود به قرائحهن الشعرية من قصائد الهجاء.

ابتسم وأسدل لثامه على عينيه وهو يستلقي على ظهره في ظلال النخلة. حاول أن يغفو ولكن حرارة الفرن أبقته معلقا بين النوم واليقظة. تذكر لقاءه بالأمس مع آيس. كان ذلك لقاءهما الأول منذ هجر كوخ الزنجية العجوز ولجأ إلى بيت باتا. كان متجهاً إلى السوق برفقة الشيخ آهر عندما اعترض آيس طريقهما بصحبة زميله في الدراسة فضل اللّه درهوب أثناء عودتهما من المدرسة. في ذلك المكان

ينحرف الطريق بمحاذاة الجبل ويختفي خلف أول جدار من بيوت الواحة الطينية المتلاصقة التي تتعرج الطرقات في أزقتها المظلمة. وهذا ما جعل آيس يكاد يرتطم بالشيخ آهر الذي سار يومها على يساره وفوجىء به ينتصب قبالته بالضبط. الحق أن قلبه أيضاً انتفض وهو يرى ذلك الشاب الطويل اليافع الذي كبر بهذه السرعة. والمفاجأة يومها أربكت الجميع. توقف آيس وتسمّر، وتوقف آهر قبالته أيضاً. أما فضل الله فقد وقف على يمين آيس بجوار الشيخ آهر الذي انتقل ببصره بينهما منتظراً حدوث مفاجأة على ما يبدو، ولكنه فوّت عليهما الفرصة واستمرّ في طريقه حتى كاد أن يلامس آيس بمنكبه. بعد لحظات لحق به آهر بعد أن تبادل بعض عبارات التحية والسؤال عن الصحة والأحوال مع آيس وزميله.

قال آهر وهو يمشي بجواره: «انتظرت أن تطلق السلام. التحية سلاح المؤمنين وكثيراً ما كانت مفتاحاً لأكبر الخصومات».

تعمّد ألا يعلّق على كلام آهر وتجاهل تلميحه الواضح لمصالحة حفيده برغم اعجابه بنجاحات آيس في المدرسة. هذا الإعجاب الذي حاول أن يخفيه ولم يفصح عنه لأحد. تلقى رسالة رسمية ممهورة بالختم من مدير المدرسة يشيد فيها بجدية الفتى وإحرازه المرتبة الأولى في كل المواد المقررة وعزا المدير ذلك الى اهتمام ولي الأمر. ومضى المدير في خطابه قائلاً انه إزاء ذلك لا يملك إلاّ أن يوجه شكره العميق لشخصه نظير رعايته المثالية لهذا التلميذ الذي يرى له مستقبلاً على حد تعبيره. ومن الطبيعي أن ينتاب الشيخ الغضب إزاء هذا الخطاب الذي اعتقد في البداية أنه يحمل سخرية خفية. وعندما تأكد أن ذلك المدير القادم من مدن الشمال يقضي أغلب وقته في لعب الورق أو الغياب عن الوعي بسبب تعاطي اللاقبي فقد غفر له جهله بالقطيعة بينه وبين آيس بل وشكره قائلاً في نفسه أن معاقرة اللاقبي أهون من دس الأنوف في شؤون الغير. وربما كان الشيخ الوحيد من أهل الواحة الذي وجد العذر لهؤلاء المعلمين الذين استقدمتهم وزارة المعارف خصيصاً لتدريس أبناء الواحة وتنوير الأهالي بالعلوم الحديثة ففقد أغلبهم صوابهم وانخرطوا في قتل الوقت بلعب الميسر وإدمان اللاقبي حتى انقطعت صلتهم بالناس وتوقفوا عن التردد على الجامع. الشيطان استطاع أن يسرقهم من عشرة الأهالي وقادهم إلى الغابة حيث أغراهم بقلل اللاقبي المعلقة في رؤوس النخيل فاستسلموا للخمرة حتى أصبحت سهراتهم الصاخبة مادة تتردد على كل لسان، فتحاشاهم الأهالي وأصبحوا غرباء معزولين مع مرور الوقت. وربما يرجع سبب قيام مدير المدرسة بمخاطبته رسمياً إلى هذه العزلة نفسها متوهماً أنه لجأ إلى الأسلوب

الصحيح بدل استدعاء ولي الأمر وإبلاغه بالأمر شخصياً، لأن عدم خبرة المعلمين بطبيعة أهل الواحة جعلتهم يبالغون في حذرهم ويقيسون تصرفاتهم ويبتعدون عن الأعمال التي قد تثير استفزازهم دون أن يدركوا أن الأهالي يعتبرون اللاقبي من أكبر الرذائل التي يمكن أن يبلى بها الإنسان في حين أنهم ـ المعلمون ـ يرون في شرب اللاقبي تسلية تدخل ضمن الأمور الشخصية.

ظل سوء التفاهم قائماً بين الطرفين زمناً طويلاً.

ولكن غوما لم يستطع إلا أن يشعر نحو المدير بالامتنان على هذه الالتفاتة النبيلة من جانبه فدس الرسالة في جيبه وخطر له أن يؤدي زيارة إلى المدرسة ثم استبعد هذه الفكرة وقرر أن يبعث بمكتوب إلى آيس يقول له فيه أن اجتهاده في دراسته أمر يدعو للفخر، والقطيعة بينهما لا يجب أن تمنعه من الاعتراف بالحق. وحمل الشيخ في رأسه هذه الفكرة عدة أيام ثم ألغاها أيضا خوفاً من أن تستغلّها باتا لأغراضها الشيطانية. وبرغم أنه التزم الصمت طوال هذه السنوات إلاّ أنه في قرارة نفسه لم يسلّم بهزيمته وعقد العزم أن يسترد آيس بأي ثمن. وظلّ هذا الهاجس يراوده دائماً. وصمته أضفىْ على القطيعة ستارا من القداسة أصبح يتحاشى الخوض فيه كل أصدقائه من عقلاء القبيلة والواحة مثل آهر وخليل ومهمدو والجاروف. بل أن هذا الستار امتد وانتشر حتى شمل أبناء القبيلة وأهالي الواحة معاً. فحدث أكثر من مرّة أن جاء ذكر آيس في المجالس بصورة عفوية ولكن المتحدث سرعان ما يحجم فوراً ويبتلع بقية الجملة بمجرد أن يفيق إلى وجود الشيخ غوما ويتبادل نظرات حائرة بين الحاضرين كأنه ارتكب خطأً ثم يلوذ بالصمت. يفعلون ذلك إرضاء له دون أن يعرفوا حقيقة شعوره في تلك اللحظة. تتملّكه رغبة في أن يجعل المتحدث يستمر في سرد قصته ليعرف أحوال الحفيد وحياته الجديدة. ولكنه يضطر أن يكتم فضوله مجاملة وقلبه يتقلص من الألم.

تمر لحظات شوق لرؤية آيس فينتقل في مشواره المثلث كالمجنون. اكتشف أن المشي وإجهاد البدن هو السبيل الوحيد لخنق الأحاسيس المجنونة. فيبادر بقطع المشوار مرتين أحياناً حتى يغلبه الأعياء فينهار في الغابة تحت النخلة الهيفاء أو في ظلال الرمانة بالسانية. الزنجية العجوز هي الإنسان الوحيد في الوجود الذي يدرك حالته في تلك اللحظات. فتحدجه بتلك النظرة الحزينة التي تقول: «لا تحاول أن تخفي عني. أنا أعرف كل شيء» وتشيّعه صامتة.

وحدث مرة أن جاءته بشاي الصباح وهو يتقرفص أمام المدخل منشغلا بمداعبة حبّات المسبحة مترنماً ببعض التسابيح. فاستغلت الفرصة ودخلت الخيمة

لتجميع الملابس للغسيل، وعندما خرجت وهي تحتضن الكوم ألقت تحية الصباح فدعاها للجلوس بحركة من يده وهو يفرّك المسبحة بين يديه مشيراً بذلك الى انتهاء طقوس التسابيح فقالت هي تقتعد الأرض أمامه دون أن تزيح صرّة الملابس من حجرها: «غسل الملابس بماء الواحة عذاب أليم. الحديد يترك بقعاً في القماش الأبيض وإزالتها يستهلك الصابون علاوة على أنه يحتاج إلى يدين من حديد. يا حسرة على مياه بئرنا في الصحراء، الصافية كالحليب، الحلوة كالعسل». التقطت أنفاس الحسرة وتنهدت ثلاث مرات قبل أن تنسى نفسها ويفلت لسانها بالقول: «.. أمس غسلت ملابس آيس وأرسلتها له. لم أفلح في إزالة بقعة كبيرة داكنة في الكم الأيسر. يبدو أن العجز قد أثمر وكبّل اليدين». وعندما أدركت أن لسانها زلّ وأفلتت بكلام تعتبره سرّاً غمر وجهها الشحوب وسحبت اللحاف على وجهها ونكست رأسها وصمتت. في تلك اللحظة انتهى الشيخ من احتساء الكأس الأول من الشاي فنهض وبدأ يرتدي نعليه استعداداً للخروج. وقبل أن ينصرف لاحظ انتفاضات منكبيها بعنف فعرف أنها تنشج بالبكاء. ولمّا ابتعد سمعها تردد: «أغفر لي. أغفر لي. لست رجلاً مثلك حتى أتحمّل».

ذهب الى الغابة ليدفن ضعفه هناك. أمّا الزنجية المسكينة فاتخذت تدابير إضافية كي تمنع لسانها من الزّلل وذكر اسم آيس. ولم تكن لتعلم أنه يبارك في الخفاء عدم قطعها الصلة مع الولد وإن منعته كبرياؤه من المجاهرة بذلك في العلن. فعانى في الأيام التالية صراعاً قاسياً حتى يكتم رغبته في استشارة مهمدو بما يجب أن يفعله لاسترداد آيس، واستطاع أن يتراجع عن هذه الفكرة بالاعتزال في الغابة والتوقف عن زيارة العرّاف عدة أيام. قال لنفسه: «لن يكون شاباً قليل الخبرة بالحياة مثل أمود أكثر منّي صبراً وهو الذي رفض الخضوع للحزن والعودة إلى البيت لتقبل التعازي في ابنه مرجحاً بذلك كفة الواجب. حتى أنه رفع عقيرته بالغناء في المساء». وعندما ذهب لزيارة مهمدو بعد عدّة أيام ظل العرّاف يحدجه بنظرات متسائلة طوال الوقت فأيقن أن مهمدو قد اكتشف ما حاول أن يخفيه عنه فقال له بلهجة غامضة: «لست مؤهلاً كي أسدي لك النصح ولكنني أعرف أن الصبر أمر كفيل بتحقيق المعجزة».

لم يعلّق بكلمة في حين نهض العرّاف لممارسة الوضوء استعداداً لصلاة المغرب. أما هو فقد أدرك سبب قلقه. أنه لا يريد أن يعترف بإمكانية أن تكون حياة آيس سعيدة بين يدي باتا.

(٥)

فرحة باتا بآيس لم تكتمل.

تناقلت بعض نساء القبيلة خبر هذه الخيبة بلهجة لا تخلو من الشماتة وأرجعن الفضل في تفويت الفرصة عليها كي تتمتع بانتصارها كاملاً إلى فضل الله درهوب الذي ضلّل آيس البري، وقاده إلى بيت زهرة قبل أن يقدم على العرس ويسلم نفسه لباتا بفترة طويلة. وفضل الله الذي يكبر آيس بسنتين أخذ على عاتقه مهمة تنوير صديقه الجديد بمعالم الواحة منذ الشهور الأولى لمجيء القبيلة. فقاده من يده وتجوّل به في الأزقة الضيقة وسلكا الطرق المتعرجة التي تتسلل بين البيوت وتصعد الجبل. زارا الجبل ودارا حول مغارة العرّاف وتراشقا بالجماجم القديمة ونكشا بعض العظام من مقابر الأولين المنتشرة عبر السفح بحثاً عن الذهب. وسرد فضل الله الأساطير التي تقول أن الجبل مشيد بجثث القدماء الذين ضحوا بحياتهم في سبيل إنقاذ الواحة من استعباد الغزاة على مرّ العصور، وهو يقف دليلاً على عشق أهل الواحة التاريخي للحرية حتى أن كثيراً من العقلاء اقترح أكثر من مرة إقامة تمثال على رأس الجبل يطلق عليه اسم «تمثال الحرية» ولكن وجود مأوى الساحر مهمدو فوق القمة حال دون تنفيذ هذا الاقتراح. ثم اتجه به إلى الغابة لاستكشاف الأحراش والاطلاع على عيون الماء ومعرفة طعم ثمار أسطورية أخرى من الفواكه لم يعرفها في الصحراء مثل الرمان والتين والعنب. فيتسلل فضل الله بسرعة وخفّة ويغيب بين الأعراف ويعود وقد ملأ يديه وجيوبه بحبات كبيرة من التين. ومع مرور الوقت صعّد فضل الله فضوله فلم يعد يكتفي بالطواف حول البيوت المشيدة بقوالب الطوب الأحمر المسقوفة بجذوع النخيل المغطاة في الخارج بطبقات كثيفة من السعف، وإنما بدأ يقتحم أبواب هذه البيوت ويغازل الفتيات داخلها طالباً جرعة ماء حتى أصبح شحذ الماء لعبته المفضلة في إيجاد المبرر لطرق الأبواب. لم تمر اللعبة دون أن تتخللها بعض المغامرات. فقاده فضل الله مرة إلى بيت واطىء يقع في نهاية الزقاق المفضي إلى ساحة السوق يحميه باب ضخم سميك الحجم من جذوع النخيل كتب عليه بماء الجير وبخط رديء متعرج عبارة: «اللّهم صن عرضنا واجعلنا من عبادك الصالحين».

فقرأ فضل الله العبارة بصوت عال وكتم ضحكة ساخرة وأشار لآيس أن يلزم الصمت وقرع الباب الضخم برجله. مضت لحظات قبل أن ينبعث صوت أنثوي رخيم من الداخل متسائلاً: «من؟». أسرع فضل الله يجيب «هذا أنا .. فضل الله. أريد جرعة ماء». انفتح الباب عن صبية حسناء. ضاحكة. رشيقة. تعلو شفتيها

إبتسامة إغراء. مدّ فضل الله يده وقرصها في فخذها بحركة وقحة كأنه يريد أن يعلن معرفته السابقة بالصبية. أمّا الفتاة فقد احمر وجهها وجرته من يده الى الداخل بعد أن غمرت آيس بعينيها واستدارت بحركة غنج وهي تتمايل بقوامها الرشيق تاركة الباب مفتوحاً. غابا في عتمة البيت وانتظر هو بالخارج.

لم تمر لحظات حتى سمع ضوضاء مفاجئة داخل البيت ومرق أمامه فضل الله خارجاً من البيت بسرعة السهم وامرأة عجوز محنية الظهر تجري خلفه وفي يدها مكنسة طويلة. انطلق خلف زميله فطاردتهما العجوز عبر الأزقة الضيقة وهي تردد: «تريد أن تطفىء العطش أم تنوي أن تطفىء شيئاً آخر يا ابن الكلب! أولاد آخر الزمان: تعطيهم قلة الماء فيمدّون أيديهم لتحسس بنات الناس. تمدّ لهم اليد فيتطاولون إلى الفخذ!».

لم يتوقفا عن العدو، ولم يتبادلا كلمة واحدة حتى تجاوزا الحي القديم وأفضى الطريق إلى العراء المؤدي لأكواخ القبيلة.

قال فضل الله وهو يلتقط أنفاسه: «العجوز الشمطاء! هل تتصوّر: إنها تتظاهر بالنوم في حين أنها تسترق النظر من خلف لحافها؟ هذه الحيزبون..». ثم غرق في الضحك حتى دمعت عيناه. كان ينحني خلالها إلى الأمام ثم يعود وينكفىء إلى الوراء كما يفعل دائما عندما تنتابه نوبة الضحك. ختم ضحكته وقال وهو يغمز بعينيه: «ولكن صبرية صبية مثالية على كل حال. قبلاتها شهية ولسانها كالشهد!». اعترف فيما بعد أنه إستعار هذه الجملة من كتاب سميك عثر عليه بين كتب استاذ المطالعة عندما أرسله كي يأتي له بحقيبته التي نسيها في البيت.

مسح وجهه بكم قميصه وأضاف متفكرا: «صبرية نضجت مبكرا ونهداها مثل رمانتين». صمت ورمق آيس بنظرة سريعة كي يرى تأثير كلامه ثم أنبرى يقسم أنه صاحب العبارة هذه المرة. هذا الحماس الذي كشفه إدعاءه ملكية الجملة البائسة جعل آيس يتيقن أن العبارة مسروقة بلا أدنى شك! وقد وجد له في نفسه العذر لأنه يريد أن يثبت تفوقه في مادة الإنشاء وينافس آيس الذي يعتبره إستاذ هذه المادة الأول في الفصل.

استمرّ فضل الله يمرّن قريحته الأدبية: «روحها مرحة ولكن عيبها الوحيد أنها لعوب قليلا». وفتح حقيبته وأخرج منها دفترا تصفحه وتناول من بين ثناياه ورقة صغيرة قال أنها رسالة بعثتها له صبرية منذ شهرين. قرأها في سرّه ثم ناوله اياها للإطلاع. ألقى عليها نظرة فوجد بها أخطاء إملائية فظيعة علاوة على رداءة الخط وإعوجاج الكتابة. صبرية وجدت صعوبة، على ما يبدو، في الصمود ومتابعة السطر فتبدأ في رأس الورقة بالكلمة الأولى ثم تنزلق إلى أسفل حتى تبلغ في

انحدارها وسط الورقة فتفيق لنفسها وتحاول أن تعدّل فتقود الكلمات إلى أعلى مرة أخرى ففقدت الكلمات نظامها وجعلتها التعرجات مضحكة ومزعجة وصعبة القراءة حتى أن آيس أعاد الورقة لزميله دون أن يفهم شيئاً. ولكن فضل الله قال له أنها ليست متفوقة مثله في دروسها ولم تتجاوز في تعليمها الصف الثالث الإبتدائي وأضاف أن لها مؤهلات أخرى تغنيها عن التعليم ووجع الدماغ وأعلن وجهة نظر أكثر جرأة عندما قال انه يؤيد الآباء الذين يحبسون بناتهم في البيوت لأن المرأة كي تحقق النجاح لا تحتاج الى الذكاء وإنما إلى الحسن والموهبة لتحضير وجبة شهية!.

ثم تفضل فضل الله وترجم له مضمون رسالة صبرية التي تخبره فيها أنها ستزور الحقل غداً بعد الظهر برفقة جارتهم وبإمكانه أن يمر للقائها هناك قبل اشتداد الظلام.

هنا سأله آيس: «وهل ذهبت إلى هناك قبل حلول الظلمة؟». فأشاح بوجهه وقال بخيبة أمل: «ذهبت ولكن طائفة من النساء منعتني من الإقتراب. فتبادلنا النظرات من بعيد». مشى خطوات قبل أن يستدرك: «لكني إستطعت أن التقي بها عند البئر بعد يومين من الموعد الأول». غرق بعدها في تفاصيل كثيرة حول غرامياته المتعددة في الحي القديم الذي أكّد أنه مليء بالحسان المتعطشات للحب برغم أن الحياء يفرض عليهن الإخفاء. وانتهى إلى القول أن تلك «الجواهر» المخبأة خلف جدران الطوب لا يحتجن إلاّ إلى التسلح بقليل من الوقاحة. ويذكر آيس جيداً انه تلفظ بكلمة «وقاحة» بالذات، بل وكررها مرتين زيادة في التأكيد معللاً ذلك بأن المرأة لا تعرف غير الوقاحة لغة إذا شئت أن تفوز بها. وربما كانت هذه الوقاحة نفسها هي التي دفعته أن يقترب منه بعد أيام ويهمس في أذنه في حصة القرآن الكريم: «لا تنس أنك على موعد اليوم مع زهرة. اتفقت معها أمس وأبدت رغبتها في أن تتعرف بك. اؤكد أنها هي التي طلبت ذلك». ويبدو أنه نسي نفسه فنطق بالجملة الأخيرة بصوت مرتفع فأثار ذلك انتباه المعلم الذي كان منهمكاً في شرح سورة البقرة، فاقترب من مقعدهما ولوّح بعصاه في الهواء وقد طفحت عيناه بالإستنكار. وقف لحظة ثم طلب منهما أن يغادرا الفصل. غرق آيس في الخجل وخرج محمر الوجه منكس الرأس أما فضل الله فقد انطلق في الضحك بمجرد أن وضع رجله في الباحة المواجهة للمبنى. خجله لم يكن راجعاً إلى الطرد من الفصل ولكن لأنه خاف أن يكون الاستاذ قد التقط اسم زهرة المعروفة بسمعتها السيئة من شفتي فضل الله الثرثارتين. وزهرة فتاة مجهولة الأب ورثت

عن أمها سوء السمعة. إذ كانت تتخذ من الحب مهنة لها قبل وفاتها بسنوات وكان من الطبيعي أن تواصل الصبية تقاليد الأم طالما نمت في بيت يتسلل إليه الغرباء كل ليلة تحت الظلام ويمكثون هناك الليل كله يحتسون اللاقبي ويتضاحكون ويتبادلون النكات والمداعبات مع أمّها حتى مطلع الفجر. ثم تعبس وجوههم ويبتلعون ضحكاتهم ويسدلون على أنفسهم اقنعة الجدية ويتهيأون للخروج وهم في غاية التعاسة. وطاب لزهرة مرة أن توجّه سؤالاً عن سبب ذلك الشقاء الذي يكتسح وجوههم فجأة عندما يهمّون بالخروج والعودة إلى بيوتهم فقالت لها أنهم لا يطيقون فراقها لأنها الوحيدة في الواحة التي تستطيع أن تمنحهم السعادة. وربما كان هذا الرأي - الذي انطبع في عقل زهرة وهي طفلة - هو الذي جعلها تتخذ هذا القرار الشجاع في أن ترث عن أمّها الحرفة. ويقال في الواحة أن زهرة هي ابنة غير شرعية لضابط إيطالي عين حاكماً عسكرياً للواحة عقب إستسلام فزّان وانسحاب المجاهدين إلى عمق الصحراء نحو غات. مكث الضابط ثلاث سنوات في آدرار واتخذ من أم زهرة عشيقة له. ولكنه استدعي من قبل الجنرال بالبو الحاكم العسكري بطرابلس وأقصي من الخدمة بتهمة التعاطف مع السكان الأصليين واعتقل وتم شحنه عن طريق البحر إلى روما لمحاكمته هناك حيث انقطعت أخباره بعد ذلك.

ويؤكد الكثيرون أن الضابط وعد أم زهرة بالزواج وأرجأ إتمام الإجراءات إلى حين يتمكن من مفاتحة رؤسائه في أمر إشهار إسلامه كي يرتبط بها حسب أصول الشريعة. ويمضي هؤلاء في تأكيداتهم أن الطلياني صادق معها والتُهم التي لفقت ضدّه حالت دون أن يفي بوعده.

ولدت زهرة بعد سفره بشهور. ومهما قيل في شأنها فإن أبوة الضابط لها أكيدة. ويرى الأهالي في بياض بشرتها وتورد وجنتيها واصفرار جدائل شعرها البرهان على ذلك.

وفي زيارته الأولى لبيتها برفقة فضل الله أربكه جمالها وخفق قلبه بشدّة وهو يقف أمام قامة طويلة لامرأة شقراء تنسكب خصلات شعرها على جبينها وصدرها النافر، وتعلو خدها الأيسر شامة تكسب تقاسيم الوجه سحراً خاصّاً. كانت مخضبة الكفين بالحناء ومصبوغة الشفتين بحمرة خفيفة حتى أنه لم يعرف بالضبط عما إذا كانت هذه الحمرة طبيعية أم أنها هي التي صبغتهما بقشرة الرمان. تفوح منها رائحة عطر فوّاح يغزو أنفه لأول مرة. لاحظ أن يديها مكسوتان بالحلي: ذهب وخرز وفضة. ويزين ساقيها خلخالان كبيران من الفضة المزخرفة بنقوش

دقيقة. أما القدمان الحافيتان فكانتا مخضبتان بالحناء أيضاً. وتلتحف برداء وردي شفاف. رحبت بهما وعادت تجلس فوق الكليم الفخم الذي يكفي حجمه لفرش حجرة الجلوس الواسعة العابقة برائحة البخور (لاحظ آيس في زيارته اللاحقة أن زهرة تولي إهتماماً خاصاً لهذا النوع من الطيب. وقد وجدها أكثر من مرة تنكفىء فوق المبخرة وتعرض وجهها وأطرافها لسُحُب البخور).

قالت وهي تداعب خصلات شعرها وترتسم على شفتيها ابتسامة حلوة بريئة لا تتناسب مع طبيعة أخلاقها (آيس أصبح أسير هذه الابتسامة دون أن يبوح بهذا السرّ لأحد):

«إذن أنت آيس حفيد الشيخ المهيب غوما. لا أخفي عليك. منذ زمان وأنا أسعى للتعرف بك. يظهر أن الغيرة أكلت قلب الشيطان فضل الله ومنعته من أن يهديك إلى بيتي». ضحك فضل الله ومدّ يده وتناول قطعة كعك من الطبق الذي يتصدر دار الجلوس. قال وهو يقضم الكعك: «بالعكس. ألححت عليه كثيراً ولم أفلح في جرّه إلى هنا إلا بعد جهد جهيد. رأسه محشو بتصوّرات عن النساء لا أساس لها من الصحة برغم ما يقال في القبيلة من أنه لم يكن ملاكاً في الماضي».

ابتسمت زهرة فانتشر المرح على وجهها وكشفت الإبتسامة عن أسنان نضيدة مصفوفة بعناية ورمقت فضل الله بنظرة مستفهمة.

استمر فضل الله وهو يلتهم كعكة أخرى: «يتردد في القبيلة أنه وقع في غرام سيدة في عمر أمه وربما أكبر عندما كانوا يقيمون في الصحراء. ولكن جدّه المخيف قرر أن يتخلص منها إنقاذاً لآيس فنفاها إلى آير. هذا ما يقال...».

فوجىء آيس بتصريح زميله الذي أخفى عنه علمه بقصته مع باتا فطأطأ رأسه وشعر بالخجل. قال في نفسه «يا له من أبله!».

ضحكت زهرة وتساءلت بمرح: «حقاً؟ هل صحيح ما يقوله يا آيس؟ هذا يعطي بيتي فرصة أكبر لأن من خفق قلبه بالحب وذاق طعمه مرة لن يستطيع أن يقلع عنه أبداً. لماذا تحمّر هكذا؟ لا تخف.. فلن آكلك..».

وعاد ثغرها يكشف عن أسنانها النّضيدة.

ولكن فضل الله نسي نفسه تماماً وكشف عن سرّ آخر لم يتوقع أن يكون قد خرج من أكواخ القبيلة: «.. هذا ليس كل شيء. لقد حاول الإنتحار حزناً على معشوقته!».

أسقط في يد آيس وسدد نظرة وعيد حاقدة تجاه زميله الذي استمر يتسلّى بمضغ الكعك دون أن يلتفت إليه. أما زهرة فقد خبطت صدرها وندّت عنها شهقة

حقيقية وهي تحدق في وجهه بدهشة.

مرت لحظات قبل أن تقول: «هذا فظيع. ولكن هذا لا يعيب الرجال. الفرسان يقدمون على مثل هذه الأشياء إخلاصاً لحبيباتهم. فرسان الصحراء معروفون بشجاعتهم» ثم نهضت وأتت بكانون النار كي تحضر كأس شاي على شرفه كما صرحت ثم أضافت وهي تدلق سائل الكيروسين على الفحم: «نعم. نعم.. قلت ان هذا يليق بحفيد ذلك الشيخ العظيم الذي سمعت عنه أساطير كثيرة. إذا كان ما يقوله فضل الله صحيحاً فإنك ورثت النبل أباً عن جدّ وكنت عند حسن ظنّي بك».

ظلّت تحاصره طوال الوقت بنظرة خفية.

بعد خروجهما سأل آيس زميله مستنكراً من أين عرف بتفاصيل قصته مع باتا. فأجابه فضل الله ببرود: «وهل يخفى شيء في الواحة؟».

في ذلك الوقت لم تنزل باتا الواحة بعد. ولم يخطر ببال آيس يوماً أن القدر يمكن أن يجمعه بها مرة أخرى واعتقد أن أبناء القبيلة وبناتها قد نسوا قصته معها بعد مضي كل هذا الوقت. ولكن يبدو أنهم لم يملّوا ترديد هذه السيرة، فمضوا ينشرون «الغسيل القديم» في طول الواحة وعرضها وها هو فضل الله يفاجئه بالدليل ويحرجه أمام زهرة التي تستقبله في بيتها للمرة الأولى.

قبل أن يخرجا في ذلك اليوم ضبطها تختلس إليه تلك النظرة الغامضة فقرأ فيها دعوة صريحة، بل وملحّة، في أن يكرر الزيارة فجاء لوحده بعد ثلاثة أيام. ولكن فضل الله فاجأه ووقف خارج البيت يسترق السمع وراء الباب ويختلس النظرات ويقهقه بصوت عال جلب بعض الزملاء والشباب فغضب آيس وخرج من البيت وتبادل مع فضل الله الكلمات التي تطورت إلى معركة حامية بالأيدي والأرجل والأظافر. استمرّ الخصام بينهما عدة أيام.

ولكن فضل الله لم يحتمل فبادر زميله أثناء الإستراحة قائلاً انه لا يقوى على فقدانه كصديق وإذا كان يعتقد أنه حريص على علاقته بزهرة فسينسحب ويتخلّى له عنها نهائياً إذا أراد. وفي طريق عودتهما إلى البيت لم يخجل فضل الله من أن يضيف: «لم تثر إعجاب زهرة فقط ولكن إهتمام أختي رحمة بك يعود إلى زمن بعيد». ثم غرق في ضحكته التقليدية في حين احمرّ وجه آيس نيابة عنه. في تلك اللحظة أدرك آيس معنى النظرات التي تختطفها رحمة نحوه من تحت ردائها المزركش الجميل. ورحمة امرأة مطلّقة تكبر فضل الله بعدة سنين. تزوجها رجل من واحة أخرى استطاع أن يفوز بصداقة والدها ويكسب ثقته بعد تعارفهما الذي تم عندما عملا معاً في شركة نفط بصحراء الشمال. ولكن الفتاة لم تمكث في

مخدع زوجها أكثر من شهر فطلّقها وعادت لتقيم في بيت أهلها. ويقال في الواحة أن والدها أشبعها ركلاً وضرباً في اليوم الأول عقب عودتها ثم ألقى بها في عقر الدار قائلاً: «والآن تستطيعين أن تعودي إلى حبسك السابق هناك في الزاوية.. يا بنت الكلب!». ونفى الكثيرون أن يكون الأب المعروف بوقاره قد تلفظ بكلمة «يا بنت الكلب» على مرأى ومسمع من الجيران الذين لم يجرؤوا على إنتزاعها من بين يديه على أي حال في حين يؤكد آخرون أن العبارة قد أفلتت بالفعل من فم الأب مما يدل على أنه كان خارجاً عن طوره. وربما كان الجدل الذي ثار حول هذه العبارة اللعينة هو السبب الذي أفضى إلى إنتشار شائعة أخرى تطعن في شرف الفتاة وترجع الطلاق إلى أسباب أخلاقية.

وكالعادة عندما يتعلق الأمر بالأخلاق فإن الفضول يزداد والشائعات تنشط، والألسن تنبري للمبالغة، والمخيلات تجدّ في التأليف والتلفيق، فلم يلتفت أحد إلى قول العقلاء أن السبب لا يعدو أن يكون خلافاً حاداً نشب بينها وبين زوجها، ولمّا كان الزوج رجلاً عصبيّاً حاد الطباع متقلب المزاج فإنه لم يستطع أن يكبح جماح إنفعاله فنطق بالطلاق ثلاث مرات فجنى على المسكينة.

ولم يصدّق أحد هذا الإحتمال خاصة بعد رحيل الأب وعودته إلى عمله في شركة النفط فقال الأهالي أنه يشعر بالعار ويهرب من مواجهة الناس. وهنا أتيحت لهم الفرصة لتأليف المزيد من القصص فنسجوا خرافات شيقة عن عشاق رحمة الذين فازوا بها قبل الزواج ولم تبخل عليهم بأغلى شيء تملكه صبية.

واختلاف الروايات وتعدد القصص أصابت آيس بالدوار وصدّعت رأسه وضيعت الحقيقة حتى أنه أجبر نفسه على عدم متابعة الشائعات.

والآن بعد أن نطق فضل الله بعبارته عاد إلى رأسه كل ما قيل. التفت نحو زميله في تلك اللحظة فالتقط إبتسامة خبيثة. فكر آيس: ربما يريد أن يوجه اهتمامي الى رحمة كي يخلو له الجو ويتمكن من الإختلاء بزهرة. لا شك أن قصة رحمة هي فخ.

رأى أن يضع هذه الحيلة في الاعتبار مقرراً في نفس الوقت أن يمضي مع فضل الله في اللعبة الجديدة الى النهاية. هاتف ما في داخله دفعه الى إتخاذ هذا القرار. تسلّح بالحذر وتحرك عبر الإتجاهين في وقت واحد. فلاحظ أن زميله يتعمد أن ينسحب من البيت كلما جاء لزيارتهم ويتركه مع رحمة مهيئاً له الفرصة كي يختلي بها. ويذكر مرة أنها إنحنت عليه وقبلته في شفتيه فانطلقت ضحكة مكتومة في الخارج. اتضح أن فضل الله كان يمارس لعبته المفضلة في استراق السمع

واختلاس النظر من خصاص الباب. اضطر آيس أن يوبخه أكثر من مرة كي يتخلّى عن هذه العادة ولكن فضل الله يعبس في كل مرة ويلتزم الصمت.

وحدث ذات يوم أن ذهبا للتجوّل في الغابة وقضاء القيلولة بين الأشجار. قطفا الثمار الناضجة وتناولا غداءهما من التين والبطيخ ورقدا تحت نخلة مثقلة بعراجين البلح لم تنضج بعد ففكر آيس أن الوقت مناسب كي يعرف من صديقه سبب إصراره على التلصص من خلف الأبواب ومراقبة العشاق، فألح على زميله أن يكشف له السر فقال فضل الله أن الفرجة هي متعته الوحيدة ثم صمت طويلاً قبل أن يهب واقفاً شاحب الوجه وجسمه يصطفق بشدة وعيناه مبتلتان بالدموع حتى أنه عجز عن النطق من فرط الإنفعال ثم غرس ركبتيه في التراب وتوسل. وهو يراقب السراب يلف قمم التلال الرملية الجنوبية. أنه يريد أن يستحلفه بالله وبجدّه العزيز ألاّ يحرمه في المستقبل من الفرجة. ولم يغادرا الغابة يومها حتى انتزع من آيس وعداً قاطعاً بألاّ يزعجه في ممارسة هذه العادة.

أما زيارات آيس لزهرة فتواصلت وكانت تفتح له الباب في كل زيارة وتشرع ذراعيها وتقول مرحبة: «أهلاً بالفارس النبيل. أراك مهموماً. بيتي مقبرة الهموم. هذا المكان الوحيد في الواحة كلها الذي يستطيع فيه الفرسان مثلك أن يدفنوا همومهم». وتبدأ في إتخاذ التدابير لطرد «سحابة الهموم» فتوقد النار وتأتي بالمبخرة وتغرق الحجرة بالبخور وتفتح زجاجة عطر صغيرة ترش منها على خديها وتمرر أصابعها المعطرة على وجنتيه وأنفه حتى يشعر بالدوار. ثم تقدم أطباق الكعك والفطائر وأحياناً شرائح كاملة من اللحم المجفف. زهرة امرأة كريمة مضيافة!

أما رحمة فقد حاول أن يتحاشاها ولكنه كان مجبراً لأن بيت فضل الله في الطريق إلى الأكواخ في منتصف المسافة بين الحي القديم عند أعتاب الجبل والخلاء الذي إتخذته القبيلة مقراً لها. فيضطر أن يرافق فضل الله حتى عتبة البيت وإذا تذرع بالإستعجال وحاول أن يلف حول البيت غمزته رحمة بعينيها وهي تقف في عتبة الباب تتسلّى بمضغ اللّبان وتقول ساخرة: «بيتنا لا تحرسه الثعابين يا آيس. هو طبعاً ليس مثل بيت زهرة حيث يوزع الحلوى والكعك ولكن لا يخلو من شربة ماء، والثعبان لن يلدغك فيه على كل حال». ثم تشيعه بإبتسامة خبيثة فيستنجد بفضل الله ولكن الأخ يتوج شفتيه بإبتسامة لا تقل خبثاً كأن عدوى الخبث تنتقل من الأخت إلى الأخ فيما يشبه المؤامرة مما يضطره أن يستسلم في النهاية فيمرّ لتناول جرعة ماء!

إستغل آيس احدى لحظات الصدق التي تنتاب زميله فسأله عن الأقاويل التي

تتردد بشأن رحمة فأجابه فضل الله وهو يلوك قطعة لبان ويرقد على بطنه فوق الرملة الناعمة: «أنا الوحيد الذي شاهد الموقف بعد الدخلة. لأن بقية الشباب يئسوا من الانتظار وعادوا إلى بيوتهم في آخر الليل. فانتظرت وراء الباب حتى الفجر عندما بدأ العريس وعروسه يتشاجران ويتبادلان التهم والشتائم. هو يتهمها بالاستهتار والفساد وهي تشتمه وتنعته بألقاب لم أتبينها من ضمنها صفة «العجوز الخائب». كان يكبرها بكثير وقد قبلته بضغوط من أبينا لأنه صديقه وزميله في العمل بشركات الشمال. وتصاعد الخلاف مع الفجر وتطور الى تبادل الصفعات. يضربها بكل قوته حتى تسقط على الأرض ثم تنهض وتسدد له ضربة مماثلة. أفلتت منه صرخة حادّة ويبدو أنها عضته في معصمه لأن قامتها الطويلة حجبت ضوء الفنار الخافت فلم أتبين سوى الرجل وهو يمسك بمعصمه ويصرخ بأفظع الشتائم. فقد صوابه وانهال عليها ركلاً وضرباً حتى أخذه الإعياء فانهار بجوارها وهو يلهث مثل الوحش ويقول: «هذا حقي. أريد أن أنال حقي مثل كل الأزواج. أريد حقي يا بنت الكلب!». هنا رأيت رحمة تنهض كالمجنونة وتنزع الثياب الفاخرة قطعة قطعة فهدأ وبدت علامات الارتياح على وجهه ظنّاً منه أن العروس تنوي أن تمنحه «حقه». ولما انتهت رحمة من نزع ثيابها رأيتها تقف أمامه وتأكله بنظرة حقد ثم مدت يدها بين ساقيها وندّت عنها صرخة أليمة أعقبها انبثاق الدم في خيوط تسيل على ساقيها فأغمضت عيني وسمعت ضحكاتها الشامتة وهي تقول: «تريد حقك! تريد حقك! هذا حقك!». انتابتني القشعريرة وشعرت بالغثيان فتقيأت وراء الباب وأسرعت إلى البيت مع انبثاق نور الفجر. كنت الوحيد الذي لم يستغرب عودتها بعد شهر وهي تدس في صدرها ورقة الطلاق بالثلاثة. رحمة عنيدة كالحمار».

قال آيس في نفسه: «يا له من ماكر. من قديم وهو يستخدم عادته المخزية في التلصص وراء الأبواب المغلقة» وعزم أن يستفسر من فضل الله - العليم بأسرار الواحة حيث يساعده التلصص على هذا - عن أمر ظل يقلقه منذ زمن بعيد ولم يستطع أن يجد له جواباً مقنعاً: «ما سرّ تعلق النساء بالأولاد؟» فأجاب فضل الله وهو يتصنع الوقار ويرسم على وجهه ذلك التعبير الذي يبدو على وجوه الكبار عندما يخوضون في الموضوعات التي تتطلب الحكمة: «هذه عادة قديمة في الواحة. الأولاد لا يجاهرون بما يعلمون أو يفعلون. فتضمن النسوة صون شرفهن من الألسن ويأمَن شر الشائعات. وحتى إذا كان المراهق ابن الخامسة عشرة وغدا وأفشى السرّ فإن أحداً لن يميل إلى تصديقه!».

عبرا ربوة صغيرة تفضي إلى المنحدر حيث يستقر بيت فضل الله فأطلت رحمة بقامتها الطويلة في العتبة وفكاها لا يكفّان عن مضغ اللبان.

غمزت له بعينها ورسمت على شفتيها ابتسامة ذات معنى!

(٦)

ظلّت موجة الحرّ حديث الساعة في الواحة. وكلما تقدمت الأيام وتوغلت في فصل الخريف كلّما أمعن الحرّ في الاستقرار وتشبث بالمنخفض دون أن تبدو في الأفق أي بادرة يمكن أن تشير إلى نية الطبيعة في أن تعتقهم، أو تتركهم على الأقل، يتنفسون ولو قليلاً من الهواء. تعاظمت شكوى الناس من الاختناق بسبب ركود الهواء حتى أن وفيات كثيرة حدثت بين المرضى بالربو والمصابين بضيق التنفس. أما التعرض لحالات الإغماء وفقدان الوعي فقد أضحت أهون المصائب التي جلبها الحر وطرح بها ثلاثة أرباع السكان في الفراش. أما الربع الباقي فظلّ يدب على قدميه في بعض الأمسيات مترنحاً في مشية يطيّر عقله الدوار ويقيد لسانه العطش فلا يقوى على الكلام إلا القليل من أهل الواحة الأشدّاء في صحتهم وكمال أجسامهم. ولما يئسوا من انفراج قريب للشدّة انتقلوا بحيلة رش اجسامهم بالماء إلى دلق الجرادل والقرب على الجدران وفوق الأسطح. أما أهل الأكواخ فصبوا المياه الفائرة التي يتصاعد منها البخار، على رؤوس أكواخهم وفوق أعواد الجريد في محاولات يائسة للتخفيف من حدّة الحرّ. ولكن حدث في تلك الأيام العصبية ما شدّ اهتمامهم وألهاهم عن حديث الحرّ.

تمّ تشييع جثمان طفل لم يبلغ السادسة من العمر منذ أيام بعد وفاته متأثراً بداء الربو الذي عانى منه منذ ولادته. ولم يودع القبر لثلاثة أيام حتى وجد آل الميت القبر مفتوحاً وجثة ابنهم ملقاة عند فوهة القبر وقد تحللت وتعفنت بسبب الحرّ ونهشتها جيوش الديدان وتنازعتها قوافل الحشرات فاكتشف أهل الطفل الميت ما استرعى انتباههم عندما رأوا الدم متيبساً في الأصابع ولمّا دققوا في اليد اكتشفوا أن يداً آثمة امتدت ونكّلت بالجثة: نزعت أظافر الطفل المرحوم، فاندفعوا يقيمون طقوس نواح إضافية في المقبرة فاقت الطقوس الأولى عند الوفاة. أقبل العقلاء والحكماء وتجمع الأهالي من الواحة ومن الأكواخ وجاء الشيوخ: الجاروف وآهر وخليل يتقدمهم الشيخ غوما بنفسه. اختلى بالجاروف فوراً وأزاح جموع النساء الباكيات النائحات فوق فوهة القبر. أعاد دفن الميت وفرّق شمل الجمهرة. رافق الشيخ الجاروف إلى الجامع وتحدثا هناك طويلاً. ولم ينفض اجتماعهما حتى علا صوت المؤذن معلناً حلول صلاة العشاء.

استنكار الأهالي لهذه الجريمة لم يهدأ. فلم تعرف الواحة عملاً يمكن أن يوازي هذا الفعل البشع.

شهدت الشائعات نشاطاً طغى على حديث الحرّ واحتوى اهتمام الأهالي بقصص الحب والزواج وألهاهم عن شغفهم بالفضائح الأخلاقية فقالوا في البداية أن الفاعل لا بد أن يكون أحد المجانين، ولحسن حظ هذا النوع المسكين من البشر أنه لم يتصادف وجوده بالواحة في تلك الفترة فاستبعد الأهالي هذا الاحتمال في الحال وتحولوا للبحث عن المجرم في مكان آخر. فألصقوا التهمة بفلاّح مسالم على عداوة قديمة بأب الطفل الميت نشبت بينهما حول قسمة مياه عين الكرمة التي ادعى الأخير أسبقيته فيها دون وجه حق فتشاجرا بالأيدي حتى حال بينهما جمع من الفلاحين. ولكن تمتع هذا الفلاح بالسمعة الطيبة أبطل مفعول التهمة. مضت أصابع الإتهام تشير إلى جهة أخرى. فطافت طول الواحة وعرضها حتى وقع اختيارها هذه المرة على عالم الحيوان بعد أن يئست من عالم الأنس والجن. فانتهت إلى أن الفاعل هو: الكلب!

وبرغم أن كلب الشيخ غوما لم يكن الوحيد في الواحة إلا أن الاختيار وقع عليه لعدة أسباب ربما كان أهمها أنه ضالّ. جاء إلى الواحة كأنه سقط من السماء واتجه من فوره إلى النخلة الهيفاء بجوار عين الكرمة ليوقظ الشيخ غوما من سبات القيلولة ويعرض عليه صداقته!

هكذا رددت بعض روايات الأهالي.

ويبدو أن اتهام هذا الكلب بارتكاب هذه الفعلة الشنيعة له دافع آخر. ظلّ الناس يشعرون بضرورة تعليق الإثم على ضحية «مستوفية الشروط»، واختيار هذا الكلب الضال يكفل لهم تنفيذ العقاب. دون ردود أفعال وهو عنصر ينزل القصاص بمقترف الجريمة حتى وإن لم يكن هو المجرم الحقيقي.

وقد برع الناس في صنع التهمة وإلصاقها بالكلب مستغلين غرام الكلاب الضالة بالمقابر. وأتقنوا نسج الأدلة ضده حتى صدّق أكثر العقلاء بل وجعلوا الشيخ غوما نفسه يشك في الأمر برغم أن الكلب لم يفارقه لحظة واحدة منذ اليوم الأول الذي استيقظ فيه من غفوته ووجده يقعي أمامه مفترشا ذيله. فأصبح الدليل قاطعا بعد أن عثروا على شاهد عيان ادعى بأنه رأى الكلب في تلك الليلة بالذات يتسكع في المقبرة. فركوا أيديهم وهم ينصتون للأقاويل عن عداوة مبيتة بين الشيخ غوما ومعشر الكلاب يرجع عهدها الى سنوات شبابه فأمّنوا بذلك جانب الشيخ وأيقنوا بهلاك الكلب.

ويبدو أن هذا العداء هو الذي شجع حتى العقلاء (أمثال الشيخ الجاروف) في أن يلصقوا تهمة نبش القبور والعبث بالجثث بالكلب فجرت له محاكمة صورية حضرها ضابط نقطة البوليس والشيخ عبد الجليل الجاروف وعدد من شهود العيان وعقلاء الواحة وأصدروا حكماً غيابياً عليه بالإعدام على أن يتولّى رئيس نقطة البوليس تنفيذ الحكم.

قامت مشكلة في تنفيذ الحكم عن كيفيّة استدراج الكلب بعيداً عن الشيخ غوما وهو الذي يقتفي أثره كظلّه ولا يفارقه أبداً. وبعد مناقشات استقر الرأي على إحالتها لذوي الاختصاص من قناصي الهجانة بنقطة البوليس. وكان الشيخ عبد الجليل الجاروف هو صاحب الاقتراح ففاز بموافقة ضابط النقطة ووعد بأن يأخذ هذه المهمة على عاتقه. أعلن أنه سوف يرى طريقة ملائمة للتنفيذ لن تثير استفزاز الشيخ غوما.

ولكن تقديرات ضابط البوليس أخطأت.

ويبدو أن الضابط جرّب كل الحيل لاستدراج الكلب والانفراد به بعيدا عن الشيخ دون نتيجة. ولم يستطع الأهالي أن يكتموا الضحك، وهم يشاهدونه في الأيام التالية، مقتفياً أثر الشيخ مع فرقة من عساكر الهجانة المدربة على القنص. وقد أخذ الضابط باللعبة ونسي نفسه تماماً حتى تجرأ وتسلل وراء الكلب بين الأزقة وتابعه بين أكواخ القبيلة وحام حول بيت الشيخ ليلاً ومشى خلفه أثناء تأديته لجولته التقليدية الى السانية أو مغارة العرّاف مهمدو. وكان الضابط في هذه المطاردة يرتدي بزته العسكرية ويتوج رأسه بقبعته الرسمية متمنطقا بحزام مدجج بالرصاص. يحمل بيده اليمنى بندقيته. وفي يده اليسرى تلمع عصاة الخيزران الشرفية. تعمد أن يكون في هيئته الرسمية الكاملة طوال هذه المطاردة كي يعطي للأمر الهيبة التي يستحقها ويثير في أذهان الأهالي الانطباع في أن ما يفعله هو واجب رسمي مدعوم من الحكومة. أمّا أفراد الهجانة فيرتدون ملابسهم العادية وإن أطلت رؤوس البنادق خلف مناكبهم العريضة.

ومضى الضابط في تنفيذ الواجب فأعلن حالة الطوارىء بالنقطة وكثف الدوريات بين أزقة الحي القديم وكلف مجموعة من العساكر بمراقبة الأكواخ من بعيد وخاصة خيمة الشيخ غوما حتى فقد الأهالي السيطرة على ألسنتهم وقالوا: «أيعقل أن تكون كل هذه الضجة من أجل الكلب؟!». ويقول آخر: «هل تعجز الحكومة عن القضاء على كلب ضال لا أصل له ولا فصل؟». ويضرب ثالث كفا بكف قائلاً: «صدق المثل: الجنازة كبيرة والميت كلب!». ويغرق الحاضرون في

الضحك ليس لأن النكتة كانت موفقة ولكن لأن المواطن الخبيث تعمّد أن يجري تحريفاً على المثل فشطب كلمة «فأر» في الأصل واستبدلها بكلمة «كلب» فاستلقى إلى الوراء متباهياً بابتكاره في حين انهالت عليه عبارات الإعجاب. هنا ينبري أحد الحاضرين بتعليق ذكي: «يا ليت الأمر كذلك يا جماعة. إني أرى الجنازة كبيرة ولا أرى جثة الكلب. انه ما زال يدب على قدمين!». فيعلو الهرج والضحكات وعبارات التأييد.

التعليقات اللاذعة وصلت إلى مسامع الضابط في النقطة فاستفزته. لأن عقلاء الواحة وصفوا عمله الطائش التالي بـ«الحماقة» مؤكدين أن لا أحد يجرؤ أن يلجأ إلى هذا الأسلوب غير انسان فقد طوره حقاً.

وملخص القصة أن الضابط قرر أن يضع حداً نهائياً لأمر الكلب في صباح أحد الأيام فارتدى لباسه الرسمي وأحاط خصره بحزامه ذي الحواشي المطرزة بالرصاص وتلقف بندقيته وقد علا تعبير متوتر وجهه فعرف مساعدوه وعساكره أن المعركة سوف تدخل مرحلة حاسمة. رافق الضابط في ذلك اليوم قناص واحد من عساكر الهجانة برتبة شاويش اشتهر بسيطرته على البندقية وفراسته في إصابة الهدف.

قضى النصف الأول من النهار مع شاويشه في متابعة خطوات الشيخ غوما محافظاً على مسافة بينه وبين الكلب تتيح لهما فرصة الاختباء عن أعين الشيخ. وقد بدءا المطاردة من السانية بعد أن مرّ الضابط على البيوت فأخبرته الزنجية العجوز أن سيدها بكّر بزيارة الحقل كعادته. وهناك قضيا ساعات الانتظار بين الأحراش وغابات النخيل ريثما واصل الشيخ وكلبه طريقهما إلى النخلة الهيفاء لقضاء القيلولة فذهب الضابط مع شاويشه القناص واستحمّا معاً في عين الكرمة هرباً من جحيم القيلولة وشربا ماء وفيراً وتزودا بالمزيد تحسباً للعطش ومفاجآت بقية النهار ثم عادا واختبآ خلف شجرة التين وشرعا يراقبان الشيخ وهو يبلل ملابسه بالماء من قلة فخارية كانت بجواره وينطرح على ظهره هاجعاً للراحة. أما الكلب اللعين فقد رقد بجواره بالضبط، بل ان رأسه لامس عجيزة الشيخ كأنه اشتم رائحة المؤامرة وقرر أن يحتمي بجسد سيّده!

حاول القناص أن يسدد فوهة البندقية نحو الهدف ولكن أيقن - بعد محاولات مكثفة - أن إصابة الكلب في ذلك الوضع مستحيلة دون تعريض حياة الشيخ للخطر. تملّك الضابط حنق شديد جعله يصرّ على أسنانه ويعض يديه وأصابعه بل وبلغ به الانفعال - حسب رواية الشاويش - حداً جعل الدموع تنهمر من عينيه وهو ينهش يديه ويأكل أصابعه.

مضت ساعات من التوتر والحرّ فقد خلالهما الضابط صوابه تماماً (ويبدو أن الحر ساهم في دفعه الى ارتكاب تلك الحماقات التي سيأتي ذكرها) فأصبح يمشي جيئة وذهاباً ويضرب جذوع النخيل بقبضته ثم هجم على أعراف النخيل وطفق يلقي بها نحو مرقد الشيخ محاولاً أن يثير انتباه الكلب ويبعده عن المكان. ولكن الكلب لم يتحرك كأنه يساهم مع الحرّ في إثارة حنق الضابط الذي صبّ فورة غضبه على رأس القناص هذه المرّة، فطلب منه أن يريه مهارته في القنص وعندما رفض العسكري وقال ان ذلك سوف يشكل مغامرة قد تودي بحياة الشيخ تصاعد غضب الضابط وأمره أن يطلق النار فوراً ولكن العسكري عاد فرفض فهجم عليه وانهال على رأسه بالشتائم واتهمه بالخيبة والفشل (وفي قول آخر أنه صفعه) ووعده أن يخصم من مرتبه معاش عشرة أيام مع طلب عاجل للسلطات في عاصمة الصحراء بتخفيض رتبته الى نائب عريف. وكان الضابط يرتجف وهو يلقي هذا الخطاب في الأحراش بجوار عين الكرمة دون أن يتوصل إلى نتائج إيجابية لأن العسكري لم يرضخ للتهديد وأصرّ على أن إصابة الهدف من هذه المسافة وفي هذا الوضع أمر مستحيل. فقام الضابط وطرده. (وفي رواية أخرى أنه طرده وجرى وراءه محاولاً أن يلاحقه بضربات من كعب بندقيته).

استمرّت المطاردة. فمشى الشيخ لتأدية زيارته للمغارة عبر الخلاء المحاصر بين طوق الغابات ونواحي الواحة الشرقية فاقتفى الضابط أثره سالكاً الطريق الملاصق لأحراش الغابة تاركاً مسافة مناسبة بينه وبين الشيخ الذي أصبح يقتفي الآن أثر الكلب بعد أن كان الكلب الملعون يقتفي أثره طوال المدة الماضية. اختبأ رئيس البوليس في المقبرة القديمة وانتظر خروج الشيخ من كهف مهمدو. ويبدو أن الضابط تعب من هذه الملاحقة والحر أضعف قدراته العقلية وأفقده صوابه فأطلق على الكلب رصاصة طائشة بمجرد انحدار الشيخ من الجبل في طريق عودته الى البيت مستغلاً تخلف الحيوان عن سيده لبضع خطوات فرأى أن الفرصة مواتية واستعجل الضغط على الزناد غافلاً عن بعض التفاصيل اللازمة لإصابة أي هدف.

آلت الشمس إلى الغروب وتسللت العتمة لتلف الواحة. عندما انبثق الدوي تحت حذاء الجبل فعوى الكلب بصوت حاد وقفز كالسهم واحتمى بقدمي الشيخ غوما الذي توقف فجأة والتفت بهدوء نحو المقبرة وشرع يقلب بعينيه جسم الضابط الذي وقف بجوار أحد الأضرحة ممسكاً بالبندقية يجول ببصره حوله في بلاهة. وقف غوما لحظات ثم استدار وواصل طريقه كأن شيئاً لم يحدث. أما الكلب فقد مشى بجواره كظلّه حتى بلغ الأكواخ.

انتشر خبر الطلقة الطائشة في نفس الليلة، وتسابقت الشائعات في أزقة الحي القديم وطارت وبلغت الأكواخ ولم يأت منتصف الليل حتى كانت على كل لسان مضافاً إليها المبالغات اللازمة. فقيل ان ضابط البوليس أطلق النار على الشيخ غوما فأصابه بطلقة في عجيزته. ومضى آخرون الى ترديد ما يفيد أن جرح الشيخ خطير، ومع منتصف الليل تصاعد الضجيج وعلا الهرج وتلامعت الأضواء من المشاعل ونيران الحطب ودبت الحركة بين الحي القديم والأكواخ وأعلن أن الشيخ غوما قد أسلم الروح!

في ذلك الوقت جمع آهر أقطاب القبيلة وتشاور معهم طويلاً ثم رافق الشيخ خليل واقتحما على الشيخ غوما خيمته. نهض وأوقد النار ورش على رأسه بضع حفنات من الماء تخفيفاً للحرّ. وأسرعت الزنجية العجوز وأتت ببعض الفطائر وأقداح الحليب بمجرد أن رأت الشيخ يوقد النار في الخيمة. هنأه الشيخان بالسلامة ولكنه تجاهل التهنئة ومضى يتحدث بإسهاب عن موجات الحر التي اكتسحت الصحراء في الماضي وانتهى إلى أن هذه الموجة فريدة من نوعها ولم يحدث أن عرفت الصحراء لها مثيلاً حتى في التاريخ القديم الذي تتناقله الأساطير. كان مزاجه رائقاً فضحك أكثر من مرة ولذع خليل بدعابة طريفة أثارت إعجاب آهر الذي كان نصيبه نكتة أخرى همس له بها الشيخ في أذنه فاستلقى على قفاه ضاحكاً. وظلّ يرددها كثيراً في المناسبات التالية دون أن يجرؤ على ذكر مصدرها. وقد شعر الشيخ خليل بالغيرة فطلب أن يسمع النكتة أيضاً وبعد إلحاح متواصل سمح غوما لآهر بأن يحكي النكتة لخليل همساً. في تلك الليلة جلس غوما بنفسه فوق عالة الشاي مقرراً أن يتولّى الطقوس بنفسه إكباراً لضيفيه اللذين شغلتهما الدنيا ومتطلبات الحياة الجديدة عن عقد السهرات الليلية التي تعودوا قضاءها في الماضي أثناء الإقامة عند أعتاب بئر أطلانطس المجيد قبل أن تحل المصيبة ويسحب الله ماءه إلى المجهول.

دبت الحركة في الطريق المؤدي إلى الواحة وارتفعت أصوات القادمين والذاهبين وعمّ النشاط والمزيد من النور دائرة الأكواخ. تزاحم الفضاء الذي يحيط بخيمة الشيخ بجموع الفضوليين من أبناء القبيلة والفلاحين على السواء الذين جاءوا خصيصاً للاطمئنان على صحة الشيخ فاضطر آهر أن يخرج لطمأنتهم وتفريق شملهم.

جاء أمود أيضاً وجلس بعيداً وتشبث بالصمت طوال الوقت. مكث حوالى ساعة في جلسته ثم نهض وانصرف.

أمّا الشيخ نفسه فاستمر في سرد نوادره دون أن يلتفت للزائرين وقد لمح آيس يمرق بين الجموع كالسهم في ضوء النار الخافت ويختفي في ظلمة الليل ولكنه حاول أن يكتم اهتمامه حتى لا يلاحظ الشيخ خليل.

وفي آخر الليل تبادل آهر وخليل النظرات ويبدو أنهما ملاّ الانتظار وقررا مصارحة الشيخ بالهدف من مجيئهما فتشجع آهر وعاد يفاتح غوما بأمر الطلقة النارية. هنا صمت الشيخ لحظات ثم عاد يشكو من شدّة الحرّ. فهما أنه يرفض الخوض في الموضوع فتمنيا له ليلة سعيدة وانصرفا. فوجئا بالشيخ الجاروف ينتظرهما خارج كوخ آهر برغم تأخر الوقت وأمطرهما بالأسئلة والاستفسارات عن حالة الشيخ ومزاجه وتوقعاتهما إزاء ما يمكن أن يترتب على تصرف الضابط الأحمق (وهكذا وصفه حرفياً) وألح عليهما في تهدئة الشيخ وترجاهما ألاّ يبخلا بجهدهما في جعل غوما يلتزم ضبط النفس لأنهما الوحيدان القادران على ذلك. طمأنه آهر قائلاً ان الشيخ لا يعير اهتماماً للتصرفات الحمقاء ووعده أن يحاول أن يساهم بجهده في جعل غوما ينسى الإساءة.

ولم يكد الجاروف ينصرف حتى أسرّ آهر لخليل قائلاً: «صمت الشيخ لا يعجبني».

أما الواحة فلم تذق طعماً للنوم في تلك الليلة.

فسهرت الناس حتى الفجر كأيام رمضان. تردد وتؤول وتحرّف وتضيف وتتوقع بلا توقف. وما قضّ مضجع الأهالي هو ما كرره بعض القادمين من أكواخ القبيلة. جاؤوا بتأكيدات تقول ان الشيخ غوما يستعد للهجوم على الواحة واحتلال نقطة البوليس. ودعم هذه الشائعة خبر زيارة الشيخ الجاروف المتأخرة لحي الأكواخ فقالوا انه ذهب ليفاوض وعاد بالفشل.

هجر النوم عيون أهل الواحة وقضوا الليل في الترقب والانتظار.

أما الشيخ غوما فقام ودلق جردل الماء فوق النار ودخل خيمته مع كلبه ونام بهدوء. استيقظ عند الفجر فتوضأ وصلّى وارتدى أفخر لباسه: أحاط قطعة تجولموست فوق العمامة ولبس طاري الزرقاء على الثوب الأبيض الفضفاض وقيّد خصره بحزام الرصاص وخبأ البندقية خلف منكبه تحت الثوب الأزرق وانطلق مع الكلب إلى الجهة الشرقية. تعمد أن يخرج تحت ستار الفجر قبل أن تستيقظ الزنجية وتأتي له بشاي الصباح. تسلّق جبال الرمال الشرقية العالية ومشى عبر الشريط حتى أفضت الرملة الى منحدر يؤدي بدوره الى الجبال الرمادية التي تحد الواحة من الشمال ونزل الواحة من تلك الجهة مع الشروق واتجه مباشرة الى نقطة

البوليس الواقعة في جانب الواحة الشمالي الغربي بجوار ضريح سيدي الشنقيطي حيث تتناثر آثار قصور القائمقامية العثمانيين.

في ذلك الوقت كان الخرفاوي ضابط البوليس ينهمك ـ كعادته كل يوم ـ في تدريب الفرقة. وقد توقف عن إصدار الأوامر بمجرد أن شاهد قامة الشيخ غوما المهيبة تخترق السور الخارجي وتتقدم نحوه. تمتم ببعض العبارات ولكن أفراد البوليس لم يتبينوا الأوامر (وربما ألهتهم طلعة الشيخ المفاجئة عن متابعة أوامره) فاضطر الخرفاوي أن يصرخ بأعلى صوته: «انصراف...» ولكن أحداً منهم لم ينصرف ولم ينفذ الأمر. ظلّوا مسمّرين والبنادق مشيعة بأيديهم الى مناكبهم، يتابعون قامة الشيخ وهو يتقدم نحو رئيسهم والكلب يتتبع خطواته. دار غوما حول طابور البوليس ومشى حتى وقف في مواجهة الخرفاوي. وهنا حدث الأمر الذي استولى على حياة الناس زمناً طويلاً ومضى خبره حتى بلغ عاصمة الصحراء بل وتجاوزها الى الشمال. إذ أمسك الشيخ غوما ـ بحركة مفاجئة ـ أنف الضابط بإبهامه وسبابته معاً وطفق يهزّه يميناً وشمالاً ثم جرّه بضع خطوات باتجاه الطابور وقال له: «الفارس الحقيقي هو الذي يصيب الهدف عندما يضغط على الزناد. أما أنت فما زلت صغيراً على إطلاق النار» ثم أطلق سراح أنفه وطرق على جبينه بأصابعه وأضاف: «هذه المرة غفرت لك. وفي المرة القادمة سأخرق جبينك هنا برصاصة لن تخطىء الهدف أبداً».

ثم استدار وقصد الواحة.

أمّا الكلب اللعين فقد راقب الموقف بمشاعر لا تخلو من الشماتة. هزّ ذيله باستفزاز واستدار لاحقاً بسيّده!

استمرّ العساكر في جمودهم شلّت الدهشة ألسنتهم، وقيّدت حركتهم كما قيّدت الخرفاوي زمناً قبل أن يبدأ يرتجف بشدّة. ويقال انه حاول أن يقول شيئاً عن انصراف الشيخ ولكنه ارتبك وتراجع. ثم ضحك ضحكة هستيرية وقال يخاطب العساكر: «هذه خطة هانيبال. لقد درستها في الكليّة. لم أكن أعلم أن الشيخ غوما ملمّ بتاريخ العلوم العسكرية.. ها ـ ها ـ ها.. خطة هانيبال.. ها ـ ها ـ ها.. تتوقع عدوّك وتقضي الدهر تستعد لاستقباله من الجنوب ثم يفاجئك من الشمال. ها ـ ها ـ ها...». ثم.. غرق في نوبة طويلة من البكاء.

أما الشيخ فدخل الواحة وبندقيته منتصبة بجوار منكبه وخرق صفوف الأهالي، الذين وقفوا يتفرجون بعيون احمرت من فرط السهر والانتظار، واتجه إلى ساحة السوق حيث تجمهرت الجموع أيضاً باحثاً عن الشيخ الجاروف الذي اختبأ عن

الأعين هرباً من المواجهة. وقف الشيخ مع مجموعة من عقلاء الواحة وهددهم بسبابته وطلب منهم أن يبلغوا شيخهم الجاروف قائلاً: «العادة تقتضي أن نكفل الحماية لكل من يلتجىء لديارنا حتى لو كان اللاجىء كلباً. والشيخ الجاروف شارك في التآمر. لن أصفح عنه في المرة القادمة».

ثم خرق صفوف المتجمهرين وصعد الجبل كي يحتسي كأساً من الشاي الأخضر عند العرّاف.

(٧)

بعد يومين خرج غوما من البيت قبل الشروق ووصل الحقل مع انبثاق شعاعات الشمس الأولى فوجد الغابة تشتعل بالنشاط. لم يكن أمام الفلاحين في ظروف الحر الشديد إلا أن يستبدلوا ليلهم بنهارهم ويقلبوا عادتهم رأساً على عقب. ينشغلون في الحقول حتى الضُحى ثم يأوون إلى الظل وينامون طوال النهار حتى غياب الشمس ليقوموا الى فؤوسهم ويسعوا في الأرض حتى آخر الليل: يقلبون الجداول أو يسحبون الماء من الآبار رافعين أصواتهم بالغناء أو غارقين في سرد الحكايات والقصص تعليقاً على أحداث أغلبها لم يحدث.

وفي الأيام العادية تعودت الواحة أن تضج بالطبول والرقص والتصفيق والأغاني والعزف على المزامير والناي ولكن موجة الحر كتمت الأنفاس وأرهقت الأجساد فتفرّغ الأهالي لسرد القصص واكتفوا بالتأليف والتعليق على الأحداث سواء تلك التي حدثت بالفعل أم الأخرى المطمورة في الخيال.وأصبح من النادر، في شعلة الجحيم، أن يسمع قرع الطبول أو يرتفع صوت مزمار. ولا زالت الواحة تذكر تلك المباراة التي نظمت منذ سنوات بين العازفين على هذه الآلة وأودت بحياة ثلاثة من أمهر الفنانين. اقتضت قوانين المسابقة أن يبدأ العزف عند غياب الشمس ولا يتوقف حتى مطلعها في اليوم التالي. فتجمعت جمهرة المشتركين عند أطراف الغابة وتحلقت حولهم جموع النساء والأطفال والشيوخ كما حضر يومها الشيخ الجاروف وعدد من الأعيان وأعطيت إشارة البدء فانطلقت الألحان السماوية دفعة واحدة ورافقتها عاصفة من زغاريد النسوة اللائي جئن خصيصاً للتأكد من قدرة عازف المزمار على الاستمرار في العزف أكثر من ساعة واحدة.

ومع منتصف الليل انسحب عازفان وسلما بهزيمتهما تبعهما بعد دقائق ثلاثة عازفين مرة أخرى وبدأ الاجتماع ينفض بالتدريج: انسحبت النساء بعد أن نام أطفالهن بين أيديهن ثم تبعهن الأزواج. غلب النعاس الشيوخ فعادوا الى بيوتهم أيضاً. أما الشيخ الجاروف فلم يهجر المكان إلا بعد أن بقي في الساحة ثلاثة

عازفين. وبرغم أن الجاروف ترنح في جلسته أكثر من مرة وهو يغالب النعاس إلا أنه صمم أن يشهد خاتمة المعركة.

أطل الفجر فأغمي على أحدهما فقام إليه الشباب يسكبون على رأسه الماء.

بعد قليل سقط الثاني وشرع يبصق الدم.

مع الشروق فقط توقف الثالث وألقى بالمزمار جانباً ونهض منتصراً. عانقه الشيخ الجاروف مهنئاً ثم تبعه الشباب يعانقونه الواحد تلو الآخر. وما أدهش الجميع أنه ظلّ يتنفس بصورة عادية ويقف صامداً معافى، كأنه لم ينفخ في مزمار. رافقه الشباب إلى بيته وأودعوه الفراش وعلى وجهه يرقص المرح وترفرف العافية.

وفي الصباح جاءت أمه لتوقظه فوجدته جثة.

وبعد عدة أيام انتشر خبر وفاة اثنين من الذين اشتركوا في مباراة تلك الليلة.

تذكر الشيخ غوما هذه الحادثة الآن وهو يرى ما فعله الحر بالناس. لقد أسكت حتى أنغام المزامير الشجيّة.

اجتاز صفاً كثيفاً من جداول الحبوب المزحومة بسيقان السنابل. تناول سنبلة وفركها بين يديه وشرع ينفخ ليذر القشور: رمق الحبوب السمينة في راحة يده بإعجاب وقال في نفسه أن حصاد هذا الموسم يعد بغلال وفيرة. قضم حبة ونثر الباقي في الساقية. إقترب من كوخ مرزوق فرأى مبروكة تنحني فوق التّنور وتلتقط رغيفاً ناضجاً من داخل التنور دون أن تتوقف عن الحديث إلى جارتها الواقفة فوق رأسها تهدهد بين يديها طفلاً رضيعاً ملفوفاً في قماط يحرّك يديه ورجليه بعناد محاولاً أن يفلت من القيد. قالت مبروكة وهي تختطف الرغيف من بين ألسنة اللهب بحركة خبيرة وتلقي به في الطبق المضفور بالسعف: «.. قيل أيضاً أن الشيخ بعد أن صفع الضابط تلك الصفعة المهينة دخل الحي القديم ولاحق الشيخ الجاروف برصاصتين ولكنه لحسن الحظ لم يصبه..».

توقف غوما وراقب المرأتين المنهمكتين في صياغة الأخبار على طريقتهما ومكث لحظة وراء شجرة التين حائراً.

لقد قصد الكوخ كي يفرح الطفل المريض فاشترى له بعض الحلوى. حدث معه أكثر من مرة: يدس حبات الحلوى في جيبه ويتقدم نحو الطفل كي يصنع له مفاجأة. يمدّ يده مضمومة فيحاول الطفل أن يفتحها ولكن غوما يظل مطبقاً على قطع الحلوى حتى ييأس. عندها يفتح أصابعه فجأة فتتراقص القطع المزركشة فيبتهج الطفل ويفرح ويهجم على الهدية. ولكن فرحته لا تطول... تتشنّج عضلات وجهه ويلوح الألم المجنون في عينيه ثم يبدأ ينتفض ويهتز كالعصفور حتى يسقط صريع

النوبة.

ولما رأى الشيخ أن السرور أيضاً يشكل خطراً على الطفل حاول أن يتلافى تقديم هداياه فيبعثها مع مبروكة لتقدّمها بطريقتها الخاصة.

تألم كثيراً وقال في نفسه: «من أكبر البلاء أن يكون الفرح سبباً في الحزن. ليس من العدالة أن تنقلب الآية فيكون شفاء الطفل في أن يحرم من الفرح. أستغفر الله».

ركعت مبروكة على ركبتيها وتناولت قطعة عجين من صحن بجوارها وبدأت تلقي به في الهواء وتتلقفه ببراعة حتى استدار وتفلطح فألصقته بطرف التنور الجانبي دون أن يتوقف لسانها السليط عن الثرثرة: «... يقال ان الضابط غادر إلى الشمال لتقديم الشكوى للحكومة..» ولكن مهارتها في تلك اللحظة خانتها فزلّت يدها في أحد جوانب التنور فلسعتها النار فتلفظت بشتيمة فاضحة وألقت باصبعها في فمها وشرعت تمصه وهي تتقافز حول التنور.

إبتسم الشيخ بمرارة وهو ينحرف يميناً ويتوجه إلى البئر حيث ارتفع صوت مرزوق بدندنة خافتة منشغلاً بسحب الماء من البئر.

خطر لغوما لحظتها أن يقول لمرزوق ما فكر فيه منذ أمد. إذا لم تبلع مبروكة لسانها وتكف عن الثرثرة فسوف أجلدها بالسوط. ولكنه تراجع في آخر لحظة. أعطاه الحلوى وسأله عن الأحوال وقفل راجعاً مقرراً يومها قضاء القيلولة بالبيت. في طريق العودة حياه أمود وهو منهمك في تهيئة حزم البرسيم الشاحب وحملها للماشية في الحظيرة الملاصقة لكوخ مرزوق.

في طريق العودة هنأ الشيخ نفسه لأنه استطاع أن يكبح ما نوى أن يقوله لمرزوق بشأن مبروكة وقال ان الدخول في متاهات النساء لن تنتهي إذا بدأت. والأفضل أن يأخذ الأمر على أنه دعابة كما نصح مهمدو. الرجل لن يستطيع مهما فعل أن يقوّم امرأة واحدة، طالما خلقها الله امرأة وليس مخلوقاً آخر يمشي على أربع كالدواب أو يزحف على بطنه كالأفعى. والحق أن المرأة هي أقرب مخلوقات الله وأكثرها شبهاً بالأفعى. ويبدو أن صداقتهما الوطيدة التي وردت في الكتب السماوية ويرجع عهدها الى بداية خلق الكائنات لم تكن من قبيل الصدفة. استطاعتا بما وهبتا من لؤم أن تتآمرا على آدم نفسه وتدفعاه بالإغراء وتزيين الإثم الى تذوّق التفاحة فحقت عليه اللعنة وأخرجه الله من الجنة ليهيم على وجهه في البرية ويندب حظه إلى يومنا هذا. ولولا هذه المؤامرة القبيحة التي نسجتها الأفعى - الشيطان بمساعدة حليفتها المرأة لهنأ بال الإنسان في الجنة وكفاه الله شرور

البرية. وها هو يعاني الجوع والعطش والحرّ والتطاول في الزراعة!
وباتا الآن تمارس هذه اللعبة وتسعير دور الأفعى الشيطان لتلفيق الأكاذيب.
وإذا كان الشيطان استطاع أن يتنكر في هيئة الأفعى فإن الأفعى تمكنت من أن تتنكر في مسوح امرأة كي تخدع الرجل وتلدغه في المخدع عندما يأوي للفراش!
إبتسم الشيخ وهو يدخل الخباء ويمسح خيوط العرق. توجه الى الركن وصب الماء من القربة في الإناء وسكب على رأسه. إشتعل الجحيم مبكراً جداً اليوم، إذ لم ترتفع الشمس فوق المغارة إلا بأشبار قليلة.. وبرغم ذلك نفث الجوّ أتونا منذ الآن.
راقب السراب يتموّج في العراء الممتد في مواجهة الخيمة كأنه ألسنة لهب حمراء.
في المدخل داعب الكلب عظماً جاءت به العجوز منذ يومين. انطرح على ظهره ورفع العظم بمخلبيه الى أعلى في حركة استعراضية ثم تلقفه بأنيابه في الهواء ونهض على أربع وألقى بالعظم جانباً وسعل مرتين وتسلل إلى الجانب المقابل في الخيمة وهو يمد لسانه الطويل ويلهث بصعوبة. أقعى في الزاوية المواجهة ورمق الشيخ بنظرة كسولة.
قال غوما:
ـ تذرع بالصبر. قريباً يأتي الخلاص. العجوز مهمدو يعدنا بالخلاص.
وضع الكلب رأسه على قائمتيه الممدودتين دون أن تتوقف عيناه عن النظر الى الشيخ الذي تمدّد على الفراش في استرخاء.
صمت زمناً ثم أضاف:
ـ أراك لا تصدقني. ألا تثق بمواهب صديقنا العجوز؟ آ. هل تشك في قدرات مهمدو؟ إعترف الآن. أراهن انك تشك...
لاحظ العجوز قادمة تحمل طبقاً بين يديها فلاذ بالصمت. قال في نفسه أنها ستفجع إذا سمعته يتحدّث مع الحيوان وستقول انه بدأ يخرف ويخترف. وبرغم ثقته في أنها ستكتم الأمر إلاّ أن آلامها ستكون شديدة. ومن أجل ألاّ تتألم قرر أن يؤجل حديثه مع الكلب. وضعت أمامه عصير التمر بالحليب وكأساً كبيراً من شاي أحمر خفيف. هجم على وعاء العصير وهو يقول:
ـ هنيئاً لك هذا ما كنت أحلم به منذ أيام. لا يروي العطش مشروب مثل عصير التمر المخلوط بالحليب...
أزاح اللثام عن فمه فأطلت شعرات لحيته البيضاء. قالت العجوز في نفسها أنه

كبر وشاخ في السنوات الأخيرة. لحيته البيضاء دليل على ذلك.

تجرع العصير من الدورق حتى آخر قطرة. مسح شفتيه بظهر يده وأكمل جملته:

ـ العصير جاء في الوقت المناسب. إن استطعت سبيلاً فلا تتوقفي عن صنعه حتى يعطف الله.

قالت:

ـ لم أر في حياتي أياماً كهذه. لم تشهد الصحراء ناراً مثل هذه. رحمتك يا رب!

لم تكد العجوز تكمل جملتها حتى سمع الهرج. أطلت برأسها خارج الخباء وكررت: «رحمتك يا رب.. يا رب رحمتك..» فاعتقد الشيخ أنها تواصل جملتها وعندما تكرر الدعاء أدرك في نبرتها هلعاً خفياً فخرج من الخيمة.

في تلك اللحظة كان الأهالي يعاركون ألسنة اللهب وهي تندلع في أحد الأكواخ الغربية. تتصاعد وتتطاول في عناد لتلتهم أسوار الجريد المجاورة. الشباب والشيوخ والنساء يتدافعون لإطفاء الحريق حاملين جرادل الماء في محاولة للسيطرة على النار ومحاصرتها حتى لا تنتقل الى الأكواخ المجاورة.

أسرع الشيخ لارتداء نعليه عندما حدثت تطورات جديدة. تحوّلت الجلبة الجماعية وضجيج الأصوات إلى صراخ أطفال وعويل نساء وصياح الرجال.

ركعت العجوز على ركبتيها وغرقت في قراءة الأوراد. التفت الشيخ فإذا برجل يركض ناحيته وقد تشبثت النيران بملابسه. جمهرة الأهالي تلاحقه وتتسابق خلفه. منهم من يحمل جرادل الماء لإطفاء الحريق المندلع في ملابس الرجل، ومنهم من يسعى للإمساك به وطرحه أرضاً. أمّا النساء والأطفال فشاركوا في المظاهرة بالعويل والصراخ.

تلاحقت المظاهرة خلف الرجل الذي انطلق باتجاه مجموعة الأكواخ الغربية محاولا أن يفلت من ألسنة النار فتزداد شراسة وجنوناً كلّما تقدم وأسرع في العدو.

بجوار خيمة الشيخ إنحرف يميناً نحو السفح ولكن غوما ظهر من خيمته فجأة وهو يلقي على ظهره ببرنسه الصوفي الشتوي الأزرق واعترض الرجل وهو يجري بسرعة لم يعهدها فيه أحد من قبل. التقيا (أو بالأصح اصطدما) عند بداية المنحدر وأطبق الشيخ بحركة بارعة على الرجل المشتعل واحتواه بين ذراعيه. لفّه بالبرنس وسقطا معا على الأرض. تدحرجا عبر المنحدر في كتلة واحدة يغطيها

البرنس الأزرق في حين تدافع الرجال حول الكتلة المتدحرجة محاولين إغراقها بالماء. ولكن الشيخ آهر لحق بالجمهرة وتقدمهم في تلك اللحظة وصرخ بأعلى صوته:

ـ الماء! أبعدوا الماء!

كان أمود أول من هيأ جردله كي يدلقه على الرجلين المتلاصقين اللذين ينبعث منهما الآن الدخان والغبار فأسرع آهر ينتزع منه الجردل ويصرخ بوحشية:

ـ أبعدوا الماء. لا تدلق الماء يا غشيم! إبتعد من هنا!

توقفت الكتلة في حضيض المرتفع، وأحاطت بها جمهرة الرجال. وصلت جموع النساء أيضاً وبدأت بصيحات الخوف. تشبث الأطفال بثياب أمهاتهم الفضفاضة وهم يرتجفون من الهلع. تقدّم الشيخ آهر ليكشف الحجاب عن الكتلة. فأطلّ رأس الشيخ غوما أولاً، تآكل طرف لثامه وتصاعد الدخان من ملابسه. فتح عينيه وغرس مرفقه في التراب وبدأ ينسل من لفافة البرنس وينفصل عن الجسد الآخر الذي يتنفس بصعوبة راقداً بين ثنايا البرنس والدخان ينبعث من تحت اللباس.

في تلك اللحظة رأى الشيخ غوما وجه رفيقه: الشيخ خليل!

أمر آهر بإحضار محفة فتبادل الرجال النظرات وارتفع صراخ الأطفال فنهرهم آهر وطلب أن يبتعدوا. نزع جرده وطرحه على الأرض. أشار للشباب أن يتقدموا بإيماءة من رأسه. أحاطوا بالجسد ونقلوه في الجرد ملفوفاً ببرنس الشيخ غوما.

لحظتها انطلقت صرخة:

ـ انظروا!

كانت النار التي لم ينتهوا من إطفائها قد استغلّت الفرصة وانفردت بالأكواخ؛ ارتفعت سحب الدخان فوق صف الأكواخ الغربية وشرعت ألسنة اللهب تلتهم السعف وأعواد الجريد في شراهة. تدافع الرجال على أعقابهم حاملين جرادل الماء. هرولت بعض النساء خلفهم يتبعهن فريق من الصبية.

في الخيمة جلس الشيخ يتفقد الحروق في ذراعه اليمنى في حين انشغل آهر وجماعة تخلفت عن جموع الرجال للاعتناء بجروح خليل الذي بدأ يئن بصوت واهن. أقبلت امرأته وانكفأت فوق جسده وهي ترتعد خلف ردائها الأسود.

أما الكلب فقد قفز نحو غوما وتمسّح برجليه مثل هرة حنونة مصدراً أصواتاً موجعة.

أقبلت الزنجية العجوز بالمراهم والزيوت ومستحضرات الأعشاب. وضعتها أمام

الشيخ ريثما ينتهي آهر من عملية فصل الملابس الملتصقة بجسد خليل المحروق. إنكب الرجال وتحلقوا حول الضحية المسجاة على الكليم في وسط الخيمة. وكان آهر لا يكف عن إلقاء التعليمات للشباب الطائش.

وقفت العجوز تتفرج. بعد قليل لاحظ الشيخ غوما أنها بدأت تصطفق أيضاً فأمرها بأن تغادر المكان.

ولكن العجوز تراجعت خطوتين مترددتين وتوقفت وهي تراقب الجرح في يد الشيخ وقد انبثقت حبات الدم بعد أن أكلت النار الجلدة وأطلّ اللحم العاري.

تمتمت وهي تسحب اللحاف على وجهها حتى غطّى عينيها: «كنت أحس أن هذا الجحيم لن ينتهي على خير. اللّهم ارحمنا..».

(٨)

لم يعرف السبب في إندلاع الحريق.

امرأة الشيخ خليل أكدت أنها لم تقرب الموقد ولم تولع ناراً في ذلك اليوم. فاكتفت بتقديم اللبن والتمر على الغداء تخفيفاً من حدّة الحر وترويحاً عن نفس الشيخ خليل الذي ظلّ يلهث طوال النهار مثل «كلب الشيخ غوما» - على حد تعبيرها - واستلقى على قفاه بجوار العمود وشحذ من الله بصوت مسموع أن يمن عليه القيلولة ويأتي لعينيه بالنعاس الذي حرمه منه الحر طوال الأيام الماضية. ومضت امرأة خليل في قصتها فقالت انها كانت تهم بأن تضجع أيضاً وتهجع للراحة ليس رغبة في النوم - إذ لم تتعود أن تنام في النهار - ولكن قتلاً للوقت ريثما ينصرف النهار ويتزحزح الحرّ فسمعت حفيف النار وهي تلتهم الجريد اليابس. أنصتت للصوت مدة من الزمن معتقدة أن الفرج جاء وتحرّك الهواء بالنسيم حتى غزت أنفها رائحة الشياط والدخان فوثبت إلى الخارج وإذا باللهب قد سيطر على نصف الكوخ. ونفت بشدّة أن تكون النار قد غدرت بالشيخ وأمسكت بتلابيبه أثناء النوم كما رددت بعض النسوة وقالت ان النار أمسكت بثوب الشيخ أثناء إطفاء الحريق بعد أن ارتفع الصياح وهرع الرجال لمحاصرة الألسن الوحشية.

أمّا الجارات فروين قصصاً أخرى. إحداهن أقسمت بالله وبالأولياء أنها رأت بعينها شعلة من النار تتسكع في العراء وتتدحرج حتى استقرت في رأس كوخ الشيخ خليل فاشتعلت النار في الجريد وسببت في الحريق.

وبرغم قسمها وتأكيداتها وبرغم ميل الأهالي الخالد لتصديق المعجزات إلا أنهم لم يصدقوا هذه الخرافة قائلين ان الشيخ خليل إنسان مسالم وطيب ولا يوجد مبرر كي تقسو عليه الآلهة وتنزل به هذا العقاب. وقالوا ان هذه المعجزة

يمكن تصديقها لو حدثت لباتا وليس للشيخ خليل. هنا احتكمت هذه المرأة الماكرة الى الغموض فقالت: «له في كل شيء حكمة. ما يدرينا ماذا يفعل الشيخ خليل في الخفاء؟!» فأسكتتها بقية النساء بنظرات إستنكار صامتة.

أمود قدّم فرضية أخرى لنشوب الحريق.

قال انه وجد شظية من مرآة على بعد أمتار قليلة من الكوخ إنعكست عليها أشعة الشمس فعكست الشعاع على جريد الكوخ مما أضرم النار. اعترض بعض الشباب الذين يروق لهم أن يتباهوا بفراستهم وقالوا ان تلك المنطقة من العراء التي تتناثر فوقها الأكواخ مليئة بالشظايا من كل نوع فلماذا لم تتسبب في الحريق. أجاب أمود ببرود أن السبب في هذه الحالة يرجع إلى وضع الشظية المائل، إذ كانت عندما وجدها متكئة على حجر صغير مما وجّه أشعتها وركزها على نقطة في جريد الكوخ.

أمود يسحب لثامه على وجهه ويمشي بين الأكواخ فخوراً باستنتاجاته وحججه. ولكن أحد الخبثاء من الشباب أراد أن يقصر من عمر فرحته قائلاً: «تتباهى بالعلم والمعرفة حتى فضح الشيخ آهر غشامتك عندما أردت أن تسكب الماء على جسد يحترق..». قهقه الجماعة ولكن أمود مضى في طريقه دون أن يعير التعليق إهتماماً.

والواقع أن القليلين من الشباب الذين يعلمون هذا السرّ الذي غاب عن بال أمود يومها، وأحزنه الأمر إلى حد أنه بدل أن يهتم بالشيخين المتضررين تقدّم من أحد العقلاء المتجمعين في الحلقة وسأله في غمار الربكة عن السبب الذي دفع الشيخ آهر بأن يهجم عليه وينتزع منه جردل الماء بتلك الخشونة فرمقه الرجل بإستنكار ولكزه بكوعه لكزة أليمة وأدار له ظهره وبدل أن يتوقف جرى وراء الرجل وأعاد عليه السؤال. ويبدو أن الرجل أعجب بإصراره فقال وهو يضغط على مخارج الكلمات ويرفع صوته كي يسمعه أقرب الناس: «لأن.. لأن. لأن الماء يساهم في إلصاق الثياب بالجروح والحروق فيصعب عزلها وإنتزاعها».

رجح أمود لحظتها أن تكرار الرجل لكلمة «لأن» ثلاث مرات لجهله بالسرّ فردد الكلمة حتى يقتنص الفرصة ويفكر في إختلاق بدعة. ولكن إكتشف خطأ هذا الزعم فيما بعد عندما أكّد له أكثر من خبير صحة الفرضية وإجماع الناس عليها. تجمع حوله الشباب بعدها وحاصروه بالتعليقات وعبارات السخرية. ولكنه شد طرف لثامه على أنفه وقال بأنفه: «لا يستطيع الإنسان أن يكون عالماً في كل شيء. أنا لست عطاراً ولا طبيباً».

ولكن أقرانه الشباب يمعنون في إستفزازه فيعلن أحدهم: «تدعي الشطارة وأنت لا تختلف عنّا. ولولا الشيخ غوما لكان خليل يرقد الآن في المقبرة».

أصيب الشيخ خليل بجراح خطيرة. التهم اللهب المجنون نصفه العلوي ابتداء من خاصرته حتى قمة الرأس. ويرقد الآن على ظهره غارقاً في الوسائد مربوطاً بالضمّادات فلا يبدو من وجهه سوى عينيه الكسولتين وصدره يعلو ويهبط مصدراً أنيناً كئيباً متقطعاً. وبرغم أن امرأته قالت انها إستطاعت بالأمس أن تطعمه بحساء الدجاج إلا أن الممرض الذي جاء من الواحة للعناية به أكّد أن حالته ما تزال خطيرة.

أما الشيخ غوما فربط يده بضمادة ولزم الفراش بضعة أيام ثم خرج يحمل يده الملفوفة بقطعة شاش ناصعة وذهب في جولته التقليدية إلى الحقل يتبعه كلبه. ولكن صحته لم تسمح بعد أن يواصل طريقه ليقفل أضلاع المثلث فاضطر أن يختصر رحلته اليومية ويعود إلى البيت من منتصف الطريق ليجد الشيخ آهر في إنتظاره أمام مدخل الخباء. يتبادلان الأسئلة ويقوم آهر بتفقد الجرح ويغير الشاش ويدهن الحروق بالمراهم ويتوجهان معاً لزيارة الشيخ خليل في كوخه الجديد الذي تعاونت القبيلة في تشييده خلال يوم وليلة بعد أن جاءت مفرزة من الفلاحين حاملين أكداس الجريد الأخضر تبرعاً ومساهمة لإعادة بناء الأكواخ. ولم يكتفوا بجلب لوازم البناء من جريد وجذوع نخيل ولكنهم تطوعوا للمساعدة، فمكثوا الليل كله مع الأهالي منهمكين في تصفيف الأعواد رافعين أصواتهم بالأغاني الحماسية التي ما لبثت أن تحولت مع إقتراب الفجر إلى جوقة من الترانيم الحزينة. وعندما اقترب الشيخ آهر وأبدى لهم خشيته من أن تكون هذه النزعة الموحشة في الغناء سبباً في اليأس قالوا ان نبرة الحزن تحفز على العمل. وذهب أحدهم (وهو فلاح أكتع نشط يتقافز هنا وهناك مائلاً في مشيه الى الجهة اليمنى) فقال وأسنانه تلمع تحت ضوء القمر بابتسامة لا مناسبة لها: «ما هي الحياة يا شيخنا إذا لم تكن أغنية حزينة؟».

ولم يكن الشيخ آهر يخفي دهشته بحكمة هؤلاء الفلاحين منذ جاء إلى الواحة. أعلن ذلك للشيخ غوما فحدجه بنظرة خاطفة وأسرع يخفي رأيه خلف الصمت واللثام.

في اليومين اللذين أعقبا إندلاع الحريق تولّى آهر شؤون القبيلة فوجد نفسه يضطلع بمسؤوليات ويفتي في أوامر لم يقرأ لها حساباً بداية بإعادة تشييد الأكواخ المحترقة ونهاية بإبداء الرأي في تنازع عائلي أو خلاف نشب بين عائلة

وأخرى أو عشيرتين أو أفراد مروراً بالتزامه نحو رفيقيه المريضين. يمر على بيت خليل أولاً للإطمئنان على حالته ثم ينطلق لزيارة الشيخ غوما فيحتسي معه كأس شاي ويغيّر الضمّادة على يده ويساعده في إرتداء لثامه ثم ييمم شطر الواحة أو الحقول أو الأكواخ للقيام بالواجبات الدنيوية. يفض النزاعات، يقايض البضائع في السوق. يشتري الغلال من البيدر. يستضيف تجار القوافل القادمين من غدامس أو غات أو تامنغست أو أغاديس. يقضي نهاراً حافلاً بالنشاط ولا يعود إلى بيته إلا في القيلولة ليحتمي بالظل ويهرب من جحيم الأيام العصيبة. ولا يلبث أن يتحامل على نفسه ويخوض في حرّ العشية مضطراً كي ينجز ما لم يتمكن من إنجازه في النصف الأول من النهار. ليزور المريضين أولاً ليواصل طريقه إلى الجنوب نحو البيادر أو إلى الشمال نحو الواحة.

رجع آهر من جولته في السوق مع القيلولة وتوجه مباشرة الى الخيمة فجاءتهما الزنجية بالغداء المخصص لمواسم القيظ: العصير المصنوع من تمر الموسم الماضي مخلوطاً بحليب الماعز وطبق من التمر الرطب. تعمدت الزنجية أن تدللهما فنوّعت في الطبق ومزجت أفخر أنواع التمور الرطبة: تاليس، تافسرت، خضوري، لاضوي وأنواع أخرى لا يعرف أسماءها. قدّمت لهما أيضاً قدحين كبيرين من اللبن الحامض. وفي العشية توجها معاً لزيارة الشيخ خليل. فتح جفنيه وحيّاهما بعينيه وهو يئن بصوت مخنوق. تولّى آهر الأسئلة والإستفسار عن صحته.

أما غوما فيجلس صامتاً يسترق النظر نحو المريض خلسة من تحت لثامه ثم يهرب ببصره سريعاً بمجرد أن تلتقي عيناهما ليسقط على تخطيطات آهر على الرمل. يتوقف طويلاً. يراقبه وهو ينهمك في رسومه بعناية. وربما تكون امرأة الشيخ الطريح قد اندهشت للوجوم الكئيب وهي التي عهدت فيهما شهوتهما للكلام.

وقبل أن تنتهي من خلط الدور الثاني من الشاي سمعت الشيخ آهر يقول:

ـ سمعتهم في الواحة يقولون ان الخرفاوي قدّم طلباً لنقله للعمل في واحات الشمال.

أجال النظر بينهما وأضاف بعد صمت:

ـ وعندما طلبوا منه إيضاح الأسباب قال لهم أن القائمقام العثماني سعادي بك كان صائباً في اعتقاده بأن أهل الواحة من سلالة العبيد ولا يستحقون أن يخدم المرء بينهم يوماً واحداً. ها ـ ها ـ ها. يا له من كذّاب!.

حدجه الشيخ غوما بنظرة غاضبة فبلع ضحكته وتشبث بالصمت. نهض غوما

فجأة دون أن ينتظر الدور الثاني من الشاي. توجه إلى البيدر يتعقبه كلبه.

في الحقول، مع إختلال توازن النهار وميل قرص اللهب نحو الغرب، دبت الحركة في الشريط الريفي الملتف حول الواحة: موسم الحصاد.

لمعت المناجل تحت شعاعات الشمس الذهبية وتعالت الصيحات وارتفعت الحناجر بالغناء، وضج الأطفال بالفرح. وكبحت الفلاّحات ألسنتهن وكففن مؤقتاً عن الثرثرة واستعضن عن العادة بترديد المواويل والأهازيج والقصائد إبتهاجاً بحلول الموسم.

بلغت البهجة ذروتها مع غروب الشمس التي انكفأت خلف تلال الرملة مخلفة تخطيطات أرجوانية بديعة على المرتفعات. انداحت غمامة الحر وتنفست الأرض والناس.

لم تهب تلك النسمة الالهية التي طال إنتظارها عقب الغروب مباشرة. وإنما ظلّت موجات الصهد والبخار تتصاعد من الأرض والأجساد حتى كبّر الشيخ غوما لصلاة المغرب تحت نخلته الهيفاء بجوار عين الكرمة.

جاءت البشارة بالنسيم الشمالي البحري بعد إنتهائه من الصلاة. توجه إلى قلعة مهمدو لأول مرة بعد الحريق عازماً أن يؤدي دورته ويقفل أضلاع المثلث.

من الشمال زحفت العتمة وأطلت إشارات تبشّر بسحب واعدة. لم يكد يتجاوز الأحياء المنتشرة شرقي الجبل حتى اشتدت السحب وازدادت كثافة في زحفها نحو الجنوب فتراءى وميض البرق.

مضى زمن طويل منذ شهد الشيخ هذه التظاهرة. سنوات بعيدة تفصله الآن عن ذكرى مواسم الأمطار السخية في الحمادة الحمراء عندما كانت الصحراء تحرص على الجود بالماء الوفير. لم يصدّق عينيه فصعد الجبل. أثارته المفاجأة فعصف به الشجن والذكريات والحنين.

استقبله مهمدو في مدخل المغارة ورحب به بحرارة. قال وهو يفرش حصيراً ويقدم للشيخ طبقاً من الرطب:

ـ مررت بأيام عصيبة لإستدرار الرحمة واستعطاف الله والطبيعة.

ثم وهو يجلس قبالته ويتفحص ذراعه بعينيه:

ـ ولكن الحمد لله.

أشار باصبعه نحو طوابير السحب القادمة وقد بدأ يسمع صوت رعد بعيد.

قال الشيخ وهو يقضم حبة تمر:

ـ الحمد لله. لم أسمع صوت الرعد منذ سنوات طويلة.

نهض العجوز فقال الشيخ في نفسه أنه ازداد نحافة خلال الأيام الماضية.
قال مهمدو:
ـ سمعت بالحرائق ومأساة الشيخ خليل. تابعت كل شيء ولكنني لم أستطع أن أنقطع عن الطقوس فيفسد الأمر. طمئني عن صحتك.
ـ أنا بخير أما الشيخ خليل فحظّه أسوأ. حاله ما تزال سيئة..
غسل مهمدو عالة الشاي في طست كبير بجوار المدخل. ألقى بالحطب في الموقد وقال باسماً:
ـ ربما لحقنا أن نشرب كأساً في العراء قبل أن تدركنا رحمة السحاب...
تمتم غوما:
ـ أنا على إستعداد لأن أضحي بهذا الكأس على أن تدركنا الرحمة بأسرع وقت.
ضحك العجوز بأريحية وأضاف غوما مساهماً:
ـ المطر. المطر. أنا في شوق إلى المطر. هدير الرعد. وأنوار البرق وخيوط المياه المدلاة من السماء. ثم تندفع السيول في الأودية جارفة الأحجار والأشجار والحيوانات... يا حسرة!.
سحب الهواء بعمق وتابع مسيرة السحب الزاحفة نحو الواحة ببطء فرّك يديه كطفل وعد بأن يكافأ بقطعة حلوى. أضاف بعد قليل:
ـ من يدري. ربما كانت موجة الحرّ الأخيرة بادرة خير. إنحراف في المناخ يعيد للصحراء أمجادها القديمة.
رمقه مهمدو وانشغل بإعداد أدوات الشاي محاذراً أن يوقظ الشيخ الغارق في أحلامه.
ساد سكون خرقته دمدمة الرعد. اقترب زحام السحب فتعالى ضجيج الصبية في أزقة الواحة.
مع كتل السحب زحف الظلام.
تساءل غوما:
ـ هل تعبت كثيراً؟
ـ إستدرار الرحمة يتطلب التعب دائماً.
صمت العرّاف لحظة قبل أن يعلن وهو يرمق الشيخ خفية:
ـ أصعب مرحلة في العمل كله هي تلك المتعلقة بأظافر الطفل. أقول الحق: لم يخل الأمر هنا من ألم..

لمعت خيوط البرق النارية وزمجر الرعد قريباً جداً.

هبت أول لفحة باردة. نسيم الشمال. رسول السحب. يستطلع مقدمة السحب، يهش الحرّ والغبار ويفسح الطريق أمام موكبها المقدس.

رفع الشيخ نحوه نظرة مستفهمة فهزَ العرّاف رأسه موافقاً.

قال:

- نعم. نعم أنت الوحيد الذي أردت أن أعترف له بحقيقة ما حدث ذلك اليوم.

حدّق فيه غوما مشدوهاً. ثم غالب نفسه كي يحرك شفتيه بالسؤال:

- هل تريد أن تقول انك... أنت الذي اقترف تلك الجريمة البشعة؟

ابتسم مهمدو وهو يثبت بأصابعه النحيفة وعاء الشاي فوق الجمر. إعترض:

- ولماذا تسمّي ذلك جريمة؟

- وماذا يمكن أن أسمّي التنكيل بالجثث ونبش قبور الموتى؟.

- هذه خرافات.

- كيف تسمّي التمثيل بالموتى وإهانة المقدسات خرافات؟.

- أنا أعني ما أقول. الشاة لا يهمّها سلخها بعد ذبحها.

كان الشيخ غاضباً فلم يلحظ كيف انحسر لثامه عن فمه فبدت لحيته البيضاء. حول شفتيه تناثر زبد. سورة الغضب لم تسمح له أن يحس بقطرات المطر الأولى. قطرات كبيرة. متباعدة.

قال منهمكاً:

- الشاة لا يهمها سلخها بعد ذبحها! الإنسان كائن مقدس وتشبيهه بالشاة تجديف في حق الخالق.

ولكن العراف إستمات:

- إذا غادرتهما الروح فكلاهما جثة. والجثة نجاسة في عرف الله. هكذا يؤكد القرآن.

- لست فقيهاً في الدين ولكنني أعرف شيئاً واحداً: حرمة الميت وقداسة الموت تمنعنا من العبث بجثمانه. وما فعلته تنكيل برفات طفل لم يتجاوز السادسة.

في تلك اللحظة انهمر المطر وغمرهما الماء دفعة واحدة. إنطفأت الجمرات في الموقد وعلا صياح الصبية عند حذاء الجبل وضج الحي القديم بالصخب والفرح.

بكى الكلب وعوى بالشكوى وهو يقترب من الشيخ ويتمسّح بمنكبه بحثاً عن مأوى.

ولكنهما لم يغادرا مكانهما.

قال العراف بحزن:

ـ أنت تعرف أنني لم أفعل ذلك من باب العبث أو التنكيل. كنت أجاهد جهاداً كي أنقذ الواحة من الحرائق وأتسوّل لكم حتى يرق قلب الطبيعة.

احتج غوما بعناد:

ـ لا شيء يبرر إهانة الموتى ورفس الأضرحة بالأقدام.

ابتلت ملابسهما فأضاف مهمدو وهو يرفع رأسه نحو السماء المنهمرة بالمطر فتغمر الشآبيب وجهه وتنحدر على رقبته ومنكبيه:

ـ لا يعد إهانة ذلك العمل الصالح الذي ينقذ الناس من الحريق. للعمل الصالح ثمنه. لا شيء بلا ثمن!

ـ لا يمكن أن يكون الإثم ثمناً للعمل الصالح.

ـ الإنسان شقي بطبيعته فلماذا لا نخفف عنه شقاءه حتى لو إتخذنا الإثم ـ كما تقول ـ أداة في هذا السبيل؟

ـ هذا فظيع...

أضاء البرق مدخل المغارة فبديا في جلستهما تحت المطر مثل شبحين.

قال مهمدو وهو يعود فيرفع رأسه المبلل نحو السماء:

ـ انظر إلى نتيجة العمل. تستطيع الآن أن تتنفس الصعداء وتتمتع بالمطر الذي حلمت به منذ سنوات. لولا الأظافر لما وقفت.

ـ هذا فظيع...

ـ حضَرت هذه المفاجأة أسابيع بكاملها وأنا أجمع التعاويذ وأقرأ الأوراد. في الثلاثة أيام الأخيرة لم أر الضوء. المرحلة الأخيرة شاقة. تكرار آية الكرسي بالمقلوب عشرات المرات.. مخ الديك. سفك دماء قطة أنثى سوداء و.. أظافر طفل لم يبلغ السابعة من العمر ولم يمض على موته ثلاثة أيام. الشروط تعجيزية كما ترى..

إنفجر بضحكة مكتومة ثم أضاف كالمأخوذ:

ـ إنني أبوح لك بأسرار المهنة. أنت الوحيد الذي أبوح له بأسراري...

عاد يقهقه. أثار الشيخ فنهض واقفا وخيوط الماء تقطر من ملابسه.

أفسد عليه العراف غبطته بالمطر حتى أنه لم يعرف متى وصل إلى البيت.

برغم البرد المنهمر من السماء إلا أن أعماقه ظلت تغلي كالمرجل.

(٩)

لا أحد يذكر من الأحياء متى شهدت الواحة أمطارا آخر مرة كما لا يذكر

أحد متى شهدت موجة حرّ تعادل الموجة الأخيرة.

ويروي مهمدو أسطورة ورثها عن المعلمين والفقهاء الأولين تقول ان الواحة شهدت ثلوجاً عنيفة هطلت شهوراً كاملة منذ مئات الأعوام.

وامتدت فشملت القفار المجاورة بل وتجاوزتها فشملت الصحراء الكبرى من أقصاها إلى أقصاها. جرّت تلك الموجة من الثلوج نكبات على القوافل فهلكت قطعان المواشي والإبل وتعرضت أندر البضائع وأثمنها للتلف والضياع مثل سبائك الذهب المستجلبة من أواسط القارة وسن الفيل وريش النعام ناهيك عن بضائع الشمال. أمّا التجار أنفسهم فهلكوا ولم يسلم منهم إلا القليلين الذين اهتدوا إلى حيلة أنقذتهم من كارثة الصقيع مثل ذلك الراعي الحكيم الذي تتردد قصته حتى يومنا هذا. تقول القصة أن الراعي إقتطع جزءاً من قطيعه وقرر أن يسوقه أو يقايضه ببعض البضائع فانضم إلى قافلة متجهة نحو تامنغست ومنها إلى تمبكتو. وقد أدركتهم موجة الثلوج الخرافية قبل أن يجتازوا جبال الهوجار فركنوا إلى سفوح المرتفعات وبحثوا عن الملاجيء خلف الصخور والنتوءات والأحجار آملين أن يتوقف ذلك السيل من قطع الصوف الناصعة المتدفقة من السماء ليلاً ونهاراً فتدثرت الصحراء بثوب أبيض وتلثمت المساحات الرملية الذهبية بطبقة من الملح المنفوش.

إندس أثرياء التجار خلف بطاطين الصوف والأردية السميكة الفاخرة وهم يصطفقون. أما الراعي اليائس الذي لا يملك غطاء غير السماء فقد سهر الليل كله وهو يدحرج صخرة كبيرة إلى قمة الجبل، حتى إذا اقترب من القمة ترك الصخرة تتدحرج نحو السفح فيركض وراءها ويعيد دفعها إلى أعلى مرة أخرى. استمر يعارك الصخرة حتى الصباح عندما وجد جميع التجار جثثاً هامدة بعد أن جمّد الثلج القاتل الدماء في أجسامهم فأسلموا الروح خلف بطاطينهم وأغطيتهم.

ولم ينج من البلاء في تلك القافلة سوى هذا الراعي.

ابتدع بعض سكان الواحة أسلوباً مماثلاً لحماية أنفسهم من تلال الثلوج فقضوا الليالي والأيام يتبارون في المصارعة ويهرولون في أزقة الحي القديم يطارد بعضهم بعضاً وينظمون المسابقات في الجري. ولا يعلم أحد عما إذا كان ثمة حكماء في الواحة أشاروا عليهم بهذه الحيل أم أن الدفاع عن النفس في وجه الفناء هو صاحب الابتكار.

أمّا الفريق الآخر فقد هلك ولم ينج من هؤلاء إلا نفر قليل. ولم تنقذهم مواقد النار ولا الكهوف التي حفروها في سفح الجبل لإتخاذها ملاجيء. إذ غمرت الثلوج كافة المخابيء وأغرقتها وجمدت الكائنات والمخلوقات.

ولكن، مع ذلك، ظل أمر الثلوج أهون من الكارثة التي جرّها الطوفان عقب ذوبان الثلوج. فغرقت البيادر ومساحات الأرض المزروعة وغمرت المياه الأكواخ وحظائر الحيوانات وبيوت الطين واستمرت المياه في الإرتفاع على شريط الجبال الشمالية فتدفقت السيول نحو الواحة ورفعت من مستوى الطوفان حتى بلغ المغارة في قمة الجبل فاستحال المنخفض إلى بحر من الماء تطفو فوقه أعراف النخيل وأعشاش الطيور وبعض الأواني والقدور التي انتزعتها يد الماء الطويلة من أمتعة الأهالي. ولم يكن أمام السكان مفر من الفيضان إلا الهرب إلى أحضان الرملة التي كانت الى وقت قريب عدوهم اللدود فأصبحت لهم الآن منقذاً. فنجا كل من جاءها طلباً للنجاة من الماء. أما الفريق الذي فرّ إلى الجبال الشمالية فقد هلك مع مواشيه وأغنامه حيث استقبلت اللاجئين سيولٌ جارفة غمرت قمم الجبال التي اعتصموا بها فغرقوا مع أحمالهم من الممتلكات والثروات والقطعان.

واعترافاً من أهالي الواحة بالجميل الذي أسدته لهم الرمال ذلك العام وإخلاصاً لما كفلته لهم من حماية كافأها العقلاء بتأليف ذلك المثل الذي تحوّل إلى حكمة حيّة على كل لسان: «احتم بمن تخشاه» فيرددها الأهالي الآن بنشوة مستمدة من تجربة الأولين حتى أصبحت جزءاً من تراث الواحة الأدبي.

وإذا كان الطوفان في ذلك العام قد جر على الواحة كل تلك الخسائر سواء في الممتلكات المادية أو أرواح البشر والحيوانات إلاّ أن الحكماء والفقهاء رأوا فيه خيراً وفيراً. إذ دعم منسوب المياه في الأنهار الجوفية بقسط غزير سيساهم في مدّ العيون باحتياطي يكفي للإستهلاك وري الحقول لمئات السنين، وهو أمر لم يخطر ببال البسطاء من الفلاحين والأهالي الذين يعتقدون أن تلك الأنهار الخفية الجارية في أحشاء الصحراء لا تنضب.

وبقدر غبطة الأهالي وفرحتهم بالمطر المفاجىء بقدر ما كانت خيبتهم كبيرة عندما توقف وانقشع السحاب بعد ساعات قليلة.

وكانت خيبة أهل الصحراء أقوى وهم الذين تعودوا في المواسم الممطرة بالحمادة أن تخرخر المياه من السماء بسخاء طوال أيام كاملة فاعتقدوا الآن أن الله قد أشفق عليهم وأعاد لهم الهدية التي حلموا بها سنوات طويلة كما في الأيام الغابرة. فابتلعوا تهانيهم التي خبأوها لبعضهم في الصباح وكتموا غيظهم ونسوا أن يحمدوا الله على نعمته في إجلاء الحر فلجأوا إلى مراقدهم حتى إذا قاموا في الصباح وجدوا مياه الأمس قد اختفت خلف مسام الأرض العطشى وقابلتهم السماء بوجه عابس محتقن بغيوم ملونة تهدد بالعجاج وتنذر بالعاصفة والانتقام.

الحكماء فقط يخبرون هذا النوع الملوّن من الغيوم.

نهض الشيخ مبكراً واقتعد الأرض في مدخل الخيمة في مواجهة الكلب وشرع يداعب حبّات مسبحته ويراقب الأفق الجنوبي وهو يكتظ بالغبار ويوعد بالريح.

هرعت الزنجية حاملة طبقاً مزدحماً بالطعام: فطائر مخلوطة بمحار البيض وثلاث قطع من الكعك، ونصف رغيف خبز تنور بالكركم وكوب من اللبن وإناء الشاي. استغرق في قراءة التسابيح وهو ينظر إلى هذه الوليمة ويتساءل عن المناسبة حتى توصل إلى أن العجوز تعتبر هطول المطر عيداً يجب الاحتفال به، فابتسم تحت اللثام وصعّد في التلاوة حتى لا يجد نفسه مضطراً للدخول في حوار في ذلك الوقت المبكر من الصباح، فوقفت المسكينة لحظات ثم استدارت وعادت إلى كوخها. سخر الشيخ من الاحتفال بالمطر لأنه يقرأ الآن في الأفق بوادر ستمحي كل أثر وتجعل أهل الواحة الأشقياء يدفعون ثمن فرحة لم تتم.

إحتسى كوب الشاي وترك الأطعمة السخية في الطبق. دس المسبحة في جيبه وتوجه إلى الحقل.

تفقد الجداول المصففة في حدود البيدر غرباً والمخصصة لزراعة الخضروات والبقول فوجد الذبول قد تسلل إلى الطماطم والفلفل والخيار.

أقبلت مبروكة تجر خلفها حزمة من سنابل القمح فسألها عن حالة الطفل المريض. وقفت خلف أحراش نخلة صغيرة ناشئة وشدّت رداءها لستر وجه مزين بالحلي الفضية وقالت ان الطفل على نفس الحال برغم أن الفقيه مبروك دبّار تولّى الأمر وكواه في رأسه ورقبته بالنار. أمّا مرزوق فقد سقط فريسة أوجاع البطن.

قال غوما:

ـ منذ زمان وأنا ألح عليكم في أن تكفوا عن حرق جسد الطفل بالنيران. هذا لن يفيد في علاج هذا النوع من الأمراض. أما مرزوق فقولي له أن يتوقف عن الإسراف في أكل العجين.

صمت ثم أضاف مقرراً أن يتملق مواهبها:

ـ أنا أعرف أن مقاومة أكلاتك الشهية أمر صعب، خاصة خبز التنور والفطائر والفتات. أنت أمهر امرأة في فزان تصنع الفتات، ولكن الإسراف يؤدي الى الاضرار بالمعدة. أنصحك بمعالجته بالشعير. الشعير هو الدواء الوحيد لكل أمراض المعدة.

أقبل أمود يجر حزماً أخرى من الغلال بحبل مفتول من القنب.

قال الشيخ موجهاً الكلام لكليهما:

ـ الصحراء تهدد بالريح. لا بد من تخزين كل المحاصيل في الأكياس إذا

أردنا أن نحميها من التلف.

قال أمود:

ـ ولكن غلال الحبوب جمعت في موقع الدراس ولم يبق إلا أن نبدأ.

ـ لا بد من دسّها في الأكياس إذا أردنا ألاّ تذروها الرياح.

ـ هل نحشوها في الأكياس بسنابلها؟

ـ ليس أمامنا غير ذلك. لا بد من حماية المحاصيل قبل العشية. الرملة تخبىء مفاجأة والأفق ينبىء بعاصفة قوية.

صمت أمود وأجال بصره بأكوام الغلال والمحاصيل المتناثرة في الحقل وقال ساهماً:

ـ لن أستطيع بمفردي إنجاز العمل قبل حلول المساء.

إقترح الشيخ وهو يراقب مبروكة المنهمكة في مداعبة الكلب:

ـ بإمكانك إستئجار الفلاحين والاستعانة بنساء الحقول المجاورة. العجاج لن يمهلكم طويلاً.

طاف أمود ببصره حول كثبان الرمل ووقف لحظة وهو يقرأ في صفحة الأفق ثم قال كأنه يخاطب نفسه:

ـ ربما مرت العاصفة خارج الواحة. من يدري؟

رمقه غوما بنظرة صارمة. قال في نفسه: «آهر على حق. أمود شاب غشيم حقاً إذا منح الطبيعة الثقة وانتظر الشفقة».

قال بغضب:

ـ لن أستشيرك عندما أقرر أن ألعب القمار مع الطبيعة. اعلم أن الاعتماد على الإحتمالات الحسنة لن يفيد مع ما تخفيه الصحراء. أنصحك في المستقبل ألا تحسن الظن بالطبيعة كثيراً وأنت تعلم أننا لم نتعلم أن نتلقى منها الإحسان أيضاً. التجربة علمتنا أن نحذر الاسترخاء ونكون على أهبة الإستعداد دائماً. أم أن حياة الواحة أنستك؟

أخفى أمود إنفعاله خلف لثامه وهرب ببصره إلى الناحية الأخرى حتى اصطدم نظره بالأفق العبوس فأحس أنه تسرّع فاستحق تقريع الشيخ عن جدارة.

زاد احتقان الأفق وضيقت العتمة الخناق على الواحة الجاثية تحت أقدام جبال الرملة فامتلأت القلوب بالرهبة فساد التوجس والترقب والسكون.

بعد قليل سمع صوت مرزوق وهو يخرق السكون بعبارات الشكوى مردداً بعض اللعنات.

تقدمت مبروكة نحو الكوخ فخرج وهو يزحف على أربع ويردد: «السكاكين. الحشرات. السكاكين والحشرات تتجول في بطني. أنقذوني من الحشرات. الفقيه. أين الفقيه مبروك دبّار؟ بين يدي الفقيه شفائي. ماذا فعلت لك يا ربي؟».

إنكمشت مبروكة وواصل المريض طريقه زاحفاً على ركبتيه ويديه بين الجداول وهو يهذي ويثرثر. مرّ بجوار الشيخ ولكن آلامه أعمته عن الرؤية فلم يتعرف على الشيخ. استمرّ يتدحرج كالحشرة حتى سقط في مياه الجدول فانطرح في الوحل على ظهره وبدا الجنون يقفز من عينيه اللتين اكتسحهما البياض وبدتا تدوران في محجريهما دون أن تبصرا شيئاً. لحظتها لاحظ الشيخ أن بطنه قد انتفخت وأصبحت كالطبل.

أومأ الشيخ برأسه فتقدم أمود وجر مرزوق من رجليه وتوجه به نحو الكوخ.

قال الشيخ في نفسه متهكماً: «لقد وجد الوقت المناسب للمرض! حقّاً ان المصائب تأتي مرة واحدة».

أودعه أمود داخل الكوخ ولكنه ما لبث أن ظهر مرة أخرى وهو يتأوه ويئن ويصرخ ويشدّ بطنه بيديه ويتلوى على الأرض حيناً ويتدحرج أحياناً أخرى طالباً من الله أن يغفر له ذنوبه ويرحمه بالفقيه كي يقطع الجن الذي سكن بطنه.

قال الشيخ يخاطب أمود ويتابع مرزوق:

ـ أنت لا يجب أن تضيّع لحظة واحدة. العجاج لن يمهلنا طويلاً. ينبغي أن تتصرف وسأتدبر أمر دبّار بنفسي!

إنصرف الشيخ ميمماً شطر الواحة. في الطريق اقتعد القرفصاء تحت النخلة الهيفاء وتفقد الجرح في ذراعه. أعاد الرباط على الجرح ثم وقف ورفع رأسه إلى قمة النخلة الرحيمة. توطدت علاقته بها بعد نزول الواحة مباشرة. تجوّل في الغابة وتسكع بلا هدف حتى اهتدى إليها وقضى قيلولة تحت ظلالها. يومها استضافته بثلاث قطع من تمر الرطب. ألقت بها على صدره وهو نائم فأيقظته. كانت التمرة الأولى قد نضجت إلى منتصفها أمّا الثانية والثالثة فكانتا مكتملتي النضج برغم أن موسم الرطب لم يبدأ بعد. كان أول من تذوق الرطب في الواحة ذلك العام. إعتبر يومها هذا الكرم بمثابة عربون للصداقة. يذكر يومها أن التمرة التي أهدتها له قد ذابت في فمه فأحس بنشوة كأنه أكل من تمر الجنة. وضع التمرتين الباقيتين في جيبه وأهدى إحداهما للزنجية العجوز والثانية لآيس. فأبدت الزنجية نفس الملاحظة في اليوم التالي عندما جاءته بشاي الصباح. قالت وهي تدخل الخيمة وتجمع الملابس للغسيل: «لم أذق رطباً مثل تمرة البارحة. طعمها ما يزال في فمي

وأظن أنني لن أنساه أبداً». لم تستطع العجوز أن تنسى ذلك الطعم إذ ذكرتها بتمرة النخلة الهيفاء بعد إقامتهم في الواحة بسنوات. أما آيس فاعتاد أن يضعها مقياساً لجودة الرطب فيقول: «تمرة كتلك التي قدمتها لي عندما قدمنا للواحة أول مرة».

إختبر ذلك بنفسه فالتقط تمرتين في احدى المواسم الماضية وعرضهما على مرزوق فتذوق الفلاح التمرة وظل يلوكها طويلاً متفكراً متردداً في تحديد هوية النخلة: «لاضوي؟ لا. تافسرت؟ لا. خضوري؟ لا. تاليس؟ لا.»[١٦]. إبتلع القطعة، وتمطى وأضاف وقد لمعت حدقتاه ببريق مفاجيء: «آه. هذه تمرة غير معروفة في فزان. هذه تمرة نادرة يا شيخنا. من أين جئت بها بالله؟». ولكن غوما كتم السرّ. اكتشف أنها النخلة الوحيدة التي لا يلقحها الفلاحون ولا يقطفون ثمارها أيضاً بسبب صعوبة تسلّق جذعها الأملس وارتفاعها الهائل بالمقارنة مع بقية النخيل.

قرّر امتلاكها فبحث عن صاحبها فاكتشف أنها النخلة الوحيدة التي لا يملكها أحد في الواحة. استفسر في البداية لدى الجاروف فنفى أن يكون على علم بصاحبها، ثم سأل عدداً من الفلاحين في الحقول المجاورة الذين يملكون أشجار الغابة فأكدوا عدم معرفتهم وقالوا انها نذر لله وللأولياء. أما مهمدو فقصّ عليه أسطورة تقول ان النخلة كانت أول نبتة خضراء ساهمت في تأسيس الواحة. فبعد أن استقر الزنجي والزنجية وولدهما وكلبهما في السهل واكتشفوا نبع الماء تعرضوا لاضطهاد الرياح فنبتت في اليوم التالي ثم تكاثرت أشجار النخيل وامتدت الأحراش عبر السهل وطوقت المكان صانعة سياجاً لصد هجوم العواصف الغادرة. فقهاء الواحة وحكماؤها اعتبروها في الماضي نخلة مقدسة حتى أطلقوا عليها اسم «أم النخيل». وكان الأولون يزورونها في المناسبات الدينية يقدمون لها النذور والقرابين. ولكن الأجيال التالية ضلت الطريق وأنساها الجري وراء اقتناء المال وأمجاد الدنيا مواصلة هذا التقليد الذي توارثه الأبناء عن الآباء من قديم الزمان. وختم مهمدو روايته قائلاً: «وإذا أقلع جيل عن عادة صالحة ورثها عن الأولين فتوقع الشرّ واعلم أن الأفول قريب».

ولا يعرف غوما لماذا استولت عليه فكرة امتلاك النخلة. ربما لأنه تعلق بها من أول يوم. تعلّق لا يمكن إدراكه ولا ترجمته بالكلمات. استولى عليه الإحساس الخفي فذهب وتوضأ في عين الكرمة وأقام الصلاة تحت النخلة وجلس طوال عشية ذلك اليوم يقرأ التسابيح. ويذكر أنه استأجر فلاّحاً ليسقيها بالماء من العين بعد أن لاحظ زحف الرمال على الجذع. أثار سخرية الأهالي فقالوا ان الشيخ غوما لم

يجد عملاً يقوم به سوى ري النخيل العقيم. التقطت باتا فيما بعد أمر النخلة النبيلة فصاغت حولها قصصاً قاسية تسلّت بها نساء الواحة ردحاً من الزمن.

اللغط حول النخلة أوحى لاحدى شاعرات القبيلة المعروفات بأصالة موهبتهن الشعرية فألفت قصيدة نعت فيها فاتنات قبيلة أمنغساتن اللائي غدر بهن الدهر فجعل الرجال النبلاء أمثال الشيخ العظيم غوما يفضلون عليهن نخلة بائسة! ضحك يومها عند سماع القصيدة حتى استلقى على قفاه، ثم شدّ اللثام حول وجهه وقصد نخلته ورقد تحتها حتى العشية.

حظه في قصائد المدح شهد تراجعاً منذ اللجوء إلى الواحة. فباستثناء القصائد التي نالها مكافأة على بطولاته الأخيرة في « حرب غات » فإنه لم يحصد سوى الهجاء في حياته الجديدة. فتخلت عنه الشاعرات وتركنه لتهكمات باتا. أين الشاعرات اللائي دبجن الملاحم عن حياته وبطولاته فتناقلتها الصحراء الكبرى ورددها الكبار والصغار من غدامس حتى تامنغست، ومن مرزق حتى تمبكتو؟ أين الإهتمام بالشعر والتلهف على آخر ما جاد به الشعراء والشاعرات؟ أين الحرارة في الصناعة والروح الملحمية في الصياغة؟ أم أن برود الشاعر في الإنفعال قتل التلهف لدى المتلقي؟ أم السبب راجع إلى اختفاء البطولة من واقع القبيلة ففقد الفن أهم حوافزه وهو الحماس؟

صالب ذراعيه على صدره ورفع رأسه الى السماء متابعاً قوام « أم النخيل » يشق الفضاء في كبرياء. أنها مهددة أكثر من غيرها بسبب نحافة عودها وارتفاعها في الطول. وقد خفق قلب الشيخ خوفاً بمجرد أن أبصر الأفق المحتقن بالغبار في الصباح. لم يخف على المحصول ولا على الأكواخ ولكن هاجساً خفياً قال له أنها في خطر!

استدار وتوجه إلى الأحياء الشرقية حيث يقيم الفقيه مبروك دبّار منذ سنوات. جاء الى الواحة طلباً للرزق بصحبة مجموعة من الرعاة البدو الذين تورطوا مع الشيخ الجاروف في صفقة مشبوهة، باعوا بمقتضاها قطيعاً من الجمال التي اتضح فيما بعد أنها مريضة بالجرب. وبرغم علم دبّار المسبق بأمر الجرب إلاّ أنه وجد طريقة يتملص بواسطتها فبرر سكوته على البضاعة المغشوشة بصوت باكٍ قائلاً ان الرعاة الجوّالين اشتروا صمته مقابل تكلفة المواصلات، إذ حملوه على ظهور جمالهم وقطعوا به مسافات شاسعة في البرية. وادعى دبّار في دفاعه عن نفسه أمام الشيخ الجاروف أنه نازعهم عندما علم بمرض البعير واقترح أن يضعوا القطيع تحت إشراف خبير متخصص ولكنهم رفضوا متعللين بالوقت الطويل الذي

يستدعيه علاج مثل هذه الأمراض. ووصل بهم الأمر إلى حد أنهم هددوه بأن يتخلوا عنه ويتركوه في القفار ليموت عطشاً إذا لم يعدهم بأن يلزم الصمت فلم يكن أمامه خيار. ويقال ان الجاروف صدّقه وغفر له على أن يستمر في التزام الصمت. إذ ما لبث الجاروف نفسه أن عقد صفقة فباع القطيع الأجرب لتجار قافلة متجهة إلى أغاديس، فتنفس الصعداء. عاد التجار بعد شهور وطالبوا الشيخ الجاروف بدفع تعويض نقدي بعملة الذهب أو عيني في شكل بضائع بسبب القطيع المغشوش. قالوا ان القطيع سبّب خسائر في بقية الجمال. أصابها بالعدوى فعانت كل القافلة من هذا المرض الخبيث.

رفض الجاروف أن يدفع التعويض واقترح أن يلجأوا إلى القاضي لحسم الخلاف. ولمّا كان القاضي يتلقى رشوة منتظمة من الجاروف على شكل معونات وصدقات في المناسبات والأعياد الدينية فمن الطبيعي أن ينحاز إلى جانبه في الحكم الذي أصدره مؤكداً في الحيثيات أن شهود العيان أدلوا بشهادات تنفي زعم التجار في أن يكون القطيع مصاباً بالجرب. ثار التجار وتمردوا. جاؤوا بأعوانهم المسلحين وحاصروا الواحة ثلاثة أيام. تدخل وقتها مهمدو وتوسط بين الجانبين. توصل في النهاية بمساعدة الأهالي أن يدفع الشيخ هذا العام نصف التعويض من موسم العام الماضي من الغلال على أن يتم تسوية النصف الباقي في العام القادم من محصول الموسم الجديد. وتم تحرير إتفاق ممهور بتوقيع الطرفين ومختوم وموقع من قبل نفس القاضي الذي حكم في البداية ببطلان حق التجار في التعويض.

وكان بالإمكان تلافي كل هذه الخلافات لو تفضل دبّار وأعلن عن حقيقة البضاعة منذ البداية. ويقال ان دبّار هذا سكت طوعاً بعد أن تلقى رشوة من الرعاة مقابل ذلك ولم يكن السبب في التهديد كما ادّعى في بكائيته أمام الجاروف.

ولكن هذا ليس أسوأ ما في أمر هذا الضيف الغامض.

الأسوأ من كل هذا هو منهجه البشع في علاج الأمراض. فهو يدّعي أن الجن هم أصل كل الأمراض، وإنتزاع العفاريت من جسد الإنسان لا يتأتى بغير الحرق والكوي بالنار. ولهذا فإنه لم يحدث حتى الآن أن زاره مخلوق بقصد علاج مرض ما مهما كان تافهاً إلا وخرج محروقاً بالنار. وبرغم الانتقادات الشديدة الموجهة لهذا المنهج الوحشي إلا أن الأهالي لم يتوقفوا عن زيارته.

إستشار مهمدو في أمره عندما كثرت زيارات مرزوق له بحثاً عن علاج لولده فقال مهمدو أنه لا يتفق معه في تحميل الجن مسؤولية أمراض الإنسان. ومن ناحية

أخرى يشك في جدوى علاجه طالما يجهل لغة هؤلاء الأقوام الذين يحملهم المسؤولية. إنه لن يستطيع أن يتعامل معهم ما لم يتمكن من «المهنة». وختم مهمدو رأيه بهذه العبارة:

«.. وأنت تعلم أن التمكن من العلم ليس أمراً سهلاً. لقد قضيت العمر وذهبت الى آخر الدنيا كي أمتلك قليلاً من السر». وفي مناسبة أخرى مضى مهمدو إلى أبعد فصرّح بشأن منهج دبار ما يمكن إعتباره إدانة برغم حذره في إصدار الأحكام القاطعة خاصة عندما يتعلق الأمر بكل من يعطي لنفسه حق «منافسته» في معرفة أسرار الغيب.

قال مهمدو يومها يخاطب غوما: «لن يكون ظلماً إذا اعتبرناه من معشر الدجالين..». ومهمدو إذا أعطى رأيه في أمر فإنه لا يتراجع.

وقد أيده غوما - دون أن يفصح عن ذلك - بعد ما رأى ما فعله هذا الفقيه المتوحش برأس الطفل مدعياً أنه يفعل ذلك لإخراج العفاريت التي تسكن رأسه!

حاول مراراً أن يثني مرزوق عن الاستمرار ولكن الفلاح العنيد ضاعف من زياراته لدبّار.

يستأجر الفقيه بيتاً صغيراً في الحي الشرقي محاصراً بين صفين متوازيين من البيوت المقامة في المرتفع وتنحدر إلى أسفل حتى تفضي إلى أطراف الغابة عند إنحراف الحزام الأخضر نحو الشمال.

وقف الشيخ أمام باب النخيل المثبّت في الوسط بقطعتين من الحديد متخذتين شكلاً متقاطعاً. دق على الباب بقبضة يده وانشغل بقراءة الآية القرآنية المكتوبة على الحائط بخط متقن أخضر اللون:

«المال والبنون زينة الحياة الدنيا».

جاء الكلب واحتمى برجلي الشيخ وشرع يتمسّح ويتودد.

بعد قليل إنبعث صوت خشن يتساءل عن الطارق. لم يجب الشيخ فانفتح الباب عن الفقيه بقامته القصيرة وجسمه المكتنز يتدثر بثوب فضفاض حاسر الرأس. عيناه تتراقصان وقد لمعتا بدهشة مفاجئة عند رؤية الشيخ. وقف لحظة فاتحاً ضلفة الباب إلى منتصفها ينظر إلى الشيخ كأنه لا يصدق ما يرى ثم هتف باسطاً كلتا ذراعيه مهللاً بإبتسامة:

- هذا لا يصدّق. الشيخ العظيم غوما بنفسه يطرق أبواب العباد البسطاء أمثالنا. خلل ما سيشهده الكون بهذه المناسبة وما أمطار البارحة إلا بوادر أولى!

فتح الباب على مصراعيه وأفسح الطريق أمام الشيخ بحركة من يده منحنياً

إلى الأمام في ركعة إكبار. ولكن غوما لم يتحرك. رفع رأسه نحو السماء وسأل عن الأحوال. ثم تراجع خطوتين الى الوراء وقال وهو يهرش رأسه:

ـ الحق أن ظروفي لا تسمح. جئت كي أبلغك بتدهور صحة مرزوق. ظلّ البارحة يشكو الليل كله من آلام المعدة.

عاد دبّار يلح بالدخول ولكن غوما رفض متذرعاً بضيق الوقت واقتراب العاصفة.

قال وهو يهم بالإنطلاق:

ـ أمامي مشاوير وأعمال قبل أن يهجم الريح. لقد أرهقنا مزاج الصحّراء الأيام الأخيرة.

قال دبّار:

ـ ربنا يستر. لا يجب أن نيأس من رحمة السماء. ربما مرّت العاصفة جانباً.

قال وهو يهم بالإنصراف:

ـ رحمة السماء واسعة ولكن الإعتماد على الرحمة لا يكفي.

إستدار وصعد المرتفع. سمع دبار يصيح خلفه:

ـ سأتولى أمر مرزوق. لا بد أنهم دسوا له شيئاً في الطعام. المعدة لا تؤلم إلا بفعل فاعل!

سلك طريقاً متعرجاً يخترق الحي الشرقي ُويفضي إلى ساحة السوق. سعى الكلب أمامه فأصبح هو الذي يقتفي أثر الكلب الآن. في الساحة الخالية انحرف الكلب يساراً وغاب أمامه في الزقاق.

سبقه إلى الطريق المؤدي إلى المغارة! لم يجد مهمدو في المدخل، فرفع صوته بالتحية. لم يجب أحد فعاد يرفع صوته:

ـ السلام عليكم.

سمع حركة بالداخل أعقبها الصمت مرة أخرى. خشي الشيخ أن يكون المرض قد ألم بالعجوز فدخل المغارة. كانت تفوح بالرطوبة والعرق والعظام القديمة. هذه هي المرة الثانية التي يضطر فيها لرؤيتها من الداخل. ما زالت الجماجم المفقوءة العينين تطل من جدرانها. بل خيل له أن عظام الجماجم ازدادت بياضاً. كم هي موحشة جدران المغارة!

في الركن رقد مهمدو ملفوفاً ببطانية كثيفة لا تناسب الجو الخانق. كشف عن عين واحدة وظلّ مضجعاً بلا حراك تساءل غوما في قلق:

ـ هل أنت محموم؟

شهق مهمدو بعمق ولاذ بالصمت.

عاود الشيخ سؤاله واقترب كي يتحسس جبينه. لحظتها تمتم العراف بصوت واهن:

ـ يا ريت!

عاد يختفي خلف لحافه حتى كشف الشيخ عن وجهه وتحسس جبينه بظهر يده. قال:

ـ لا يبدو أنك محموم.

ـ لست محموماً. أخطأت في الترتيب. هذا سيجر عواقب!

ـ نهض قليلاً مسنداً ظهره الى جدار الكهف في حين تساءل الشيخ الذي ظلّ واقفاً:

ـ أي ترتيب وأي عواقب؟ هل تهذي؟

همهم مهمدو وهو يفرك يديه ويطرطق أصابعه النحيفة:

ـ أخطأت في ترتيب الخلطة. ضعف البصر هو السبب. أرقت دم القطة قبل أن أحرق التعويذة فوق صرة الأظافر. كان يجب...

قاطعه الشيخ:

ـ أنت تهذي..

ولكن العرّاف واصل ممتقع الوجه:

ـ هذا سيجر عواقب. مهنتنا لا تغفر أدنى خطأ. هذا له علاقة مباشرة بتوقف المطر المفاجىء البارحة..

صاح غوما في ضيق:

ـ يجدر بك أن تقفل باب كهفك جيداً بدل الهذيان. كل الدلائل تشير إلى أن العاصفة ستكون عنيفة.

ـ ولكن هذا أدّى إلى العاصفة أيضاً. أنت لا تعرف ما معنى إرتكاب خطأ في عملنا.

رمقه الشيخ بامتعاض فالتقت نظراتهما لأول مرة. إبتسم مهمدو فجأة وتساءل بخبث:

ـ هل مرزوق بخير؟

كان سقف المغارة واطئاً مما أجبر الشيخ أن ينحني في وقفته طوال الوقت. ويبدو أن ذلك الوضع بدأ يزعجه فقال وهو يتقدم خطوة نحو الباب:

ـ في أسوأ حال. لقد أثار المسكين شفقتي فذهبت ودعوت له مبروك دبار بناء

على طلبه!

ضحك العرّاف بعصبية وقال بخبث كأنه يخاطب نفسه:

ـ إذا كان ثمة مسكين في هذه الواحة فهو أنت يا شيخنا. مرزوق لص! مجرد لص!

تقدم غوما خطوة أخرى نحو الباب. قال:

ـ لص؟ أنت تهذي. أنت اليوم لا تتوقف عن الهذيان!

عاد مهمدو يفرك يديه ويخنق ضحكته العصبية. قال بصوت واهن:

ـ سوف يأتيك الخبر. سوف تكتشف أنه لص. جدير بك أن تفيق. نبهتك في الماضي وأعيد اليوم. واجبي قد إنتهى.. ها ـ ها ـ ها...

تمتم غوما خارجاً:

ـ لا شك أنك تهذي. ربنا يشفيك!

في الطريق إلى الأكواخ بدأت أولى بوادر العاصفة. هب الريح متقطعاً دافعاً الحصى والأتربة فتلقى صفعات قوية على وجنتيه العاريتين فأحكم اللثام على وجهه. همدت الحركة في كل الواحة وخرست الأصوات وانتظر الناس هجوم العاصفة بقلوب خاشعة فازداد السكون عمقاً ورهبة.

قبل أن يصل إلى الخيمة انحرف يميناً ومرّ على كوخ الزنجية. أمرها بأن تلزم الكوخ طوال العاصفة وألاّ تغادره أبداً. ثم توجه إلى الخيمة. في المدخل أنصت فسمع الهدير المتوعد بالتخريب والإنتقام.

بدأت الظلمة تزحف على الواحة كليل بهيم.

وقف لحظات يراقب الأفق ثم جرّ الكلب إلى الداخل.

تقرفص على الكليم وهو يربت على رقبة الكلب. وجد يده تمتد وتسحب العمود المركزي. إنهارت الخيمة فوق رأسه فبكى الكلب بصوت فاجع.

(١٠)

عرفت الواحة عواصف كثيرة في تاريخها الماضي ولكنها لم تشهد عاصفة في العنف والعناد ولم تر تخريبا وتحولاً في طبيعة الأرض كما حدث مع العاصفة الأخيرة. عربد العجاج سبعة أيام وسبع ليال بلا إنقطاع أضاع خلالهم الناس الشعور بالزمن وحساب الأيام والتمييز بين الليل والنهار. في اليوم الأول أظلمت الدنيا فجأة وهبت ريح عاتية محملة بحصى تكاد تكون أحجارا ذلك لأن صوت إرتطامها بسعف الأكواخ أو جدران الحي القديم سمع بشكل واضح. أما غوما المغطى بخيمته فأحس بوقع الأحجار الصغيرة على جسده. بل وأصابته بكدمات في

أماكن مختلفة من رأسه برغم كل الاحتياطات التي اتخذها لحمايته بالعمامة وبكلتا يديه. وبدل أن يجيء اليوم الثاني بالفرج كما توقع الأهالي توغلت الواحة في الظلمة ولم يعد أحد قادراً على رؤية شيء أو سماع شيء.

في هذا اليوم جاء آهر زاحفاً كي يطمئن على الشيخ ويعرف ماذا فعلت الريح بخيمته المهددة. تسلل داخل الخيمة وتحسس الشيخ بين ثنايا البطانية وصرخ بأعلى صوته:

ـ هل أنت بخير؟

مد غوما يده وتحسس الزائر وهو يصرخ بدوره:

ـ ماذا؟ من أنت؟

فقرب آهر رأسه إلى أذن الشيخ وصاح:

ـ أنا آهر. هل أنت بخير؟

اقترب غوما بفمه من أذن آهر وصرخ أيضاً:

ـ أنا بخير. ولكن ما الذي جاء بك في هذه القيامة؟

ـ جئت للإطمئنان عليك. كل القبيلة قلقة بسبب الخيمة.

ـ ماذا؟

اقترب آهر أكثر وعاد يصرخ في أذن غوما بأعلى صوته:

ـ قلت ان القبيلة قلقة عليك بسبب عدم ثقتهم في صمود الخيمة.

صرخ الشيخ وهو يتلمس بيديه رأس آهر كي يصيح في أذنه:

ـ قل لهم أن خيمتي أقوى من أكواخهم.

ثم صرخ مرة أخرى بعد لحظة صمت:

ـ ما كان يجب أن تأتي.

دس آهر في حجره جراباً منسوجاً من الوبر. سأل غوما:

ـ كيف حال الشيخ خليل؟

ـ ماذا؟

ـ سأذهب وأقربك إلى بيتك؟

ـ ماذا؟

شدّه من يده وجرّه خارج الخيمة. صدمتهما العاصفة بوابل من الحصى ودفعتهما إلى الوراء في الإتجاه المعاكس. تعثر غوما وترنح. سيطر على نفسه بمساعدة آهر. دس آهر رأسه في عمامة غوما باحثاً عن أذنه ويبدو أنه فهم أن الشيخ بصدد مرافقته إلى بيته. صرخ في أذن غوما:

- لا تتعب نفسك. سأهتدي إلى البيت بمفردي.

ولكن غوما لم يسمعه أو لم يتبين كلامه جيداً فتحرك في إتجاه الريح بضعة خطوات. تحرّك آهر خلفه دون أن يتخلى عن يد الشيخ. لحظتها اصطدم غوما - الذي مشى في المقدمة - برجل قوي البنية. صاح الشيخ وهو يتحسس عمامة الرجل:

- من أنت؟

مد الرجل رقبته وصاح في أذن الشيخ:

- أنا أمود. جئت للإطمئنان على الشيخ. هل أنت الشيخ؟

- أنا بخير. كيف الجيران؟ كيف مرزوق؟

- اهتديت الى الخيمة بحدسي كما ترى.

استمر الحوار لحظات قبل أن يقترح آهر وهو يصرخ في أذن الشيخ:

- تستطيع أن تبقى. أمود سيتولى مرافقتي إلى البيت.

سمعه غوما فوضع يد آهر في كف أمود وعاد يتحسس الأرض برجليه حتى اصطدم بالوتد. ركع على ركبتيه وزحف حتى اهتدى الى مدخل الخيمة فتسلل تحتها واضطجع بجوار كلبه.

أما آهر وأمود فشهدا في ذلك اليوم مغامرة ظلت لوقت طويل تتردد كإحدى النوادر التي جلبتها العاصفة - في ذلك العام. ففي طريق العودة تاها وضلاّ الطريق إلى كوخ الشيخ آهر. هاما طويلاً قبل أن يصطدما بأحد الأكواخ فصرخ أمود بأعلى صوته:

- هل هذا كوخ الشيخ آهر؟

اضطر أن يمزق حنجرته ويعيد السؤال ثلاث مرات قبل أن يسمع صوت امرأة من الداخل:

- هذا كوخ أمود.

ضحك أمود لأنه لم يعرف بيته ولم يميز صوت زوجته تالا. صرخ مقترحاً على الشيخ أن يمكث حتى تنجلي العتمة ويعرف الناس الليل من النهار ولكن آهر أصرّ على العودة إلى البيت مما اضطر أمود لمرافقته والإستمرار في البحث.

مضى وقت طويل وهما يطوفان الأكواخ ويتلقيان الصفعات. يصطدمان بكوخ فيصرخ أمود بأعلى صوته: «هل هذا كوخ الشيخ آهر؟» فيجيبه صوت رجل وأحياناً صوت امرأة بعد تكرار السؤال عدة مرات: «لا هذا بيت الشيخ خليل» أو: «هنا بيت مغري. بيت الشيخ آهر على اليمين» أو: «لا. هذا بيت باتا».

ضحك أمود بحرية متأكداً أن الشيخ لن يسمع ضحكته عندما أجابه صوت آيس من الداخل قائلاً: «لا. هذا بيت باتا» ربما لأنه لم يقل: «هذا بيت آيس».

استمرا في الطواف حتى تعبا فجلسا على الأرض في العراء. يمسك أحدهما بثياب الآخر. ثم نهضا وواصلا رحلتهما في البحث. ندم أمود عندما ساق الله في طريقه بيته، وهي فرصة لن تتكرر. التقطا أنفاسهما فنهضا وذهبا. إرتطمت قدم أمود بجريد ظن أنه كوخ في البداية فوقف يصرخ بأعلى صوته متسائلاً عن صاحب البيت دون أن يجيبه أحد. ثم مدّ يده وتحسس الجريد فاكتشف انه بلا سقف.

إنه سور إحدى السواني.

علم لحظتها أنهما هاما على وجهيهما بعيداً عن الأكواخ فاقترح أن يخلدا للراحة. مكثا هناك يومين آخرين وهما يتسكعان في الغابة وينامان محتميين من الأتربة بالأحراش وأسوار الجريد. ولم يهتديا إلى الأكواخ إلا في اليوم الخامس عندما تلونت الدنيا بهالة قوس قزح دون أن تكف العاصفة.

في اليوم السابع استيقظ الأهالي على بصيص من النور بدأ يتسع ويشمل الدنيا حتى تراءى قرص شمس عابس في السماء الشاحبة. كانت الشمس قد ارتفعت عندما دبت الحركة في الواحة وسعى الناس في الأرض يحيّون بعضهم ويتبادلون التهاني بسلامة النجاة ويتفحصون وجوه بعضهم البعض كأنهم يتعرفون على أنفسهم من جديد.

وأكثر ما أدهش الأهالي هو التحولات التي أحدثتها العاصفة في طبيعة الواحة. فازدادت الجبال الرملية المحاطة بالواحة من الجنوب شموخاً وإرتفاعاً. ويبدو أنها سعيدة بالإنتصار الذي حققته ضد الواحة المسكينة، خاصة وأن العاصفة جاءتها بالإمدادات اللازمة من غبار البرية الرملية في أقصى الجنوب فخرقت الواحة بألسنة الرمال وأقامت في العراء الواقع بين الحي القديم وحي الأكواخ الجديدة تلالاً عديدة. كما أدخلت تعديلات واضحة في وضع التلال القديمة فنقلت مشروع ربوة صغيرة بجنوب الأكواخ بالقرب من الغابة ـ كان الفلاحون يتخذونها مخزناً يطمرون فيه محصول التمور ـ وألقت بها بعيداً في عمق العراء الغربي مشددة الخناق على عنق الواحة منفذة نيتها في الوصول الى السلسلة الجبلية الممتدة شمال غرب المنخفض فعرّت الأكياس وأتلفت مخزون الموسم الماضي من التمور المطمورة.

وكان أسعد الناس بالتغيير في خريطة الواحة هم الأطفال: فتعالت أصواتهم وتراكضوا ين الأكواخ والأحياء فرحين بالتلال. فتراقصوا وتدحرجوا وتصارعوا

وانهمكوا يغرسون أيديهم وأرجلهم وحتى رؤوسهم في الرمال الجديدة.

تحلقوا حول الشيخ غوما وهو في طريقه الى حي الواحة القديم وهم يغنون ويرقصون ابتهاجاً بالكثبان الرملية. داروا حول الشيخ مرتين وهم يمسكون بأيدي بعضهم وهتفوا بصوت جماعي طالبين أن يتصدق عليهم بقطع الحلوى. ولكن الشيخ لم يكن في مزاج يسمح له بمداعبة الأطفال أو التصدّق بالحلوى كما تعوّد أن يفعل. ويبدو أن الصغار أدركوا ذلك فتبادلوا النظرات وكفوا عن الهتاف وفتحوا له ثغرة نفذ منها ليواصل طريقه. فنزل الشيخ التلة الرملية الجديدة بعد أن تخلص من أسر الأطفال السعداء وتوجه إلى المغارة.

هناك جرى حديث عاصف سمعه سكان البيوت المتلاصقة للجبل وترددت أصداؤه في الواحة زمناً طويلاً. واهتمام الأهالي بذلك الحوار راجع لسببين: أولهما أن الشيخ لم يشذ عن القاعدة في جولته اليومية المثلثة الأضلاع؛ فيقصد الحقل أولاً ومن هناك ينحرف نحو نخلته الهيفاء ماراً بعين الكرمة. ومن هناك ينطلق لزيارة قلعة العراف ليعود بعدها إلى خيمته مع المساء. وثانيهما: صداقة الشيخ لمهمدو. وقد رأى الأهالي في حوار ذلك اليوم خرقاً لهذه الصداقة ومخالفة لما تعود غوما أن يحيط به صديقه العجوز.

أول ما استرعى انتباه الشيخ أن الرمال الظافرة استطاعت أن تنال من صومعة مهمدو فأحاطت مدخل المغارة بسياج بلغ في الإرتفاع مستوى عالياً كاد يغلق المدخل نهائياً. سعل بشدّة منبهاً العراف بوجوده وانشغل بالتمشي جيئة وذهاباً في خطوات عصبية. سمع حركة في الداخل ولكن لم يظهر أحد. عاد يسعل ويتمشى دون أن يتفوه بـ«السلام عليكم». وكلما حاول أن ينطق بالتحية يجدها تختنق في صدره وتموت على شفتيه.

كان غاضباً.

ظهر مهمدو وهو يزحف على أربع. خرج من المغارة زاحفاً مثل الهوام. تبادل مع الشيخ نظرة طويلة صامتة. استمرّ غوما في مشيه العصبي فأدرك العراف أنه غاضب. أسرع ينشغل بإزاحة الرمال التي تسد المدخل بكلتا يديه. نبح الكلب مرتين وهو يشاهد عمله. أقبل غوما بعد لحظات لمساعدته وبدأ يزيح الرمل بيديه أيضاً.

ظلاّ يزيحان الرمال ويسترقان النظرات خلسة إلى بعضهما مثل وحشين.

في النهاية قال الشيخ وهو ينفض يديه من الغبار:

ـ هذه نتيجة عملك. الرملة كانت رحيمة معك إذ كان في إمكانها أن تدفنك

حيّاً مقابل ما اقترفت يداك.

تشبث العراف بالصمت فأضاف الشيخ متعمداً الإستفزاز:

ـ هذه نتيجة تنكيلك برفات الطفل. تفرج على ما صنعت يداك.

هرب مهمدو ببصره الى الناحية الأخرى فاصطدم بسلسلة الجبال الرملية المهيبة التي تهدد الواحة من الجنوب. قال بعجز:

ـ أردت الخير. الله يعلم. أردت أن أنقذ الأهالي من الحرائق، وقضيت الأيام وسهرت الليالي كي أتسوّل لكم بعض الماء. ولكن العجز هو السبب. ضعف البصر. الخطأ في الخلطة.

واصل غوما بقسوة كأنه لم يسمع:

ـ ارتكبت إثماً كبيراً وها نحن ندفع الثمن غاليّاً.

ـ جلّ من لا يخطىء. الآلهة فقط معصومة من الخطأ.

ـ لا أعتقد أنك تعدم وسيلة أخرى غير التمثيل بجثة الطفل ونزع الأظافر مثل الوحش.

ـ قلت لك أنه ليس هناك وسيلة أخرى. تستطيع أن تتحقق من هذا الأمر لدى كل سحرة الصحراء الكبرى من تمبكتو إلى أغاديس ومن بلاد شنقيط حتى كانو. الشروط قاسية. تكاد تكون تعجيزية وبرغم ذلك حققنا بعض النجاح.

عاد غوما يمشي ذهاباً وإياباً. احتج بصوت كالصراخ:

ـ وتسمي ذلك نجاحاً. تهين المقدسات وتجر علينا الإثم وتجرؤ فتقول: « حققنا بعض النجاح »؟.

ـ أنقذت الواحة من كارثة.

ـ وقلبت على رأسها كارثة أخرى.

ـ لو لم أدرك الموقف لاحترقت نصف الواحة.

ـ علم ذلك عند الله. ربما أتى بالفرج وتراجع الحر بنفسه.

ـ كوارث الصّحراء لا تقاوم بالنوايا الطيبة. النوايا لن تفيد.

ـ علم ذلك عند ربي. كوارث الطبيعة من صنع مشيئة الله والوقوف ضد مشيئته تمرد. ما فعلته تهوّر.

ـ هل تقترح أن ننتظر حتى تتحول الواحة إلى قطعة فحم؟

ـ أنا لا أقترح شيئاً ولا أتدخل في عملك ولكن العبث بجثث الموتى خطيئة كبيرة. الإعتراف بالذنب فضيلة.

ـ سبحان الله.

ـ سبحان الله مرتين. سبحان الله مثنى وثلاث ورباع.

ساد صمت قصير قبل أن يتوقف غوما عن مشيه العصبي ويتساءل فجأة مغيّراً موضوع الحديث:

ـ منذ أسبوع صرحت بالحرف الواحد وقلت ان: «مرزوق مجرد لص». ماذا تقصد بهذه التهمة؟

إبتسم مهمدو وأجاب وهو يفرّك يديه:

ـ لقد لَمحت منذ زمن بعيد ونصحتك أن تبحث عن سرّ خسائر حقلك داخل أسوار السانية ولكنك لم تفهمني، أو لم تصدقني. انظر حولك وستقف على الحقيقة بنفسك. في اليومين الماضيين إزددت يقيناً بذلك.

ضحك بعصبية فقال الشيخ:

ـ الإستيلاء على حق الغير تهمة خطيرة.

ثم وهو يخفض صوته ويعطيه مرونة مفاجئة:

ـ ولكن هل لمرضه علاقة بالأمر؟ هل فعلت به شيئاً؟

كتم مهمدو ضحكة خبيثة قبل أن يجيب:

ـ العلاقة مباشرة. وأنا لم أفعل به إلاّ ما جنته يداه. ها ـ ها ـ ها... كم هو جميل أن نهتدي إلى الحقيقة. ألا توافقني يا سيدي الشيخ؟ ها ـ ها ـ ها...

رمقه غوما باشمئزاز قبل أن يستدير وينصرف. تتبعه الكلب.

إتجه إلى الحقل من أقرب طريق. إخترق الكثبان الرملية الجديدة المنتشرة على طول العراء الممتد بين الحي القديم والغابة عند أطرافها الشمالية.

قبل أن يتوغل في الغابة تمددت أمامه نخلة باسقة صرعتها الريح فسقطت ـ تعترض طريقه ـ وتدس رأسها وأعرافها بين أحراش نخلة ناشئة واطئة، أما جذعها فاستلقى في العراء كاشفاً عن جذور ممزقة انتزعتها العاصفة. خفق قلبه كطفل وهو يقف ويتفرج على مصرع النخلة.

تذكر أم النخيل فانحرف يساراً وسار بخطى سريعة بين الأحراش والروابي الرملية وسيقان النخيل قافزاً فوق الجذوع المتناثرة طوال الطريق حتى بلغ المكان. غمرته مشاعر الرهبة وهو يقف ـ واضعاً يديه على خاصرتيه ـ ويراقب ما حدث. كانت النخلة مضجعة إلى القبلة حيث اعترضت سقوطها نخلتان قائمتان بشكل متقاطع فوقع رأس أم النخيل في نقطة التقاطع فأسندت النخلتان رأسها مما أنقذ جذورها أيضاً فعجزت العاصفة أن تنتزعها كما فعلت مع بقية الأشجار التي تتناثر الآن في الغابة كجثث الجنود بعد المعركة.

إقترب الكلب من الشجرة الشقية وتحسس بخطمه الجذع. شمشم الجذور الناتئة من الأرض ورفع رأسه نحو الشيخ.

تقدّم غوما وفحص الجذور بعناية ثم تفحّص الجذع الرشيق حتى نقطة التقائه مع تقاطع النخلتين. نصف الجذور ما زال مختبئاً ومتشبثاً بالأرض، أما الساق فسليمة وخالية من الكسور. برقت في ذهنه فكرة فأسرع نحو الحقل.

وصل كوخ مرزوق مهرولاً. دار حول الكوخ مرتين ثم توجه نحو البئر. فحص الحبل الذي ينتهي طرفه الآخر بالدلو المدلّى داخل البئر وعاد إلى الكوخ مرة أخرى. كاد يصطدم بمرزوق الخارج من الكوخ. سأله دون أن يلقي بالتحية:

- يلزمني حبل متين. تلزمني حزمة من حبال الليف.

ولكن مرزوق ظلّ يحدّق ببلاهة. ظل متشبثاً بالصمت دون أن يجيب على تساؤلات الشيخ. لاحظ غوما حركة في الداخل. تقدم خطوات فوجد مبروكة تجلس فوق رأس الطفل المسجّى على الأرض أمامها والزبد يعلو فمه ووجهه. في ركن الكوخ قبع الفقيه مبروك دبّار يهيء عدة الكوي ويدفع في كوم الجمر بقضيب بشع من الحديد. رفع بصره نحو الشيخ ونهض قليلاً منحنياً إلى الأمام ثم عاد ينشغل بالقضيب ويغمره بقطع الجمر حتى يخفي عن الشيخ حجمه الحقيقي.

خيم الوجوم.

هزّ غوما رأسه في أسى ومضى باتجاه سور الجريد باحثاً عن الحبال. أدهشه أن الحبال تصادفه في كل مرة طول الأيام الماضية عندما لم تكن له بها حاجة. والآن أي شيطان طيرها من هنا؟ ألاعيب الشيطان.

لم يكد غوما يلعن إبليس مرتين حتى رأى ما أذهله. تسمّر زمناً وهو لا يصدق ما يرى. عاد يلعن إبليس في السرّ. وفي المرة الثالثة لعنه بصوت مسموع ولكن الصورة لم تتغير.

تحت السور الجريدي الذي يسيج حقله ويفصله عن بقية البيدر امتدت يد العاصفة وأزاحت الرمال وحولتها الى الجهة المقابلة من السور فعرّت مخزوناً هائلاً من أكياس الحبوب كانت مطمورة تحت ذلك اللسان الرملي المحادي للسياج. كانت الأكياس قد دفنت بالطول فبدت أجزاءها العليا مصففة بعناية في ثلاثة طوابير صانعة مقبرة كبيرة من محاصيل الموسم الماضي. عرف الشيخ محصول السنة الماضية من نوعية الأكياس التي كتب عليها «المصالح المشتركة»[١٧] واشتراها من سائق شاحنة بضائع يزاول تجارة الفحم والتمر ويأتي للواحة بالبضائع مثل المعلبات وزيت الزيتون وأكياس «المصالح المشتركة» الفارغة.

تقدم الكلب وفحص الأكياس المغمورة حتى منتصفها في التراب ثم بدأ يحفر بحيوية حتى اتضح الشعار المميز المثبت تحت عبارة «المصالح المشتركة». انهمك الشيخ يعد طوابير الأكياس في اللحظة التي وقف فيها أمود بجواره. تمتم بالتحية ولكن غوما لم يرد. هزّ أمود رأسه علامة الأسف وضرب كفّاً بكف.

قال الشيخ كأنه يخاطب نفسه:

- أربعة وعشرون. أربعة وعشرون كيساً من محصول الموسم الماضي.

إستمر الكلب في الحفر حول الأكياس. في حين أعلن أمود دون مقدمات:

- العاصفة أتلفت كل محصول هذا العام. طارت السنابل مع الأكياس.

إمتص غوما الضربة وقال بهدوء:

- قلت لكم أن تخزنوا السنابل في أكياس وتودعوها في الحظائر أو تدفنوها تحت التراب.

- طبقنا أمرك حرفياً. الحظائر نفسها طارت فامتدّت يد العاصفة واستولت على الأكياس وطارت بها.

إبتسم غوما تحت اللثام برغم المحنة وهو يستمع إلى أسلوب أمود الأدبي في العرض. أضاف أمود:

- وحتى تلك الأكياس التي طمرناها تحت الرملة حفرتها الريح واهتدت إليها العاصفة. لا شيء يخفى على العجاج يا شيخنا. مهما حاولنا فلا بد أن تتدبر حيلة.

تحرك غوما فجأة ومشى باتجاه السياج حتى كاد يرتطم به ثم عاد والتفت بحدّة مهدداً أمود بنظرة صارمة مشيراً إلى الكنز الراقد تحت أقدامهما.

طأطأ أمود رأسه وقال بصوت واهن:

- لم أكتشف المطمور إلا قبلك بقليل. لقد غافلته الطبيعة وفضحته أيضاً. هو يقول انه كان مضطراً أن يسرق المحصول كي يسدّد مصاريف علاج الطفل.

إستمر غوما يرمقه من تحت لثامه منتظراً أن يعرف منه المزيد.

أضاف أمود:

- إعترفَ بأن العائد كله يذهب إلى جيب الفقيه.

- دبّار؟

هز أمود رأسه بالإيجاب فقال غوما:

- قلبي حدثني منذ زمن بعيد بأن أمور الحقل لا تسير على ما يرام لسبب ما. ولكني لم أتصوّر أن تمتد يد مرزوق وتسطو على المحصول بهذه البشاعة.

- كان يفعل ذلك في موسم كل عام. إعترف لي بذلك منذ قليل.
- كل عام؟
هز أمود رأسه بالإيجاب ثم أضاف:
- قلت من زمان أن «هذا المرزوق لا يعجبني». كنت أحس أيضاً بأن ثمة شيء ليس على ما يرام.
تمشى الشيخ حول مقبرة الغلال وقال بتصميم:
- تلزمني مساعدتك. أريد حزمة من حبال الليف المتينة وعدداً من الفلاحين الخبراء في غرس الأشجار وعلاج النخيل.
في تلك اللحظة انطلقت صرخة وحشية من الكوخ. أعقبها صمت ثقيل.
أنصت أمود قبل أن يقول:
- إعترف مرزوق باكياً بأن دبّار سطا على كل المحصول مقابل علاج الطفل.
- لن يهنأ بال لهذا الفقيه الجشع حتى يسحب من جيبه آخر قرش وها هو يسحب من جيبي أيضاً. لقد استغل مرزوق وسيذهب بالطفل المسكين إلى القبر.
خرج مبروك دبّار من الكوخ وأحكم جرده حول رأسه وركب حمارته وانطلق عائداً إلى الواحة. تابعه الشيخ حتى غاب خلف الأحراش.

(١١)

ما ان عاد غوما إلى نخلته المضطجعة على صدر النخلتين المتقاطعتين حتى سمع مبروكة وهي ترفع صوتها بالولولة في نبرة وحشية. إستولت عليه الكآبة ولكنه لم يقرر العودة. جلس على بقايا جذع نخلة جزّ الفلاحون رأسها وسكروا بقلبها وهي ما زالت في مقتبل العمر. أقعى الكلب بجواره وطفق ينتظر أمود الذي ذهب للبحث عن الحبال.
تصاعد عويل مبروكة.
جاء أمود يحمل الحبال في كتلتين كبيرتين. ألقى بالحزمة بجوار النخلة الجريحة وقال وهو يتفحصها ببصره دون أن ينظر ناحية الشيخ:
- الطفل أسلم الروح.
لبث جامداً في جلسته كأنه يتوقع أن يأتي له أمود بهذا الخبر. تمتم بصوت خافت: «إنا لله وإنا إليه راجعون».
نهض فجأة واقترب من النخلة. أشار بسبابته الى الجذور الأخرى المغمورة في الرمال وقال:
- سوف نستطيع إنقاذها من الهلاك إذا أوقفناها بالحبال وربطناها إلى تلك

النخلة.

أشار إلى نخلة كئيبة موحشة مهملة ملفوفة بطبقات من الليف تبعد بضعة أمتار من موقع أم النخيل.

أضاف الشيخ:

ـ الناحية الأخرى من الجذور ما زالت سليمة وعميقة. يجب دعمها بالسّماد وكمية كبيرة من الماء. علينا أن نبدأ العمل حالاً.

طأطأ أمود رأسه متردداً قبل أن يعتذر في خجل:

ـ أخشى أن يمنعنا المأتم من أن نبدأ اليوم. سوف يرفض الفلاحون مساعدتنا طالما حدثت الوفاة.

ـ المأتم لن يرد له الحياة. أما الشجرة فإن كل لحظة بالنسبة لها حياة. إبقاء الجذور المنزوعة معرضة للهواء خطر على حياة النخلة. الأجدر بنا أن نهب لإنقاذ الأحياء بدل البكاء على الموتى.

ـ أخشى ألاّ يفهم الفلاحون هذه اللغة.

رمقه الشيخ بغضب فهرب أمود ببصره إلى رؤوس الأشجار ثم عبرها إلى أبعد حتى اصطدم بالدفعات الجديدة من الرملة التي طرحتها العاصفة ودعمت بها موقف الجبال الشمالية فبدت الآن مهيبة في الإرتفاع تتحدّى الواحة الراكعة.

تحركا معاً نحو كوخ مرزوق.

بدأ الفلاحون يتقاطرون أما النساء فجئن للمشاركة في العويل.

في المدخل سجّي جسد الطفل على حصير قديم. لاحظ الشيخ أن الزبد ما زال يعلو شفتيه وفمه ورقبته، ولكن الطفل البائس تلقى جرحاً في صدره العاري من قضيب الفقيه المشتعل بالنار فتفصد الدم وهجم الذباب على الجرح. علت الأماكن العارية من الجسد ـ التي ينحسر عنها الثوب البالي الملوث بالعرق ودماء الجروح السابقة ـ دوائر رمادية كبيرة. أما الوجه فما زال مشدوداً بالآلام التي عاناها على يدي الجلاّد. في الطرف الأسفل من الثوب استقرت بقعة كبيرة فعرف غوما أن الطفل المسكين قد تبوّل عند وقوعه فريسة النوبة.

تجمهرت النساء حول مبروكة وشرعن يندبن معها في صوت جنائزي منتظم. مرزوق جلس في الركن يواجه الجسد ويحدّق أمامه في الفراغ. برغم الحزن فإن الهدوء خيم على وجهه، أو ربما هو الإستسلام لإرادة القدر. بدأ يتلقى تعازي الفلاحين دون أن يرد على عبارات المواساة.

وقف غوما لحظات ثم أومأ لأمود بمرافقته في طريق العودة إلى أم النخيل.

قال الشيخ وهو يتوقف بجوار مقبرة الغلال التي كشفت عنها الريح:
ـ يلزمنا حمار أو حماران.
سعل في راحة يده قبل أن يضيف:
ـ وعدد من الفلاحين.
ـ أشك في أن يقبل الفلاحون عرضنا.
ـ حاول أن تقنعهم.
ـ من الصعب إقناع الفلاحين التراجع عن عاداتهم القديمة.
ـ لا بد من إنقاذ النخلة.
ـ لن يستطيع أحد أن يقنعهم طالما ظهر ميت في الغابة. سينتهزون الآن فرصة ليبدأوا مأتماً سيستمر ثلاثة أيام أو أكثر. فرصة لمعاقرة اللاقبي خاصة بعد ما ذاقوا من غضبة الطبيعة.
ـ مهما حدث فلن أتراجع. لا تحاول أن تقرأ على رأسي الآن مصحفاً في أخلاق الفلاحين. عليك أن تحاورهم وإذا تشبثوا برأيهم فما عليك إلاّ أن تستدعي شباب القبيلة. يمكنك أن تأتي بالحمارين من حقلنا.
همّ بالإنصراف ولكن أمود أعلن في إصرار طفولي:
ـ مبروكة تؤكد أن الكوي لم يقض على المريض. قالت ان عقرباً كبيرة سوداء لدغته.
حدث الشيخ نفس: «لماذا يصرّ هذا الأبله أن يعيدني في كل مرة لموضوع فرغت منه؟».
قال وهو يلوح بيده في الهواء:
ـ سواء لدغته عقرب أو أفعى فإنها لم تلعب سوى دور رصاصة الرحمة. لم يقتل الطفل سوى مبروك دبّار. لن ينقذه من هذه المسؤولية دفاع مبروكة أو غير مبروكة!
تابعه أمود حتى غاب بين أحراش النخيل. عرف من خطواته العصبية أنه حانق.
كاد النهار ينتصف فحطت ألسنة السراب رحالها فوق الرمال ولكن هبوب النسيم المتقطع من الشرق كان يطردها في كل مرة ويمنعها من الإستقرار.
قال أمود في نفسه وهو يتجه صوب الأكواخ: «كم هو غريب الأطوار الشيخ غوما. إنه يقدم مادة جيدة لتشنيعات باتا.». اجتاز طرف السانية الشرقي فتناهت إلى سمعه أصوات النحيب فعاد يقول بصوت مسموع: «الحمد لله الذي

خلق الموت. لو لم يكن الموت موجوداً فسيعاني الطفل عذاباً أليماً». التفت يميناً ويساراً خشية أن يسمعه أحد.

لم يكّلف أمود نفسه عناء في إقناع الفلاحين، وتوجه فوراً إلى الأكواخ وجمع مفرزة من شباب القبيلة ودخل بهم الغابة مع العشية وهو يحوش حمارين جلبهما من السانية. وجد الشيخ يشمّر على ساعديه وينهمك في شد ساق النخلة بالحبال إستعداداً لربطها بجذع النخلة الغربية. نزع ثوبه الفضفاض الواسع الأكمام فبدا في القميص الداخلي الذي يرتديه على السروال المنفوش نحيفاً مثل مهمدو.

هبَ الشباب لمساعدة غوما دون أن يخفوا دهشتهم من هذا الإهتمام الذي يوليه الشيخ للنخلة الجريحة. فسمعهم غوما يهمسون بتعليقات لاذعة (وهم الذين تعودوا ألاّ يفوّتوا فرصة أو مناسبة للتندر) بحق عنايته بـ«أم النخيل». ولكنه تظاهر بأنه لم يسمع.

استطاعوا بعد معركة حامية أن يوقفوا الساق على قدمها بشدّها بالحبال من كلا الجانبين. فتم ربطها الى النخلة الغربية المجاورة من الأسفل فوق الجذع قليلاً ومن الوسط أيضاً، كما أعيد شدّها - بحبال أخرى إلى النخلتين الشرقيتين المتقاطعتين اللتين أسندتا رأسها وأنقذتاها من السقوط. ثم تدافع الجماعة وجاؤوا بأكياس السماد الحيواني والبشري من الحقول المجاورة وطوقوا بها الجذع كي تساعد على إلتئام الجذور المنزوعة.

ظلّوا يتصايحون في الغابة ويرددون الألحان الحماسية. حتى غطوا على عويل النساء، وضجيج المعزين في الحقل المجاور. قبل المغيب إنتهوا من عملهم وبدأوا يجلبون المياه من عين الكرمة في جرادل كبيرة ويغمرون بها جذع النخلة المريضة.

انضم إليهم الشيخ آهر في آخر لحظة يصحبه عدد من عقلاء القبيلة. تبادلوا حوارا مقتضبا مع الشيخ ثم توجهوا إلى السانية لتقديم التعازي إلى مرزوق. أما الشباب فتلقوا مهمة جديدة من الشيخ آهر فقادهم أمود وعادوا إلى الأكواخ لإصلاح ما أفسدته الرياح في حي القبيلة.

لم يمكث الشيخ طويلا عند مرزوق إذ أزعجه عويل الفلاّحات.

أعلن مخاطبا آهر بصوت عال: «هذا تجديف في حق القدر. هذه زندقة. هذا لا يليق بقداسة الموت».

ثم نهض وتوجه شطر الأكواخ.

تبعه آهر وثلاثة رجال من أعيان القبيلة. أدركوه في منتصف الطريق وأخبروه بتدهور صحة الشيخ خليل. قال آهر أنه لم يذق طعما لا للأكل ولا للنوم منذ

يومين والجرح في صدره ما زال ينز بالقيح وينزف، ويزداد النزيف كلما قامت امرأته بتغيير الشاش واستبداله.

اقترح غوما عندما اقتربوا من كوخ المريض: «لست عطاراً ولا خبيراً في التطبيب ولكني أقترح ترك الجرح مفتوحاً حتى يتعرّض للهواء» توقفا بباب الكوخ فاضطر غوما أن يضع حداً للحوار. سحب اللثام فوق أنفه وأنزل الطرف العلوي حتى غطى جبينه كي يخفي وجهه المعفر بتراب العاصفة. وقف خلفهما الأعيان الثلاثة وهم يعلنون عن أنفسهم بالسّعال.

مكثوا بجوار المريض قرابة الساعة. يقصون أخبار العاصفة وما فعلته بالواحة. تناولوا سيرة الفقيه دبّار، ولكنهم تعمدوا ألاّ يخبروه بوفاة ابن مرزوق. ظل خليل مسنداً ظهره الى العمود يئن أنيناً خفيفاً متنقلاً بين الحاضرين بعينين حزينتين. فرح بزيارتهم فظلّ يجول ببصره بينهم حتى يتوقف - في كل مرة - على وجه الشيخ غوما الذي تعمّد أن يهرب بعينيه نحو مدخل الكوخ. كان يدرك أن خليل يريد أن يقول له شيئاً ولكن قواه كانت تخونه فيزداد الشقاء في عينيه. ويبدو أن غوما لم يعد يطيق فاستأذن بالإنصراف متعلّلاً بإنجاز بعض الأشغال في الواحة قبل هجوم الظلام.

تركهم متحلقين حول المريض دون أن ينتظر الدور الأول من الشاي ومرّ على الجماعة المتجمهرين لنصب الخيمة. أعطاهم بعض التعليمات وغافلهم ومد يده إلى الصندوق واختطف السوط خلسة ودسه بين قميصه الداخلي وثوبه الفضفاض محاذراً ألاّ يشعر الشباب المنشغلين بنصب الخيمة في موقعها الجديد تحت اللسان الرملي.

وصل بيت مبروك دبّار مع هبوط المساء.

قرع الباب بقبضة يده ثلاث مرات دون أن يجيب أحد. تلهّى بالتمشي قدّام الباب في الباحة التي تتوسط البيوت. عاد يدق الباب بقبضته في ضربات عنيفة ولكن الصمت استمر. هم بالإنصراف عندما أطل رأس رجل في العقد الخامس من الحوش المجاور لبيت دبّار. حيّا الشيخ بإنحناءة من رأسه وقال دون أن يفتح الباب على مصراعيه: «الفقيه ذهب إلى الغابة لمعالجة الطفل المريض منذ الصباح. قال انه لن يستطيع أن يعود قبل منتصف الليل». قال الشيخ وهو يحاول أن يتبين ملامح الجار الذي إنعكست على وجهه شعاعات ضوء فنار خافت: «ولكنه غادر الغابة مع الأصيل عائداً إلى هنا» قال الجار وقد تغيرت ملامح وجهه فجأة واكتسحها شحوب طارىء: «هذا ما أعلمه يا سيدنا الشيخ. هذا ما أعلمه والله»

ثم تراجع خطوتين. قفز الفزع من عينيه وأغلق الباب وأحكمه من الداخل بالمزلاج. دهش الشيخ لهذا السلوك. وقف لحظات لعن الشيطان الرجيم وهو يقصد أطراف الغابة الشرقية واضطجع تحت نخلة قصيرة على الرملة التي جددتها العاصفة وكستها بطبقة بكر. تنفس بعمق وهو يسحب الهواء ويزوّد رئتيه الجائعتين بنسيم الليل ويصغي لجوقة الجنادب وهي تعزف أهزوجة المساء تحت ستار العتمة الغامض.

أقعى الكلب تحت قدميه واضعاً رأسه على قائمتيه الأماميتين. عمّ هدوء عميق فازدادت ألحان الجنادب وضوحاً حتى خيل للشيخ أن الكون والمخلوقات إندثرت فجأة ولم يبق سوى هذه المعزوفة الشجية التي تتردد كدليل وحيد على إستمرار الحياة ووجود الكون.

أضاءت بهرة خفيفة قمم الأشجار العالية مبشرة بميلاد القمر من وراء جبال الرملة الشرقية.

ولكن غوما أغفى ففاتته الطقوس الأولى لبزوغ القمر. بسط أشعته الفضية على الواحة فأثار الشعور بالجمال الخفي الذي يختفي في ضوء النهار ويكشف عن نفسه بالليل تحت ضوء القمر الغامض. ندم على إغفاءته. يعبد مثل هذه الليالي. فيها يستطيع أن يتحدث مع نفسه دون استعمال الكلمات: يلبث جالساً ساعات. ينصت لصوت الصمت. يراقب المعجزة وهي تتبدّى في سلوك الطبيعة: حفيف نسمة المساء الباردة في أحراش النخيل. انعكاس أشعة القمر على حبيبات الرمال، فتتلألأ وتلمع. كان قرص القمر قد ارتفع عندما نهض وعاد يطرق باب الفقيه. لم يجب أحد.

يئس وعاد إلى الخيمة فسعت إليه أخبار دبّار في اليوم التالي مع الصباح. جاءه أمود أثناء عودته من السوق وروى له تفاصيل هرب دبّار. قال ان الخبر إنتشر في السوق منذ الفجر. ورأى شهود عيان الفقيه وهو يتسلل بين أزقة الحي القديم يهش حمارته المحملة بالأمتعة متوجهاً إلى واحات الشمال عبر طريق الجبل. ويعتقد الأهالي أن الجار قد لعب دوراً مشبوهاً في تنبيه دبّار لزيارة غوما ونواياه في تنفيذ العقاب. وهنا روى أمود قصة أخرى مختلفة تفسر سلوك سركاح داهومي (وهو إسم الجار) مساء أمس عندما سارع يغلق في وجهه الباب ويحكمه بالمزلاج. احتمال أقنع الشيخ بعد أن ظن أن داهومي رأى الوعيد في عينيه فارتبك وانفعل وصفق الباب بطريقة لا تنم عن تصرف عاقل. والقصة التي رواها أمود عن الأهالي تؤكد أن سركاح داهومي أبصر لسان السوط الوحشي يطل من كم غوما

أثناء الحديث. وداهومي مخلوق غريب الأطوار. إذا غضب أو انفعل يمزق ملابسه وينقض عليها كالوحش ويشرع في تمزيقها ومضغها بأسنانه. وإذا تصادف وكان وحيداً في تلك اللحظة الجنونية فإنه يبتلع القماش. عادة اشتهر بها داهومي منذ الطفولة عندما كان أقرانه يستفزونه فيتمتعوا بالفرجة عليه وهو يمزق قميصه الجديد ويأكله في وجبة الغداء فينال العقاب بالعصا من أبيه الذي ظل يتشكى ويتبكى لآباء أبناء الجيران متوسلاً أن يشفقوا على جيبه ويكفوا عن إستفزاز سركاح حتى لا يفترس لباسه الجديد. وقد حاول دبّار أن يخلصه من هذه العادة فكواه في رأسه بقضيب الحديد الملتهب دون أن يؤدي الحرق إلى أي تعديل.

وفي الليل عندما لمح السوط الشرس يطل من كم الشيخ تملكه الفزع. وقيل انه بعد أن قفل الباب هجم على جبة طرزتها له زوجته من صوف الأغنام إنتقتها من سلالة مشهورة بجودة أصوافها، وحاول أن يلتهم الجبة ولكن الزوجة اختطفتها من بين يديه وهربت بها إلى بيت الجيران. أمّا سبب إستفزاز السوط لسركاح داهومي فيرجع إلى تلك الأساطير الكثيرة التي تحكى في الواحة عن براعة غوما في إستعمال هذا السلاح الشيطاني. وهي أساطير سبقته الى الواحة وأجمعت على أن فروسية غوما تتجلى قبل كل شيء في استعمال السوط وتفوق قدرته على إستعمال البندقية أو السيف. فتناقلت الروايات قصة رحلة قام بها في شبابه إلى أغاديس برفقة قافلة إنطلقت من غدامس وانضم لها في الطريق قبل نزولها إلى غات. وقد نشب بينه وبين رئيس القافلة خلاف فقرر أن ينفصل عن الرحلة واتخذ طريقاً آخر إلى أغاديس مما أثار حقد الرئيس نظراً لخبرة غوما الواسعة بطرق الصحراء السهلة وموهبته في التنبؤ بطبيعة الأرض. أرسل الرئيس (وهو تاجر جشع قديم من تجار الشمال) في أثره أعوانه المسلحين بقصد إقناعه بالعودة وإذا ركب رأسه وعاند أعطاهم الحق في استعمال العنف وإعادته بالقوة. باءت محاولات الإقناع بالفشل ورفض غوما التنازل فاضطر الجماعة لاستعمال القوة واحتكموا إلى سيوفهم فقفز غوما واستلّ سوطه. استطاع أحدهم أن يفلت أما البقية الباقية فتركهم غوما صرعى يتلوون على الأرض وقفز فوق سرج المهري وانطلق إلى أغاديس.

القصة الثانية تتحدث عن رحلة أخرى قام بها غوما في تلك السنوات إلى القارة ليعبر إلى الضفة الأخرى من النهر[١٨] واستلقى تحت شجرة إستوائية كثيفة لقضاء القيلولة عندما أيقظته تحركات مشبوهة في الأدغال. فتح عينيه وإذا بأرتال من الزنوج المسلحين بالحراب المسمومة يطوقون الشجرة ويشددون عليه الحصار.

قفز واقفاً والسوط في يده فانهالت عليه الرماح والحراب. ولا أحد يعرف ـ ولا حتى هو نفسه يعرف ـ كيف إستطاع أن يتجنب أسراب الحراب، ولا يدري كيف تولى الدفاع عن نفسه بالسوط. الذي يعلمه هو ما أسفرت عنه المعركة. جرحى يتلوون بين الأحراش وهم يرطنون بلغتهم التي تشبه أصوات الوطاويط، أما النصف الباقي من المفرزة فقد ابتلعته الأدغال.

وتروى قصة أخرى عن سوط غوما. فبعد لجوئه إلى الواحة بأسابيع نزل إلى السوق والسوط يلازم منكبه الأيمن. ويبدو أنه استمر متمنطقاً بهذا السلاح حتى بعد إتخاذه للواحة الآمنة موطناً بحكم العادة فقط. وقف يساوم الباعة في بضائع جاءت بها القوافل العائدة من جنوب الصحراء يرافقه الشيخ آهر والشيخ الجاروف وحاول غوما أن يصلح من هندامه الواسع فلوّح بالسوط مع طرف الكم في الهواء بحركة عفوية فارتطم لسان السوط بيد الجاروف فقفز فى الهواء وهو يصرخ كالصبي ممسكاً باليد التي لامسها السوط. دهشت الجماعة ولكن آهر الذي أدرك السبب غرق في ضحكة طويلة. قال الجاروف ممتقع الوجه منشغلاً بتفحص يده الموسومة:

«أنت تحمل أفعى في كمك يا شيخ غوما. هذا ليس سوطاً. هذا نار اللّه الموقدة. أعوذ بالله!». ودراية آهر بأمر هذا السوط الملتهب هي التي جعلته يقفز من بيته (في ذلك اليوم الذي جنّ فيه غوما وهجم على آيس) بمجرد أن أخبرته امرأته. فركض حافياً، بل انه خرج من الكوخ حاسر الرأس وربط عمامته على رأسه في الطريق وهو يجري. ولولا زوجته التي صرخت في أثره ونبهته إلى رأسه العاري لظل حتى اليوم مجللاً بالعار. ولن يشفع له حتى إنقاذه للصبي.

وشهرة السوط ـ حسب روايات أخرى ـ لا ترجع إلى مهارة الشيخ في إستعماله وإنما إلى الأسطورة التي تتحدث عن أصل هذا السلاح فتجعله نسيجاً فريداً بين السياط المعروفة في الصحراء الكبرى. وبرغم إختلاف القصص في شأن المصدر الذي اقتنى منه الشيخ هذه التحفة النادرة (البعض يؤكد انه تلقاه هدية من شيخ آهجار ويقول البعض أن أنامل حسناء من قبيلة أوراغن قد أحبته في شبابه ونسجت له السوط إعراباً عن وفائها وينفي الفريق الثالث هذا الإحتمال ويرجعه إلى خيال باتا ويقول هذا الفريق المدعوم من الشيخ آهر فيؤكد أن السوط ورثه غوما عن جدّه) إلاّ أنهم أجمعوا جميعاً على صحة الأسطورة التي يقول ملخصها أن لساني السوط السفليين المضفورين بنوع خاص من الجلد صنع كل طرف منهما من جلدين مختلفين يعود أحدهما الى جمل هائج والآخر إلى ناقة وديعة وقعا في

غرام بعضهما عندما التقيا بالصدفة في أحد المراعي المفروشة بالكلأ.

ولّما كان الجمل مملوكاً لقبيلة أخرى غير القبيلة التي تملك محبوبته الناقة فقد جاء الفراق مع رحيل القبيلة التي تملك الجمل لتستقر في الأودية السفلية غرب الحمادة الحمراء حيث تقضي الصيف. ولكن الجمل العاشق تمرّد ورفض مرافقة أسياده الرعاة إلى الموقع الجديد. فتولى عدد من الرعاة القساة تأديبه. فعاقبوه بالضرب بالهراوات طوال الليل ثم قيدوا قائمتيه الأماميتين وكذلك قائمتيه الخلفيتين ووصلوا بينهما حبلاً مفتولاً من الليف حتى لا يقطع القيد ويعود إلى المرعى كما فعل في المرة السابقة. ولكن الجمل الهائج استطاع أن يفلت في الليلة التالية ويلوذ بالفرار بعد أن قطع القيود المحكمة بأنيابه فوجده الرعاة بعد أيام يرعى بجوار معشوقته، منهمكاً بمداعباتها. فهجموا عليه وأشبعوه ضرباً، وأحكموا الوثاق حول قوائمه الأربع وأضافوا وثاقاً جديداً فخرموا أنفه بسيخ ملتهب وخرقوه برسن جلدي أعدّ خصيصاً لهذا الغرض وشدّوا الرسن إلى ذيله وتركوه على هذه الحال حتى الصباح: ظلّ يرغي طوال الليل والزبد الكثيف يتكاثر حول شفتيه الكبيرتين ويتساقط على رقبته. وكلما حاول أن ينهض على قوائمه آلمه الأنف المخروم المشدود الى الذيل فينهار ويسقط على الأرض من جديد. ولم يقف خيال الرعاة في تعذيب الحيوان المسكين عند هذا الحد، بل ابتكر أحدهم في الصباح حيلة أخرى قال انه تعلمها عندما كان يرعى المواشي في تمبكتو ويتخذها السلطان الحاكم هناك سلاحاً فعالاً لردع العصاة والمتمردين من الرعية. وأضاف هذا الراعي الخبيث قائلاً ان الاختلاف في أن السلطان يفعل ذلك مع البشر أما هو فخطيئته ـ كما ادّعى ـ أقل شأناً طالما يطبق هذا المنهج على معشر الحيوان.

جاء الراعي بالناقة وأناخها بجوار حبيبها وقيّد قوائمها بمساعدة بقية الرعاة ثم جاء بجمل آخر منفوش الوبر، بشع المنظر، كريه الرائحة، هائج أيضاً، يرغي طوال الوقت باحثاً عن رفيقة تطفىء له جوعه الحيواني. فهجم على الناقة المسكينة التي جاهدت محاولة أن تتخلص وتقف على قوائمها. أما جملها المحبوب فاستمات في الإفلات من قيوده، وكلما تحرّك وحاول أن يجد طريقة للخلاص مزقه الوجع الناجم عن الجرح الدامي في أنفه فخر في مكانه. يئس من الوقوف فحاول أن يزحف على بطنه ورقبته ملفوفة على جسمه كي يقترب وينقذ حبيبته من براثن الوحش. هنا حاصره الجلاّدون بالهراوات والسياط فهاج الجمل فنزع أنفه من الرسن بحركة إنتحارية ووقف على قائمتيه الخلفيتين ومد رقبته وعض غريمه الجاثم على حبيبته بأنيابه الفتاكة فرغى الغريم وملأ الخلاء بالشكوى. في ذلك الوقت

تجمع كل الرعاة حوله، يضربونه بالعصي والهراوات والسياط وحتى الأحجار دون أن يتمكنوا من ردعه. ظل الدم يسيل من أنفه على شفتيه الممزقتين وهو ممسك بأنيابه الهائلة بمؤخرة غريمه يلوكها بوحشية. في تلك اللحظة أفلت الغريم وأطلق ساقيه للريح وفخذه يقطر بالدماء فتقدم الراعي الخبيث ليحول بينه وبين الناقة الجاثية على الأرض وهو يلهب وجه الجمل بالسوط فتمكن الحيوان من الإمساك بيد الراعي وشرع يلوكها ثم صرعه على الأرض وزحف بقائمتيه الاماميتين المقيدتين وظل يطحنه بجسمه على الأرض.

يئس الرعاة من إنقاذ رفيقهم فهب أحدهم واختطف بندقية مخصصة لإرهاب الذئاب والوحوش الكاسرة وأطلق رصاصة قاتلة على رأس الجمل المجنون.

وبرغم أن الدماء الغزيرة إنبثقت فوراً من رأس الحيوان إلاّ أنه قاوم طويلاً واستمرّ يهرس ضحيته الراعي إنتقاماً ولم يهدأ ويستسلم للموت إلا بعد أن اطمأن إلى أن الإنسان الذي يرقد تحته قد استحال إلى أشلاء.

تحلّق الرعاة حول الجثتين وأسرع أحدهم يتناول المدية ويهرع لذبح الجمل الصريع. وقبل أن يغرس المدية في الجمل إذا بالناقة تهجم عليه. وترفسه بخفّيها فوقع على الأرض وتدحرج مسافة في حين حاولت بإصرار أن تتمكن منه وهي تسعى في أثره غير عابئة بضربات رفاقه الذين تجمعوا حولها.

أفلت الراعي في البرية وهو يستغيث. فتركته وعادت لمهاجمة الفريق الباقي. استمر الصراع حتى الغروب فاضطر نفس الراعي أن يلجأ لاستعمال الرصاص. فخرق جمجمتها برصاصة قاتلة بعد أن تمكنت الناقة الهائجة من كسر رجل أحد زملائه وجرحت آخر في يده.

خرت الناقة البائسة بجوار حبيبها الذي فارق الحياة. فماتت هي الأخرى دون أن يقدر الرعاة المرعوبون المنهكون على ذبحها.

والحقد على هذين الحيوانين العنيدين اللذين لم ير أحد لهما مثيلاً في كل الصحراء هو الذي حفّز الرعاة في ذلك اليوم على سلخ الجيفتين من باب الإنتقام وصنعوا من جلديهما ثلاثة سياط دبغت بعناية في مزيج من اللّحاء المستحضر من أشجار مجاهل القارة، وخلطة نادرة من مستحضرات الأشجار الصحراوية التي لا يعرف أسرارها سوى السحرة. وتمّ ضفر لسان كل سوط من جنس مختلف: أحد اللسانين من جلد الجمل واللسان الثاني من جلد الناقة. ويقال ان قسوة السوط عائدة إلى حقد هذين الحيوانين على الإنسان.

ظل مصير السوطين الآخرين مجهولاً. فيقال في رواية أن أحدهما موجود الآن

في قصر السلطان بالباب العالي حيث تلقاه هدية من أحد القائمقامية. ويروى أن هذا القائمقام لم يبعث به كهدية نفيسة تليق بصاحب الجلالة لو لم يجربه بنفسه على الرعية من فلاحي الواحات. أما السوط الثاني فيقال أن سلطان أغاديس تلقاه هدية من شيخ آهجار فقدمه السلطان بدوره هدية لزعيم إحدى قبائل الزنوج التي تقطن أدغال ما وراء النهر رداً على هدية سابقة تلقاها هذا السلطان من الزعيم الافريقي. ولا أحد يدري كيف حصل جد الشيخ غوما على السوط الثالث. ولا نملك إلا أن نعذر الأهالي وهم يتلصصون بين الأحراش ليسترقوا النظر الى آيس الموسوم بآثار السوط عندما يستحم مع الصبية في عين الكرمة. ونعذر أيضاً سركاح الداهومي المسمم بكل هذه الأساطير والذي وقع يومها في جنونه وتربص لجاره الفقيه ليخبره بالمصير الذي ينتظره على يدي الشيخ مما دفع مبروك دبّار لأن يتدبر الهرب في نفس الليلة. قام بعملية غش أخرى فخدع صاحب دكان وباع له مقبرة الغلال التي خبأها له مرزوق مقابل علاج الطفل بجوار سياج الجريد مصراً بهذا العمل أن يسحب آخر مليم من مرزوق. وغوما - وإن عرف جوع دبّار إلى المال - إلا أن أساليبه الأخيرة في كسبه فاقت كل توقعاته. فسمع في الجامع أكثر من مرة أحاديث تدور حول عبادة هذا الزنديق للمال فنقل عنه أحد المشائخ الأتقياء قوله ان الله نفسه قدّس المال وضرب مثلاً بالآية الكريمة: {المال والبنون زينة الحياة الدنيا}. معلقاً عليها بوقاحة: «الله نفسه كما ترون يضع المال في مكانة سابقة مفضلاً إياه حتى على البنين». وبدل أن يجلد هذا الزنيم على الفور مقابل هذا التجديف وجد من يصغي له ويجامله بل ويضحك في وجهه ويقول له: «أنت على حق!» فكيف لا يتجاسر الوغد ويستغل سذاجة الفلاحين وينهب أموالهم ويفر - مع ذلك - من آدرار دون عقاب؟

هكذا فكر غوما وهو ينتهي من احتساء شاي الصباح ويستعد لتأدية زيارة للشيخ خليل قبل التوجه إلى السانية للإشتراك في تشييع الجنازة.

قال وهو ينهض ويعدّل عمامته مواصلاً بصوت عال مخاطباً أمود: «أخبر صاحب الدكان بأنه وقع كغيره ضحية لغشاش. وقل له أنني أنصحه أن يسعى وراء الشيطان الذي يرتدي ثياب فقيه ويسترد منه ماله قبل أن يبتعد كثيراً عن الواحة. وإذا اعترض وحاول أن يقترب من مطامير الغلال فسوف ينال عقوبة الجلد بالسوط نيابة عن ذلك المحتال!».

كتم أمود ضحكة كادت تفلت ثم قام ليشيّع الشيخ في الطريق إلى بيت المريض.

(١٢)

عكس كل التوقعات فإن الأيام لم تأت للواحة بالخلاص ولم تضع حداً للمصائب فجاء دور العقارب لتأتي على صبر الأهالي. عرفت الواحة عقارب كثيرة في الماضي ولكن ظلت عقارب ذلك العام مميزة بثلاث خاصيّات: لونها وحجمها ومفعول سمّها.

اللّون: أسود داكن كلون الخنفس. فتذكر عدد من المعمرين في الواحة أن الأهالي سبق وأن عثروا على شبيهة لها منذ ما يقرب على السبعين عاماً. وُجدت مندسة في جمجمة من جماجم الأولين في مقبرة القدماء، في سفح الجبل. ونقل عن هؤلاء الرواة قولهم ان فريق الأطفال الذي اكتشفها وظن أنها خنفس ضخم انتقل إلى رحمة الله عن بكرة أبيه. طفق الأطفال الأبرياء يداعبونها ويستفزّونها فاستعرضت مواهبها الهجومية في تنفيذ الهجمات المباغتة. لسعة خفيفة في البداية تعقبها أعراض الحمّى ونوبات القيء وزرقة في البشرة فتقضي الضحية نحبها على الفور قبل أن يعرف الناس السرّ.

لقي الأطفال المساكين حتفهم على مراحل مختلفة. فأسلم اثنان الروح في الحال عند المقبرة وتبعتهم البقية بعد العودة إلى البيوت لتناول الطعام. فبلغ عددهم اثني عشر طفلاً تتراوح أعمارهم بين السابعة والرابعة عشر عاماً. وفي رواية أخرى قيل ان عددهم لم يتجاوز التسعة أفراد.

وبرغم أن مهمدو أحد هؤلاء المعمرين إلاّ أنه لم يأت على ذكر هذه الحادثة.

الحجم: ضعف الحجم المتوسط للعقرب العادية. سمينة الأرجل والذيل والأطراف. مشحونة بالسم. محتقنة بالموت. وبرغم أن المنطق يفترض أن تتميز ببطء الحركة بسبب حجمها إلاّ أن العكس هو الصحيح. فتنطلق كالسهم وتدور يميناً أو يساراً أو تعود على أعقابها في خفة شيطانيّة وقدرة خارقة على المناورة.

مفعول السم: لم يستطع أحد أن يصف المفعول لأنه لم يحدث أن لسع هذا النوع الخرافي من العقارب مخلوقاً ووجد فرصة يعبر فيها عن أحاسيسه كما لم يُلدغ إنسان إلا وغادر الحياة في غيبوبة لم تسمح له أن يبوح بتجربته.

وإذا كان الأهالي قد عرفوا عن العقارب العادية جبنها وخططها الحربية القائمة على مبدأ «اضرب واهرب» فإن عقارب ذلك العام تسلحت بنظرية مختلفة في الحرب. فبنت خططها على أساس لم يعرفوه في سلوك العقارب وهو العناد والعدوان. وهذا السلوك العدواني فرض على العقلاء أن ينقبوا ويبحثوا فيما لديهم من مصادر ويسألوا أهل الحكمة عن أصل هذه الحشرة الغادرة التي لم

تعرفها الواحات فتوصلوا الى وصف مقتضب ورد بين صفحات ذلك المخطوط القيم المدفون في الجامع يقول بالحرف: «اليوم عرفت الواحة عدواً جديداً لا عهد لها به نشر الرعب في قلوب الفلاحين وعمم الفوضى بين الأهالي فتركوا حقولهم وبيوتهم الى الجهات الأربع بحثاً عن الخلاص. ولم يكن هذا العدو إلاّ عقرب غامضة غريبة الأطوار عدوانية السلوك، قاتلة السم جاءت على الأغلب عن طريق مقابر القدماء حيث يؤكد شهود العيان أنهم رأوها تتسكع هناك بين الرم والجماجم ورفات الأولين. وبدل أن يلتفت الناس إلى أنفسهم ويبحثوا عن سبب البلاء في داخلهم يحتكمون ـ ككل الرعاع الهلوعين ـ إلى الهرب ظنّاً من البلهاء أن الخلاء يمكن أن يعفيهم من العقاب الذي نزل عليهم كي يطهرهم من خطاياهم ويحذرهم من الإثم». ويسهب المخطوط في استعراض صنوف تلك الآثام التي اقترفها الأهالي في ذلك الزمان فيقول في مكان آخر بنفس نبرة الوعيد: «.. وقد تملكتهم روح الاستهتار وأذنبوا في حق أنفسهم وفي حق أبنائهم وأسرهم فدفعهم شيطان اللاقبي لأن يعقدوا الحلقات التي يجرون فيها القرعة للفوز بزوجات بعضهم البعض؛ فإن أعجب أحدهم بزوجة صاحبه يبتدع تلك الحيلة التي تمكنه من نيلها فيأتي الفقيه لقراءة فاتحة صورية تتم بها مراسم الزواج فيدخل عليها في نفس الليلة ويقضي منها وطره على مسمع من زوجها وأولادها وبمباركة الفقيه حتى إذا جاء الصباح طلّقها وعادت إلى بيتها السابق حاملة في أحشائها جنين الزوج المؤقت فيدخل الحابل بالنابل بعد تسعة أشهر عندما تضع المرأة الوليد الجديد فلا يميز الزوج أبناءه من أبناء الآخرين. وقد حدثنا إمام الجامع البارحة بقصة يقشعر لها بدن المؤمن فقال ان احدى النساء (وهي زوجة حسناء لعوب تزوجها فلاّح أدمن اللاقبي منذ صباه) قد عاشرها في ليلة واحدة تسعة شبان عمّدهم الفقيه «أزواجاً» عليها، وكلّما انتهى أحدهم من نيل مأربه طلقها ليعقد الفقيه قرانها على الشاب التالي. ولم ينبلج الفجر حتى كان الفقيه الذي لعبت الخمرة برأسه قد عقد عليها لنفسه. وبعد تسعة أشهر وضعت هذه الشيطانة طفلاً قيل انه (ويا للمفارقة) آية في الجمال. ويجدر بنا أن نتساءل الآن: من يستطيع أن يدعي أبوة هذا المخلوق البريء؟ طبيعي أن الزوج السكير قد سجل الطفل باسمه طالما قبل بعودة زوجته اللعوب ليعيش معها تحت سقف. فكيف يا معشر المؤمنين لا تريدون أن يرسل الله على رؤوسكم العقارب السوداء لتردكم إلى الصراط المستقيم».

وواضح من نبرة التهديد الخفية التي كتب بها هذا المقتطف أن كاتبه لم يكن سوى أحد النسّاك الزاهدين في الحياة الدنيوية الذين تعودوا أن يعتصموا بالجامع

في ذلك الزمان. وقد اختلف الناس في زمن كتابة هذه الملاحظة فقيل ان كاتب السطور يتناول نفس حادثة ظهور هذا النوع من الحشرات القاتلة التي تحدث عنها بعض المعمرين ويرجعون تاريخها الى حدود السبعين عاماً الماضية، في حين يؤكد فريق آخر أن الكاتب هنا يشير إلى ظهور آخر للعقارب السوداء حدث سابقاً بمدة لا تقل عن خمسة عقود أخرى متخذين من ترتيبها في المجلد الضخم دليلاً على فرضيتهم في قدم الملاحظة وإرجاع تاريخها إلى ما لا يقل عن المائة والعشرين عاماً مضت.

وأكثر ما أثار فضول الأهالي ودفعهم للتزاحم في باب الجامع هو تلك الشائعة التي انتشرت في الواحة معلنة أن المخطوط أورد وصفة سحرية تشفي من لسعة العقرب السوداء. وحقيقة الأمر أن المخطوط لم يورد من هذه الوصفة سوى العنوان أما النص نفسه فقد انتزع من المجلّد ربما عمداً وربما بسبب التلف الذي تعرضت له صفحات كثيرة من الكتاب بفعل الرطوبة وتراكم الأتربة وسوء الإستعمال. كتب العنوان بخط كوفي رديء عانى الفقهاء كثيراً في فك حروفه ومعرفة طلاسمه فترجم أحدهم العنوان على هذا النحو: «الطرق السحرية في معالجة لسعات العقرب البريّة». وفي رأي فقيه آخر خبير أيضاً في فك الخطوط أن نص العنوان يقول: «الطرق السريّة في منازلة لسعات العقرب الشريرة». أما النص الكامل للتعويذة فتعرض للتلف ولم يجد منه الفقهاء سوى جملة ناقصة تقول: «أهم علاج للسعة هذا النوع من العقارب هو النـ ...» وتم نزع بقية الكلمة مع الصفحة التالفة. وطبيعي أن العامة لم يقتنعوا بضياع الوصفة العلاجية إلاّ بعد أن خرج إمام الجامع وعرض عليهم الصفحة المنزوعة رافعاً بكلتا يديه المجلد الضخم في الهواء بعد الانتهاء من خطبة الجمعة. ولم ينزل من على المنبر إلاّ بعد أن اقتنع أغلب الحاضرين بأن دواء الموت الذي جاءوا للبحث عنه قد امتدت يد المجهول واختطفته من بين أيديهم كما امتدت يد الجن واختلست «كتاب الكنوز» في السابق.

ولكنهم لم يستسلموا. فاجتهدوا على الفور في تكملة الحروف الثلاثة الواردة في الوصفة، ففسّر البعض «الن..» بـ«النار» واقتنوا قضبان الحديد ووضعوها في المواقد الملتهبة وجلسوا على أهبة الاستعداد لكوي الملسوع بالنار بمجرد أن يتعرض للسعة. ولكن فعالية هذا العلاج لم يحالفها النجاح حيث ازدادت حالة الملسوعين سوءً أو سارعوا بالذهاب الى القبور عكس المتوقع. وذهب فريق آخر إلى أبعد فطعن في كفاءة الفقهاء المتخصصين في فك الخطوط وقالوا ان الحروف

الثلاثة الأولى ليست الـ« أ ل ن » وإنما « أ ل م » الواردة في القرآن فيبدأ سبحانه وتعالى بهذه الحروف كتابه العزيز في سورتين متتاليتين وهما : البقرة وآل عمران. وإذا أراد الناس أن يجدوا مفتاحاً ناجحاً لعلاج الموت المحقق فما عليهم إلاّ أن يلجأوا إلى العلماء الحقيقيين القادرين على تفسير هذا الرمز العظيم الذي يختبىء وراء هذه الحروف الثلاث: أ ل م.

ولّما أجمع علماء المسلمين من القدم على استحالة التوصل إلى تفسير هذه الحروف فإن اكتشاف سرّ العلاج أصبح تعجيزياً فيئس الأهالي وقبعوا في بيوتهم يتمتمون بالتسابيح منتظرين المعجزة من السماء بعد أن خيّب مفسرو الدين أملهم في الخلاص. ودفع الهلع بعضهم إلى أن يتسابقوا لاقتناء القماش الناصع من الدكاكين لاستعماله ككفن عندما تشن العقرب السوداء غارتها حاملة الفناء.

قبيلة الشيخ غوما سلكت طريقها الخاص في تفسير النص. فأجمع العقلاء في الأكواخ على أن المقصود بالحروف الثلاثة هو النار بالفعل ولكن ليس الكوي بالنار وإنما النوم في سياج من النار فتسابقوا إلى تخوم الواحة والصحارى المجاورة لجلب الحطب وإشعال دوائر النار. في البداية كانت الدائرة تحيط بالكوخ ثم ضاق خناقها بعد أن اقتحمتها العقرب الفتاكة ووجدت ثغرة تخترق منها السياج النّاري وتفرغ سمومها فتقضي على ضحاياها. فلجأ أهل القبيلة إلى إحاطة مخادعهم في العراء بدائرة صغيرة من النار يقضون الليل وهم يمدونها بالحطب. فإذا حدث وخبت النار عندما يغفل عنها الناس ويستسلموا للنعاس فإن العقرب الشيطانية تجد طريقها إلى الداخل وتلسع النائم.

التجربة علّمت أبناء القبيلة الحرص على أن تكون الدائرة النارية مشتعلة طوال الليل.

ومهما يكن من أمر فإن حالات الوفيات في القبيلة كانت أقل منها في الواحة. ويرجع البعض السبب إلى إبتكار الحلقة النارية في حين يرى البعض الآخر السبب في قرب الحي القديم من مقابر الأولين حيث انطلقت العقرب السوداء في غزوتها للواحة.

أدت طقوس إشعال دوائر النار إلى الإسراف في استعمال الحطب فازداد الطلب على هذه البضاعة فقام الشيخ آهر واجتمع الى أمود في احدى العشيات وقال له وهو يختلي به جانباً :

- خبرتك السابقة في بيع الحطب تؤهلك هذه الأيام للفوز بالثروة.

لم يفهم أمود هدف الشيخ فرفع رأسه مستفهماً فأضاف آهر :

ـ الشيخ غوما يتوقع أياماً عصيبة.

أطل الحزن من عيني أمود وقال محاولاً أن يضبط النفس:

ـ هل طلب منك الشيخ أن تبلغني بذلك؟

سارع آهر يهز رأسه علامة النفي ثم قال وهو يخطو إلى الأمام بجوار أمود:

ـ لا. رأيت أن مجد الحطب يعود فقررت أن أقترح عليك أن تعود إلى مهنتك القديمة وتكسب ثروة.

هب أمود وهو يلوح بيديه في الهواء:

ـ هذا لن يحدث. والله لو متّ جوعاً. والله لو جاءتني تجارة الحطب بأموال قارون...

ثم ارتعد وعجز عن الكلام فانطلق إلى الغابة تاركاً آهر واقفاً في منتصف الطريق بين الأكواخ.

عاد إلى كوخه وهو يقول لنفسه: «سبحان الله. هل تجارة الحطب مهينة إلى هذا الحد؟ لقد أردت مصلحتك أيها الغرّ!».

في تلك الأيام خيّم الحداد على آدرار.

خلت الطرقات من المارة وفرغت بيوت الحي القديم من أغلب أهلها. لجأوا إلى خلاء الشمال محتمين بسفوح سلسلة الجبال الكئيبة، وكسد السوق من البضائع والتجار وأغلقت الدكاكين أبوابها وابتلع الغابة صمت مهيب. ومع حلول المساء تتراءى نيران الأكواخ الدائرية كمشاعل أسطورية في العراء. وأصبح تشييع الجنائز عملاً يومياً بل صار بمعدل ثلاث أو أربع أو حتى أكثر ـ حسب نشاط العقارب ـ كل يوم.

الشيخ غوما كان الوحيد المعصوم من لسعات الحشرة السامة.

والسبب لا يرجع إلى كونه الوحيد الذي تآخى مع هذا النوع من الهوام في الطفولة وتشرب الأخوة مع حليب الرضاعة، ولكن لأنه الوحيد الذي استطاع أن يحافظ على الأخوة ومنع النفس الأمّارة بالسوء من أن تمتد وتقتل عقرباً كما فعل الآخرون.

رآه آهر بعينه منذ أسابيع أثناء موجة الحر وهو يتسلّى بمداعبة عقرب صغيرة خضراء وجدها في حجره فتناولها في راحة يده وتركها تتسلق ذراعه دون أن تؤذيه.

والسرّ ليس في طقوس التآخي التي تحتكم إليها كل أم في الصحراء لتحمي وليدها من هذا العدو فتحلب الحليب من ثديها في إناء، وتلقي فيه بالحشرة

وتتركها تسبح حتى الصباح فترمي بالإناء في كوم القمامة وتطلق سراح السجينة فتربط بينها وبين الوليد بدماء الأخوة. ولكن السرّ هو في تنفيذ العهد الذي ينص بنده الأول على الإخلاص الأبدي للعقرب وعدم التعرض لها بأي أذى. ولكن طيش الصبا يقف حائلاً دون تنفيذ العهد برغم تحذير الأمهات وتوسلاتهن في تجنب قتل العقارب. فيستيقظ العناد الطفولي الخفي في الصبية ويتعمدون نقض الإتفاق تمرداً على سلطة الآباء فيبطلون بذلك مفعول رابطة الدم وتعود روح العداء بين الإنسان وهذه الهامة السامة.

هذا حدث مع آهر وخليل وشيوخ القبيلة وشبابها وكل من كلفت أمه نفسها إرضاع الحشرة في المهد، فيأتي الشيطان في الصبا ويضع حجراً أو عصا في يد الفتى ويهمس في أذنه: «العقرب عدو الإنسان فإن لم تبادر بقتلها غدرت بك وتسللت إلى مرقدك في الليل فتقرصك في أذنك» تستيقظ غرائز الإنسان في الدفاع عن النفس فيلقم «أخته» في الرضاعة حجراً أو يهوي على رأسها بالعصا فيحقق الشيطان هدفه ويفتن بين الطرفين فيشتعل العداء من جديد.

خيانات العهد جاءت من طرف الإنسان. فلم يحدث أن بادرت العقرب وغدرت بـ«أخيها» حتى من باب الخطأ. ويبرر حكماء الصحراء تقديس هذا النوع الغامض من الحشرات للأخوّة وإخلاصها للدّم إلى ضعف سلطة الشيطان عليها عكس الإنسان. ويروق لهؤلاء الحكماء أن يضيفوا فيقولون: «ذلك ليس غريباً. النفس البشرية في يد الشيطان منذ خلق الله الإنسان».

تحدّث آهر عن تجربته فقال وهو يحتسي الشاي الأخضر ويدفن رجليه في الرملة الباردة في جلسة إحدى الأمسيات قبل أن تظهر العقارب الأخيرة بزمن طويل: «فطمتني أمي متأخراً جداً. بلغت الرابعة وبضعة أشهر عندما جاءتني وأنا ألعب مع الجديان في المربط وأخذتني في حجرها وأخبرتني بلغة لم أفهمها وقتها أنها قامت البارحة بإرضاع العقرب ففتحت عهداً بيني وبين العقارب برابطة الدم. وقالت لي والخوف يقفز من عينيها أن ذلك يستوجب الحذر وهددتني بسبابتها قائلة: «إياك أن تخون العهد..» ثم أخلت سبيلي وعدت إلى ألعابي مع أصدقائي الجديان. بعد سنتين أو ثلاث صادفتني عقرب كبيرة وأنا أتسلّى مع الأطفال في بناء سور من الأحجار تحت سفح الجبل عندما كنا نقيم في «عوينة ونين». أذكر أني انتزعت حجراً فوجدتها ترقد تحته. غمرتني القشعريرة وأنا أشاهد تكوينها البشع واستعداداتها للدفاع فوجدت نفسي ألقي على رأسها نفس الحجر الذي كانت تتغطى به فماتت على الفور. وبالطبع تسابق الاطفال للوشاية. بكت أمي

وأمسكتني من أذني وحبستني بين رجليها وغرغرت في أنفي سائل الفلفل عقاباً على خيانة العهد ».

سكت الشيخ آهر ثم ختم بعد صمت طويل: « .. لم تمض بضعة أسابيع حتى لسعتني أول عقرب في حياتي! ».

الشيخ خليل بدأ قصته من نهايتها فقال في نفس الجلسة: « .. أما أنا فكنت نائماً عندما تسللت الحشرة اللعينة واندست في كمي وشرعت تدغدغني ولا أعرف الآن أي شيطان همس في أذني أن أقبض عليها بين يدي وأطحنها بقسوة لا تتناسب مع إبن الثانية عشر عاماً.. ».

سكت خليل أيضاً وتنقل ببصره بين الحاضرين في ظلمة الليل وأضاف:

« .. في اليوم التالي نزل العقاب فلسعتني عقرب عندما أردت أن أخرج حبات التمر من الخريج! ».

ظل غوما صامتاً طوال الوقت، يخطط الرمال بأصابعه راسماً الدوائر والمربعات والمثلثات دون أن يعرف أحد ما إذا كان يتابع قصص الجماعة أم أن اللوحات التي ينشغل في رسمها على الرملة دليل على غيابه.

الشيخ خليل روى قصة. قال انه سمعها من أحد شيوخ القبيلة في الماضي البعيد. نيابة عن غوما وصفها بأنها لا تخلو من موعظة. غرس مرفقه في الرمل وأسند رأسه بيده. سعل مرتين وقال: « كم كان عمرك وقتها يا شيخ غوما؟ إحدى عشر عاماً؟ إثنا عشر عاماً؟ » ثم أضاف دون أن ينتظر جواباً: « .. في حدود الاثني عشر عاماً حسب الرواية التي سمعتها من أسوف رحمه الله قبل وفاته بشهور فقال انه رافق الفتية الذين اشتركوا في البحث عن الترفاس في المراعي المجاورة للمضارب في ذلك الربيع. واستطاع غوما أن يعثر على الترفاس الأسود فأثار بقية الصبية وخاصة ذلك الفتى الشرير الأعور من قبيلة « امغاد » الذي تعوّد مشاكسة غوما فنشب بينهما العراك مراراً. لم يحتمل هذا الولد الشقي أن يعود إلى البيت خالي الجراب فكتم حقده حتى كشف بعصاته عن عقرب في الأرض المتشققة ظاناً أنها ترفاسة فتقدم من غوما ووضع في يده العصا وقال له بلهجة آمرة والحقد يقفز من عينيه: « اقتلها.. ». تراجع غوما خطوات إلى الخلف وهزّ رأسه بالنفي فتقدم الولد خطوات وهو يردد ويلوح بالعصا في وجهه: « اقتلها إذا أردت ألاّ أهوي بهذه على رأسك! ». ولكن غوما استمر في التراجع وفي عينيه الإصرار على الرفض. ففقد ابن الأمغاد السيطرة على نفسه وهوى بالعصا على غوما فأصابه في كتفه وتشابكا في معركة حامية. تجمع حولهما بقية الفتيان في حلقة واسعة. في

تلك اللحظة هجمت العقرب ولسعت الولد في قدمه فهوى على الأرض».

صمت خليل وتساءل شيخ عجوز كشف عن فمه فبدت لحيته البيضاء تحت ضوء القمر الذي ارتفع عن قمم الجبال الشرقية بضعة أمتار: «هل هذا صحيح يا شيخنا؟ هل انحازت العقرب إلى جانبك في معركتك مع الفتى؟».

ولكن غوما لم يجب. مسح المربعات والمثلثات والمستطيلات المرسومة على الرملة بحركة مفاجئة ونهض عائداً إلى خيمته.

في تلك الأيام ضيقت المحن الخناق حول رقبة الشيخ غوما. فما أن سكنت العاصفة التي أتلفت المحصول ودمرت الأشجار وفي مقدمتها أم النخيل حتى اكتشف الشيخ - بمساعدة الريح نفسها - أن مرزوق كان يستغفله ويخدعه طوال السنوات الماضية عندما اهتدى إلى مخزن الحبوب بجوار سور الجريد. أراد الشيخ أن يعاقب دبّار بالسوط بحثاً عن العزاء فأفلت اللص في آخر لحظة. وما كاد ينتهي من عض بنان الندم بعد فرار المجرم حتى انتقل الطفل المعذب إلى رحمة الله وحال ذلك دون معاقبة مرزوق على الإختلاس. توقع أن تحين الفرصة عقب الإنتهاء من الدفن ولكنه أجّل إستنطاق مرزوق احتراماً للموت.

التقى عند البئر بأمود الذي انهمك في غسل بعض البقع الدهنية في سرواله الفضفاض. وقف فوق رأسه ونظر إلى قمم الرمال وقال بحزن:

- حال السانية يرثى له. المزروعات عطشى والأشجار تيبست. الصهد يلفح والبخار يتصاعد. نار تأتي من السماء ونار من الأرض.

دلق أمود الماء على سرواله من الدلو وقال وهو يفرّك القماش بين يديه وينكفىء إلى الأمام:

- مرزوق إنهار تماماً. هزته الصدمة فوجد العزاء في اللاقبي.

عصر طرف السروال وأضاف وهو يرمق الشيخ خفية:

- نفسه أصبحت ميّالة إلى العدوان.. البارحة طرد مبروكة واتهمها بالخيبة والعقم.

بدا الإهتمام في هيئة الشيخ ثم عاد إلى هدوئه متمتماً:

- هذا من صنع اللاقبي. إننا نتعاطف معه ولكن اللاقبي هو السبب.

- قال لها أيضاً أن الطفل ورث الصرع من أهلها واعتمد في هذا الزعم على فتوى الفقيه مبروك دبّار.

- يا له من وغد!

رفع نحو الشيخ نظرة مستفهمة فاستدرك الشيخ:

ـ دبّار وغد. لم يكفه ما صنعه طوال إقامته في آدرار فأصر أن يترك وراءه فتاوى تفتن بين الزوج وزوجته حتى في غيابه.

صمت لحظة ثم تمشى إلى الأمام وإلى الخلف وأضاف بعناد طفل:

ـ الله نفسه تدخل ونجاه من السوط. لا أستطيع أن أجد تفسيراً لهذا الأمر ولكني كثيراً ما أقول لنفسي أن للرجل فضائل ربما لا نعرفها وإلاّ فليس من العدل أن ينجو هذا الوغد من العقاب.

اقترح أمود:

ـ كان بالإمكان مطاردته إلى الواحات الأخرى. لن يبتعد بعيداً في اليومين الأولين خاصة وأن حمارته عرجاء.

ـ عرجاء؟

ـ يقال ان الحمارة عرجاء إبتاعها من سركاح داهومي مقابل عباءة اكتشف سركاح فيما بعد أنها مغشوشة.

لاحظ أمود أن عيني الشيخ تبتسمان ولكنه أخفى الإبتسامة تحت ستار مفاجىء من الجدية. قال:

ـ ومع ذلك فإنني لست قادراً على مطاردة الفقهاء والدجالين إلى الواحات الأخرى كي أنزل بهم العقاب.

قال أمود كأنه يعتذر عن إقتراحه:

ـ قلت كان بالإمكان مطاردته ما دام تنفيذ العقوبة مهمّاً إلى هذا الحد.

صاح الشيخ فجأة:

ـ نعم. العقوبة مهمة. أعلم أن القرآن نفسه قد حث معشر المسلمين على الإحتكام إلى القصاص في شؤونهم الدنيوية. لا يتطاول مجرم ويقترف الإثم في حق الآخرين ويبقى طليقاً يتمتع بالحرية ويتباهى بالإفلات من العقاب. ولكن هذا لا يعني أنني على استعداد لمطاردته بين الواحات وجلده بالسوط بين الأغراب.

ثم استدار وانصرف.

زحف المساء.

مرّ على كوخ مرزوق فسمع الفلاّح يرفع عقيرته ويتلعثم بكلمات مثل شعبي صانعاً منه أغنية:

طار الحمام، صفقّي يا وزّة، مبروك هرب، يا مرزوق اصبر وتحمل الهزّة!

وبرغم اجتهاد مرزوق في صياغة الشطرة الثانية من البيت (بوحي من اللاقبي طبعاً) إلاّ أن ذلك لم ينقذ اللحن من النشاز فهمس غوما في نفسه: «حتى مرزوق

بدأ يجرب حظه في الشعر. هذا من علامات القيامة! » ثم استدرك وهو ينحرف في طريقه ويتجه للإطمئنان على أم النخيل: « ولكن هذا كله من صنع شيطان اللاقبي » . اخترق صفوف الأشجار الملفوفة في صمت المساء ثم تراءت له أشباح عدد من الفلاحين وهم يستسلمون لإعداد مراقدهم في قمم الأشجار - بجوار قلل اللاقبي المعلقة وأعشاش الحمام - هرباً من لعنة العقارب على الأرض. وقد تفتقت عبقرية هؤلاء الخبثاء على هذه الحيلة منذ الأيام الأولى لظهور الحشرة متفوقين بذلك على أهل الحي القديم الذين لاذوا بالهرب وعلى أهل الصحراء في الأكواخ الذين أطعموا كل حطب الصحارى المجاورة لحلقات النار التي اتخذوها متاريس تؤويهم من الشر. قال الفلاحون وهم يتباهون بإبتكارهم: « نحن لسنا جبناء مثل أهل الواحة القديمة فنهجر أرضنا وبيوتنا ولسنا كأهل الصحراء الذين يدّعون الفروسية والنبل وينامون في دوائر مغلقة من النيران كأجبن المخلوقات خوفاً من أتفه حشرة! » . ولكن حتى الفلاحين لم يتباهوا بإنتصارهم طويلاً. فسقط ثلاثة منهم في الغابة الجنوبية من قمة الشجرة وأصيبوا بالكسور والرضوض وبعد أيام سقط عدد آخر في أطراف الغابة الغربية أسلم إثنان منهم الروح فوراً، فعلق أحد خبثاء الواحة قائلاً ان ما فقده هؤلاء البلهاء من الجرحى والقتلى وهم يتطاولون في السماوات وينامون كالوطاويط معلقين من أرجلهم يفوق ما فقده العباد المستسلمين للقدر الذين لزموا الأرض وسلّموا الأمر للّه. فرد الفلاحون على التعليق بتعليق يقول ان سبب السقوط ليس عائداً إلى عيب في الإبتكار وإنما إلى نوع الحبال المستعملة في عمليات إعداد « أسرّة » النوم التي لا تتحمل الثقل فتنقطع بالنائم وهو يغط في سبات عميق. ومن ناحية أخرى أرجعوا السبب إلى غشامة الفلاحين في استعمال الحبال. خبثاء الواحة استمروا في تندرهم على تساقط الفلاحين المتوالي فقالوا: « وكيف لا تريدوهم أن يسقطوا وهم يتوسدون قلل اللاقبي؟ إنهم يتسلقون الشجرة لا هرباً من شيطان العقارب ولكن طلباً للقرب من حبيبتهم قلة اللاقبي! » .

بعد يومين بالضبط من حواره مع أمود قام المسكين بمحاولة مجيدة لإنقاذ الحقل برغم أن المحاولة نفسها لم تنته إلى الفشل فحسب ولكنها كادت تؤدي إلى كارثة.

فقد إعتبر أمود - على ما يبدو - شكوى الشيخ في ذلك اليوم من عطش الأرض وإشراف المزروعات على الموت إتهاماً له بالإهمال فقرر أن يجرب حظه في سحب الماء وإرواء الأرض بمساعدة الحمار.

ولمّا كانت خبرته بهذا الفن متواضعة فإنه لم يعرف ـ حتى الآن ـ أي حركة قام بها فاستفزت الحمار. قفز في الهواء وركله بقائمتيه الخلفيتين ركلات متتابعة فانفلت الحبل من رقبة الحمار في اللحظة التي تصادف فيها ووضع رجله هو في الحبل الذي طوّق رجله فسحبه الدلو المليء بالماء على الأرض حتى علقه في العمودين المتوازيين فوق البئر. قام بمحاولات بطولية للإفلات من تلك المشنقة ولكنه فشل. منعته كبرياء الفرسان أن يستغيث ويطلب النجدة. فمكث هناك معلقاً من رجله اليمنى فوق الهاوية الظلماء التي حاول أن يرى الماء في قاعها فلم يفلح. زاده ذلك هلعاً فسبح جسمه بالعرق.

مع العصر خرج مرزوق من كوخه كما تخرج هوام الغابة من جحورها لتسعى في الأرض وتتسكع بين الأشجار والجداول. طحن التبغ بين يديه المتشققتين ودسّ المضغة في فمه. بصق اللعاب وقضم قطعة من الطرونة واشتكى من الصداع بصوت عال. مشى بلا هدف بين الأشجار والنباتات حتى رأى شبح أمود المدلّى من رجليه في عمود السانية. تقدم خطوات متعثرة (يبدو أنه ما زال في قبضة اللاقبي) نحو الشبح مدارياً قرص الشمس الغاربة بكفه كي يتمكن من رؤية الجسم المقلوب. وما أن عرف أمود حتى نسي همومه مرة واحدة وانفجر في ضحكة هستيرية طويلة. إنتظر أمود حتى إنتهى الفلاح من ضحكته وقال وهو ينز بالعرق ويتنفس بصعوبة:

ـ تتلوّى من الضحك كالبهلوان وأنا معلق بالمقلوب في مشنقتك اللعينة!

عاد مرزوق يضحك. قال وهو يقترب خطوات:

ـ من منّا البهلوان: أنا أم أنت؟ قل لي باللّه كيف تمكنت من الوصول إلى هناك إن لم تكن بهلواناً بارعاً؟ هيء ـ هيء ـ هيء..

ـ خلصني باللّه وكف عن الأسئلة. مضى وقت طويل وأنا مدلّى هنا.

قال مرزوق وهو يتجه نحو الكوخ:

ـ إنتظر قليلاً. رأسي يتكسّر بالصداع.

بعد لحظات عاد وفي يده قلة مليئة باللاقبي. وقف تحت جسم أمود المعلق في الهواء وتجرع من القلة مباشرة. مسح شفتيه وهو يسحب الهواء بعمق:

قال ساخراً:

ـ لا شك أنك ابتدعت أعظم حيلة للهرب من العقارب. غداً سأكون أول من يستعيرها منك. هيء ـ هيء ـ هيء.. أيها الخفّاش!

ـ هل هذا جزائي يا مرزوق؟ لقد أردت مساعدتك فوقعت في الفخ. الشيخ

إشتكى من إهمال السانية فقررت أن أهب لنجدتك حتى تنقشع الغيمة في رأسك.
تجهم وجه مرزوق. همهم:
ـ الغيمة! الغيمة في رأسك المربوط بإثني عشر ذراعاً من القماش وليست في رأسي. في رأسي صفاء يحسدني عليه المعممون أمثالك بزمائل الكبرياء الكاذبة.
ـ خلّصني أولاً ثم تتحدث عن كل شيء بهدوء. عن العمائم وعن الكبرياء.
تصاعد الزبد حول شفتي مرزوق:
ـ أخلصك كي تدق رقبتي أو تعلقني مكانك في المشنقة. هذه فرصة جيدة كي تسمعني إلى النهاية أيها المكابر. هذا جزاء هزئك بي وسخريتكم منا نحن الفلاحين يا معشر قبائل الصحراء. تهيمون على وجوهكم في البراري وتتباهون بأنكم تمارسون الحرية. يلدغكم الجوع فتتقاطرون على الواحات كما تتقاطر قطعان الإبل إلى الآبار. تقتاتون من أيدي الفلاحين وعندما تحسون بالشبع تدوسون على رقابنا لتعودوا إلى صحرائكم وأنتم تتغنون بالحرية. يا لكم من مكابرين أوغاد!
عاد يتجرع من فم القلة مباشرة قبل أن يواصل بصوت عال:
ـ تصرفاتكم تذكرني بقصة ذلك الحمار الذي كان يموت عطشاً فورد إلى البئر وما أن شرب وشبع ماء حتى ركل الدلو ورفس الساقية وهو يتقافز وينهق بصوته المنفر قائلاً: «الآن فليتمزق الدلو ولتتلف الساقية ولتدفن الرمال هذا البئر» فهل رأيت في حياتك أغبى من هذا المخلوق؟
ـ خلصني يا مرزوق؟ ما عدت استطيع تحمل هذا الوضع. هذا ليس وقت الحساب.
ـ أنتم معشر قبائل الصحراء مثلكم مثل هذا الحمار تأكلون الغلّة وتسبون الملّة.
ـ هل هذا وقت مناسب للخوض في مثل هذه الأمور؟ غداً سنصفي الحسابات.
ـ مناسب أو غير مناسب: أنا آكل من يدي هاتين.
رفع يده في الهواء وتأملها كأنه يراها لأول مرة وأضاف:
ـ من يدي المتشققتين هاتين. أنا الفزّاني جباد السواني، أنا فخور بيدي...
شرب جرعة من اللاقبي واستطرد:
ـ تعيرني بيدي ورجلي. تقول ان شقوقها تخفي الفئران والحشرات وجلدها يصعب على العقارب. ها قد ساعدتني جلدتي للنجاة من العقارب. ما رأيك الآن؟ بالأمس هرست عقربين برجلي هذه... هيء ـ هيء ـ هيء... طار الحمام صفقي يا وزة!

ترنح جسده حتى كاد يسقط في الساقية. استعاد توازنه وقال بصوت متهدج:

ـ ولكن ما فائدة هذا كله وأنا بلا ولد؟ جاء الموت وأخذه مني يا أمود. في الليلة التي سبقت وفاته أيقظني من النوم وقال لي أنه سيذهب في الغد إلى الغابة الغربية حيث يمتد حقل أخضر مكسو بالورود. هناك تطير أسراب بيضاء من الفراشات. أسراب كثيفة من الفراشات البيضاء. تحجب كثافتها أشعة الشمس. وطلب مني أن أرافقه إلى ذلك الحقل. لقد رأى المسكين ذلك في الحلم، وكنت غبياً فلم أعده بالذهاب. ليتني وعدته..

انهار مرزوق على الأرض وانفجرت عيناه بخيطين طويلين من الدموع. ظلّ جالساً، مستسلماً، ممسكاً بالقلة. تساءل بسذاجة:

ـ هل ما رآه الجنة يا أمود؟ هل الجنة حقل أخضر مكسو بالورود والفراشات البيضاء؟

صرخ أمود بغضب:

ـ خلصني من هذه الحبال. واحد مشنوق والثاني باله في الحلوى.

ـ ليتني ألحق به.. ليتني... ليت عقرباً تلدغني. البارحة نمت في العراء بلا غطاء وانتظرتها أن تأتي لترسلني إليه.. ولكنها لم تأت. حتى العقارب تتآمر ضدّي يا أمود.. العقارب لا تريد أن تلدغني..

ـ استغفر الله. هذا كفر!

انتحب مرزوق ثم دس شفتيه داخل القلة ليتجرع المزيد من اللاقبي. بدت مقلتاه فارغتان وهو يحاول أن يتبين صديقه المعلق في العمود. قال أمود:

ـ العقل يقول أن تهب لإنقاذ الأحياء بدل أن تطلب الحياة للأموات.

ـ هئ ـ هئ ـ هئ..

ـ ولكن من أخاطب؟ لقد نسيت أن عقلك طيّره اللاقبي هذا إذا كان لك عقل في يوم الأيام.

نهض مرزوق ومشى بخطوات مترنحة نحو الكوخ فصاح أمود في أثره:

ـ أفق يا مرزوق. هل أنت سكران إلى هذا الحد؟ أنا مهدد بالسقوط داخل البئر!

ـ هئ ـ هئ ـ هئ.. حيلة موفقة في الهرب من العقارب. سوف أكشف سرّاً للفلاحين!

مضى يترنحَ حتى غاب بين الأحراش.

مكث أمود ورأسه مدلى في البئر حتى هبط المساء عندما مرّ عابر سبيل وهرع لتخليصه من الأسر.

(١٣)

البارحة حدثت مفاجأة.

إستيقظ الشيخ غوما فوجد عقرباً سوداء كبيرة ميتة في فراشه. ويبدو أنه هرسها أثناء تقلبه وهو نائم. كانت تلتصق بالكليم منبعجة الجسم فتفصد سمّها وألصقها في الفراش فتيقن أنه طحنها وهو يتقلّب في أول الليل.

جاءته الزنجية بطبق الشاي قبل الشروق فوجدته يداعب حبّات مسبحته وكلبه يقبع بجواره. يغالب النعاس فيفتح عينيه بكسل ويعود فيطبقهما من جديد. أمّا الشيخ فتقرفص في مواجهة الحشرة البشعة وشرع يحرّك أصابعه مدحرجاً حبات المسبحة، متمتماً بتسابيح مبهمة وبصره مركز على نقطة واحدة: جثة العقرب!

صعقت الزنجية وندّت عنها شهقة. تسمرّت في مكانها وهي جاحظة العينين، وضعت يدها على فمها وأمسكت الطبق باليد الأخرى. ظلّت جامدة لحظات، تحدّق في الحشرة الميتة وتقرأ في الغيب المصير الذي ينتظر سيدها ولكن غوما استمرّ يقرأ تعاويذ الصباح.

فجأة سقط الطبق من يدي العجوز فانسكب الشاي وتناثرت قطرات على ثوب الشيخ. تدحرجت قطع الكعك واستقرت بجوار العقرب الميتة. انتفض الكلب وهب واقفاً. رفع الشيخ عينيه نحوها فوجدها تهمّ بأن تطلق عنان صوتها للصراخ فقطع تسابيحه ونهرها بشدّة. بلعت صرختها فتحوّل فزعها إلى رعدة. طفقت تنتفض. اضطر أن يقطع تراتيله مرة أخرى وينهرها بقسوة.

ولكن العجوز المسكينة إنهارت على الأرض وركعت على ركبتيها ودست رأسها بين يديها. تركها غوما تنتحب لحظات قبل أن ينتهي من طقوسه ويدس المسبحة في جيبه قائلاً: «كفى! الأعمار بيد اللّه». ثم نهض وارتدى نعليه وتوجه صوب الغابة لتفقد النخلة.

بعدها أعلنت حالة الطوارىء في القبيلة.

هرعت الزنجية إلى جاراتها واستعارت أكوام الحطب لتطوق فراش الشيخ بحصن النار. وصل الخبر إلى الشيخ آهر فهب يبحث عن الشيخ في الغابة. تسكع في الحقل ودار بين الأحراش بجوار عين الكرمة قبل أن يعثر عليه هاجعاً تحت ظل النخلة الغربية.

قال آهر:
ـ هل صحيح ما سمعت؟
وقال وهو يرفع رأسه باحثاً عن قرص الشمس الأصيل بين الأشجار:
ـ ما دام حدث ما حدث بالصدفة فإن اللّه هو الذي أراد.
تمشى آهر جيئة وذهاباً بعصبية. تساءل:
ـ ولكن كيف حدث ذلك؟
ـ أبسط مما تتوقع. اندست في الفراش فوقعت تحت جسمي وأنا نائم. سحقتها أثناء تقلّبي.
ـ سبحان الله.
ـ الأعمار بيد اللّه. أينما ذهبتم يدرككم الموت.
صاحبه آهر ومرّا معاً على السانية. وجدا مرزوق نائماً خارج الكوخ: فمه مفتوح. تغزوه أسراب الذباب وقد تيبست حبات الرمل حول شفتيه ورقبته. وبرغم تنفسه المنتظم وشخيره المرتفع إلاّ أن يده استمرّت تتشبث بقلة اللاقبي في إصرار.
أشاح غوما بوجهه فقال آهر.
ـ يا ألطاف الله! ألا يخشى العقارب وهو ينام على هذه الحال؟
أجاب غوما وهما يتوجهان نحو جداول الغلال:
ـ إذا خفت من العفريت طلع لك، وإذا بحثت عنه هرب منك.
في الجدول اصفرت أوراق الخضراوات وضمرت ثمار الفلفل والطماطم والخيار وانكمشت. عذّب العطش النبات وأضعفه الجفاف وشراسة نسيم القبلي. القبلي يمتص الحياة بين يوم وليلة.
قال آهر وهو يفحص الفلفل اليابس بين يديه:
ـ إذا استمرت علاقة مرزوق باللاقبي فاقرأ على روح السانية الفاتحة.
ـ العلاقة بينهما ما زالت حميمة كما ترى.
ـ اللاقبي أكبر رذيلة أنزلها اللّه على رأس الفلاحين.
ـ أنت تراه أكبر رذيلة وهم يرونه المفتاح إلى سر الحياة.
ـ رجس من عمل الشيطان.
اخترقا الأحراش وصفوف الأشجار وتوجّها إلى الأكواخ. في ذلك اليوم لزم آهر الشيخ غوما كظله. تناولا طعام الغذاء في بيت خليل الذي شعر في اليومين الأخيرين بتحسن.

وفي المساء تجمهروا أمام خيمة غوما في حلقة كبيرة يحضّرون الشاي الأخضر ويتندرون بالذكريات القديمة. حتى الشيخ خليل تحامل على نفسه وجاء لحضور الاجتماع. حضر الأعيان والوجهاء وبعض الشباب. كان أمود على رأسهم. اضطر غوما ليلتها أن يأمر بذبح كبش على العشاء فجاءت أطباق الكسكسي.

وما أن انسحب فريق حتى استقبل الشيخ مزيداً من الضيوف. بعثت الواحة بوفد من وجهائها يتقدمهم الشيخ عبد الجليل الجاروف بنفسه مرفقاً بالقاضي صالح الزبرجداني كي يعطي للزيارة مهابة تليق بجلال العزاء غير المعلن الذي أقامته كل الواحة في حياة غوما.

وبرغم أن الأهالي تقاطروا على خيمة الشيخ وتدافعوا شيوخاً وشباباً ووجهاء وفلاحين إلا أن أحداً لم يخطر بباله أن يوجه لنفسه السؤال البسيط الشجاع عن الهدف الحقيقي الذي دفعه الى المجيء. هل هو الاطمئنان أم التعاطف؟ هل هو العزاء أم شد الأزر؟ وإذا كان الهدف من الزيارة هو المواساة فكيف لا يشعرون بالحرج وهم يقدمون التعازي للشيخ غوما في وفاة الشيخ غوما؟

ولكن لم يشعر أحد بالخجل وهو يصافح الشيخ متمنيّاً له طول العمر في حين يتدفق بالنوادر قبل أن يحتسي الدور الأول من الشاي الأخضر. لا يفيق البعض من إحجامهم عن الضحكات المجلجلة وجوماً أمام قداسة الموت حتى ينسى فريق آخر ويغرق في القهقهات.

ولما كان سبب مجيئهم غامضاً بالنسبة لهم أنفسهم فإن ذلك زادهم حيرة وارتباكاً فما عادوا يعرفون هل الضحك في حضرة الشيخ أليق، أم الحزن هو ما يجب أن يسود؟ هل جئنا كي نرفه عن الرجل ونشد أزره أم جئنا كي نرتدي الكآبة ونستقبل معه شبح الموت؟

تشعب الحوار وتعدد مضمون الحديث. بدأ بحكايات مختلفة: من صد الغزاة عن الصحراء في حرب غات إلى مقاومة الطليان في مواقع زلاف. إلى آخر الأشعار التي ألفتها شاعرات القبيلة. وهي أشعار أجمع كل العقلاء على أنها تتميز بنزعة المراثي التي تنعى قيم الفروسية. وهي نزعة أثارت قلق الجميع. ثم نزل الحديث الى الواحة ليتناول موجة الحر والعاصفة وظهور العقارب.

تحدثوا طويلاً عن هذه الحشرة حتى قال عبد الجليل الجاروف متهكماً على الفلاحين مستعرضاً مواهبه الأدبية في التعبير:

ـ نعم. يجب أن تصدقوني يا جماعة. تحالف اللاقبي مع الوباء فتسلل إلى مخادعهم المعلقة، وشرع ينخسهم بمهمازه في نومهم متوسدين القلل الخاوية

ليتساقطوا من النخيل كما تتساقط حبات التمر من العراجين ليعودوا إلى التراب الذي جاؤوا منه. فتستقبلهم العقارب على الأرض وترسلهم في رحلة أبدية إلى القبور!

يضج الحاضرون بالضحك. فقال غوما في نفسه وهو يتلهّى بتخطيط الأرض بعود أثل ويستعد لبناء مدنه ورسم خطوطه الغامضة: «هذا الشيطان. يتهكم على الفلاحين المساكين ويتهمهم بعبادة اللاقبي وهو لا ينازع في هذا المجال. يقرأ القرآن مع المقرئين ويصلي ركعتين عاجلتين في العشاء ويهرع إلى بيته ليتلذذ باللاقبي. يقال ان زوجته الثانية (وهي صبية في العشرين) صرحت لجاراتها أنه لا يحلو له مداعبتها إلا بعد أن يحتسي أقداح العصير الجهنمي. ونقل عنها قولها ان هذا السائل الرباني يجعله ينزع قناع الوقار ويصير مرحاً لطيفاً، حتى أنها لم تعد تطيق أن يقترب منها قبل أن يتناول ما تيسر. عكفت على الحصول على القلل من جاراتها لتخبئها في صندوق ملابسها القديمة في مخزن الأمتعة، حتى إذا عاد خالي الوفاض، متجهم الوجه، سارعت الى المخزن وانتزعت منه القلة لتفاجئه بها فيتنفس الصعداء ويعود إليه اللّين. ومنذ ظهور العقارب والجاروف لا ينام إلا على أرجوحة مضفورة من حبال الليف، متوسداً قلة لاقبي في الباحة الكبيرة التي تتوسط بيته في الحي القديم. ثم يتجاسر الآن ويتهكّم على الفلاحين، فيا للمنافق!».

مضى غوما يبني مدينة على الأرض متدثراً بالصمت متحصّناً بأسوار العزلة رغم وجوده في قلب الزحمة. فجأة انتبه الى المحاكمة التي أدارها الجاروف ببراعة (يساعده القاضي الزبرجداني) ضد مهمدو.

توقف الشيخ عن تشييد جدران مدينته وأنصت. قال الجاروف:

ـ مسؤوليته في ذلك أكيدة يا جماعة. يستطيع السحر أن ينقلب على الساحر كما يقال وكما يحدث دائماً في الواقع ولكن أن يتعمد الساحر أن يقلب السحر علينا وعلى كل الواحة وينجو هو فهذا ما يستوجب العقاب.

قال الزبرجداني ملوحاً بمروحته في الهواء:

ـ إنتظروا يا جماعة. يجب التحقق أولا من قيامه بالفعل الأول. هل قام باستدعاء العاصفة حقّاً؟

هنا همهم أكثر من صوت: «نعم. نعم. هذا مؤكد».

واصل الزبرجداني:

ـ هل للعاصفة علاقة بالعقارب؟

هتف أكثر من صوت:
ـ علاقة مباشرة. طبعاً. طبعاً.
زمجر الجاروف:
ـ لماذا نذهب بعيداً يا سي القاضي؟ لقد اعترف بنفسه بأنه أخطأ في الخلطة السحرية أو في الترتيب أو في شيء من هذا القبيل. أنا لا أفهم في السحر ولا في تعابير السحرة، ولكنه ظل يبكي ويشكي ويطلب المغفرة من المارة طوال الأيام الماضية مردداً كالدرويش: «سامحوني بالله. هذه غلطتي.. ضعف البصر هو السبب. أخطأت في الترتيب..».
ثم التفت إلى الوجهاء على يمينه وسألهم:
ـ أليس صحيحاً ما أقول يا جماعة؟
فأجابوه وهم يهزون رؤوسهم: «صحيح. صحيح. أكد ذلك أكثر من شاهد عيان».
واصل الجاروف قراءة صحيفة الإتهام:
ـ ماذا تريدون أكثر من هذا؟ هل هناك دليل يفوق الإعتراف؟
إعترض أحد الحاضرين:
ـ ربما فقد قواه العقلية. الإعتراف لا تكون له قوة قضائية إلا إذا ثبت أن المجرم يتمتع بكامل قواه العقلية.
سرت همهمة بين الجالسين. قال آهر:
ـ لا يجوز يا جماعة أن نؤاخذه على زلل اللسان. مهمدو عجوز في المائة وخبرة الصحراء علمتنا أن مثل هؤلاء العجائز كثيراً ما يسمعون ما لا يسمعه الآخرون ويرون ما لا يراه الآخرون. أنا لا أريد أن أبرىء ساحة أحد ولكن أردت أن أقول ان العجز والأيام العصيبة التي مرت به وبالواحة جعلته يتفوه بكلام لا يفهمه هو نفسه، ويلبس لنفسه ذنباً لم يرتكبه.
تولّى الجاروف استنطاقه:
ـ هل تريد ان تقول أن مهمدو يهذي؟
تمتم آهر متردداً:
ـ نعم. ربما يهذي. لا شك أنه كان يهذي.
إلتفت الجاروف حوله وجال ببصره بين الحاضرين وقال:
ـ هل يعقل أنه كان يهذي طوال الأيام الماضية؟ لقد اعترف بنفسه أكثر من مرة، أيّاماً متتالية، لمجموعة من الناس. يستطيع أن يهذي في اليوم الأول،

ويستطيع أن يهذي في اليوم التالي ولكن ليس في كل الأيام. مهمدو هو البلوى وعلينا أن نتخذ قراراً بشأنه.

ساد صمت مفاجىء. تبادل الحاضرون نظرات ذات معنى. استمر الوجوم. هنا دمّر غوما مدينته وقال في نفسه قبل أن يدلي برأيه: «أنا أعرف ماذا يريد هذا الخبيث. لم يأت اليوم للتعاطف ولكن لجسّ النبض. هو يعلم خصومتي مع العجوز ويريد أن ينتهز الفرصة ليدق الأسفين بيننا من ناحية ويؤلب أهل الواحة للتخلص من مهمدو من ناحية أخرى. إنه لا يطيق مهمدو بسبب ماضيه المجيد ويسعى لإبعاده من الواحة». في النهاية أدلى الشيخ غوما برأيه. وجه كلامه إلى الجاروف مباشرة:

- حتى أطفالكم يضحكون عليكم لو سمعوا جدلكم هذا. تحدثنا يا شيخ عبد الجليل عن ظواهر الطبيعة كأننا ضيوف سقطوا من القمر اليوم. قل لي بالله: متى كان السحرة أو العرافون سبباً في بلاوي الطبيعة؟ عشنا طول عمرنا في الصحراء ونعرف أن موجات الحر لا علاقة لهجومها بالسحرة، وهي تؤدي إلى الحرائق كما تستدعي الأمطار الغزيرة. وإذا لم تعقبها الأمطار الغزيرة أعقبتها العواصف المجنونة، وقد يأتي الضيفان معاً ويجيئان بمفاجآت يصعب التنبؤ بها: ومن ضمن هذه المفاجآت هذه السلّة العجيبة من العقارب السوداء. فلماذا تريدون أن تبحثوا عن السرّ بعيداً في المغارة والأمر كله أبسط من البساطة؟

سرت همهمة بين الحضور، أيّده فريق من الوجهاء والأعيان. هزّ الزبرجداني رأسه أيضاً بالموافقة في حين احتقن وجه الجاروف بالدم والغضب.

قال غوما في نفسه: «يا إلهي. لو علم هؤلاء الآن بما فعله مهمدو بجثة الطفل لمزقوه إرباً إرباً. ولكن الحمد لله على أن مهمدو لم يجيء على ذكر هذه الحادثة الفظيعة في اعترافاته البلهاء للمارة وعابري السبيل!».

إختلس غوما نظرة نحو الشيخ عبد الجليل فوجد وجهه ما زال محتقناً بالغضب فعرف أنه يغلي. حتى أن غوما رأى في عينيه الشماتة بدل التعاطف عندما خرج يتقدم وفد الواحة عائداً إلى الحي القديم. بالتدريج بدأ العراء المواجه للخيمة يفرغ من الضيوف فانسحب وجهاء القبيلة وشبابها وعادوا إلى بيوتهم واعتصموا بالحصون المشتعلة، وانسل الفلاحون إلى الغابة ليتطاولوا في النخيل ويعدّوا مراقدهم بجوار العراجين وأعشاش الحمام. وكان الشيخان آهر وخليل آخر من انصرف من المجتمعين. فجاءت الزنجية العجوز بعد أن اطمأنت الى رفع الجلسة فاستغلت الفرصة لتعد له مرقداً جديداً في سور الحطب المشتعل. راقبها في العتمة

وهو يستعد لتأدية صلاة العشاء فرآها تنشر أعواد الحطب في العراء أمام مدخل الخيمة في دائرة مستطيلة شبيهة بالقبر. ظن في البداية أنها جاءت كي تلملم عالة الشاي وصحون الطعام وعندما تأكد أنها جاءت لتعد له فراش النار بادرها قائلاً:

ـ ماذا تفعلين بالله؟ ألا ترين أنك تحضرين لي قبراً وأنا ما زلت على قيد الحياة؟.

بدأت تنثر القش فوق أعواد النار ثم قالت وهي تنكب على عملها:

ـ حاشا الله. الله يحذّر الناس من أن يرموا بأنفسهم إلى التهلكة.

استفزّه أن يسمع العجوز وهي تقرأ على رأسه المواعظ وتتفاقه عليه في الدين فنهرها بصراحة:

ـ قلت لك منذ الصباح: الأعمار بيد الله. كفّي ولا تجعليني أضحوكة.

استمرت تنشر القش على أكوام الحطب في نشاط. قالت منحنية فوق قبر الحطب:

ـ القبيلة كلها تنام داخل هذه الحلقات فلماذا تختارك أضحوكة من دون الآخرين.

قال رافعاً يديه عازماً أن يكبر للصلاة:

ـ سبحان الله. أنت تتعبين نفسك. لن أنام داخل هذا الكفن.

غرق في تلاواته فانتهزت الفرصة وأشعلت عود الثقاب في الهشيم. أضاءت ألسنة الحصن مساحة كبيرة من العراء.

انتهى من صلاته وبحث عن العجوز فلم يجدها. رأى شبحها بين أضواء النيران المنبعثة من سلسلة الأكواخ المجاورة وهي تتسلل عائدة إلى كوخها لتعتصم بحصن مماثل. رمق الكلب الممدد أمامه فرأى في عينيه الوديعتين ابتسامة ساخرة. حتى الكلب لا يخفي هزأه من هذه البدعة.

في تلك الليلة زاره العرّاف.

لأول مرة ينتاب الشيخ قلق خفي وهو يرى شبح العجوز يقف فوق رأسه. لم يتعوّد مهمدو أن يؤدي الزيارات لأحد. بل انه لا يخرج من صومعته في الجبل إلاّ لتأدية جولته الصباحية اليومية التي أصبحت منذ زمن بعيد جزءاً من طقوس حياته ومراسم فلسفته في العزلة وتجنب العباد، فقال الشيخ في نفسه وهو يهب لاستقباله أن العراف لا يخرق قواعد حياته إلاّ إذا حدث خلل في الكون.

هتف غوما بدهشة:

ـ مهمدو؟ كيف وصلت إلى هنا؟

قال العجوز محاولاً أن يتبين وجه صديقه في ضوء السياج المشتعل:

ـ قدماي. قدماي قادتني إلى هنا وقد همت على وجهي طويلاً بسبب ضعف البصر.

أخذه من يده وأجلسه بجوار النار التي أشعلتها العجوز لتحميه من هجوم العقارب. قال غوما وهو يمد يده إلى وعاء الشاي:

ـ آخر من توقعت أن أراه هنا. هل حدث شيء؟

تجاهل العجوز سؤاله وتنهد بعمق ملتقطاً أنفاسه.

تلاحُق أنفاسه فضح تعبه. قال وهو يمد رجليه النحيفتين كعودين من الحطب:

ـ رأيت أن أطمئن عليك. علمت أن كل الدنيا أحاطت بك اليوم كسد منيع فقلت لماذا أتأخر عن الوليمة وآخذ نصيبي؟ هيء ـ هيء ـ هيء...

قطع ضحكته المفتعلة وأضاف محاولاً أن يتبين في الضوء وجه الشيخ:

ـ برغم ضعف البصر إلا انني استطعت أن أتبين صلعة الزبرجداني وهي تلمع تحت النيران وأنا في طريقي إليك. قلت في نفسي ما دام خرج القاضي من عزلته وتواضع لزيارة عباد الله فلا شك أن وليمة الشيخ غوما اليوم فخمة إلى حد لا يقاوم فقررت أن أتحقق من الأمر بنفسي.

اغتصب ابتسامة مرة أخرى فعرف الشيخ أن العجوز الحكيم يتجنب الكشف عن الهدف الحقيقي من مجيئه. سأل غوما نفسه: «ترى هل جاء كي يضع حداً للخصومة بينهما؟ أم أنه يخفي أمراً آخر؟».

قال غوما وهو يشحن الوعاء بأعشاب الشاي الأخضر:

ـ اضطرّت عجوزي أن تلفني بكفن النار أيضاً كما ترى. قلت لها أنني لا أستطيع أن أنام طائعاً داخل هذا القبر.

أشاح مهمدو بوجهه ناحية الأكواخ حيث انكبّ الأهالي في تغذية أكفانهم المنسوجة بخيوط النار، بأعواد الحطب، بأكوام الهشيم. لاذ بالصمت زمناً ثم قال:

ـ افتقدتك كثيراً في الأيام الماضية فقررت أن أحاول الوصول إليك.

ـ قلت لها أن الأعمار بيد الله ولا مفر من القدر.

ـ قلت في نفسي لا يمكن أن يكون خصامنا في ذلك اليوم سبباً في القطيعة.

ـ قلت لها أنه لا يليق بالرجل الوقور أن يحتمي وراء سياج وهو يرتجف كأجبن رعديد لأن السياج لن يحميه من القدر حتى لو كانت جدرانه من نار!

ـ ولكني وجدت لك الأعذار بعد الأضرار التي لحقت بالمحصول وتعرض أم النخيل إلى السقوط ووفاة ابن مرزوق و...

اكتشف مهمدو أنه تورط في تعداد المصائب الأخيرة فقطع الاحصائية فجأة ولوّح بيده امتعاضاً حتى التقت عيناهما. قرأ كلاهما في عيني الآخر ما حاولا بحوارهما أن يخفياه ثم هرب كل منهما بعينيه في جهة. غوما تشبث بأدوات الشاي وتفقد الوعاء على النار ومهمدو رمق بعينيه الكابيتين الكلب الممدد أمامه على الأرض.

خيم صمت قصير.

قطعه غوما مسدداً نظرة إلى مهمدو:

ـ يبدو أنك فقدت صوابك في اليومين الأخيرين.

رفع العراف عينيه مستفهماً. أضاف الشيخ:

ـ تتبكى وتتشكى وتضرب رأسك وصدرك يأساً وندماً وتعترف لكل من هبّ ودبّ بخطأك في تحضير الخلطة أو ترتيبها ـ الشيطان وحده يعلم ـ دون أن تضع في اعتبارك مبالغات الدهماء. فهل هذا عمل يليق بعاقل؟

طأطأ العجوز رأسه ثم ابتسم بخبث قائلاً:

ـ اعترف أن هذا لا يليق ولكن تلبستني حالة من الوجد فلم أعرف ماذا أفعل.

سأل غوما بشك:

ـ الوجد الصوفي؟ أم دروشة لا معنى لها؟

ثم وهو ينزل وعاء الشاي ويخلط السائل لاستدرار الرغوة:

ـ الحمد لله أن حالة الوجد لم تجبرك على فضح تلك الأسرار المخبأة كتنكيلك البشع بجثة الطفل مثلاً. عندها سيتدافعون لتمزيقك بالأظافر ويأكلون لحمك كالوحوش.

رفرفت ابتسامة مرحة على وجه العجوز وأضاف غوما ممعناً في التقريع:

ـ لو حدث ذلك لما استطعنا الآن أن نجلس في مواجهة بعضنا ولكنت تحتل مكان ذلك الطفل التعس الذي ساقته الأقدار فوقع بين يديك.

ـ يبدو أنك لا تستطيع أن تغفر لي هذا العمل. آن الأوان كي تنسى إلى الأبد.

قالها بنبرة أليمة فأحس غوما نحوه بشفقة مفاجئة فغير الموضوع ليتحدث عن الأحوال الجوية والتوقعات المنتظرة لحالة الشتاء هذا العام.

شيع غوما ليلتها ضيفه بعد منتصف الليل واجتاز به اللسان الرملي الجديد قاطعاً به نصف المسافة إلى الجبل ثم سلّمه لضوء القمر الذي أشرق للتو ليقطع به النصف الباقي من الطريق وعاد إلى خيمته يرافقه كلبه. استلقى على الكليم خارج الكفن وغطى عينيه بلثامه.

عمّ الهدوء وخيم السكون على الأكواخ المتناثرة في العراء، ولكن أضواء الأسوار النارية استمرّت تتأجج في دوائر محيطة بالأكواخ وإن خبا أغلبها بعد أن استسلم أصحابها لسلطان النوم.

إنسان واحد لم يغمض له جفن في تلك الليلة هو: باتا!

وباتا نشطت منذ الصباح بمجرد أن أخبرتها جارتها بسحق الشيخ للعقرب أثناء نومه فصعّدت من حملتها على الفور. قالت بالحرف وهي تمر على جارة معروفة بمواهبها الأدبية: «لقد عرفت أنه سينتهي الى هذا المصير. لقد رأيت في سقوط نخلته الحسناء - كما يروق له أن يصفها - مؤشراً بالمصيبة المقبلة. رأيت فيه علامة أو نبوءة. لا أحسده على موقفه الآن. يعلم الله أني أشعر نحوه بالاشفاق برغم أنه لم يرحمني كامرأة عندما دفعني إلى المنفى في آير. ساعة الحساب قد حلّت والعقارب لن تمهله طويلاً. عليك رحمة الله يا شيخ غوما فقد كنت عظيماً رغم كل ما سببته لي من آلام. الاعتراف بالحق فضيلة يا تاناد!».

تناولت كأس الشاي المتوج بطربوش من الرغوة من يد الشاعرة وأضافت وهي تحتسي رشفة وتتمطى بشفتيها: «هل تعرفين يا تاناد أنه ينوي الليلة أن يتقبل العزاء في نفسه؟ لقد أمر بتحضير كبش لنحره على شرف الضيوف وإن ذهب بعض الخبثاء إلى القول بأن هدف الشيخ من إعداد الذبيحة هو التقرب إلى الله كي يتدخل لابعاد شبح الموت. ولكني أعرف أن زمن المعجزات قد ولّى والفرار من العقارب مستحيل. قولي يا تاناد بالله: هل تصدقين أن بامكان القرابين أن تفدي الإنسان وتحميه من القدر؟ أنا لا أرى أن هذا ممكن في أيامنا..».

وافقتها الشاعرة بهزة من رأسها ثمّ انكبت ترتق ثوباً قديماً مكوّماً في حجرها وتحتمي بظل الكوخ من الشمس الحامية.

تاناد شاعرة موهوبة. يعترف الجميع بكفاءاتها الشعرية.

قدمت لباتا خدمة جليلة عندما ساعدتها - سرّاً - في نظم إحدى القصائد الهجائية التي تهاجم غوما وتشنّع بأسلوبه في الحياة وفي قيادة شؤون القبيلة، فزارتها باتا الآن لتزفّ لها البشرى وتعرف رأيها فيمن يجدر به أن يخلف الشيخ غوما ويتولّى بعده أمور القبيلة.

قالت باتا بعد أن أغدقت على صديقتها بعبارات الإطراء جزاء براعتها في تحضير الشاي: «... أنا أرشح آهر. الشيخ آهر المرشح الوحيد للمنصب. ليس لأنه يمت لي بقرابة بعيدة. حاشا الله! ولكنه يتمتع بعقل. يبدو غشيماً لأول وهلة. أنا لا أنفي ذلك. ولكنه يخفي في نفسه حكمة لا يمكن أن يخطئها حكيم».

لم تعلق تاناد فنهضت تجرجر ثيابها الفضفاضة وتكنس بها العراء لتواء
رحلتها بين الأكواخ محرضة النساء على اختيار آهر مؤكدة أنه الوريث الوح
الذي يصلح للخلافة. فتهامست مع الصديقات وتبادلت وجهات النظر مع الغريب
مقلّبة اقتراحها على مختلف الوجوه لترى بنفسها مدى تأثيره على النساء. مكث
يومها في أكواخ الصفّة الثالثة في الجهة الجنوبية الغربية لدى عجوز قيل انها :
لها بقرابة بعيدة ولم تعد إلى بيتها إلاّ عقب القيلولة بعد عودة آيس من المدرسـ

وفي العشية راقبت جيوش المعزين وهم يتقاطرون على خيمة الشيخ فاختار
صفّة الأكواخ الثانية للتباحث مع النسوة في المرشح الذي دفعت به لتولي القبيلة

وقد قامت باتا بهذا الدور لأنها تعرف مدى خطورة النساء في تكوين قرار
الرجال. فنقل عنها قولها مرة: «إذا أردتم تفسيراً لعمل الرجل في النهار فابحث
عن السرّ في مخدع امرأته في الليل». وهي ترى أن الرجال لا يقومون بأفعـ
بطولية إلا طمعاً في أن يثير هذا الفعل إعجاب امرأة ما! والعكس صحيح :
يرتكب الرجل فعلاً رذيلاً إلا نكاية بامرأة ما!

ولم يكن صعباً على النساء أن يدركن الهدف الذي تخفيه باتا من و
إلحاحها في ترشيح آهر. فعلاوة على علمهن بأمر القرابة البعيدة (التي يؤ
البعض أنها قرابة مزعومة) إلا أنهن لسن بالسذاجة التي تجعلهن يرجعن السـ
إليها وحدها لأن باتا نفسها سبق وأن طعنت في هذه القرابة عندما زارها الشـ
وطلب منها باسم رابطة الدم أن تتراجع في الارتباط بآيس. ولكن باتا تدفع الا
بآهر لأنها تستطيع التأثير عليه لما تملكه ضدّه من مستمسكات لها علاقة بالأمير
الزائرة من أغاديس. والنساء لا يستطعن أن ينسين أن مجرد إطلاق شائعة بشـ
هذه الحادثة أدّى في ذلك الوقت إلى الإيقاع بين آهر وزوجته. فكيف إذا كان
باتا ما زالت تحتفظ بسلّة من الأسرار المتعلقة بهذا الغرام المدهش؟ فرأت العجا
الحكيمات في محاولات باتا خطراً ساحقاً. ولكن ماذا تستطيع العجائز البائسا
أن يفعلن إذا كانت باتا تسيطر على ثلاثة أرباع الشابات والناضجات من نسـ
النجع؟

في المساء لم تغفل لحظة واحدة عن مراقبة ما يحدث أمام الخيمة، فأيقنت
غوما هالك لا محالة عندما أبصرت الشيخ عبد الجليل والقاضي الزبرجدا
يتقدمان وفد الواحة. وفي البداية كذّبت نفسها عندما رأت القاضي يتقدم الو
بجوار الجاروف برغم أن صلعته الشهيرة أعلنت عن شخصه. وتذكرت أن آخر م
رأته فيها عندما أجبرته أن يحكم بشرعية زواجها من آيس ويمهر عقد الزوا

بختمه وتوقيعه. كانت بعض الشعيرات وقتها ما زالت تنتشر متباعدة على رأسه وفوديه. التزم القاضي بيته واعتزل الناس متأثراً بالدعايات التي انتشرت في الواحة بعدها تتهمه بتلقي الرشوة وإصدار أحكام تخالف الشرع والدين فقالت ان القاضي لا يخرج من عزلته إلا لأمر. وما هو هذا الأمر إن لم يكن إجماع الجميع وإيمانهم بأن حياة الشيخ في خطر؟

ظلت تحوم حول الخيمة تراقب من بعيد حركة «المعزّين» وتتنقل بين الأكواخ المجاورة لتتصيد الشيخ آهر. فبعد أن سممت عقول النساء انتقلت الآن إلى المرحلة التالية من خطتها فقامت بزيارة إلى بيت آهر وتركت له توصية عند زوجته. طلبت فيها أن يمر عليها في أسرع وقت لأمر هام. ولما كانت تخشى أن يحول النسيان (وهو وباء آخر انتشر في السنوات الأخيرة) دون قيام امرأته بإبلاغه قررت أن تتصيّد آهر بنفسها. وكما توقعت كان آخر من خرج فانتظرت حتى ابتعد عن الخيمة واعترضت طريقه وقالت له أنها تريد أن تتحدث إليه على انفراد. لم تجد باتا يومها مكاناً مناسباً للاجتماع سوى حظيرة الأغنام. درست هذا الأمر أيضاً وأعدت الحل مسبقاً. قالت لنفسها أن الاجتماع في العراء مغامرة لأن الظلام لن ينقذهما من أعين المارة. أما دعوته إلى كوخها فاستبعدتها منذ البداية نظراً لوجود آيس بالبيت وهو وإن كان زوجها الشرعي إلاّ أنه حفيد الشيخ واجتماعهما يمكن أن يشكل استفزازاً لمشاعره نحو جدّه. الحذر هو الذي هداها إلى اتخاذ حظيرة الأغنام مقرّاً للاجتماع. فتناقلت القبيلة ـ بل وكل الواحة ـ سيرته طويلاً وأطلقت عليه اسم «اجتماع حظيرة الأغنام» ناسجة أساطير أضافتها لتزيين الحادثة.

لم يخف آهر دهشته من هذه الدعوة وإن كتم امتعاضه من الموقع الذي اختارته باتا لعقد الجلسة. استمرّ منحنياً إلى الأمام محاذراً أن يصطدم رأسه بسقف الجريد باحثاً في الظلام بين الأغنام عن مكان يصلح للجلوس. وخزته شوكة في معصمه وغرق نعل التمبا في الروث الطازج فأحس بالغثيان.

قالت باتا وهي تأخذ مكانها بين الأغنام وتقتعد الأرض فوق الروث والبرسيم:

ـ هذا أصلح مكان يبعدنا عن أعين الفضوليين.

صمت. أضافت بعدها:

ـ أنت تعرف صراحتي وتعرف أيضاً مدى معزتي. أنت تعلم أكثر مني أن أجل الشيخ غوما قد حلّ والصراع سوف يشتد لاختيار خليفة له.

اعترض آهر غاضباً:

ـ أطال الله في عمر الشيخ. أنا لا أتصوّر القبيلة بدونه.
ـ أمر الله. كلنا نسير في نفس الطريق. يسبقنا هو اليوم ونلحقه نحن غداً. ولكن التحاقنا به في الغد لا يعني أن نهمل أمور دنيانا اليوم. قلت لك أن الصراع سيشتد بمجرد غيابه وأنا أرى أنك أكثر من يصلح لتولي هذا المنصب.
ـ سبحان الله. لماذا تسبقين الأحداث؟
ـ الاحتياط واجب. لقد قمت اليوم بدعاية واسعة بين النساء.
ـ لا!
ـ أنت قريبي ومن واجبي أن أتولى هذه المهمة. الدم لا يتحول إلى ماء!
ـ ولكن أمراً كهذا لا تقرره النساء. انه رأي الوجهاء والأعيان والشيوخ.
أبعدت باتا جدياً عنيداً تسلل إلى حجرها وقالت:
ـ رأي الوجهاء والأعيان تكوّنه النساء في المخدع.
في تلك اللحظة تبولت معزاة على طرف ثوب آهر فانهمك يعصر الثوب ويسد أنفه بلثامه.
قال آهر:
ـ هل أنت واثقة أن كل النساء تقف إلى جانبنا؟
ـ كل الثقة.
عادت تبعد الجدي الذي وقف بينهما وأضافت:
ـ بالطبع ليس بمثل هذه السهولة. اعترضت بعض العجائز المخرفات ولكن الأغلبية تقف في صفنا.
لاحظ آهر استعمالها لكلمة «صفنا» فعرف أنها جادّة في عقد صفقة التحالف وإن غاب عنه هدف هذا الحماس.
انفضّ الاجتماع في آخر الليل وعاد آهر إلى بيته ملوثاً بالروث.
أما باتا فعادت إلى الكوخ وهي تختال فخورة بعملها. دقت آخر مسمار في نعش الشيخ غوما وأيقظت شهوة آهر للوجاهة. الوجاهة التي فقدت بريقها في السنوات الأخيرة حتى أن أحد البلهاء من عشيرة المرحوم جبّور فضّل عليها الالتحاق بشركات النفط قائلاً ان الوجاهة وحدها لا تكفي والمشيخة لا تسمن ولا تغني عندما دفع به وجهاء العشيرة لتولي المنصب عقب استشهاد جبور في حرب غات. وجّه إهانة لمشاعر القبيلة لم تغفرها له الشاعرات فلاحقنه بالشعر وقصائد الهجاء حتى قرر المسكين أن يهاجر.
باتا في تلك الليلة اطمأنت إلى إيقاظ نوازع الشيخ آهر لعرش المشيخة

وهنأت نفسها على كفاءتها في إتقان دور المحرض.

ولم تكن باتا تعلم وهي تستسلم للنوم في حلقتها النارية أن الغيب يحضّر لميلاد مفاجأة جديدة في الصباح. فتحوّل الليل إلى ساحة للصراع بين القوتين القديمتين العظيمتين: الخير والشر.

أعدت القوى الخفية خطتها للقضاء على الشيخ فدفعت الى فراشه بجيوش العقارب السوداء فواجهتها القوى الأخرى بسلاح لم يقرأ أحد له حساباً وهو: الكلب!

أسفرت المعركة الحامية عن مصرع سبع عقارب مزقها الكلب بمخالبه وجلس ساهراً يحرس رأس سيده طوال الليل ويصد غارات تلك الحشرات الخرافية.

جلس الشيخ يمارس الطقوس الصباحية: يداعب حبات المسبحة ويقرأ التلاوات وهو يتفرج في عتمة الفجر على جثث العقارب ويعجب لكفاءة هذا الحيوان الوديع في المذبحة التي صنعها. فصل ذيل الحشرة القاتل عن بقية الجسد وتركها تتخبط منزوعة السلاح حتى تموت!

جاءت العجوز بطبق الشاي مبكراً. أدرك غوما أنها بكّرت للإطمئنان عليه والتأكد من أنه ما زال على قيد الحياة. لم تخف غبطتها وهي تراه في عتمة الفجر متربعاً كالشبح. وما أن رأت المذبحة التي قامْ بها الكلب ضد العقارب حتى شهقت وخبطت صدرها وأطلقت زغرودة لم يستطع الشيخ أن يسكتها إلاّ بعد التوبيخ. حبست العجوز زغرودتها وتحينت الفرصة عندما انصرف الشيخ لتفقد نخلته الجريحة فأطلقت لسانها مرة أخرى فدبت الحركة في الأكواخ وتقاطر الأهالي للوقوف على آخر الأحداث.

تدافعوا حول فراش الشيخ وتفرجوا على العقارب الميتة.

مع ارتفاع الشمس تقاطر المزيد من الأهالي وتزاحموا حول الخيمة. شقت حناجر النساء سكون الصباح بالزغاريد وأيقن الجميع أن الله تدخل لإنقاذ الشيخ.

باتا وحدها زمّت شفتيها في وجوم وصبت لعناتها على رأس مهمدو متهمة العرّاف بأنه هو الذي قام بدس الكلب ليحرس الشيخ غوما. وعندما إعترضت بعض النساء أثناء الإجتماع الذي عقدنه في عشية نفس اليوم لإحتساء شاي العصر فقلن ان الكلب ظهر قبل ظهور العقارب بمدة طويلة قالت باتا أن العراف علم بأمر العقارب فاتخذ تدابيره وأعدّ الكلب ودرّبه وبعث به الى عين الكرمة كي يوقظ الشيخ من نومه ويعرض عليه صداقته. وحسمت النقاش قائلة: «مهمدو

يقرأ الغيب. أي عراف هو إن لم يعرف ما يخبئه المستقبل؟ ». فأيدتها طائفة من الحاضرات وآمنَ بقدرة مهمدو على صنع المعجزة. ثم ختمت باتا كلامها وهي تعض شفتيها حقداً: « كنت أحس دائماً أن عجوز الشؤم هذا يخبىء مفاجآت وراء قناع الزهد الذي يرتديه. عليه اللعنة! ».

هنا وجدت الشاعرة تاناد في نفسها الشجاعة لتعلن معارضتها لباتا وتنبري في الدفاع قائلة: « ولماذا نلعن العجوز مهمدو؟ لماذا لا نعترف بأن الكلب هو ملاك أرسله الله ليحمي شيخنا من الشرّ؟ ألا يعني هذا يا باتا أن السماء نفسها تقف إلى جانبه؟ ».

هزت أكثر من امرأة رأسها علامة الموافقة فأدركت باتا أن الرياح تهب بما لا تشتهي فقررت أن تلزم الصمت وتنحني حتى تمر العاصفة.

الخلاص الأوّل

(١)

بعد ستة أيام من صراع القوى الخفية فوق رأسه تعب الشيخ غوما من تشييع الجنائز وخشي على قبيلته من الانقراض فأصدر أمراً بحرق الأكواخ والرحيل إلى سفوح السلسلة الرملية الجنوبية.

ولكن تلك القوى لم تدعه يمضي إلى مخبئه الجديد دون أن تودّعه ببعض المفاجآت. فلسعت عجوزه الزنجية في الليلة السابقة على الرحيل ومات الكلب مسموماً في الليلة نفسها.

قبل الحادثة بأيام قليلة عاد غوما من تشييع جنازة أحد أقارب الشيخ خليل. وهو رجل في العقد الخامس من العمر. فعقد إجتماعاً طارئاً حضره الشيوخ والوجهاء اقترح فيه الهجرة إلى أقصى الأطراف الجنوبية واتخاذ العراء المحاصر بين جبال الرملة وشريط الغابة مقراً جديداً إذا أرادوا ألاّ تفنيهم العقارب التي لا يبشر نشاطها بنهاية قريبة لحرب الإبادة التي تشنها على الأهالي. وقال لهم أنه يرى أن الحشرة السامة وجدت في الأكواخ المناخ الملائم للتناسل والتكاثر. والإنتصار على العدو مستحيل دون التضحية بالبيوت فاحتدم نقاش عاصف حول هذه النقطة. إذ انبرى أحد الوجهاء الشيوخ من عشيرة آهر يطعن في الرأي منتقداً فكرة التخلي عن الممتلكات وهجر المقر المناسب في موقعه وقربه من السوق. وقال في معرض دفاعه: « .. هل تريدنا يا شيخ غوما أن نجبر الأهالي المساكين أن يتخلوا عن ممتلكاتهم. التي أفنوا العمر في إقتنائها وتجميعها ويلقوا بأمتعتهم ويلوذوا بالفرار شطر جبل الرمل كما فعل أهل الواحة؟ ». أيده لفيف من الحاضرين وحاول الشيخ

خليل بصوته الذي أضعفه المرض أن يوفق بين الرأيين ولكن كفة المعارضة إستحوذت على الأوراق. حتى آهرلزم الصمت وهو يتربع في الزاوية متظاهراً بإعداد الشاي. هنا تدخل غوما مرة أخرى وتصدّى لمعارضيه فوجّه كلامه للرجل مستخدماً أسلوبه القديم. قال: «هل ولدتك أمك في هذه الحال يا موسى؟ هل جئت إلى الدنيا معمماً بعشرين ذراعاً من القماش، متمنطقاً بطاري وتجولموست منتعلاً التمبا أم جئت من بطن أمك عارياً بائساً مثلنا؟».

هنا ضجت الجلسة بالضحكات فواصل غوما هجومه مدركاً أن موسى الميسور الحال إنما يدافع عن نفسه وليس عن الفقراء عندما اعترض على إقتراح الشيخ: «.. عظمة أهل الصحراء هي الزهد. ولم يحدث أن تحسّر إنسان منّا في الماضي على مال أو جاه لأنه لا يملك ما يفقده أساساً. قل له يا شيخ خليل كم مرة داهمتنا السيول وجرفت كل ما نملك: الأمتعة والمؤن والمواشي وحتى اللباس؟ فهل أصابنا شيء بفقدان مال الدنيا؟ لم نفقد شيئاً طالما نجونا بأنفسنا. داهمتنا السيول ثلاث مرات في سنة واحدة منذ سبعة عشر عاماً في الحمادة الحمراء عندما كنت يا موسى ترافق القوافل إلى كانو منهمكاً في المتاجرة منشغلاً بجمع المال؟». ارتفعت همهمة الإستحسان فعرف الشيخ أنه نجح في دق الإسفين بين موسى ومؤيديه فقرر أن يسدد ضربته الأخيرة: «.. إذا أردنا النجاة من العقارب ـ التي ما هي إلا عقاب رباني على آثام إرتكبناها ـ فعلينا أن نتطهر ونرتدي لباس الإحرام كما يفعل المسلمون في الحج عندما يتجردون من المخيط. علينا أن ننتصر على أنفسنا ونحتقر مقتنيات الدنيا وندع آثامنا مدفونة بين ثنايا الأكياس والخرج ونولّيها ظهورنا كما تعودنا أن نفعل في مواسم السيول. اعتبروا أن سيلاً عارماً جرفها وسترون النتيجة».

تناول كوب الشاي من آهر وأضاف: «اتركوا كل شيء. احتفظوا باللباس الذي يستر أجسادكم لأن الوباء مدسوس في الأمتعة».

هنا حاول موسى أن يكشف آخر أوراقه: «هل تريدنا يا شيخ غوما أن نعيش تحت سفح الجبل بالرمل والهواء؟ كيف سنطعم أطفالنا إذا تخلينا حتى عن أكياس التمر؟ هذا جنون لم نسمع بمثله من قبل».

رشف غوما من كأس الشاي الذي تبخرت رغوته فطار طربوشه: «قولوا له يا جماعة بماذا عشنا عندما تدافعنا إلى رؤوس الجبال هربا من السيل المجنون في الحمادة؟ أينما ذهب الإنسان يفتح الله له بابا للرزق. الجشع سلاح الشيطان في دفع بني آدم إلى القبر. والله لن تجدوا طريقا إلى الخلاص من الوباء ما دمتم

تحملون فوق ظهوركم الممتلكات. الوباء يتخفى بين الأمتعة في صناديق المقتنيات وداخل ثنايا الثياب الزرقاء».

ولم يعتقد هذا الجمع أنه سيقف بنفسه على صحة هذا الكلام بعد أيام فقط عندما سوّلت النفس الأمّارة بالسوء لموسى أن يجلب معه إلى الموقع الجديد جراباً جلدياً بديعاً دس فيه قطع الذهب وبعض الحلي والأساور وأخفاه عن عيون الفضوليين تحت كم الجلباب الفضفاض فلسعته عقرب مختفية في الجراب لسعات عديدة في جنبه الأيمن أسفل الإبط فلقي مصرعه.

كما حاولت عجوز أن تتحايل وصعب عليها أن تترك وراءها الخيرات فدست حفنة من التمر في طرف لحافها. ولم يطب لها المقام في الموقع الجديد بضع ساعات حتى أطل الشر من لحافها وأفرغت الحشرة سمها الزعاف في وريدها فماتت في الحال.

هزّ الوجهاء رؤوسهم من فرط الدهشة وتذكروا نصيحة الشيخ غوما وهم يرون الحقيقة بأعينهم: لم ينج إلا من أخلص في التخلص من خطاياه وصدق فيما عاهد به وجاء إلى سفح الجبل بيدين عاريتين.

الشيخ ألزم نفسه بنظام صارم في الثلاثة أيام الأولى التي أعقبت اللجوء إلى المتاهة الجديدة: فاعتصم بالجوع وصام عن الماء والطعام ورقد في العراء متوسداً ألسنة الرمال يقاوم الصداع بسبب الحرمان من الشاي.

ولكن لا ينبغي أن نسبق الأحداث. يجدر بنا أن نعود لتلك الليلة المشؤومة التي فقد فيها غوما أعز مخلوقين لديه بعد ضلال آيس: العجوز والكلب.

أيقظه آهر بعد منتصف الليل وأخبره أن العجوز تحتضر في حجر زوجته التي شاءت الصدفة أن تكون ساهرة عندما لسعت عقرب العجوز فهرعت إلى كوخها المجاور بمجرد أن تناهى إلى سمعها الأنين الأليم.

وجدها في الرمق الأخير: جاحظة العينين، يدور في مقلتيها البياض تحت ضوء النار الخافتة، ممصوصة الخدين، ممتقعة. رفعت نحوه يداً مرتعشة ونزعت رأسها من حجر المرأة باستماتة (يبدو أنها بذلت جهداً خارقاً في إجبار نفسها على هذه الحركة فازدادت عيناها غياباً وعذاباً وازدادت ملامحها ذبولاً وامتقاعا) ثم رفعت اليد الأخرى أيضاً وتحركت شفتاها متمتمة بهمسات غير مفهومة. انكفأ فوق جسمها النحيل الذي أصبح في حجم كومة صغيرة، وتناول إحدى يديها المرتعشتين فأحس بحرارة أصابعها الملتهبة تنتقل إلى كفيه. رفّت على شفتيها إبتسامة خفيفة مترددة صافية كإبتسامة طفل فحاول أن يرد عليها بإبتسامة.

كانت ابتسامتها تعبر عن إمتنان الوداع. كأنها تقول انها راضية على عُشرة السنوات الماضية. ثم غادرت الحياة وهي ما تزال متربعة في جلستها، محدقة في وجهه بعينيها الغائبتين.

لاحظ آهر أن رجفة عنيفة قد إنتابت يد الشيخ وهو يغطي وجهها بلحافها ويحررها من جلستها ليعيدها بهدوء إلى أحضان المرأة.

اقترح آهر أن يؤجل موعد الرحيل إلى بضعة أيام ولكن غوما أصرّ أن تحرق الأكواخ في الغد وتعد العدة للهجرة في الموعد المحدد فتولت زوجة آهر غسل الجثة وإعداد الكفن في نفس الليلة تساعدها مجموعة من الجارات. ليلتها لم يذق الشيخ للنوم طعماً. وفي الفجر عندما زحف نحو القرية لتناول الماء بقصد الوضوء اكتشف أن الكلب أيضاً ميت!

توضأ وصلّى وتربع على الأرض أمام جثة الكلب المسكين وانهمك في تلاوة التسابيح التي ترافق مداعبات المسبحة. استمرّ في جلسته حتى طلع نور الفجر فجاء الشيخ آهر مبكراً. أرسله على الفور لاستدعاء الشيخ الكفيف الخبير في داء الحيوان. عاد الشيخ آهر بعد نصف ساعة يقود الشيخ الكفيف من يده. لاحظ غوما أن صدر هذا البائس الأعمى يرتفع ويهبط وتنفسه يتتابع ويجد صعوبة في إلتقاط أنفاسه فسأله بدهشة:

- هل جئت ركضاً؟

لم يستطع الرجل أن يجيب فتولى عنه آهر هذه المهمة:

- أصيب في السنوات الأخيرة بضيق التنفس الذي تطور بعد العاصفة وتحوّل إلى نوع قاس من الربو.

بدأ الشيخ الكفيف يسعل بشدة وهو يتقدم لفحص الجثة بمساعدة آهر.

قال غوما:

- ألم تفد الأعشاب؟

تكلم الرجل لأول مرة وهو يغالب نوبة السعال ويتحسس بأصابعه أطراف الكلب الميت:

- الأعشاب يا شيخنا لا تفيد إلاّ في علاج الامراض الدنيوية أمّا تلك الأمراض الخفية التي تأتي بها الرياح من عالم ما وراء الطبيعة فلا حيلة لأعشاب الصحراء بها.

صمت غوما وقال الكفيف وهو ينتهي من عمله ويغمر يديه في التراب كي يعزل المرض ويمنع الداء من التسرب عبر يديه:

ـ إنه السم!
تبادل غوما مع آهر نظرة سريعة قبل أن يهتف:
ـ السم؟!.
ـ نعم. هو السم. تناول السم البارحة. في قطعة لحم أو عظم الله أعلم!
تبادل مع آهر النظرات مرة أخرى. وما أن انصرف الكفيف الحكيم إلى بيته ـ دون دليل ودون عصا يهتدي بها كأنه يعرف الطريق إلى بيته كما يعرف الطريق إلى المرض في جسم الحيوان ـ حتى قفز غوما. وقف في مواجهة آهر وسأله بلهجة لا تخلو من الإستفزاز:
ـ ما رأيك: من يجرؤ في هذه الديار أن يقوم بهذا العمل البشع؟
حاصره بنظرة صارمة فلم يتمكن آهر من الإفلات فقرر أن يلتجىء إلى الصراحة. قال بهدوء ولكن بصيغة تساؤل:
ـ باتا. هل تريد أن تقول ان الإنحطاط قد دفعها لإقتراف هذه الجريمة؟!
هدأ التوتر في عيني الشيخ وقال بهدوء:
ـ لقد ظننت أنك ستتستر عليها. خاصة بعد «اجتماع الحظيرة»!.
ردّد آهر في ذهول:
ـ إجتماع الحظيرة؟! هل وصلتك بالله أخبار «إجتماع الحظيرة»؟!
قال غوما وهو ينزع رداءه الشفاف ويغطي به جثة الكلب:
ـ وهل تخفى خافية في هذه الواحة الملعونة؟!
أطلت خيوط الشمس الأولى فتقاطر الرجال لتقديم التعازي. أقبل أمود أيضاً فانتهز غوما الفرصة وأخذه جانباً ليتبادل معه كلمتين على إنفراد. همس في أذنه: «أعتمد عليك في التفاوض مع حفاري القبور. أريدهم أن يعدّوا قبراً مناسباً للكلب بجوار المرحومة». لاحظ التردد في عيني أمود فشجعه قائلاً: «أنت أصلح من يقوم بهذه المهمة. أعرف أنهم يعتبرون الكلاب نجاسة ولكن كما تعرف كلبنا ليس ككل الكلاب. بل لا فرق بينه وبين الإنسان سوى عجزه عن الكلام. أستطيع أن أجزم أن عينيه تنطقان في بعض الأحيان بلغة. أريدك أن تقول لهم ذلك بطريقتك، وإذا فشلت فالجأ إلى إغرائهم بالمال». ودس في يده ورقتين من فئة الجنيه وعاد إلى جمع المعزين.
تبادل معهم نظرات صامتة وهو يتلقى التعازي ويصافحهم واقفاً.
بدأوا ينفضّون ويتكتلون في مجموعات صغيرة ويتحدثون بإهتمام عن موعد الرحيل وإحتياطات الهجرة.

إنتهز الفرصة وتسلل داخل الخباء وانتزع من الصندوق كل ثروته: ملابس المناسبات الزرقاء وثلاثة أنواع من الأسلحة وحزام جلدي قديم مطرز بالرصاص.
ارتدى اللباس الفاخر وعلق البندقية على الكتف الأيمن والسيف على الكتف الأيسر ودس السوط المضفور بالنار تحت الكم الواسع وربطه بذراعه وطوّق بطنه الضامرة بحزام الرصاص وانطلق نحو الغرب ليتفقد صفوف الأكواخ. سمع أحد الحاضرين يميل على زميله ويعلق على هيئته الإحتفالية ساخراً: «يا ساتر. هل شيخنا يزمع الإشتراك في غزوة أم يستعد لتشييع الجنازة؟».
تعمّد أن يخترق صفوف الأكواخ الممتدة في طابور طويل يبدأ بعد الخيمة بخطوات وينتهي إلى ربوة صغيرة تحدّ العراء من الناحية الغربية الجنوبية فتعزل المستوطنة عن أطراف الطوق الأخضر.
سار بين صفين من الأكواخ بخطوات بطيئة حريصاً على ألاّ يلتفت يميناً أو يساراً حتى لا يسبب الحرج لنساء النجع وإن ظلّ يتلصص من وراء اللثام الأزرق فيلاحظ خلسة كل نشاط القوم في ذلك النهار المشهود من حياتهم الشقية.
وبرغم الوقت المبكر إلاّ أن القيامة في الحي كانت في قمتها: تعالى صراخ الأطفال ولغط النساء واختلط بصياح الديكة وثغاء المعيز.
في منتصف الطريق الطويل في الصّفة الغربيّة في مدخل كوخ كبير فخم رأى فتاة حسناء تخفي صرة صغيرة تحت كم ثوبها المنفوش عند الردفين فتباطأ في مشيته وهو مستمر في مراقبة الفتاة الماكرة بعينه اليمنى فلاحظ أنها التفتت نحو اليمين ونحو اليسار كي تتأكد أن أحداً لا يراقبها فتناولت حزاماً من القماش وطوقت به خصرها لتحكم تثبيت الصرة واخفاءها.
بلغ الربوة فانحرف نحو اليمين وعاد إلى الخيمة من طريق آخر يخترق صفتين من الأكواخ تحد النجع من النواحي الغربيّة فرأى امرأة أخرى وهي تدس جراباً جلدياً كاملاً في صدرها.
عاد إلى الخيمة فوجد جموع المعزين قد تحولت إلى زحام فاطمأن إلى أن الهجرة لم تربكهم بالقدر الذي يجعل باطل الدنيا ينتصر وينسيهم الواجب نحو الموت.
أخذ آهر من يده وابتعد به في العراء وقال له وهو ما يزال ممسكاً بيده: «أريد أن أنبهك بأن الخداع لن يجدينا نفعاً. التطهر من الآثام يستدعي الزهد في متاع الدنيا. أنت تعلم أن السرّ في التضحية بأتفه الممتلكات وإلاّ فإن رحلتنا إلى الرملة لن تفيدنا طالما حملنا رذائلنا معنا. سوف تندس العقارب في أصغر صرّة».

هتف آهر باستنكار: «كيف؟ ولكن القرار كان واضحاً. اتفقنا في الاجتماع على كل شيء».

صمت غوما لحظة ثم إستدار ووقف في مواجهة آهر:

«القرار شيء وعقل النساء شيء آخر. أنا لا أشك في أن أغلبهن يفعلن ذلك من وراء أزواجهن البلهاء. إسمعني جيّداً. أريدك أن تشرف بنفسك وتتولى إقناعهم بعدم جدوى الحيلة في إخفاء المال إذا أرادوا أن يشتروا النجاة حقاً. يجب أن تقنع هؤلاء بأن يعتبروا أن سيلاً قد غافلهم وهم نيام وأخذ كل شيء».

أمسك بمرفقه مرة أخرى وعادا معاً إلى الزحام. قال منهياً ملاحظته: «لست في حالة تسمح لي الآن بأن أفتح هذا الحوار فرأيت أن أوكل لك الدور ريثما أعود من تشييع الجنازة. لا أرى داعياً في أن ترافقني إلى المقبرة».

تقدم القادمون الجدد وهجموا يطوقونه بالعناق واكتفى الشباب منهم بمصافحته صامتين.

تحركت الجنازة مع الأصيل.

مشت خلفها مظاهرة من الرجال من مختلف الأعمار وفريق من الأطفال لاحظ الشيخ بينهم آيس. أمّا النساء فقد شيعنها بالدموع الصامتة ووقفن في كتلة سوداء أمام كوخ المرحومة.

تعمد غوما أن يسير خلف الجنازة التي تقدمها الشيخ خليل الذي لم يتماثل للشفاء تماماً.

وقع بصره على آيس والتقت نظراتهما أكثر من مرة فسارع الحفيد في كل مرة يهرب ببصره إلى الأرض أو إلى السماء.

عند سفح الجبل الجنوبي امتدت المقبرة الجديدة واتسعت زاحفة على مزيد من الأراضي حتى اقتربت من السدّ الرملي الذي أقامته العاصفة الأخيرة. وقد جاءت العقارب فزودتها بمزيد من الجثث.

انفضّت الجموع وعاد الأهالي إلى بيوتهم للإهتمام بشؤونهم قبل حلول ساعة الرحيل ولكن آيس ظل واقفاً فوق رأس القبر.

أقبل أمود يهش حماراً محمّلاً بشوال دس فيه جثة الكلب المغدور. تبادل مع أحد الحفارين حديثاً مقتضباً فألقى الحفار بالفأس على الأرض وتقدم لإزاحة الشوال عن ظهر الحمار. حمله بين ذراعيه دون أن تكشف ملامحه عن الإشمئزاز.

أثار ذلك إعجاب غوما.

اقترب منه أمود وقال بصوت مهموس: «اتفقت معهم منذ الصباح ولكنهم

أصرّوا على ثلاثة جنيهات».

دس الشيخ يده في جيبه ومد له ورقة مالية مطوية ومتآكلة ثم تقدّم لاستقبال مهمدو الذي نزل الجبل في تلك اللحظة.

قال مهمدو وهو يعانق صديقه:

ـ هذا طريقنا جميعاً. كلنا نسير إلى الفناء.

تفرس بعينيه الضعيفتين في وجه غوما وأضاف:

ـ سامحني بالله. لم أعلم بما حدث إلاّ منذ وقت قصير. ما زلت أشعر بتبكيت الضمير وسيمر وقت طويل قبل أن أتحرر من شعوري بالمسؤولية إزاء كل ما حدث. ضعف البصر هو السبب.

لوح الشيخ بيده وقال:

ـ دعك من هذا الآن. ها أنت تعود إلى الدروشة وتمزيق الثياب من جديد.

انضم حفاران آخران إلى زميلهما وشرعوا يحفرون الأرض بجوار قبر المرحومة.

قال العراف وهو يلتفت نحو آيس:

ـ هل تصالحتما؟

لم يجب غوما فاستمر مهمدو:

ـ أخبروني بقرارك الشجاع. الآن ستنتقم الوحشة مني وتسترد كل اللحظات السعيدة التي أحاطتني بها زياراتك السابقة.

قال الشيخ في كآبة:

ـ تتحدث كأن فراقنا أبدي. ابتعادي لا يعني أنني أهجر الواحة ولكن الصحراء علمتنا أن نترك أعز ما نملك في قعر الوادي كي يجرفه السيل ونلجأ إلى المرتفعات لإنقاذ النفس والخضوع للامتحان.

ـ هذا عمل حكيم.

ـ الأشباح تحب أن تستقر في الأودية والسهول وتلبس أردية مغرية لتخدع بني آدم وتستولي على روحه الساعية لامتلاك الأشياء. وها هي الشياطين تطلع علينا هذه المرة في شكل عقارب سوداء لم نرها في حياتنا من قبل.

ـ معك حق. أنا أؤيدك.

سعل غوما وأضاف وهو يتلصص بعينيه بحثاً عن آيس:

ـ أنت تعرف أن هذا المنخفض الذي تستقر الواحة في قاعه كان وادياً في قديم الزمان يغذي بئر اطلانطس بمياهه السخيّة تحت الأرض. وليس غريباً بعد نزول

الماء وجفاف الوادي أن تأتي الأرواح وتتخذه مقراً لها.

ـ هذا جائز جداً.

انتهى حفارو القبور من عملهم وأودعوا الكلب مثواه وأهالوا عليه التراب. رفع غوما يديه نحو القبلة وانهمك يقرأ الفاتحة. تبعه مهمدو أيضاً.

انصرف أمود واستمر آيس واقفاً فوق رأس القبر تفصله عن مهمدو مسافة لا تزيد عن الثلاثة أمتار. قال مهمدو:

ـ حسناً فعلت باختيار هذا المكان قبراً للكلب. لم أسمع إلا منذ قليل بأمر تلك الجريمة البشعة.

اختلس نظرة نحو آيس وأضاف وهو يرفع رأسه المتوج بقطعة صغيرة من القماش:

ـ امتدت اليد الآثمة لتخنق الحياة في كلبك المخلص كما امتد ذيل العقرب ليفرغ السم المميت في جسد أختك المرحومة.

رمقه غوما مستفهماً فهرب ببصره نحو آيس كي يتأكد أنه يصغي لكلامه. أضاف:

ـ نعم. لم أشأ أن أزعجك بهذا الخبر في الماضي ولكن وجودها الآن في دار الحق يمنحني الصلاحية في أن أبوح بالحقيقة: إنها أختك!

ظل غوما يحدق في وجه العراف بذهول. ثم بلع ريقه وهتف:

ـ في الرضاعة؟!

ـ لا. في اللحم والدم. من ناحية الأب.

ـ لا!

ـ هي قصة طويلة لا أعتقد أن مكاننا الآن يصلح لسردها بالتفصيل. المرحوم والدك سبى زنجية في إحدى الحملات على زنوج ما وراء النهر ثم اتخذها محظية زمناً طويلاً قبل أن يرتبط بها في السر على سنة الله ورسوله وينجب منها طفلة.

قال الشيخ في لهجة تأنيب:

ـ يا رسول الله! لماذا لم تخبرني من قبل؟

أجاب العراف ببرود:

ـ وما أدراني أن ذلك سيروق لك؟

ـ سبحان الله. وهل يخفى أمر كهذا يا مهمدو؟

سكت العجوز فتساءل الشيخ:

ـ هل كانت هي تعلم الحقيقة؟

هزّ مهمدو رأسه علامة الايجاب فساد صمت ثقيل لم يلبث أن خرقه آيس بنشيج أليم فعرف العرّاف أنه حقق الهدف وضرب عصفورين بحجر واحد وتخلص من مهمة صعبة ليخبرهما بالحقيقة التي لا يعرفها أحد في الواحة سواه.

طافت سحابة كآبة في عيني الشيخ. استمّر يقف فوق القبر مصالباً يديه على صدره متشبثاً بالصمت والوجوم.

لا يذكر بعدها كيف ودّع مهمدو ولا كيف ترك آيس منكفئاً فوق القبر ولا كيف وصل الأكواخ. توجه إلى كوخها مباشرة فوجده خالياً من النساء. أطل برأسه عبر الباب وظل منحنياً لحظات. ألقى نظرة شاملة على أمتعتها.

أخرج الكبريت من جيبه وأوقد عود الثقاب. تأمل الشعلة الصغيرة وقال في نفسه أنها ستتحول الآن إلى لهب عظيم يلتهم المستوطنة بكاملها. قرّب النار الشرهة إلى أوراق الجريد اليابسة فانقضت تلتهمها في نهم. راقب اللهب لحظات مصغياً إلى صوت الجريد وهو يستغيث ثم توجه إلى الخيمة بخطوات واسعة.

دار حول الخيمة ثلاث مرات ثم توقف فجأة وسحب الكبريت. قال في نفسه وهو يوقد العود: «هذا قرباني أيتها العقارب فكلي واشبعي واهنئي».

كرر دعاءه بصوت مسموع ومدّ يده بالشعلة إلى طرف الخيمة السفلى في الزاوية فقفزت النار وانتقلت إلى الخيمة وهي تلتهم الوبر في جشع.

كان حريق الخيمة إيذاناً ببداية الحرق الكبير الذي شهدته تلك القطعة البائسة من العراء في ذلك اليوم وظلت تاريخاً محفوراً في ذاكرة السكان. يعيدونه لأولادهم ويورثونه لأحفادهم.

انطلقت النيران في صفوف الأكواخ وتصاعدت ألسنة اللهب المجنون تعلوها سحب الدخان ومضت تشق الفضاء حتى ليتأكد المشاهد من بعيد أن الواحة كلها تحترق.

وقف غوما في نهاية طابور الأكواخ فوق الربوة مصالباً يديه على صدره مدججاً بأسلحته متدثراً بأفخر لباسه فيبدو من مسافة بعيدة مثل الشبح. ظل يراقب اللهب ومجموعة من الشباب وهي تنتهي من تجميع الأغنام والمواشي وتهشها في قطيع هائل متجه نحو الغابة. القطيع تصدّق به على الفلاحين الفقراء تنفيذاً لتوصيات مجلس الشيوخ.

لم تمض ساعة أخرى حتى تحركت القافلة تتقدمها النساء وهن يحملن أطفالهن الرضّع بين أيديهن ويتشبث الصبية بتلابيب أمهاتهم، تليهم العجائز ثم الشيوخ وسار الرجال في ذيل الطابور الطويل.

تابعهم من الربوة حتى دخلوا الغابة واخترقوها إلى الناحية الأخرى نحو سفوح الجبال الرملية المهيبة.

ألقى نظرة أخيرة على النار وهي تُهسْهِس في الحطب كالوحش وتحوّل الأكواخ الواقفة إلى رماد وقطع من الفحم.

نزل الربوة وتحرّك خلف المسيرة.

(٢)

في تلك الليلة هاجم الجاروف الجبل واقتحم المغارة.

لم يكد مهمدو يؤدي صلاة العشاء حتى فوجىء بالجلبة تقتحم هدوء الصومعة. مرت لحظات قبل أن يلاحظ أنوار المشاعل تحيط به من كل جانب. التفت حوله وتفرس في الوجوه العدوانية التي تقف فوق رأسه وتمزقه بنظرات الحقد فتبين شبح الجاروف.

صرخ أحد الدهماء:

- انهض يا عجوز النحس!

تمتم مهمدو:

- استغفر الله. اتقوا الله يا جماعة وأخبروني: ماذا حدث؟

ضحك أحدهم بحقد شيطاني وقال وهو يصر على أسنانه:

- جئنا نقبض روحك أيها المنحوس ونخلّص آدرار من شرّك وسحرك إلى الأبد.

- سبحان الله.

- سبحانه قبلك وبعدك أيها الشرير.

وقذفه بحجر أصابه في ركبته.

تلوى العجوز من الألم فتقدم الجاروف بضع خطوات وصرخ:

- انتظروا يا جماعة. العفو عند المقدرة. وأخلاق الأقوياء تحتم أن يعطوا أعداءهم فرصة للهرب والنجاة.

ثم التفت إلى مهمدو وقال جاحظ العينين:

- أمامك الفرصة الأخيرة. لقد رفضت اقتراحي منذ يومين في أن تهجر الواحة وتبتعد طائعاً. أمنحك الآن الفرصة الأخيرة.

رفع العرّاف رأسه وهو يدلّك ركبته بكلتا يديه وتمتم في لهجة إصرار:

- لا تطمع في ذلك. قلت لرسولك أن يبلغك بأني لن أغادر الواحة إلا على محفّة.

التفت عبد الجليل الجاروف نحو الزحمة وصرخ في العصابة:

ـ إشهدوا عليه يا جماعة. منحته الفرصة أكثر من مرة، ورفضه ليدي الممدودة سيدفعه إلى التهلكة.

تفصدت كتل رغوة على شفتيه فبدا كجمل هائج يلقي بقطع الزبد:

ـ إشهدوا عليه. يريد أن يرمي بنفسه إلى التهلكة. اسمع يا مهمدو. لقد جررت على هذه الواحة شرور سحرك الأسود ودفنت من أهلها العشرات والعشرات. وأنا لا أستطيع أن أمنع الأهالي طويلاً من التعبير عن شعورهم ورغبتهم في الانتقام لذويهم الذين دفعت بهم إلى القبور. يعلم الله أني حاولت إقناعهم ودافعت عن نواياك الطيبة طويلاً ولكنهم أصروا على أخذ حقهم منك فانفذ بجلدك أرجوك.

قال العجوز بإصرار طفولي:

ـ لماذا تحاول أن تعلّق نواياك على الأهالي؟ لماذا لا تقول الحق وتعلن أمام هؤلاء البلهاء أنك أنت الذي جاء بهم وليس العكس كما تدعي؟ لماذا لا تعترف أنك تسعى لإبعادي من آدرار منذ زمن بعيد لأني الوحيد الذي يعرف ماضيك وماضي أبيك وجدّك؟ لماذا لا تكشف عن نواياك الحقيقية يا شيخ عبد الجليل؟

ابتلع ريقه بصعوبة وأضاف:

ـ قراري الأخير هو: لن أغادر هذه الأرض التي ولدت عليها وأموت عليها.

هنا انهالت عليه الاحجار كالمطر. حاول أن يحمي رأسه فأحاطه بذراعيه وتدحرج على الأرض مكوّماً حول نفسه كالقنفذ. استمر هطول الأحجار تحت عاصفة من الصراخ والضحكات والضجيج.

كانت الآلام في البداية مبرحة ولكن تعوّد الجسم قتل الاحساس بالوجع فشعر مهمدو بجسمه وهو يبتلّ بالعرق وخيوط الدم.

فجأة، من قلب تلك العتمة، انبثق الشيخ غوما مفرقعاً بسوطه في الهواء راسماً دوائر النار في الفضاء.

في البداية أحس مهمدو بتوقف وابل الأحجار. ثم سمع ولولة الرعاع ونحيبهم وصوت غوما الهائج يردد: «خذوا! خذوا! يا سفلة. شبعتم حتى سوّلت لكم أنفسكم التطاول على العجزة! خذوا! ذوقوا قليلاً من السوط لتعرفوا أن لا مردّ للعصاة سوى العصا. خذوا ذوقوا. يا سفلة!».

تفرق الزحام وفرّ الدهماء إلى الجهات الأربع واستمر غوما يفرقع بالسوط في الهواء حتى اصطدم في العتمة بشبح الشيخ الجاروف.

هتف غاضباً:

ـ آه. هذا أنت سليل الخونة وحفيد العملاء. تقف هنا.

حاول الجاروف أن يحتج وهو يتراجع بضع خطوات:

ـ لا تقل ذلك يا شيخ غوما. أبي كان رجلاً فاضلاً يشهد بذلك كل من عرفه.

صرخ غوما:

ـ فاضل؟ قل هذه الخرافات لمن لم يعرفه. رأيته بعيني وهو يزحف على أربع ذليلاً ثملاً يجر لحيته كالتيس وتلك الطليانية الشقراء تمتطي ظهره كالحمار وتنخس مؤخرته بمهماز أعدته خصيصاً لهذا الغرض.

ـ هذه نميمة! اشهدوا عليه يا جماعة. هذا افتراء لا يليق برجل وقور مثلك يا شيخ غوما.. هذا..

هنا انهال عليه غوما بالسوط فسقط على الأرض وهو يتلوى واستمر يجلده حتى تحامل مهمدو على نفسه وزحف على ركبتيه وأنقذه من بين يديه.

كان جسد عبد الجليل الجاروف ممزقاً مخضّباً بالدماء. دار غوما كالأسد الهائج حول جسد الجاروف بعد أن جرّده مهمدو من سوطه وهو يردد ثائراً: «الوغد! يقول نميمة! سوف أذيقه طعم النميمة! يتجاسر ويتفوّه واصفاً كلامي بالنميمة!».

تطلب انفعاله زمناً طويلاً كي يهدأ ويعود له عقله. جاء القاضي الزبرجداني ترافقه طائفة من الوجهاء الذين ارتعشت أيديهم وهم يحملون المشاعل فوق رؤوسهم.

قال القاضي:

ـ يا رب الأرباب: ماذا دهاكما يا شيخ غوما؟ هلا هذا عمل يليق بمثلكما؟

زمجر الشيخ:

ـ سوّلت له نفسه أن يعتدي على عجوز في المائة عرف آباءه وأجداده. ثم تجاسر ووصف كلامي بالنميمة. فكيف بالله لا تريدني أن أخرج عن طوري وأدلك ظهر هذا الزنديق بالسوط؟

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله. هداكما الله.

ـ ربنا يهدي جميع من خلق. أنصحك ياسي صالح أن تجره من هنا قبل أن يعود الجان إلى رأسي فأقبض روحه وأخنقه بيدي.

تقدم ثلاثة من الوجهاء ووضعوا الجاروف في جرد أحدهم وهو يئن ويتوجع ويغالب الغيبوبة.

انصرف الجماعة فهتف غوما خلف القاضي:

ـ لا تنس أن تبعث لي بالممرض. هنا يرقد إنسان آخر جريح هو أحق بالعناية من الجاروف الشرير.

همهم ببعض العبارات الغاضبة وهو يبحث عن أعواد الحطب في مدخل الكهف. أوقد عود ثقاب وأشعل النار. مزّق خرقة من القماش وجاء بقلّة الماء. ركع على ركبتيه وانكب يمسح الدماء عن وجه العجوز وأطرافه محاذراً أن يضغط على الكدمات البارزة التي سببتها ضربات الأحجار.

قال بعد أن سيطر على نفسه وبدأت أنفاسه تهدأ وتنتظم:

ـ الحمد لله أني لم أبتعد كثيراً. اللهّ وحده تدخل وعرقل مسيرتي خلف القبيلة فتمهلت في الغابة لتفقد النخلة المريضة. كان الأوغاد ينوون إعداد طبق عشائهم من لحمك!

تمتم العجوز:

ـ الحمدلله. إنه لا يتخلى عن عباده لأمد طويل.

ـ رأيت المشاعل فحدست شرّاً.

ـ أرسل لي رسولاً منذ يومين وطلب مني أن أغرب بوجهي عن آدرار إذا أردت النجاة.

ـ الوغد! على من تقدر يا خليفة ـ على الناقة الضعيفة.

ساد صمت قصير. تحامل العجوز على نفسه وقال بصعوبة:

ـ استغل انشغالك بالأحداث الأخيرة فقرر أن يضرب ضربته.

ـ المجرم!

استمرّ مهمدو بنفس الواهن:

ـ الأشرار يشعرون بالخطر دائماً في حضرة الشرفاء. بل انهم يرون أن مجرد وجود الشرفاء على الأرض هو مؤامرة تهدد حياتهم. إذا أمسكت بزمام الحقيقة رأى فيك الناس عدوّاً لدودا.

ـ هذا حق. أنت مدان ما دمت على حق!

ـ يريد التخلص مني لأني أعرف ماضيه وماضي سلالته.

ـ العميل. سليل العملاء!

أقبل الممرض يحمل حقيبته. ألقى بالتحية وانكفأ فوق حقيبته يخرج منها الضمادات البيضاء والأقراص والعقاقير.

أفسح له غوما الطريق وتخلّى له عن المريض كي يقوم بعمله.

قال غوما وهو يتناول سوطه الملقى بجوار مهمدو:

- يجب أن تسمح لي بالانطلاق الآن. لا أعرف ماذا فعل الله بقبيلتي في مقر إقامتها الجديد.

ثبتّ البندقية على منكبه الأيمن وتأكد من وضع السيف على المنكب الآخر ولوى السوط على يده وتمنى لهما ليلة سعيدة وهبط الجبل من طريق وعر قديم يخرق السفح من الجنوب اضطر أن يسلكه في الصعود.

أفضى الطريق إلى المقبرة القديمة التي تحتل نصف السفح وتنحدر إلى حضيض الجبل وتتحد بالمقبرة الحديثة. انحرف يميناً ومشى بضع خطوات وتوقف فوق قبر الشهيدين وقرأ على روحهما الفاتحة في الظلام. ثم بدأ الرحلة للالتحاق بالقبيلة.

وصل قبل الفجر فهاله منظر الأهالي وهم يستلقون على الرمال في العراء كمقبرة هائلة من الجثث أسفرت عنها معركة ضارية.

وقف طويلاً في الظلمة يراقب الأجساد المنطرحة في أوضاع فوضوية كأن العطش هدّهم فانكفأوا على وجوههم قبل بلوغ آبار الماء.

تقلص قلبه ألماً وفاض بالاشفاق وهو يلمح، في العتمة، الاطفال ينتشرون بجوار أمهاتهم يغرسون أيديهم وأقدامهم وحتى أجزاء من رؤوسهم في التراب مستسلمين للنوم.

اختار مكاناً في نهاية المعسكر شرقاً. رشق أسلحته في الرملة وتمدد على الأديم الناعم وفاز بإغفاءة قصيرة ردت له قواه فوثب جالساً مع أول حركة دبت في صفوف المهاجرين.

صرخ أول طفل.

مع انبثاق خيوط الفجر الأول تململ العراء المغطى ببشر كأسراب الجراد قيّد البرد أرجلها وأجنحتها.

في ذلك اليوم أذن غوما للنساء والأطفال بالنزول إلى الغابة وقضاء القيلولة بين أشجار النخيل فاستقبل الفلاحون جيشه بأكياس التمر وقلل الماء البارد، في حين اقترح الاحتكام إلى الصيام بعد التشاور مع شيوخ القبيلة فالتزم الرجال بالقرار ثلاث ليال وثلاثة أيام بادر بعض الزاهدين بتمديده إلى أربعة بل وإلى خمسة أيام.

بالطبع وجد من طعن في الطقوس واتهم الشيخ غوما بابتكار بدع المجوس بفرض الصيام الذي يخالف شريعة المسلمين. فقالوا ان البدعة من أفكار مهمدو، وهي لا تختلف في مضمونها عن عادته النجسة في الافطار بقدح البول!

الشائعات رددت أن الأغلبية قضموا حبات التمر وشربوا جرعات الماء البارد

عند قيامهم بمرافقة قوافل الأطفال والنساء التي ترتع مع الأصيل في الغابة وتقضي القيلولة تحت ظلال الأشجار ثم تعود للحج نحو الصحراء الرملية مثل قطيع هائل من الأغنام.

ولم يفق الأهالي لحقيقة ما حدث إلاّ في اليوم السابع للهجرة: فاكتشفوا أن السفينة لم تغرق كما توقعوا. فتوقفت الوفيات وكفوا عن تشييع الجنائز وتخلصوا من خطر الشوكة المنصوبة في ذنب الحشرة الشيطانية فهنأوا بعضهم وحمدوا الله على سلامتهم بدون لغة. وليس من الصعب على غوما أن يرى الارتياح على وجوههم. حتى آهر الذي هاجمته كآبة قاتمة لم يعهدها فيه من قبل بدأت نفسه الآن تتفتح وتعود إلى طبيعتها. وجوه الجميع الآن تقول بصوت واحد: لقد افتدينا أنفسنا واشترينا الحياة!

وفي اليوم الثالث نزل غوما إلى الحقل الأجرد بعد أن اضمحلت النباتات واصفرت المزروعات يرافقه آهر وأمود وعدد من الشباب وحفر المطمور وحمل أكياس الحبوب على حمير استعارها من الفلاحين ووزعها لتصنع النساء خبزاً. ثم توجه إلى السوق واستدان من أصحاب الدكاكين الشاي والسكر.

فطر غوما على كأس من الشاي الأخضر تفنن في إعداده بنفسه. وقال يخاطب الجمع المتناثر في عراء الرملة:

ـ ها قد اكتمل حجّنا إلى الصحراء. تنفسوا ملء الرئتين، وانظروا حولكم في البرية الممتدة بلا حدود، الصحراء كعبتنا دائماً وإنقاذها لنا من الوباء اليوم دليل على إخلاصها الأبدي. إذا جاء السيل وجرف الأغنام والمتاع أعطتنا الكلأ وغذتنا بالأعشاب والترفاس. وإذا هاجمنا عدو دلّتنا على طريق الهرب وحققت لنا الفوز بالنجاة. وها هي اليوم تخلصنا من الوباء.

رشف طربوش الرغوة أولاً ثم تناول رشفة أخرى وأغمض عينيه. قال:

ـ مشروب النعيم. الشاي مشروب النعيم. كاد رأسي يتحطم من الصداع طوال أيام الصيام.

التفت نحو آهر الذي جلس على يمينه. يخطط الأرض منكس الرأس. قال:

ـ ولكن التخلص من الوباء استدعى التضحية كما رأيتم. شكك الكثيرون في جدوى الهجرة ولكن ماذا خسرنا غير التحرر من مال الدنيا ومقتنياتها؟ من لاحقته البلوى غير أولئك الذين حملوها معهم من الأكواخ في صرر الحلي وأكياس التمر؟

أيده الوجهاء بإيماءات من رؤوسهم فأضاف وهو يرمق آهر من تحت لثامه:

ـ نحتاج بين الحين والآخر إلى الاعتصام بالصحراء، أم أن الشيخ آهر يرى رأياً آخر؟

جاء ثلاثة رجال يحملون أرغفة الخبز في عباءة كبيرة. طرحوها وسط الدائرة وامتدت الأيدي لكسر الصيام الطويل وهم يتمتمون بالايات القرآنية.

قضم غوما كسرة الخبز وعلّق بمزاج رائق:

ـ ذوقوا بالله خبز الملآل! أيهما ألذ بالله عليكم خبز الملال المدفون في الرمل أم خبز التنور المحروق بالحديد والنار؟

لم ينتظرجواباً فالتفت يراقب الغروب وهو ينكبّ على رسم تخطيطات أرجوانية على رأس الجبل الرملي الممتد نحو الغرب. لاحظ أن الألوان السحرية التي استعملها الغروب في الرسم قد انعكست على قمم أشجار الغابة الهاجعة في المنخفض، المستسلمة للسكون والوباء. استغرب كيف يستغرق الذهاب إلى الواحة يوماً كاملاً في مسيرة الذهاب والأياب في حين تبدو للبصر أقرب من حبل الوريد.

كان سعيداً كالطفل لأن حساباته لم تخطىء.

ساد الوجوم فتعمد أن يتباهى بانتصاره:

ـ بالأمس رأيت في عينيك شكاً هو أقرب إلى الاحتجاج عندما حملت أكياس الحبوب إلى هنا، ولكني أخذت الأمر على عاتقي وتحملت المسؤولية لأن الفرق كبير بين الجشع الذي يجعل المرأة تدس الذهب في صدرها وبين أكياس القمح المعدة لسد رمق الجائعين. أم تراني على خطأ يا جماعة؟

ولكن لم يفده أحد حتى ذلك الحين. لأن بوادر الثقة في صواب الهجرة من عدمها بدأت فقط بعد اليوم السابع.

أما في ذلك اليوم فقد فشل الشيخ في الرفع من معنوياتهم التي زادها الصيام انحطاطاً، فاحتكموا إلى الوجوم وتقوقعوا داخل نفوسهم. بعد مضيّ الأسبوع الأول غاب الحاضر في الماضي فعاودتهم روح المرح وطاب لهم التعليق والتندر فانبروا يسردون الأساطير والحكايات عن سلوك الأهالي يوم الحساب عندما انطلقت النيران تلتهم الأكواخ معلنة قيام يوم القيامة. فبدأت الأحداث بتنفيذ وصية غوما في ضرورة مصادرة كل المقتنيات التي أخفتها النساء في أماكن حساسة من أجسامهن فلم يهتدِ أغلب الرجال إلى حيلة تصلح للوصول إلى الحلي وقطعِ الذهب والأموال غير إبعادَ الأطفال خارج الأكواخ وإغلاق الجريد بإحكام وجرِ زوجاتهم إلى المخادع.

في الليل اعتلى الشباب قمة الجبل الرملي المهيب وانطرحوا على الحبيبات الذهبية الباردة وانطلقوا يروون الحكايات عن اليوم العصيب فقال أحدهم: «اتعرفون مغري؟ رأيته بعيني هاتين اللتين سيأكلهما الدود والتراب يطارد زوجته الجديدة بمدية تباوية(١٩) مخيفة فهربت المسكينة شبه عارية واستنجدت بجارتها في الكوخ الملاصق».

ضج الشباب بالضحك فواصل حكايته: «قيل انه بعد أن جردها من الثياب في ذلك الأصيل الملعون مدّ يده وجرد جيدها من عقد الفضة الذي أهداه لها ليلة الدخلة التي لم يمض عليها سوى بضعة أسابيع. وقد انتبهت المرأة الخبيثة إلى الحركة وتابعته وهو يدس العقد في جيب جلبابه المعلق في العمود فهجمت عليه وأمسكت بيده واستحلفته بالله وبتانس أن يقول لها الحق ويعترف بأنه يريد أن يسترد العقد الذي أهداه لها بالأمس ليقدمه إلى زوجته الأولى. وبالطبع أقسم مغري المسكين بالله وبتانس أنه لا ينوي تقديم العقد لأي امرأة في الدنيا ولكنه فعل ما فعل لمصلحتها أولاً وتنفيذاً لتعاليم الشيخ غوما. ولكن العروس لم تصدّق وقالت له أن الشيخ عجّز وبدأ يخرف وإن كانت تشك أصلاً فيما يقول لأن أمها حذرتها عنهما ودعتها إلى مخدع مغري أن تثق بالرجال أو تصدق ما يقولون، لأن هدفهم دائمًا هو نصب الفخاخ للزوجة ومخادعتها للقفز إلى فراش أقرب امرأة! هنا وصفها مغري بالجنون ووجه لها إهانات قاسية ـ حسب روايتها ـ أو تفوه بعبارات اعتبرتها هي إهانات، وهجمت عليه محاولة أن تنتزع من بين يديه العقد النفيس وعضته في يده، فاضطر أن يتخلى عن الحلية وهو يسب ويلعن النساء من أصلهن، ووثب إلى أمتعته وتناول من هناك تلك المدية التباوية الفظيعة التي شهدت أكثر من امرأة أنها رأتها تلمع تحت الشمس. طارد مغري امرأته إلى الكوخ المجاور وهي تحاول أن تغطي جسدها العاري بطرف لحافها الذي اختطفته وهي تحتكم إلى الباب هرباً من المدية!».

تضاحك الشباب واستقبلوا القمر بالتصفيق. انشق عن التجمع فريق منهم طفق يرقص ويغني في حلقة واسعة ابتهاجاً بحلول القرص الفضي وتبركاً بنوره الذي سيزين سهرتهم ويعزّي لياليهم في الوطن الجديد.

استمر الفريق الباقي ينطرح على تلال التّبر. تقاربوا برؤوسهم وأعلن أحدهم: «يقال ان العروس الآن تنتظر الوقت المناسب كي تنتزع ورقة الطلاق من القاضي. أقسمت أنها لن تدخل بيت مغري بعدما حدث».

ثم انكبوا بعماماتهم الكبيرة وزادوا رؤوسهم تقارباً كأنهم ينوون التناطح

ورووا في لهجة لا تخلو من التهكم والشماتة كيف تدافع الفلاحون وأهالي الواحة إلى رماد البيوت المحترقة في اليوم التالي باحثين عن الثروة وكنوز الذهب التي قالت الشائعات أن أهل الصحراء دفنوها هناك قبل رحيلهم فاستقبلتهم الحشرة الشيطانية فلقي عدد كبير مصرعهم. وفي رواية شبه مؤكدة أن العقارب قتلت منهم يومها إثني عشر رجلاً وامرأة. وفي رواية أخرى ثلاثة عشر وامرأتين.

هنا عاد أحدهم إلى موضوع مغري فقال: «سمعت أن مغري فاز بتهنئة من الشيخ نفسه تقديراً له على موقفه الشجاع في التخلص من الأساور والحلي. وبلّغه في توصية بعث بها إليه أنه استطاع بهذا العمل أن يصنع مثالاً في الزهد. هيء - هيء - هيء ..». ثم وثب ذلك الشاب ورقص على رجل واحدة حتى انضم للحلقة الكبيرة.

بعد قليل أقبلت مجموعة من الفتيات يتبخترن بثيابهن الفضاضة المنفوشة يجرجرن أطراف أرديتهن فيمسحن مساحات الرمال يحملن طبلاً وآلة أمزاد.

كانت تلك أول حفلة سمر تقوم النساء بتنظيمها منذ أسابيع وأسابيع عندما غضبت السماء ونفخت في الصحراء فتنفست بموجة الحرّ الأولى.

(٢)

لم يقتنع الشيخ غوما بالأعذار التي انتحلها لنفسه بسبب غيابه طوال الأيام الماضية عن تأدية واجب الزيارة للعجوز الجريح. فبرغم التزاماته إزاء القبيلة في موطنها الجديد وبرغم تركه لمهمدو أمانة في عنق الممرض إلا أنه أحس بالتقصير في حق العرّاف الذي لا يعاني الآن من العجز والوحدة فقط وإنما أضيف إليهما بلاء جديد هو المرض.

في طريقه إلى الجبل مرّ على المقبرة. قرأ الفاتحة فوق الشهيدين. وقف بعدها طويلاً يتمتم ببعض الأدعية والآيات قبل أن يواصل طريقه ويتسلق الجبل من الطريق الجنوبي الصعب.

وجد العجوز وحيداً يسند رأسه الملفوف بالضمادات على جدار المدخل يحدّق في الفراغ.

كان غائباً تماماً فلم يرد على تحية الشيخ إلابعد أن كررها ثلاث مرات.

قال غوما مداعباً:

- الآن ستحدثني قبل كل شيء عن رحلتك في البلاد البعيدة. حاذر أن تخفي عني التفاصيل.

مهمدو ابتسم فأضاف غوما:

- غيابك دليل على أنك تتقدم وصحتك في تحسن. أم أنني أخطأت؟
تمتم مهمدو:
- الحمد لله. لقد أهديت الجسد للشيطان منذ زمان ولم تعد آلامه تهمّني كثيراً، ولكن آلام الروح هي المأزق. لقد جاهدت عشرات السنين كي أروّض نفسي عليه ولكن شفافيتها تجعلها تنتصر في كل مرة، آه من الروح!
هجم غوما يجمع الحطب ويكومها في العراء الصغير أمام المدخل. ردد بلا وعي:
- آه من الروح! آه منها حقاً. ولكن قدرنا أن نقاوم. السرّ في المقاومة، واللّحد في الاستسلام.
استمر مهمدو بصوت حزين:
- أشبعني القائمقام بالسوط، وسلخ جلدي بالجلد ولكن ذلك لم يمنعني من أن أتهكّم وأجاهر وأتساءل عن السبب الذي جعلهم يأتون بي على محفة فازداد حنق الجلاّد وضاعف في العقوبة دون أن تفارق الابتسامة شفتي. قررت أن استمر في التنكيل بالجسد طوعاً فعاقبته بالجوع أياماً كثيرة ولكني لم انتصر طالما يستطيع رجل فارغ مثل الجاروف أن يسبب لي ألماً بعد كل هذا العمر من التمرين. إنني أشعر بالعار.
قال غوما وهو يشعل الكبريت في كوم الحطب:
- لا يجب أن تولى الأمر كل هذا الاهتمام.
- بعد كل هذا التاريخ يستطيع رجل مثله أن يهينني!
- إنس ما حدث!
- ويؤلب ضدي الأهالي. نفس الأهالي، وإن لم يكونوا أنفسهم فأبناؤهم وأحفادهم، الذين شيعوا «جثماني» في الزمان القديم بمظاهرة إخلاص. يأتون اليوم ليرجموني بالأحجار كأي آثم!
- لا ينبغي أن تلومهم. لقد ضللهم ودس في رؤوسهم قناعة تؤكد مسؤوليتك على كل ما شهدته الواحة من بلاء. أنت تعرف.
- أيقنت أن ليس ثمة أسهل من إيقاظ النوازع الشريرة في الناس وتحويلهم إلى قطيع.
- هذا حق. الناس ميالون إلى الشر.
- ناضلت عشرات السنين إلى جانب النصف الخير في الإنسان ولكني أشعر الآن أن رحلتي انتهت إلى الباطل وقبضت الريح.

بدأ غوما يغسل عالة الشاي. قال:
ـ لا تتشاءم، ولا تندم على خير فعلته. برغم كل شيء فالإنسان يظل أحوج مخلوق إلى الشفقة!
ـ ليت الأمر بهذه البساطة يا سيدنا الشيخ.
أتعبه الحوار فتنفس. سكت وعاد ينظر في الفراغ.
قال غوما وهو يثبّت الوعاء المشحون بأوراق الشاي على طرف النار:
ـ هذه ظاهرة عامة. هذه طبيعة يشترك فيها كل البشر: لا ينسون ما يرون أنه إساءة بالسرعة التي ينسون فيها الحسنة. في نفوسهم استعداد للأذى. ومع ذلك فإنهم مساكين.
لم يعلق العجوز فاستمر غوما:
ـ بالأمس جاهدت بمرارة لشد أزر أعيان القبيلة ولكن وجوههم ظلت جامدة لاتعبر إلاّ عن الشك.
صمت وهو يلتفت نحو جليسه.
أضاف:
ـ وكأن كل ما فعلت ليس من أجلهم ومن أجل أبنائهم!
خرج العرّاف عن صمته:
ـ أنت تطلب منهم المستحيل. تريد أن تجردهم من مقتنيات الدنيا وترفعهم إلى مستوى الآلهة!
ـ حاشا للّه!
ـ تريدهم أن يكونوا أقوياء مثلك، زاهدين في المتاع. طبيعي أن يقاوموا لأنهم ضعفاء.
ـ أنا لم أكذب عليهم. لقد صدقت رؤياي ولم يحدث أن مات أحد بالوباء باستثناء الذين جلبوا معهم صرة أو جراباً من متاع الدنيا!
سعل العجوز بصعوبة ثم تحامل على نفسه قائلاً:
ـ حتى لو رأوا الخلاص بأعينهم فإنهم لن يصدقوا لأن الأوهام أقوى منهم.
ـ هذا حق. وقفت على ذلك بنفسي ومع ذلك فإني استطعت أن أزحزح الصخرة قليلاً. لا أستطيع أن أجزم فاهنىء نفسي ولكن خط الرجعة مقطوع على أي حال.
ـ لقد هنأتك بيني وبين نفسي بمجرد أن انتشر هنا خبر قرارك بحرق الأكواخ وكنت على يقين أنك ستوفق.
ـ الحمد لله.

مالت الشمس نحو المغيب.

عاد الشيخ يقول:

ـ أتدري؟ أحس أني المذنب الأول والأخير في كل ما حدث؟

رفع العجوز حاجبيه مستفهماً فأضاف غوما:

ـ أنا الذي خالف الناموس وارتكب الخطيئة الاولى: وإلا هل رأيت في حياتك فارساً من أهل الصحراء يحرث الأرض ويتطاول في الفلاحة؟

لم يعلق مهمدو فاستمر غوما يوضح فكرته:

ـ كان ذلك خرقاً لناموس الطبيعة كفيلاً بأن يثير القوى الخفية. اعتداء على قوانين الكون فقررت القوة أن تنزل العقاب.

ابتسم مهمدو. فقال غوما كالمعتذر:

ـ ولكن يعلم الله أنني فعلت ذلك من أجلهم أيضاً. لم أحتمل أن أرى الشباب يهيم على وجهه في الشركات بحثاً عن عمل ويتطاول في البناء في الواحات الأخرى دون أن أبذل جهداً يشدّهم إلى الأرض. هذا ما دفعني إلى أن أدق الوتد علّي أفلح في إغرائهم بعشق الأرض.

دحرج قطع الجمر بعود وعدّل من وضع وعاء الشاي. قال:

ـ أكثر ما أحزنني أمود. لقد رأيت فيه المصير الذي ينتظرهم جميعاً بعد عودته من رحلته الخائبة إلى الواحات. كنت أعرف أن علي أن أفعل شيئاً دون أن يكون في رأسي هذا «الشيء» واضحاً. فومضت الفكرة كالشرارة فتوجهت إلى الجاروف وساومته لشراء السانية.

سكت. أصغى لصياح الديكة وجلبة الأطفال أسفل الجبل. قال بحزن وهو ينظر في عيني مهمدو:

ـ والآن يجب أن أجد في نفسي الشجاعة كي أعلن بالفم المليان أن المحاولة انتهت إلى هزيمة.

حاول مهمدو أن يعزيه:

ـ ربما كانت الأسباب في الطبيعة؛ العاصفة أتلفت جانباً كبيراً من محصول هذا العام وهذا خارج عن إرادتك.

ـ بل الأسباب كامنة في عوامل ما وراء الطبيعة! لن نعلق السبب كله في رقبة العاصفة لأن العد التنازلي للسانية بدأ قبلها بوقت طويل. ابتليت أول ما ابتليت بالفقيه دبّار الذي سحب المنتوج مستغلاً مرزوق. وبدل أن ينتفي السبب بوفاة الطفل شكّل هذا الحدث انحرافاً في حياة الفلاح فاستسلم لليأس وبحث عن العزاء

في اللاقبي! حاول أمود مخلصاً أن ينقذ ما يمكن إنقاذه لولا تلك الحادثة التي كادت تكسر رقبته. فكيف لا تريدني بعد كل هذا ألا أتهم عوامل ما وراء الطبيعة وأنت تعلم أني لم أبخل لا بالجهد ولا بالمال، بل ودفنت كل ما أملك في ترابها؟

التقط أنفاسه وواصل:

ـ لا تحاول أن تعزيني فالأمر واضح والإشارة تعلن عن نفسها.

نزع الوعاء وصب السائل في الوعاء الثاني استعداداً لصنع الرغوة.

عاد مهمدو من رحلته ونزل إلى الأرض:

ـ البداية دائماً صعبة. هذا قانون يعرفه حتى الأطفال.

ضحك غوما باستخفاف قبل أن يعقب:

ـ الأصعب من البداية هو النهاية عندما تفضي إلى الهزيمة.

بدأت شعائر الخلط. قال:

ـ لست نادماً على شيء على كل حال.

ارتفع صوت المؤذن داعياً لتأدية صلاة المغرب فتمتم غوما بالدعاء تعقيباً على صوت المؤذن. قال وهو يقدم الكأس الطافح بالرغوة ويغير الحديث:

ـ الحق أني أردت أن أعود إلى قصة المرحومة.

حدج العرّاف من طرف خفي ثم تمهّل قبل أن يستطرد:

ـ ثمة أمر يحيرني له علاقة بلونها: أنت تعرف أن المهجنين لونهم يختلف...

صمت فجأة وعاد يحدج العجوز. أضاف ببراءة:

ـ أما هي.. إنها زنجية تماماً!

اغتصب مهمدو ابتسامة باهتة. قال باقتضاب وهو يدفن يديه في الرملة التي خلفتها العاصفة بمدخل المغارة استعداداً لممارسة التيمم:

ـ وهل هذا أمر يمكن أن يثير دهشتك! البطن صباغة دباغة.

تناول جردل الماء وابتعد عن عالة الشاي خطوات وشرع يتوضأ. ردد:

ـ حقاً إنها صباغة دباغة!

بعد صلاة المغرب جاء الممرض يتأبط حقيبته. أفرغ محتوياتها أمام مهمدو وعكف يفك الضمادات عن وجهه.

قال غوما وهو ينهض وينتعل مداسه:

ـ الآن يجب أن تأذن لي بالانصراف. أمامي مشوار طويل حتى أبلغ النجع. سأتركك أمانة في عنق مسعود.

في الطريق إلى المستوطنة شق الغابة. مرّ على السانية مع شروق القمر. شعر

بالكآبة وهو يجتاز الجداول الجدباء ويحاول أن يتبين في العتمة شبح الموت وهو يتسلل إلى النبات.

رأى النور ينبعث من بين الأحراش أمام الكوخ فظن أن مرزوق يحضر عشاءه. اقترب فإذا بمبروكة تهرع لاستقباله بالشكوى. قالت انها عادت للتو من المستوطنة لأنها ذهبت لزيارته هناك فقيل لها أنه نزل إلى السوق. اعتذرت وطلبت أن يغفر لها لأن الربكة التي سببتها القيامة الأخيرة منعتها من أن تقدم له التعازي في وفاة العجوز. ثم عادت إلى البكاء وهي تغطي وجهها بردائها وتوليه ظهرها أعلنت أنها يئست من مرزوق وقدمت طلباً للقاضي في أن يسمح لها بالطلاق.

لاحظ الشيخ ثلاث سلال مصففة بجوار المدخل مليئة باللباس وأكوام أخرى تتناثر على الرقعة الفاصلة بين موقد النار ومدخل الكوخ.

جاءت ببطانية افترشتها بجوار النار ودعته للجلوس ولكنه تعلّل بطول المسافة إلى الوطن الجديد. تمشى خطوات حول النار ثم توقف وقال متأملاً ألسنة اللهب:

- سبحان الله. هل بلغ بينكما الخلاف هذا الحد؟

- طردني مرتين. وأشبعني ضربا بالعصا. ولم يكتف بهذا فطاردني بمطواة عازما أن يقطع رأسي!

- يا رسول الله!

- ولكن ربك قياد العفاريت. قيّد اللاقبي رجليه فاستطعت أن أفلت وألجأ إلى الجيران عند العين.

صمت الشيخ فاستمرت الفلاحة:

- نعتني بالعقم واتهمني بأني المسؤولة عن وفاة الطفل. لقد انهار تماماً يا سيدنا الشيخ ولم تنفع وفود المصالحة التي أرسلها أهلي. اللاقبي. اللاقبي بلع عقله إلى الأبد يا سيدنا الشيخ.

عادت تنشج فقال غوما يخاطب نفسه:

- «اللاقبي. لا أعرف من اخترع هذا المشروب الشيطاني!».

ثم وهو يهم بالانصراف:

- أين هو الآن؟

هنا نطقت بالخبر الذي نزل على الشيخ كضربة سوط من يد مدربة:

- بجوار عين الكرمة يواصل سكرته بقلب أم النخيل!

ذهل. هتف:

ـ أم النخيل؟
توقفت مبروكة عن النحيب ورفعت رأسها وهي تمسح دموعها:
ـ ألم تسمع بالخبر؟ لقد استغل إنشغالك بالهجرة في الأيام الماضية وذهب إلى النخلة. قطع الحبل الذي يشدها إلى النخلة الغربية فانهارت النخلة..
أصغى الشيخ ذاهلاً.
أضافت:
ـ إعتلى رأسها وجزّ الأعراف ووضع القلة لاستقبال السائل المسموم!
انطلق الشيخ نحو العين في خطوات سريعة. إخترق الأحراش الكثيفة التي تفصل حقله عن العين فأفزع في طريقه الحمام الذي آوى لإعشاشه مبكراً.
عمّ سكون تخرقه جوقة الجنادب التي لا تتعب من الغناء.
ارتفع القمر فألبس الغابة السحر والغموض. تناهى إلى سمعه صوت مرزوق وهو يتلعثم بأغنية:
طار الحمام صفقي يا وزة!
ردد البيت عدة مرات دون أن يضيف الشطرة التي اجتهد في تأليفها، ويبدو أن مداومته على معاقرة الخمرة أضعفت ذاكرته فنسيها.
وقف الشيخ فوق رأسه فسكت. حاول أن يتبين الشيخ فازدادت عيناه جحوظاً. لاحظ الشيخ جحوظهما في ضوء القمر. ثم تقدّم يتفقد النخلة الصريعة. سقوطها أدّى إلى تقطع أوصال الجذور. حتى الجذور التي ظلت متشبثة بالأرض في سقوطها الأول تقطعت وبرزت من التراب. كل جهوده ذهبت. شعر بالمرارة وهو يشاهد الفلاح السكران يتكىء على الشهيدة وهي تصلي نحو القبلة تضع رأسها البديع بين ساقي النخلتين الشرقيتين والنخاع ينزف من رأسها في قلة الشيطان!
قال الفلاح بصوت متهدج:
ـ من أرى؟ هل هذا شبح الشيخ غوما؟
ترنح إلى اليمين حتى كاد يسقط. أسند جسده الهزيل بمرفقه وجاهد للإعتدال في جلسته قبل أن يواصل:
ـ لا شك أن هذا شبح الشيخ. الأشباح أصبحت تحب التجوال في الغابة الأيام الأخيرة... هيء ـ هيء ـ هيء...
تجرع من القلة مباشرة وأضاف:
ـ الأشباح أصبحت تزورني ليل نهار. في صحوي وفي منامي.. لا أعرف لماذا. تدعوني لزيارة المرحوم في مقره الجديد في غابة الورود التي تطوف عليها

الفراشات الملوّنة..

تهدّج صوته وهيأ نفسه للبكاء.

أحس غوما بالغثيان وهو يصغي لهذيان مرزوق. تمشى جيئة وذهاباً. ثم توقف وألقى نظرة على جسد النخلة المسجى. إستدار وانطلق باتجاه بحر الرملة.

هجع السفح وخلد للراحة وإن تراءت أشباح بعض الشيوخ الذين يعانون من الأرق جالسين في ضوء القمر يتبادلون حواراً مختصراً أضعفه طول الجلوس.

في الصباح أرسل غوما في طلب أمود. أبدى آهر رغبته في مرافقته إلى الواحة ولكن الشيخ إستبقاه متعمداً.

علّق السوط في ذراعه تحت كم الجلباب وانطلق مع أمود إلى الغابة لتفقد الحقل. بحث عن مرزوق في الكوخ المهجور فلم يجده فتوجه إلى أم النخيل بخطوات سريعة جعلت أمود يهرول في مشيه كي يلحق به. أثارت حيوية الشيخ دهشته وإعجابه.

وقف الشيخ فوق رأس مرزوق. فرقع بالسوط الأسطوري في الهواء فخيّل لأمود أن لسانيه الشيطانيين رسما خطوطاً متعرجة كتلك التي يحفرها وميض البرق في السحب.

قال الشيخ وهو يتمشّى بجوار النخلة الطريحة:

- أوقظ هذا الوغد واربطه بذلك الحبل على النخلة.

في تلك اللحظة رفع مرزوق رأسه ونظر حوله في ذهول ثم أمسك رأسه بين يديه وصرخ بأعلى صوته:

- آه يا رأسي.. رأسي يتكسّر يا جماعة.

مد يده إلى القلة المنكفئة بجواره فوجدها فارغة. وقف أمود متردداً لحظات قبل أن يتقدم نحو مرزوق الذي بدأ يفهم ما يدور. قال وهو يزيح يد أمود ويستعطف الشيخ:

- إنتظروا يا جماعة. إمنحوني فرصة لمعالجة رأسي. دعوني أستدين ولو جرعة من اللاقبي من عبد الكريم.

زمجر الشيخ ملوحاً بالسوط في الهواء:

- أعطيتك فرصاً كثيرة أيها الزنديق. ولكنك خنت وتآمرت مع الفقيه المحتال. غفرت لك ولكنك تماديت. طردت امرأتك وطاردتها بالمطواة كي تقطع رأسها أيها الكافر! ثم.. ثم..

بلع الشيخ ريقه قبل أن ينطق الجملة الأليمة:

ـ ها أنت تفقد صوابك تماماً فتسكر بقلب أم النخيل! الآن سأعيد لك صوابك. جئت خصيصاً اليوم كي أعيد لك عقلك الذي طيره اللاقبي.

هتف مرزوق وهو يتنقل ببصره بينهما:

ـ إنتظر يا سيدنا الشيخ! حتى الموت يعطي راحة. لا إعتراض لدي على العقاب ولكن أمهلني كي أعدّل رأسي.

ـ رأسك سيعدله هذا! لن يعدّل رأسك فقط ولكنه سيطهرك يا كافر!

ـ لا حول الله. حتي الطليان كانوا يعطون الفرصة للمحكوم عليه بالإعدام كي يحقق رغبته الأخيرة. أنت مسلم يا سيدنا الشيخ.

ـ كنت مسلماً أما اليوم فأنا مخلوق آخر، ولن أهدأ حتى تنال عقابك يا زنديق!

إلتفت نحو أمود وصرخ:

ـ هيّا. ماذا تنتظر؟ ليس لدي وقت أضيعه في محاورة هذا الآثم.

تناول أمود حبل الليف وأمسك بالفلاح وبدأ يشدّه إلى جذع الشجرة. لم يقاوم مرزوق فهمس أمود في أذنه:

ـ جاء يوم الحساب يا مرزوق. ستكفّر الآن عن خطاياك.

قال الفلاح مسلّماً أمره له:

ـ أنت تشمت بالطبع. هذا يروق لك. تريد أن تنتقم لأني لم أنقذك من المشنقة في ذلك اليوم. آه.. الوجع. الوجع في رأسي لا يطاق!

إستمر أمود يستفز مرزوق وهو يربط الجسد إلى الجذع بالحبل:

ـ اعترف الآن كم خطيئة إرتكبت؟ قل لي بالسرّ كم ذنباً إقترفت يداك المتشققتان؟

صاح مرزوق:

ـ أشعر بالندم الآن لأن هناك ذنباً واحداً لم أرتكبه: كان يجب في ذلك اليوم أن أسقيك اللاقبي وأنت معلق بلا حيلة ولا قوة. لو ارتكبت ذلك الذنب لما وقعت تحت رحمتك الآن.

ضحك بعصبية وأضاف:

ـ كنت الآن قفزت إلى جواري وأخرجت لي قلة من جيبك وجلست تشاركني بدل أن تهجم وتقيدني إلى الشجرة! آه يا رأسي!.

إنتهى أمود من عمله فانهال السوط على جسد الفلاح. تمزق الثوب من الضربة الأولى، فأشاح أمود بوجهه حتى لا يرى الألم على ملامح مرزوق. ولكن

لدهشته سمع الفلاح ينفجر في ضحك متواصل دون أن يؤثر هذا السلوك الغريب في عمل الشيخ. استمرَّ يهوي بالسوط من وراء يده في حركة خفيفة تشهد ببراعته وخبرته الطويلة.

نظر أمود نحو مرزوق - الذي لم يتوقف عن الضحك - فرأى الدماء تغطي ظهره وتساقطت قطرات على الأرض فامتصتها الرمال العطشى.

صرخ مرزوق:

- لم أصدق يا سيدنا الشيخ عندما قالوا لي أنك أقسى من غراسياني. وإلاّ ما ضرّك لو سمحت لي بتناول جرعة من عصير الجنة أداوي بها رأسي الذي سينفلق الآن بين يديك إلى نصفين؟ ها - ها - ها...

أقبل جمع من الفلاحين. وقفوا في طابور بجوار أمود. راقبوا العقوبة صامتين.

همس أحدهم في أذن أمود:

- سوف يعاني من الألم في الغد. أما اليوم فجسمه مخدّر باللاقبي.

إلتفت نحو زميله ثم عاد يهمس في أذن أمود:

- توقعنا أن يعاقبه الشيخ بما هو أسوأ من الجلد بعد ما فعله بأم النخيل.

ولكن مرزوق استمر في ضحكاته وتعليقاته:

- حتى عزرائيل الجبار رق قلبه ووجد مبرراتي مقنعة فوافق على تأجيل العقاب عندما زارني منذ أيام. فلماذا لا تتنازل عن كبريائك مرة واحدة يا شيخنا؟

في تلك اللحظة غرق في نوبة طويلة من البكاء.

توقف الشيخ ومسح العرق عن جبينه وذهب إلى عين الكرمة كي يغسل السوط من الدماء.

رقد مرزوق عدة أسابيع على بطنه. أشفق عليه بقية الفلاحين فزودوه باللاقبي. إهتم به عبد الكريم وقام على خدمته طوال الفترة التي قضاها في الفراش. يأتي له بالمضغة والطعام ويعد له الشاي الأخضر ويشاركه الترفيه.

وفي إحدى السهرات ألح جمع من الفلاحين على مرزوق وطلبوا منه أن يحكي لهم قصته مع عزرائيل فقال وهو يبصق لعاب التبغ ويهيل عليه التراب أن عزرائيل زاره مع منتصف احدى الليالي وهو يجالس معشوقته القلّة فسأله مرزوق: ما الذي جاء بك إلى ديارنا في هذا الوقت المتأخر من الليل؟ فابتسم عزرائيل وأجاب بدهشة: وهل يمكن أن يكون لي هدف آخر غير قبض الأرواح؟ فقال مرزوق: ولكن لديّ الأن مشاغل لا تحتمل التأجيل وأخشى أنني لن أستطيع مرافقتك قبل أن أنجزها. فضحك الملاك حتى دمعت عيناه ووافق على تأجيل العقاب إلى أجل غير

مسمّى. ولخص مرزوق حكمته قائلاً: «عزرائيل كما ترون أرحم من الشيخ غوما. كان حلمي يومها أن أبلل حلقي بجرعة واحدة فقط!».

غرق الفلاحون في الضحك دون أن يعلم البؤساء أن عزرائيل لن يمهله طويلاً. بعد أيام وجدوا مرزوق مشنوقاً في رأس أم النخيل المدّلى بين ساقي النخلتين الشرقيتين المتقاطعتين.

الخلاص الثاني

(١)

آخر الخريف.

بعد مضي أسابيع تراجع الحر نهائياً وتوغل النسيم البارد في عمق الصحراء مدفوعاً بموجات الهواء التي تهب من الشمال.

إختفت العقارب وجاء منصور برجوج لزيارة أمود والإطمئنان على مصيره بعد أن انقطعت أخباره عن منصور بسبب العزلة التي عاشت فيها الواحة طوال فترة إنتشار الوباء. زرع الرعب في قلوب سكان الواحات الأخرى فامتنع التجار عن إمداد آدرار بالبضائع ووجد المسؤولون في عاصمة الصحراء المبرر كي يلغوا دوريات السيارات الرسمية إلى أجل غير مسمّى. أما الفترة التي سبقت ظهور العقارب فقد شهدت عهداً ذهبياً في تبادل الخطابات وإبلاغ التوصيات الشفوية بين أمود ومنصور. فاطمأن الأخير على مصير صديقه عندما عرف إنخراطه في الزراعة وظن أن البدوي سمع نصيحته، دون أن يعلم المصير الذي آلت إليه السانية. ولكن أمود لم يشأ أن يصدم زميله القديم عندما استقبله في السوق وقرر أن يطوف به آدرار كي يريه الواحة. بدأ جولته من ضريح سيدي الشنقيطي بجوار نقطة البوليس شارحاً لمنصور الدور النبيل الذي قام به هذا الولي القادم من بلاد شنقيط في التصدّي لطغيان القائمقام العثماني في الزمان القديم. ثم قاده من يده وصعد به الجبل ووقف قبالة المغارة وقال لرفيقه: «هنا يقيم العجوز الحكيم المعمّر المعروف ببراعته في قراءة الغيب رغم أنه رفض أن يقرأ لي مستقبلي».

في النزول سلك أمود بضيفه الطريق الجنوبي الذي يفضي إلى المقبرتين: القديمة والحديثة. وقف منصور ذاهلاً وهو يرى هذه المزرعة الهائلة من القبور، تنتشر على طول السهل حتى تبلغ اللسان الرملي الذي شيدته الرملة عند هبوب العاصفة الأخيرة.

قال بذهول:

- يا ربي تنجينا! هل هذه المقابر كلها ضحايا الوباء الأخير؟

وافقه أمود بهزة من رأسه وأشار بسبابته إلى العراء الرمادي الممتد جنوب لسان الرملة وقال:

- هناك كنا نستوطن قبل الجلاء، إلى بحر الرملة.

همّ منصور أن ينطلق لزيارة الأنقاض ولكن أمود أخذه من يده وتوجه به يساراً نحو الغابة قائلاً:

- المكان الآن محتل من قبل قبائل أخرى!

رمقه منصور مستفهماً فأضاف وهو يعدل من وضع لثامه على رأسه ويسرع الخطو:

- مسكون من قبل الجن!

شعر منصور بقشعريرة ولكنه أخفاها بابتسامة في حين استمر أمود يراقب زميله من فوق كتفه:

- ألا تصدقني؟ أنهم يعشقون الرماد ويحبون الإقامة بين الأنقاض والآثار. أينما وجدت حجراً قديماً فهناك تجد جنياً أو جنيين على الأقل. أما علاقتهم بالرماد فهي حميمة وخفية ولا يفهم سرّها سوى العجائز أمثال مهمدو ومعلمه الشنقيطي. زد على ذلك عشقهم للذهب. لا أخفي عليك أن الشيخ غوما أمر بالتجرد من الحلي والمقتنيات ومغريات الدنيا عندما دق طبول الهجرة إلى السفح فاضطر الرجال إلى تحرير نسائهم من جواهرهن وطمروها في التراب فهجم الفلاحون بعد الحريق طمعاً في الذهب فأعملت فيهم العقارب المختبئة تحت أنقاض الرماد سلاحها الشيطاني. وأرسلت ثلاثة عشر زائراً جديداً وامرأة واحدة إلى الدّار الأخرى.

بلغا أطراف الغابة المواجهة للجبل في الجانب الشرقي الجنوبي فنظر أمود في وجه منصور كي يرى تأثير قصته عليه. استمر:

- لم يكن هؤلاء البلهاء يعلمون أن الجن لا يتنازل عن كنوزه مهما طال الزمان فيستردها بمجرد أن يلامس الأرض، وقد سخّرت قبائل الجن يومها العقارب في

طرد الفلاحين واستعادة ثروتها الضائعة!

همهم منصور:

ـ أعوذ بالله من الشيطان!

ثم دفعه الفضول لأن يتساءل:

ـ هل إعتقادك راسخ بحق الجن في حيازة هذا المعدن النفيس؟

ـ الذهب ليس معدناً نفيساً. الأغبياء فقط يعتقدون ذلك. نحن نعتبره معدناً مشؤوماً تلاحق صاحبه اللعنة أينما حلّ. حيازته تشجع تلك القبائل الخفية في السعي وراءه وتتصيّد الفرصة لاسترداده. وهذا ما يجعل الصراع يحتدم والمؤامرات تحاك أينما وجد. الشيخ غوما على يقين أن هذا النحاس لا يجلب سوى النحس. قال لي مرة مداعباً وإن أخفى وراء هذه الدعابة نية جدية: «جرّب أن تضيّع قطعة من الذهب في الأرض وحاول أن تجدها مرة أخرى!». لا أخفي عليك أني أخذت الأمر بمأخذ الجد واختلست من أمتعة تالا خاتماً بديعاً كنت أهديته لها بعد عودتي من أغاديس وأخفيته في الرمل تحت الوتد. تركته حتى الصباح ومددت يدي أفتش عنه فلم أعثر له على أثر. لو لم أجرب بنفسي لما صدقت أبداً أن هذا يمكن أن يحدث.

صمت وهو ينكفىء فوق جدول أخضر مزروع بالبطيخ. قطع بطيخة كبيرة مستطيلة الشكل، حملها بين ذراعيه وجلس تحت نخلة باسقة. أخرج السكين لتقطيع البطيخ، قال:

ـ الآن يتردد في الواحة أن مقر إقامتنا القديم تحوّل إلى مستعمرة للجن. أنا شخصياً لم أر ولم أسمع ولكن عقلاء كثيرون يؤكدون أنهم سمعوا بوضوح أحاديثهم بالنهار ورأوا نيران مواقدهم بالليل. إن تصرفاتهم تدل على أنهم وجدوا المكان المناسب ولا ينوون التخلّي عنه في الوقت القريب.

ضحك أمود وتمتم منصور بآية الكرسي.

حافظت البطيخة على حلاوتها برغم حلول الخريف.

في الطريق إلى الرملة رافق أمود ضيفه مخترقاً به الغابة متجنباً المرور على السانية الجرداء متعمداً أن يفرّجه على أهم معالم الواحة: أم النخيل.

وقفا أمام الجذع الصريع المستند إلى النخلتين المتقاطعتين فقال أمود بخشوع:

ـ هذه هي جثة أم النخيل التي حدثتك عنها.

صمت لحظات ثم أضاف بحزن:

ـ هنا تعبّد الشيخ غوما في الماضي كما تعبد النبي في الغار، قبل أن تأتي العاصفة وتطيح بها. يعلم الله أننا لم نبخل بالجهد في إنقاذها ولكن الشيطان

همس في أذن مرزوق بأن يقطع رأسها ويصنع من مخها لاقبي يطفىء به حزنه على ولده.

إلتقط أنفاسه وأضاف بنفس الخشوع:

ـ رحمه الله. لقد عاقبته روح النخلة فوجدناه مشنوقاً بجوار قلته الكريهة!

في ذلك اليوم قرر أمود أن ينحر ذبيحة إستعارها من أحد الفلاحين، ويعد وليمة شواء إكباراً لضيفه، فاختار السبخة التي تشق الأرض في حدود الغابة المفضية إلى الرملة كموقع لتحضير الوليمة، لما لترابها من مذاق مدهش لخبز الملّة.

استطاع هذا المذاق ان يستحوذ على منصور حتى نسي نفسه وانهمك في إلتهام الخبز متجاهلاً اللحم الذي لم يذقه منذ شهور. أثنى على الخبز مراراً:

ـ لم أعتقد بوجود خبز شهي كهذا. يجدر بك أن تفتح مخبزاً. لا أشك في أن يفلس كل الخبازين في الواحة.

في الليل، تحت ضوء القمر، تجول أمود مع منصور في النجع، وطاف به المتاهة الرملية المجاورة، ثم صعدا الجبل الناعم وجلسا على القمة. تحدثا طويلاً، واستعادا ذكرياتهما في الطرقات فغرق منصور في الضحك مذكراً زميله بكفاحهم ضد الريح.

جاهد أمود في تجنب الحديث عن السانية.

وكلما تساءل الضيف عن وضعها وإنتاجها ونوع محاصيلها تجاهل أمود السؤال وقفز إلى موضوع آخر يعفيه من التورط. لم ير فيها سوى هزيمة أخرى تضاف إلى هزائمه السابقة. في تلك الليلة ابتسم لهما الحظ فوافق قيام الفتيات بتنظيم حفل ساهر إحتفاء بانتصاف الشهر واكتمال البدر، فقضيا ليلة ممتعة. في الصباح قال منصور برجوج لأمود وهو يودعه في ساحة السوق أن وقتاً طويلاً جداً سوف يمضي قبل أن ينسى تلك الحالة التي تملكته ليلتها كما سيذكر إلى الأبد ذلك الحزن الخفي الذي رآه في عيني أمود قبل أن يودعه.

عرف منصور أن حنين صديقه إلى الصحراء لم يخب رغم مرور كل هذا الوقت، وأدهشه أن أمود ما زال يمنّي نفسه ويحلم باليوم الذي يعود فيه إلى حياته القديمة في البرية.

استطاع منصور أن يقنع سائق سيارة شحن بأن يفسح له مكاناً فوق أكياس التمر في المؤخرة فوافق بعد مساومات.

أسندا ظهريهما إلى السور المحاط بالسوق ريثما ينتهي السائق من تفقد السيارة فصارحه أمود فجأة:

ـ أخفيت عنك الحقيقة: الواقع أن السانية ضاعت والحقل مات والجداول تشققت والنبات جف والشجر اصفر وذبل و... انتهى كل شيء.

تفحصه منصور مبهوتاً فهرب ببصره إلى الجبل وأضاف:

ـ قررت أن أهاجر إلى الواحات مرة أخرى ولكني رأيت حلماً منذ أسابيع جعلني أغير رأيي.

سكت لحظات ثم تساءل:

ـ هل تستطيع أن تخمن ماذا رأيت؟

ثم استمر دون أن ينتظر جواباً:

ـ ذلك اللسان اللعين الذي كافحنا ضدّه أسابيع. فيعود من جديد في كل مرة. غافلني هذه المرة أثناء النوم وجثم على صدري.

ـ لا ينبغي أن تستسلم للأوهام.

هكذا قال برجوج مشجعاً برغم درايته بإيمان أمود القوي بالأحلام وبنبوءات العرافين فصمت بمجرد أن تذكر ذلك.

قال أمود:

ـ في الليلة التالية عاودني الحلم وكذلك في الليلة الثالثة والرابعة ولم يتوقف إلا بعد أن استبعدت الفكرة.

منصور لم يجد ما يشدّ به أزر رفيقه عندما قال:

ـ بإمكانك أن تنضم لي في السانية في أي وقت.

استمر أمود كأنه لم يسمع الإقتراح.

ـ الآن لن أذهب إلى الشمال. لم يبق أمامي إلا طريق واحد.

أدار السائق المحرك فعلا هدير السيارة وأزفت لحظة الوداع فلم يعرف منصور برجوج شيئاً عن طريق أمود الوحيد الذي أشار إليه. ولم يكن ليحدس بنيّته المبيتة في التوجه جنوباً والتوغل في الصحراء متحدياً القدر الذي قرر أن يمد في عمر الجدب إلى أجل غير مسمّى. هب لتنفيذ نيته فأصرّت تالا أن ترافقه.

لم يبخل بالجهد والوقت كي يقنعها للتخلّي عن عزمها فزادها ذلك عناداً. سمع آهر بقراره فتطوع لمساعدته ودبّر له جملاً إبتاعه من قافلة متجهة إلى الشمال. قال له وهو يقدم له الرسن: «كي أوفر عليك المهمة وضعت على فخذه سيماء القبيلة. ما عليك إلا أن تطلق سراحه بمجرد أن تضع رحالك في وادي جعيفري».

أما الشيخ غوما فهتف باستنكار:

ـ وادي جعيفري؟

ثم اعتدل في جلسته وسحب لثامه حتى غطى أنفه ورفع رأسه وكلف الشيخ خليل بأن يقوم باستدعائه.

بادره دون أن ينظر إليه:

ـ بلغني أنك تنوي التوجه إلى وادي الجعيفري. هذه حماقة ولا أريد تقديم مبررات.

التفت إلى الشيخ آهر بجواره وأنبه بقسوة:

ـ بدل أن تخبرني بنواياه وتقوم بتقييد يديه ورجليه كما يليق بالحمقى تقدم له الرسن فما معنى هذا؟

صمت آهر أيضاً. ساد وجوم. عاد الشيخ يقول:

ـ هل تعتقد أن تقديم النفس قرباناً للسراب عمل من قبيل البطولة؟

دهش أمود. حبس أنفاسه وجاهد كي يسيطر على إنفعاله. أدهشه كيف استطاع الشيخ أن يقرأ خفاياه ويفهم سرّه.

حاول أن ينفي:

ـ لا أظن بعدم وجود الغزال أو الودّان في الجبال.

سخر الشيخ:

ـ الغزال؟ الودان؟ أنت تحلم. لو كان ثمة أثر للغزال والودّان في الصحراء هل كنت أتردد في الهجرة؟

انكب يخطط الأرض بسبابته:

ـ دعك من الطعام فأنت تستطيع أن تسدّ الرمق بالحشائش اليابسة ولو لبعض الوقت، ولكن ماذا بشأن الماء؟

ارتبك قبل أن يجيب:

ـ سأتزود ببعض القرب من بئر العطشان.

ضحك غوما بعصبية ثم التفت إلى آهر:

ـ قل لي بالله. ألا يحتاج إلى الكيّ بالنار في رأسه كي يستعيد وعيه؟

ثم وهو يحدجه بصرامة:

ـ المسافة بين بئر العطشان ووادي الجعيفري لا تكفي حتى لتغطية الطريق ولن تزيد في الكمية لأنك لن تستطيع أن تجبر الجمل على أن يحمل ثقلاً يفوق طاقته.

أنصت أمود في ذلك اليوم لصياح الأهالي وهم يسيرون في طوابير طويلة كجيوش النمل يحملون حزم الجريد من الغابةوينكبون علي بناء الأكواخ إستعداداً

لإستقبال الشتاء.

تخيل نفسه يغيب في زحمتهم ويضيع بينهم فتحجب عنه جلبتهم وصخبهم صوت الشيخ غوما، فيهرب من أمامه ويتخلص من هذه المواجهة القاسية لينفّذ ما عزم عليه.

وجد نفسه يقول:

ـ ماذا أفعل ولسان الرملة الملعون يعترض طريقي كلما حاولت أن أرفع رأسي وأيمم شطر الواحات؟

رمقه الشيخ بغضب ثم نهض ومشى باتجاه الغابة. أما آهر فظل يحدجه بفضول من تحت لثامه ثم سأله وهو يبتسم:

ـ ماذا دهاك؟ هل تهذي؟ الشيخ يحدثك عن المخاطر وأنت تتحدث عن لسان الرملة.

بعد يومين جاءه الشيخ خليل وطلب أن يتحدث إليه على إنفراد. قال له أن الشيخ يعرف مدى صعوبة إقناع الأم في أن تتنازل عن طفلها ولكن العقل يجب أن ينتصر على العاطفة في هذه الحالة وهو ـ أي الشيخ ـ يعتمد في ذلك على حكمته وقوة إرادته في إقناعها كي تترك الطفل في رعايته شخصياً. أدهشته فراسة الشيخ وأيقن أنه اكتشف سرّه. سأل خليل وهما يقفان تحت السفح بعيداً عن الأكواخ التي لم يكتمل بناء أغلبها:

ـ هل استعمل الشيخ كلمة «تتنازل»؟

استغرب الشيخ فحدق في وجهه ثم سارع يغطي بلثامه تلك البقعة القبيحة التي تركتها الحروق في خدّه الأيمن. قال:

ـ أؤكد لك أنه استعمل الكلمة بالحرف إذا كان ذلك يمكن أن يعني شيئاً.

خاطب نفسه بصوت مسموع: «الشيخ غوما لا تخفى عنه خافية».

رفع الشيخ خليل نحوه نظره مستفهمة ثم ابتسم فجأة عندما عرف أنه يخاطب نفسه، ويبدو أنهم تعودوا على غرابة أطواره ولم يعودوا يدهشون كثيراً لتصرفاته في الأيام الأخيرة.

قال أمود:

ـ بلّغ الشيخ أني سأبذل جهدي لإقناعها.

ودّعه فلاحظ أن الإبتسامة الغامضة ما زالت تومض في عيني الشيخ.

بعدها لم ير الشيخ خليل أبداً. بل لم ير أحداً. أجلس تالا على الجمل وانطلق في ظلام الفجر حتى لا يضطر أن يودع أحداً ولكنه فوجىء بشبح الشيخ

غوما يعترض طريقه عند أطراف الغابة الغربية.

شيّعه صامتاً فأضفى الصمت على موقفهما جلالاً. رافقه حتى بلغا نهاية الوادي فتوقف الشيخ فجأة. قال وهو يعبث بالمسبحة ويشير برأسه نحو تالا فوق الجمل:

- طمأنها إلى أن طفلها سيكون في أيدٍ أمينة.

قال أمود مطأطىء الرأس:

- لا أشك في ذلك أبداً.

تبادلا نظرة طويلة فسحب الشيخ طرف لثامه العلوي وأنزله على عينيه.

انطلق أمود يقود الجمل وراءه. قطع مسافة طويلة في العراء قبل أن يلتفت ويرى شبح الشيخ يقف وحيداً في المتاهة ملفوفاً بالصمت والوجوم.

(٢)

ما أن تماثل مهمدو للشفاء حتى أعلن الحرب على باتا. وسوف تظل الواحة تذكر تلك الأحداث طويلاً. بدأ العرّاف في ذلك اليوم التاريخي بإدخال تعديل في برنامجه اليومي. فبدل أن يطوف الواحة في جولته الصباحية توجه من فوره إلى ضريح سيدي الشنقيطي، يحمل ديكاً ناصع البياض أيقظ بصياحه الأهالي.

ويقال ان العرّاف تعمد اختيار الديك الأبيض كي يرضي عنه معلمه الأول الذي عرف عنه حبه للون الأبيض. ورووا أساطير مختلفة عن سرّ عشق الولي الشنقيطي لهذا اللون فقالوا انه لا يتفاءل بلون سواه ودللوا على صحة كلامهم بالحمارة البيضاء التي لم تشهد الصحراء مثيلاً لها. فتحدثوا طويلاً وبحثوا عن الرمز الذي يمكن أن يفسر هذا السر وانتهوا إلى أن اللون الأبيض ما هو إلا تعويذة. وتأكدوا من ذلك وهم يرون مهمدو يجلس إلى الضريح في ذلك اليوم وينحر الديك الأبيض ويرش الجدار بدمائه ويمكث هناك يقرأ تعاويذه حتى المساء.

مع الظلام احتدمت المعركة في المغارة وسمع سكان البيوت المجاورة الجلبة والصراخ. فتذكر المعمّرون الضجيج الذي أثاره العرّاف بتلك العلّة التي يسميها «تامزا».

استمر الصراع عدة ليال. فنتج عن ذلك تغير ملحوظ في نظام حياة مهمدو الصارم: يهجع للنوم بالنهار ويسهر محاوراً أشباحه بالليل.

ثم فوجئوا بزيارة مباغتة قامت بها «ابنة الشيطان» إلى المغارة آخر الليل. فقال الأهالي أن مشادة كلامية حامية نشبت بينها وبين العرّاف، تطورت إلى تنابز بالألقاب وعراك بالأيدي. وفي رواية أخرى أن باتا طاردت العجوز وهي تشهر مدية فظيعة من النوع الذي تعوّد التبو أن يغدروا به أعداءهم ويطعنوهم من

الخلف. ومال الكثيرون من أبناء القبيلة لتصديق هذه القصة نظراً لعلمهم بأن هذه المرأة قد استعارت هذه العادة من زنوج بلاد آير فحرصت دائماً على إخفاء مدية تحت ثيابها مثبتة بطوق من الجلد على معصمها. وقيل يومها أن العجوز أنقذ نفسه من الطعنات ببندقيته القديمة التي ما يزال يدسها في كهفه منذ اشترك بها مع الشيخ المراكشي في مقاومة الغزاة الطليان عند توغلهم في الصحراء. وبلغ الحماس ببعض الرواة أن أكدوا سماعهم طلقة نارية شقت سكون الليل. في حين سارع البعض لنفي هذه الرواية وقالوا ان مهمدو إكتفى بإشهار السلاح في وجه المرأة فأطلقت ساقيها للريح. وحاز هذا الإحتمال على تأييد بعض وجهاء الواحة الذين قالوا ان هذا التصرف من جانب العرّاف يتفق وفلسفته التي تقول ان الرجل النبيل لا ينبغي أن يطلق النار على السفهاء، لأن ذلك يجعلهم يفاخرون باتخاذه نداً فيبدون أبطالاً، وكي يفوت الفرصة ويحرمهم البطولة عليه أن يكتفي بإرهابهم ويقال ان مهمدو استعار هذه الفلسفة من الشيخ غوما. وفي رواية أخرى أن غوما هو الذي استوحاها من العجوز الحكيم.

وقبل أن تسقط باتا فريسة الدمامل التي غطت جسدها. ورأت فيها القبيلة وباء جديداً خطيراً يهدد كيانها بالفناء كما هددتها العقارب في السابق. وضعت مولوداً ذكراً له ملامح ثعبان فحمد كل من رآه الله أن هذا المسخ ولد ميتاً ولم تكتب له الحياة.

ولم يكن الشيخ غوما ليصدق هذه الخرافة لو لم يأته آهر في إحدى الأمسيات ويحدثه عن ما رأى في الغابة. قال انه كان حاضراً عندما تجمع حول الوليد الميت عدد من الفلاحين وأخرجوه من السلة ملفوفاً في قطعة من القماش وما أن كشفوا عليه حتى وجدوا أمامهم ذلك المخلوق المسخ المشابه للثعبان فألقوا بالسلة وتفرقوا هاربين. قال آهر ذلك ثم انسحب فجأة من الجلسة وسمعه غوما وهو يتقيأ في العراء.

وبرغم أن باتا لم تخبر أحداً بأنها حامل إلا أن صديقاتها المقربات لاحظن ذلك منذ شهور.

عقب تلك المشادّة الليلية بين باتا ومهمدو (وهي مشادة أطلق عليها بعض الخبثاء «المبارزة») سقط العجوز صريع الحمّى. زاره الشيخ بعد الظهر فوجده يهذي ويتقيأ تحسس جبينه فوجده يغلي. نزل الجبل وتوجه إلى الغابة الغربية واستدعى له مبروكة كي تتولآه بالرعاية.

صارع مهمدو المرض والوهن بضعة أسابيع ثم شعر بالتحسن فعاد إلى

برنامجه العادي ورآه الأهالي وهو يخرج في جولته الصباحية فرددوا أن العرّاف حقاً مخلوق خالد!

وبرغم أن المرض أثر في هيئة العجوز فازداد نحافة وضموراً إلا أنه لم يفقد حيويته ومزاجه الرائق خاصة في تلك اللحظات التي يتسامر فيها مع الشيخ غوما حول شاي العشية.

جاءه اليوم بعد صلاة العصر.

جلس في الخلوة المقابلة للمغارة فنهض العجوز وافترش له حصيراً ودخل إلى المغارة وعاد بطبق تمر. قال ان مبروكة زودته بما يكفي لشهر. ثم دخل مرة أخرى وأتى بأدوات الشاي.

قال وهو يوقد النار ويتربع على التراب.

ـ أبشر يا شيخنا؟ اليوم أستطيع أن أقدم لك عربون صداقتي وألقي بجثة الغول تحت قدميك.

ابتسم غوما وأضاف العرّاف:

ـ إنها جنية يا شيخ غوما. إنها جنية قوية كادت تودي بي إلى العالم الآخر. الآن عرفت أنها لم تكن «ابنة الشيطان» كما يسمونها في قبيلتكم وإنما هي الشيطان نفسه!

بدأ الشيخ يبني مدنه الخيالية على الأرض. قال:

ـ لقد وصفتها بتعبير يوماً ما راق لي كثيراً. قلت انها «سفيهة». والحق أن تعبيرك أنقذها من السوط وأنقذني أنا من تلويث يدي. قلت لنفسي يومها أنه من غير اللائق أن يتحارب الرجل مع السفهاء خاصة إذا كان هذا السفيه امرأة!

أغرق العجوز الكؤوس في وعاء كبير مليء بالماء. قال بحزن:

ـ لم أتوقع أن يكون أحد في قوة تامزا التي ساقتني إلى القبر. وبرغم أني لا أدعي الكمال إلا أن السنوات التي تفصلني عن تلك التجربة القاسية مع الجنية الزنجية زودتني بالخبرة التي نكتسبها بحكم الزمن وبحكم الممارسة إلا أن ذلك لم يشفع لي في صراعي مع باتا ولا تريدني بعد هذا أن أرى فيها الشيطان الرجيم بلحمه ودمه وقرنيه البشعين؟

استمر غوما يهندس مدنه على الأرض:

ـ أسوأ ما في المرأة أنها لا تنسى الإساءة. لا أنكر أني وعدتها بالزواج يوماً ما ولكن بحثي حال دون التنفيذ. كنت طائشاً وهربت إلى الواحات باحثاً عن «الجوهرة» بين دفوف الطرق ولم أكن أعلم بالطبع أن هذه «الجوهرة» في متناول

اليد. إنها «هنا» داخلنا وليس «هناك» خارجنا. وطبيعي أن أتعرض لحرق الجمر قبل أن أفوز بهذه القناعة البسيطة.

تأججت النار في الحطب فعقب العجوز:

- القناعة بسيطة ولكن الوصول إليها يمر عبر جهنم التي ترفض أن تعطيك «الجوهرة» دون أن تحرق قلبك. المعرفة في قاموسنا نحن العرافين مرادف للنار الموقدة!

من خلال الجريد المكوم فوق أسطح البيوت تصاعدت أعمدة الدخان وأعقبتها روائح البصل المقلي.

لف الواحة ذلك السكون الذي يسبق الغروب فتتضخم الأصوات حتى يمكن تبين حوار الفلاحين في أقصى الغابة.

قال الشيخ وهو ينشغل بتشييد مدينته:

- هذا ما لم يفهمه أمود وهو يندفع في الصحراء الخالية بحثاً عن الربيع.

- كنت أعلم أنه سيفعل ذلك.

صمت العرّاف وثبت الوعاء فوق الجمر قبل أن يضيف:

- طلب مني أن أقرأ له الغيب قبل أن يتوجه إلى الواحات الشمالية فرفضت. قال انه يريد أن أفسّر له جملة غامضة أخبرته بها عرافة من أغاديس فتهربت. الحق أن العرافة قديرة وتعرف فأصدقته القول عندما حذرته من المعركة الأخيرة. وما هي هذه المعركة غير النفس التي رأتها تلك المرأة الحكيمة تومض في عينيه الوديعتين الشقيتين؟

- هل تريد أن تقول انه ضعيف الإرادة؟

- ليس تماماً. كل من يفقد السيطرة على زمام إنفعالاته يعرض نفسه للخطر. ذلك يقود إلى التطرف. نحن العرافون نعتبر أمثاله أول المرشحين لإلقاء السلاح تحت أقدام الإنتحار، فتتحول الفكرة الطائشة إلى لعب بالنار!

- يا له من غر!

- إنهم يشعرون بنشوة لا توصف عندما يغازلهم شبح الموت! الشباب ميال إلى إغراء المجهول. وهذه الحالة تجتذبهم إلى الموت كما يجتذب اللهب الفراشة.

صمت لحظة قبل أن يضيف وهو يرمق الشيخ بنظرة ذات معنى:

- أنت لا تستطيع أن تغفر له لأنك ترى فيه نفسك.

توقف الشيخ عن بناء مدنه وحدج العراف بنظرة غامضة.

قال العجوز موغلاً في وضع النقاط على الحروف:

ـ أمود هو غوما شاباً!
صمت الشيخ طويلاً قبل أن يعلن في تمتمة خافتة:
ـ ربما!
ثم مسح مدينته عن وجه الأرض ورفع رأسه نحو الأفق الملفوف بشفق حزين رسمه قرص الشمس.
في تلك الليلة وجد الوجهاء والشيوخ ما زالوا ساهرين في العراء ينتظرون عودته.
أخذه آهر على انفراد في العراء وقال له: «الجماعة يريدون إبعاد باتا. إنهم ينتظرون إشارتك». ولكن غوما كان قد جهز القرار. قال: «إذا وافقت على إبعادها قالوا نفاها غوما لأنه يريد أن ينتقم منها ويصفي الحسابات القديمة. أنا أرى أن تعزل حتى يكتب لها الشفاء».
خوف الناس من الوباء أعطى الحق لغوما لعزل باتا بتقييدها بالحبال وشدّها إلى الأرض بالأوتاد. ولكن التجربة أثبتت بسرعة عدم جدوى هذا الأسلوب إذ استطاعت الجنية ـ دون أن تبذل على ما يبدو جهداً كبيراً ـ أن تحرر نفسها وتفلت من قيودها. أمر بشدّ المرأة إلى جذع نخلة في الغابة بأمتن الحبال فجاء آيس وحل وثاقها. غضب الشيخ فأمر بتقييد حفيده إلى جذع النخلة المقابلة، فوجدوا أن السجينين استطاعا الافلات مرة أخرى والهرب إلى أحراش الغابة الغربية. اعتقلهما الشيخ وعزلهما عن بعضهما وجلس مع الشيخين آهر وخليل يفكر في حل يدفع شرّ هذه الشيطانة عن القبيلة. أقبل الحكيم الضرير المتخصص في داء الحيوان فأشار عليهم ببناء سجن من قوالب السبخة مكوّن من دارين مفصولتين يضمن عزل الزوجين.
أوكل الشيخ لآهر مهمة بناء المعتقل وتولى إعداد قوالب الملح يساعده بعض الفلاحين المقيمين في الأحراش المجاورة لعين الكرمة. ولما كان الناس يرتعدون رعباً بمجرد سماع كلمة وباء فإنهم تكاتفوا وانخرطوا في العمل بحماس كي يتسنّى لهم أن يروا الجنية الموبوءة بين جدران الحبس في أسرع وقت وهم يشجعون أنفسهم بالأغاني الجماعية والأهازيج الوجدانية ويرددون بين الحين والآخر: «ما صدقنا وتخلصنا من وباء العقارب حتى تأتينا إبنة الشيطان بالجدري!». وقد كثر اللغط عن نوع الوباء فقال بعضهم أنه الجدري ومضى آخرون إلى أنه الطاعون وتطرف طرف ثالث فادعى أنه نوع جديد من الأوبئة جاءت به الملعونة من آير. الشيخ غوما فقط حسم الأمر ووضع حداً للقيل والقال عندما قال: «طاعون أو

جدري أو بلاء أزرق. المهم أن تكفلوا سلامة القبيلة وتحبسوا الجنية».
ويقال ان باتا أخفت في البداية مرضها حتى على آيس. فقضت عدة أيام وهي تستر وجهها بلحافها. استمر الأمر عدة أيام عندما بدأت الدمامل الفظيعة تتحلل على وجهها وجسدها وفاحت بروائح كريهة لا تقل فظاعة عن الدمامل نفسها!
وروي عن الشاعرة تاناد أنها قالت تسرد قصة افتضاح باتا: «رجعت بالماء من عين الكرمة عندما رأيت النساء تتجمعن حول إحدى جارات باتا يرششن الماء على وجهها بعد سقوطها مغشياً عليها عند رؤيتها للدمامل، وما أن وصلت المكان وتساءلت عما حدث حتى استقبلتني الرائحة الكريهة».
ووصفت ما فعلته الدمامل القبيحة بوجه باتا الجميل فقالت: «أصبح وجه باتا أشبه بوجه تلك الغولة التي وصفتها العجائز، فابتلعت الدمامل بهاءها وغطت عينيها وزحفت على الوجنتين وأكلت الجبين وتحوّلت المرأة التي كان يضرب بها المثل في الجمال إلى شبح يصلح لإفزاع الصغار والكبار».
وطوال ذلك الوقت كانت باتا تتفوه بسباب لم تسمع القبيلة بمثله من قبل، فتدور بين الأكواخ الجديدة جاحظة العينين، عفنة الرائحة، تصرّ على أسنانها كالوحش وتوزع الشتائم الفظيعة على عابري السبيل فأيقن الجميع أن المرأة جنت.
شيّد الرجال قلعة الملح في العراء الممتد بين الغابة وشاطىء الرملة فوق بحيرة السبخة وأودعوا فيها السجينين في الوقت الذي بدأت تظهر فيه أعراض الدمامل على وجه الصبي التعس.
قلق غوما على مصيره فبحث عن المراهم ومستحضرات الأعشاب لدى عطاري الواحة الذين أجمعوا على عدم فعالية الأعشاب في علاج الأمراض التي لها علاقة بالسحر. وتجرأ أحدهم وصارحه قائلاً: «نحن لا نتدخل في شؤون مهمدو. إذا دخل من الباب خرجنا من النافذة، وإذا تسلل من النافذة هربنا من الباب!». ولم يقتنع الشيخ إلا بعد أن قام بتجريب الأمر بنفسه فأعطى المستحضرات لآهر - الذي تولى أمر السجينين - وطلب منه أن يجبر الولد على استعمالها فقام آهر بدوره بتمرير الدواء من الكوة المفتوحة في سقف الجريد وأنزلها إلى آيس بحبل الليف وأخبره بطريقة استعمالها. ولا أحد يستطيع أن يقطع بعدم جدوى الدواء طالما لم يتأكد أحد من مشاهدة آيس وهو يتناوله، بل وجد من جزم من الشبان بأنه رأى هذا المعاند يدلق المراهم في التراب تحت جدار الملح.
وطاب للنساء في تلك الأثناء أن يزرن باتا في قفصها وهن ذاهبات إلى العين أو عائدات منها، فيتسلقن السلم المعدَ من جذوع النخيل ويصعدن إلى السطح

ليتفرجن على السجينة وهي تدور بين الجدران كاللبوة، عارية الرأس، ذابلة القوام، مشعثة الشعر يعلو شفتيها الزبد ويطل الجنون من عينيها وما أن تحس بعيون أترابها من فوق حتى ترفع قبضتها مهددة ويتدفق فمها بالعبارات البذيئة التي «يستحي الشيطان نفسه من سماعها».

ويقال أن الصهد المنبعث من جدران الملح ساهم في جنونها حيث يتصاعد البخار الذي يكوي الجروح في جسدها فتظل تعوي في الليل كالذئبة.

وقد سمعت أم عارف فجاءت من آخر الدنيا وتسلقت السطح ليلاً وبصقت على رأس باتا من الكوة، وفي رواية أخرى أنها تبولت عليها انتقاماً لأبنها الذي أرسلته باتا إلى الدار الآخرة ثم رفعت كلتا يديها إلى السماء، وسبحت بحمده قائلة: «الحمدلله الذي فتح أبواب السماء واستجاب لدعائي وسخر عبده العظيم مهمدو لتنفيذ مشيئته في الشيطانة». ونزلت من السطح وارتدت نعليها المضفورين من السعف وتوجهت من فورها إلى ضريح سيدي الشنقيطي ونحرت تحت الجدار كبشاً في حجم حمار قرباناً للولي الصالح.

في النهاية بعد مرور سبعة أسابيع أطلق سراح السجينين من المعتقل بحضور الشيخ آهر.

ولأول مرة يجمع الجميع على رواية واحدة. فقيل أن الزوجين وقفا طويلاً متواجهين يحاولان أن يتبينا بعضهما بسبب المدة الطويلة التي أمضياها في الظلمة. وما أن ميز آيس وجه باتا الأبلق البشع حتى قفز من عينيه الفزع وتراجع إلى الوراء ثم تقيأ على الأرض قبل أن يصرخ وهو يشير بأصبعه: «غولة! غولة! غولة!». كررها عدة مرات ثم انطلق يجري واختبأ في أحراش الغابة.

مكث هناك عدة أسابيع. متجنباً الفلاحين، هارباً من الاختلاط بالناس. ويبدو أنه ملّ العزلة فذهب إلى فضل الله درهوب وطلب منه أن يخبر الشيخ آهر برغبته في الاجتماع إليه.

قابله في ساحة السوق وقال له دون مقدمات: «توسط لدى جدّي في أن يغفر لي». هلل الشيخ آهر وسارع بالبشرى لغوما ولكن آيس لم ينتظرالجواب فجاء في نفس اليوم إلى جدّه وهو يجالس آهر وخليل في ظل الكوخ عند العشية. رأته امرأة آهر فألقت بطبق الشاي على الأرض ووضعت يدها فوق أنفها وأطلقت زغرودة بهيجة احتفاء بخلاصه من السحر الأسود المستورد من آير..

فطافت المسكينة بالأكواخ وهي تردد: «حرمني الله من الأطفال طويلاً وها هو يعوضني باثنين مرة واحدة: ابن أمود وحفيد الشيخ غوما».

أما باتا نفسها فقد أقامت وحيدة في كوخ يقع في طرف المستوطنة الغربي، تقفل بابها على نفسها طوال النهار هرباً من عيون الناس التي تذكرها بقبحها ولا تخرج إلا في الليل كالوطواط حتى أصبحت «غولة» حقيقية تهدد بها الأمهات أطفالهن المعاندين الذين يرفضون الإيواء إلى الفراش مبكراً.

موسكو
نوفمبر ١٩٨٧ ـ مارس ١٩٨٨ م

الهوامش والملاحظات

(١) تمبا: نعل مفلطح الشكل يصنع من جلود الجمال ويزين بألوان زاهية.

(٢) .. كما مزقت تانس ضرتها الشريرة: تقول الأسطورة أن تانس عاقبت ضرتها - التي حاولت قتلها بوضع صخرة على شعر رأسها في الوادي - بربطها إلى ذيلي جوادين يقودهما مجنونين أحدهما ذهب شرقاً والآخر غرباً فتمزق جسد الضرة إلى نصفين.

(٣) بلاد السودان: يطلق هذا الإسم على أواسط افريقيا.

(٤) امزاد: آلة موسيقية وترية تتخصص النساء في العزف على وترها الوحيد.

(٥) تيفيناغ: أبجدية الطوارق.

(٦) تجولموست: قطعة قماش مصبوغة باللون الأزرق تصنع خصيصاً في كانو بنيجيريا وليون بفرنسا.

(٧) طاري: نوع آخر من القماش المصبوغ بالزرقة.

(٨) الطرونة: نوع من الأملاح المستخدم في تطعيم المضغة ويستخرج من منطقة بحيرات «الدوادة» الواقعة بين أوباري وسبها بجنوب ليبيا.

(٩) الترفاس: نوع من الكمأ الذي ينمو في مناطق الحمادة الحمراء.

(١٠) الودان: وعل الصحراء الذي يعيش في المناطق الجبلية.

(١١) الخضوري: نوع من التمور النادرة.

(١٢) اللاقبي: عصارة النخيل التي تتحول إلى خمر بتعريضها للشمس.

(١٣) بلاد شنقيط: موريتانيا حالياً.

(١٤) تامزا: الغولة.

(١٥) القبلي: الرياح الجنوبية اللافحة التي تهب على الصحراء في فصل الصيف.

(١٦) لاضوي - تافسرت - تاليس: تمور منطقة فزان الفاخرة.

(١٧) المصالح المشتركة: هيئة تابعة للنقطة الرابعة الأميركية قامت في الخمسينات والستينات بدور مشبوه في الدول النامية من خلال مساعدات القمح التي تقدمها.

(١٨) المقصود هنا نهر النيجر.
(١٩) المدية البتاوية: هي سلاح قبائل التبو التشادية في محاربة الأعداء.
(٢٠) غراسياني: الملقب بـ« جلاّد فزان ». جنرال فاشستي أشرف على مذابح الليبيين في العهد الايطالي.

الواحة هي الاستقرار، غير أن في الاستقرار عبودية، تشدّ إلى الأرض والبيوت والأشياء، وفي نظر الصحراوي أن كل تلك أمورٌ صنعها الناس بأنفسهم ثم عبدوها مسمّين عبوديتهم استقراراً.

تخرج الواحة إذن من معناها التقليدي وتغدو للصحراوي مقدمة لتنازل عن الحرية. أمّود يترك الواحة ويذهب للموت في الصحراء، أما الباقون الهاربون من لعنة العطش بعد نضوب بئر اطلانتس فتحلّ عليهم عذابات أشد وأقسى. المطر لا يهطل، والعقارب السوداء تهاجم الواحة، وزعيم الواحة يتآمر على الشيخ غوما، وباتا تسرق آيس، ويضطر الناس الى الهجرة من الواحة من جديد.

كل ذلك في خلفية من أحداث ترتبط بالاستعمار العثماني وبداية الاحتلال الإيطالي وتأثيرات هذه الحوادث على الواحة والقبيلة.

تاسيلي للنشر والاعلام

دار التنوير للطباعة والنشر

علي مولا